TRANSFORMATION

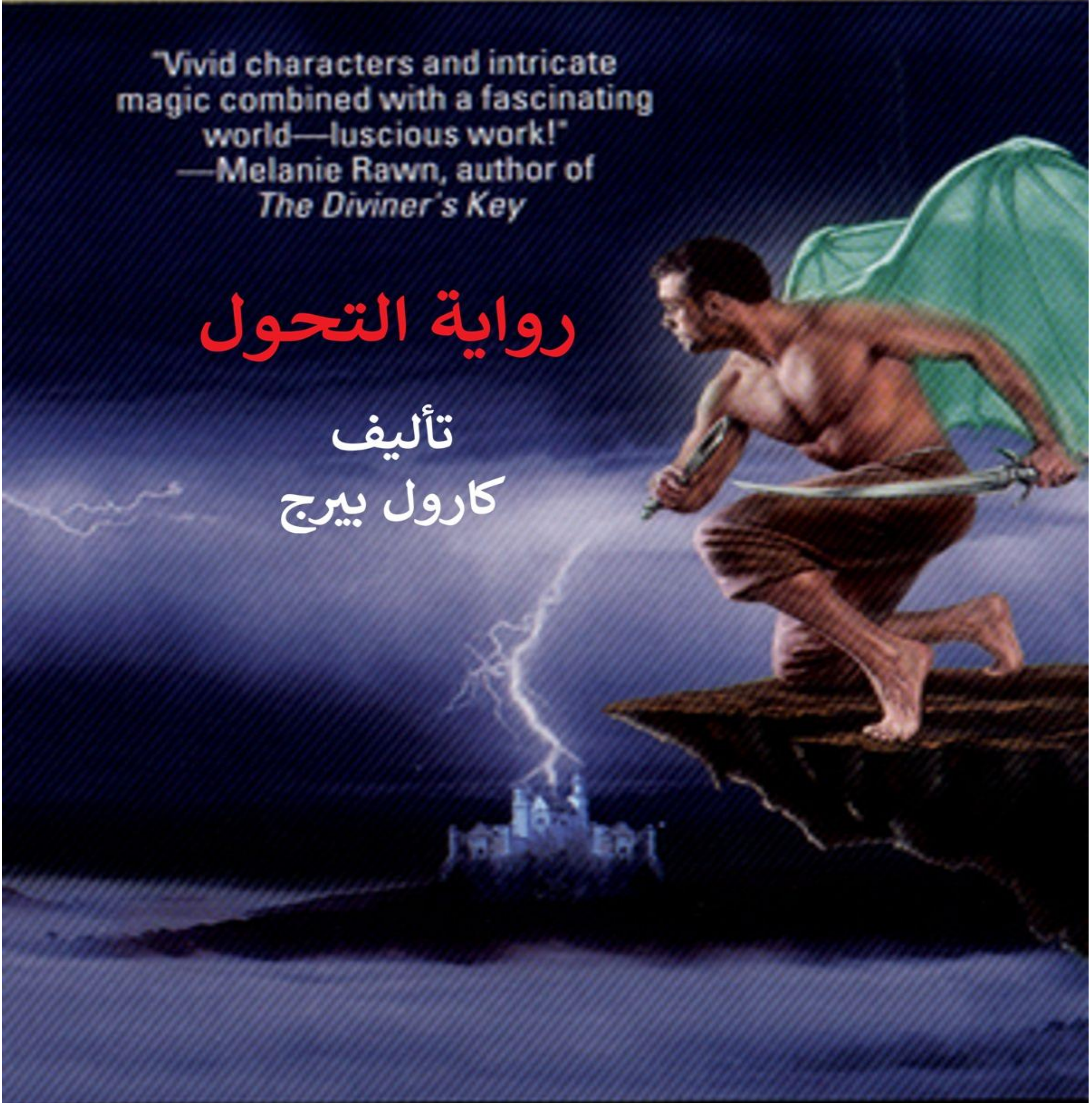

CAROL BERG

RoC

رواية التحول

كارول بيرج

شخصيات نابضة بالحياة ومعقدة

السحر ممزوجًا بجاذبية

الفصل الأول

يقول أنبياء إزاريا إن الآلهة تخوض معاركها داخل نفوس البشر، وإذا لم تُعجبها ساحة المعركة، فإنها تُعيد تشكيلها وفقًا لإرادتها. وأنا أصدق ذلك. لقد رأيتُ معركةً كهذه، وإعادة تشكيلٍ كهذه، لا يمكن أن تحدث إلا بتدبيرٍ من الآلهة. لم تكن روحي هي المعنية - شكرًا لفردون وفالديس وأي إله آخر قد يتنصت على هذه الرواية - لكنني لم أبقَ على حالي.

كان ولي العهد ألكسندر، حاكم أزهاكستان وسوزين، وكاهن آثوس، وحاكم باسران وثريسي ومانجانار، ووريث عرش الأسد في إمبراطورية ديرزي، ربما أكثر الشباب وقاحةً وسذاجةً وبخلاً وغرورًا ممن جابوا صحاري أزهاكستان. منذ لحظة لقائنا الأول، حكمت عليه بذلك، مع أنني قد أقول إنني كنت متحيزًا. عندما يقف المرء عاريًا على منصة بيع العبيد في ريح باردة كافية لتجميد مؤخرة شيطان، فمن غير المرجح أن يكون لديه انطباع عادل عن...

أي شخص.

ورث الأمير ألكسندر ذكاء وقوة عائلة ملكية حكمت إمبراطورية متوسعة باستمرار لخمسة قرون، وكانت من الذكاء بحيث لم تُضعفها الزيجات الداخلية أو الفوضى الداخلية. احتقر نبلاء الدرزي الأكبر سنًا وزوجاتهم عدم احترامه لهم، حتى وهم يُقدمون له بناتهم في سن الزواج. أما النبلاء الأصغر سنًا، الذين لم يكونوا مثالًا للفضيلة، فقد وصفوه بالرجل النبيل نظرًا للحفلات الباذخة التي كان يسمح لهم بحضورها، مع أن هذا الرأي كان يتغير غالبًا عندما يصطدمون بنزوات الأمير وسرعة غضبه. رأى قادة جيش الدرزي أنه جدير بالثقة، كما يقتضي نسبه، مع أن الشائعات تقول إنهم كانوا يُجرون قرعة فيما بينهم، ويُجبر الخاسر على خدمة الأمير المتهور والعنيد كمساعد عسكري. بالطبع، لم يُسمح لعامة الشعب بإبداء رأيهم في هذا الأمر. وكذلك العبيد.

قال الأمير لتاجر الرقيق السوزيني بعد أن فحص أسناني وضغط على عضلات ذراعي وفخذي: "أتقول إن هذه تجيد القراءة والكتابة؟ كنت أظن أن نساء إزاريا فقط هن من يتعلمن القراءة، وذلك فقط لفك رموز الجرعات والتعاويذ. لم أكن أعلم أن الرجال مسموح لهم بذلك." ثم، بينما كان يضغط على أعضائي التناسلية بسوطه، انحنى نحو رفاقه وأبدى آراءه الفكاهية المعتادة حول مسألة خصي عبيد إزاريا. "غير ضروري على الإطلاق. الطبيعة تتكفل بذلك عندما يولدون رجالاً في إزاريا."

قال سوزيني المتملق، ولحيته المنسوجة بالخرز تصدر صوتاً خفيفاً وهو يثرثر: "أجل يا سيدي، إنه يجيد القراءة والكتابة. يتمتع هذا الرجل بالعديد من الصفات الراقية التي تجعله مناسباً لخدمتك. إنه مهذب ومؤدب للغاية بالنسبة لرجلٍ بدائي. يستطيع مسك الحسابات أو تقديم الطعام أو القيام بالأعمال الشاقة كما تشاء."

"لكنه خضع للطقوس؟ ألا توجد أي من تلك الخرافات السحرية عالقة في رأسه؟"

"لا شيء. لقد كان في الخدمة منذ الغزو. أظن أنه خضع للطقوس في يومه الأول. النقابة تتأكد دائمًا من أهل إزاريا. لم يبقَ شيء من السحر بداخله."

لا، بالتأكيد. لم يكن أي من ذلك. كنت ما زلت أتنفس. كان الدم لا يزال يجري في داخلي. هذا كل ما تبقى.

مزيد من الوخز والدفع الفظ. "سيكون من اللائق أن يكون لديك عبد منزلي يتمتع ببعض الذكاء - حتى لو كان ذكاءً بدائيًا."

حدّق بي التاجر بنظرة تحذيرية، لكن العبد سرعان ما يتعلم انتقاء ما يستحق التضحية من أجله. ومع مرور سنوات العبودية، تتضاءل تلك الأمور شيئًا فشيئًا. لقد كنت عبدًا لمدة ستة عشر عامًا، أي ما يقارب نصف عمري. لم تكن الكلمات وحدها قادرة على إثارة غضبي.

"لكن ما هذا؟" حاولتُ ألا أقفز عندما لامس سوط الركوب الجروح في ظهري. "ظننتُ أنك أخبرتني أنه حسن السلوك. لماذا هذه الخطوط إن كان بهذه الفضيلة؟ ولماذا يتخلص منه صاحبه؟"

لديّ أوراق، يا صاحب السمو، يُقسم فيها البارون هاركسيان أن هذا العبد من أفضل العبيد وأكثرهم طاعةً، ويتمتع بكل الصفات التي ذكرتها. إنه يتخلص منه فقط لتسوية أموره المالية، ويقول إن العلامات كانت خطأً ولا ينبغي الكشف عنها.

ضد العبد. لا أفهم ذلك، لكن يمكنك رؤية ختم السيد على أوراقه.

بالطبع لن يفهم تاجر الرقيق. كان البارون المحارب العجوز الذي خدمته طوال العامين الماضيين يحتضر، وقد قرر بيعي بدلًا من أن أصبح ملكًا لابنته الوحيدة - تلك المرأة التي كانت تستمتع بتعذيب من لا تستطيع إجبارهم على حبها. كان اختيار من أحب من بين آخر ما تبقى لي من شرف. ولا شك أنه سينهار مع كل ما تبقى، مع مرور الوقت.

"إن لم يُناسبني، فربما أحد هؤلاء الآخرين..." تجوّلت عينا تاجر الرقيق الصغيرتان بعصبية في أرجاء الحظيرة المسورة القاحلة، ونظرت إلى المتفرجين العشرة القلقين. طالما أن الأمير مهتم بي، فلن يجرؤ أحد على المزايدة، والطقس كان سيئًا للغاية، فلا يوجد ما يضمن بقاء أحد لشراء هؤلاء الأربعة البائسين الآخرين المتجمعين في الزاوية.

"عشرون زينارًا. سلموه إلى سيدي العبيد."

انتاب تاجر الرقيق الرعب. "لكن يا صاحب السمو، إنه يساوي ستين على الأقل!"

نظر الأمير إلى الرجل بنظرةٍ تنمّ عن نفاد صبرٍ شديد، لدرجة أن أي شخصٍ عاقلٍ كان ليُفتّش ظهره بحثًا عن خناجر. قال: "سأخفض المبلغ خمسين جنيهًا إسترلينيًا لأنه مُصاب. مع وجود ندوبٍ على ظهره، سأضطر إلى توفير ملابس أفضل له. لكنني سأمنحك عشرة جنيهات إسترلينية إضافية لأنه يستطيع القراءة والكتابة. أليس هذا عدلًا؟"

أدرك تاجر الرقيق هزيمته وخطره، فسجد ساجدًا. "بالتأكيد يا صاحب السمو. عادل وحكيم كعادتك. عشرون زينارًا." كان لديّ شعور بأن التاجر سيُعدّ مفاجأة غير سارة لأي صديق حسن النية أبلغ الأمير بأن عبدًا متعلمًا معروض للبيع في المزاد.

كان الأمير برفقة شابين آخرين. كان هذان الشابان يرتديان ملابس زاهية الألوان، كالحرير والساتان، مع أحزمة ذهبية، ويحملان خناجر وسيوفًا مزخرفة ومرصعة بالجواهر لدرجة أنها تبدو عديمة الفائدة. من مظهرهما الرقيق وتقارب أعينهما، تساءلتُ إن كانا يعرفان كيف يستخدمان الأسلحة. أما الأمير نفسه، النحيل طويل القامة، فكان يرتدي قميصًا أبيض حريريًا بلا أكمام، وسروالًا من جلد الغزال بلون بني فاتح، وحذاءً طويلًا، وعباءة من الفرو الأبيض لا يمكن أن تكون إلا من جلد...

دب ماخارا الفضي، ذو الفراء الأجود والأندر في العالم. كان شعره الأحمر مضفورًا في ضفيرة واحدة على الجانب الأيمن من رأسه - ضفيرة محارب ديرزي - ولم يكن يرتدي سوى القليل من الزينة: أساور من الذهب المطروق وقرط ذهبي واحد مرصع بماسة ربما كانت قيمتها تفوق قيمة جميع حليّ رفاقه المتأنقين مجتمعة.

صفق الأمير على ذراع أحد رفاقه الأنيقين. "ادفع للرجل يا فاني. ولماذا لا تحضر المخلوق معك؟ باستثناء الندوب، فهو أجمل منك بكثير. سيبدو رائعًا في غرفتي، ألا تعتقد ذلك؟"

انفرج فكّ النبيل الشاب ذو الوجه المليء بالندوب، مرتدياً ثوباً أزرق من الساتان وريش الديك، في ذهولٍ ورعب. ربما كان محقاً. بكلمةٍ واحدة، طرد أميره اللورد فاني من مجتمع ديرزي إلى الأبد. لم يكن السبب هو التعليق العلني المهين على عيوبه الجسدية، بل تعيينه تاجر عبيد: وظيفةٌ أعلى بقليل من أولئك الذين يعتنون بالجثث قبل حرقها، وأدنى بقليل من أولئك الذين يسلخون الحيوانات. وبينما أدار الأمير ظهره وخرج من البوابة، أخرج الرجل عديم الذقن محفظته وألقى بالعملات المعدنية عند قدمي تاجر العبيد، وكأنه قد أكل للتو ثمرة دخفر خضراء. كان من المذهل كيف استطاع ألكسندر ببراعةٍ أن يدمر صديقاً، ويهين تاجراً مرموقاً، ويخدع باروناً نافذاً في غضون خمس دقائق فقط.

على غرار العبيد، لم أنظر إلى المستقبل أبعد من الساعة القادمة. فبدلاً من قضاء يوم كامل مقيدًا بسلاسل إلى جدار سوق الرقيق في ذلك الطقس الكئيب، كان لديّ أمل في الحصول على ملابس ومأوى على الفور تقريبًا. لم تكن النتيجة سيئة. بل كانت أبعد ما يكون عن أسوأ يوم لي في سوق الرقيق.

لكن كما تكرر الأمر مرارًا في الأشهر اللاحقة، حصدتُ عواقب إهمال الأمير ألكسندر. فقد قال تاجر الرقيق الغاضب إنه لا يملك الوقت لاستبدال طوق الخنق وسلاسل الذراعين والأغلال المصممة لطمأنة مشتريات الرقيقات، ورفض حتى تزويدي بقطعة قماش تستر عورتي. كانت رحلتي عبر المدينة المزدحمة، عارية تحت المطر المتجمد، أتعثر بجنون خلف حصان اللورد فاني كي لا أُجرّ، من بين أكثر أحداث أسري سخافة.

أما بالنسبة للسيد عديم الذقن... حسنًا، إن سيطرة رجل يرى نفسه واهمًا للغاية على جسد المرء ليست سبيلًا لتحسين وضع بائس. وعندما يظن الرجل نفسه ذكيًا، وهو ليس كذلك،

قد تسوء الأمور أكثر من ذلك بكثير. فبدلاً من تسليمي مباشرة إلى سيد العبيد التابع للأمير، أخذني اللورد فاني إلى ورشة الحدادة في القصر وأمر الحداد بوضع الختم الملكي عليّ... على وجهي.

ما تبقى لدي من أنفاس انقطع في رعب. في يوم أسرهم، كان جميع العبيد يُوسمون بدائرة متقاطعة، لكنها كانت دائمًا على الكتف، كما حدث معي، أو على الفخذ. لم تُوسم أبدًا على الوجه.

سأل الحداد: "هل هو هارب إذن؟" وأضاف: "الأمير ألكسندر لا يوسم الهاربين بهذه الطريقة. لا يحب القبح، حتى في أولئك الذين يعملون في المناجم."

"لا، أنا فقط—" حاولت الاحتجاج، لكن فاني أسكت صرختي بقضيب حديدي كان يداعبه منذ أن دخلنا ورشة الحدادة.

"انظروا إلى آثار السياط على ظهره، وكيف اضطررنا إلى تقييده بالسلاسل مثل كلب بري؟ بالطبع هو هارب."

"إنه من الإزاريين. يقول دورجان—"

"هل تخاف من التذلل بهذا الشكل القذر؟ السحر الوحيد الذي سيحدث هنا هو عندما أحولك إلى حصان مخصي بلا لسان بسبب عصيانك. الآن، افعلها."

أصابتني ضربة فاني على رأسي بالدوار، لكنني سرعان ما تمنيت لو أنه ضربني بقوة أكبر. ادعى الحداد المتردد خبرة طويلة في التعامل مع نزوات الأمير، فاستخدم أصغر قطعة حديد لديه فقط ليحرق ختم بيت ديرزي الملكي على عظمة خدي اليسرى. لو استخدم قطعة حديد أكبر لكشف العظم والأسنان، مما كان سيُحدث ضررًا بالغًا لدرجة أن تسمم الدم كان سيقضي على ما تبقى من الأنسجة السليمة. لكن في تلك اللحظة، لم يكن الامتنان في بالي.

وهكذا تم تسليمي إلى القصر الصيفي للإمبراطور في منتصف الشتاء، ووضعت على أرضية بيت العبيد المغطاة بالقش، وأنا أرتجف وأشعر بالغثيان، وكدت أفقد عقلي.

نظر إليّ سيد العبيد الضخم، وهو رجل ملتحٍ ذو وجه مسطح من قبيلة مانغانار يُدعى دورغان، في حيرة. "ما هذا؟ لقد وصلني خبر عن عبد جديد لخدمة الأمير، وليس هارباً لا يصلح إلا للعمل في المناجم."

بالتأكيد لم أكن في وضع يسمح لي بشرح محاولة فاني البائسة للانتقام، وخطته الذكية لإفساد صفقة الأمير.

"هذه هي الجديدة الوحيدة التي تم شراؤها اليوم. قال اللورد فاني—" كاد فتى الحداد الذي جرني عبر الفناء أن يبتلع لسانه عندما أمسك دورجان بحلقه.

"يا إلهي! فاني! أحرق سميث عبد الأمير الجديد بناءً على كلام أحمق لا يملك من الذكاء ما يكفي لفتح سرواله للتبول؟" بدا سيد العبيد وكأنه يريد أن يحطم رأسه في جدار من الطوب. "أخبر سيدك سميث ألا يوسم عبدًا أبدًا، أبدًا في هذا العالم، إلا إذا جاء الأمر من فم الأمير نفسه أو مني. لقد أُمرت بتنظيف هذا العبد وإرساله لتقديم العشاء. انظر إليه فقط!"

لم أكن لأبدو سعيداً على الإطلاق. تقيأت معدتي مرة أخرى عند مجرد التلميح إلى وجود طعام.

"على الأقل كان السيد حريصًا على الوسم،" تمتم الصبي وهو يتراجع نحو الباب. "لم يتضرر كثيرًا، أليس كذلك؟"

"لو كنت مكانك، لما علّقت آمالاً كبيرة على العيش بعد سن الرابعة عشرة. انصرف الآن، لديّ عملٌ لأنجزه."

بعد نصف ساعة، كنت أصعد الدرج الخلفي لقصر ألكسندر حاملاً صينية ثقيلة للغاية مليئة بطبق من الفاكهة المقشرة، ومعجنات مغطاة بالقرفة، وقرص من جبن أزهاكي ذي الرائحة النفاذة، وإبريق من شاي نازريل الساخن؛ شايهم الذي تفوح منه رائحة القش المحترق. كنت أضطر للتوقف كل بضع خطوات لأريح ذهني المشوش، وأهدئ معدتي المضطربة، وأخفف من حدة الحرقة الشديدة في خدي.

كنتُ أرتدي سترة بيضاء بسيطة بلا أكمام تصل من الكتفين إلى الركبتين، مراعاةً لكراهية الأمير لرؤية الجروح المفتوحة أو الندوب الكثيرة. كان الديرزي يُبقون عبيدهم الذكور في منازلهم عادةً يرتدون "فينزاي" - سراويل قصيرة فضفاضة - دون قميص. كان ذلك من بقايا تراثهم الصحراوي، وهو أمر غير لائق ومزعج للغاية بالنسبة لنا نحن الأسرى في المناطق الجبلية الشمالية للإمبراطورية. لم تكن السترة أكثر دفئًا بكثير، لكنها بدت أكثر احتشامًا على الأقل.

الغريب في الأمر أن أكبر معضلة واجهها سيد العبيد كانت شعري. لم تكن لدي لحية - فالإزاريون لا يُنتجونها كمعظم الأجناس. ولكن، على عكس العادة المعتادة في بيوت عبيد ديرزي، أمرت ابنة البارون بإبقاء شعري طويلاً. أراد دورجان قصه، لكنه خشي أن يُبرز ذلك آثار الحروق على وجهي ويكشف عن الورم المتورم والدموي حيث وضع فاني القضيب الحديدي. لذا، بدلاً من ذلك، جعلني أربطه بشكل فضفاض على جانب واحد على طريقة ديرزي - ليس مضفراً بالطبع؛ فالمحاربون ذوو الدماء فقط هم من يرتدونه مضفراً - على أمل أن يُخفي حماقة فاني. كما وضع مرهمًا على الحرق، وهي لفتة لم أعتبرها لطفًا. كان سيد العبيد يدعو الله أن يرى شروق الشمس التالي.

قال الأمير: "آه، العشاء!" بينما كنتُ أعبر الأبواب المذهبة إلى غرفة جلوس فخمة. انحنيتُ -بشكلٍ مُحرجٍ مع الصينية- وهنأتُ نفسي عندما تمكنتُ من الوقوف باستقامة دون أن أفقد الوعي. كان هناك سبعة أو ثمانية أشخاص في الغرفة. ثلاثة رجال وامرأتان يجلسون على وسائد حول طاولة منخفضة يلعبون لعبة "أوليات"، وهي لعبة قمار تُعرف باسم "ديرزي" وتتضمن أحجارًا مطلية وأوتادًا خشبية، بالإضافة

إلى بعض الثأرات. حرصتُ على عدم النظر إلى أي شخص بينما كنتُ أضع الصينية على طاولة منخفضة أخرى مُحاطة بوسائد حريرية زرقاء وحمراء. كان سيد العبيد حريصًا جدًا على إبقاء عينيّ مُنخفضتين. لم أكن متأكدًا مما إذا كان ذلك قانونًا منزليًا أم مجرد وسيلة لإخفاء خدي المتورم والنازف عن الأنظار.

"انظروا جميعاً. لقد حصلت على عبد جديد. إزاري يجيد القراءة."

"مستحيل..." كانت هناك ضحكات مكتومة وتكرار للتعليقات المعتادة.

"سمعت أنه بارع للغاية. وربما حتى أن لديه بعض الدماء الملكية الإزّارية."

"ساحر بربري! لم أرَ واحداً منهم من قبل. هل يمكنك إعارته؟" سألت امرأة ذات صوت منخفض، وكان لديها ما يشغل بالها أكثر من الطعام.

"آه، يا تارينا، لماذا تسألين هذا السؤال؟ ما المتعة التي قد تجدينها في رجل نحيل كهذا، ذو شعر داكن وعيون داكنة؟"

"مع أنه لا يُقارن بقامة مولاي، إلا أنه يبدو وسيماً للغاية. إذا كان وجهه جميلاً، فقد أغريني... عندما تتجول عيناك، كما يبدو أنها تفعل باستمرار. هل ستسمح ليديا بمثل هذا التسكع عندما تتزوج؟"

"لقد فعلتها الآن. لن أقرضه بالتأكيد لأي شخص يذكرني بالذئبة ذات اللسان اللاذع. تعال واستمتع بطعامي، فلن تحصل على عبدي بالتأكيد."

لم أكن أرغب إطلاقاً في أن أكون محور هذا النزال. وكما اكتشفت مؤخراً مع ابنة البارون، كان الأمر أخطر من خدمة محارب على جبهات الإمبراطورية. انحنيت وهمست: "إن كان هذا كل شيء..."

قال الأمير: "تكلمي بصوت أعلى. كيف يمكنكِ القراءة إن لم تستطيعي التحدث بوضوح؟ ولا، هذا ليس كل شيء بالتأكيد. يجب أن ندع تارينا ترى ما يفوتها." قبل أن أشعر بالخوف حقًا، امتدت يدٌ تحت ذقني وجذبتها لأعلى. وبحلول الوقت الذي استطاعت فيه عيناي التركيز بعد ذلك الشعور المقزز

بحركة مفاجئة لرأسي، كانوا ينظرون مباشرة إلى نظرة الأمير ألكسندر الكهرمانية الحارة. "أحضروا دورجان!"

مرّ أحدهم مسرعًا من جانبنا، وقد سمع التهديد الذي لا يُردّ في صوت الأمير. كانت يده الحديدية تُقيّدني من تحت ذقني. كان يُمدّدني على أطراف أصابعي، وكنت أخشى بشدة أن أتقيأ مجددًا من هذا الوضع

ومن الروائح المختلطة للعطور القوية والقرفة والشاي الفاسد وجبن الماعز شبه المتعفن الذي كان الديرزي يُقدّره كثيرًا.

كانت رواية دورجان لأحداث ما بعد الظهر مكتومة بعض الشيء بسبب السجادة التي كانت تغطي فمه. ربما كان الانحناء التام مبالغًا فيه بعض الشيء في مثل هذا المكان الخاص، لكن سيد العبيد كان يقاتل من أجل حياته. عندما انتهى من سرد القصة، أفلت الأمير قبضته ودفعني جانبًا. ركعتُ ووضعت يديّ متقاطعتين على صدري كما هو متوقع، محاولًا تهدئة معدتي.

يعلّم عرافو إزاريا أنه في لحظة سكون الطبيعة قبل وقوع الكارثة، يستطيع المستمع الفطن سماع طقطقة عظام الضحية. في هذه الحالة، كان من الممكن سماعها حتى من حجر. عندما أصدر الأمير الأمر باستدعاء اللورد فاني، كان صوت ارتطام العظام مدويًا كزلزال.

أُرسلتُ خارج أسوار القصر لأنتظر السيد الشاب. كانت الليلة شديدة البرودة، ولم يكن لديّ عباءة ولا حذاء. لكن لا نار حارس البوابة ولا المشاعل المشتعلة على الجدار استطاعت أن تُدفئني من البرد القارس. ربما ظن الأمير أن رؤيتي ستُقلق صديقه عديم الذقن، مع أنني، وأنا أقود الشاب شاحب الوجه عبر البوابات، شككتُ في أن وجودي له أي علاقة برعبه. لقد أدرك أنه قد لقي حتفه.

استقبلنا الأمير في الفناء الأمامي للقصر. كان يرتدي عباءته البيضاء المصنوعة من الفرو، ومدّ يده إلى اللورد فاني بينما كان الرجل المرتجف يترجل عن حصانه. قال: "كما ترى، أرسلتُ هذا العبد إلى الخارج ليُحيّيك... بكل سرور، دون أدنى اكتراثٍ لهروبه. لقد أسديتَ لي خدمةً جليلةً يا فاني." حدّق اللورد الشاب في الأمير بذهول، فضحك الأمير، وأمسك بذراع الشاب، وسار به نحو ساحات المطابخ وورش العمل. "تعال، أريد أن أشكرك على ذلك."

رغم أن ضحكته كانت مترددة - أقرب إلى صرير منها إلى ضحكة - إلا أن اللورد فاني لم يكن سهل المراس. فإلى جانب حاملَي الشعلة ومرافقيه، كان يتبعه أربعة جنود يرتدون الزي الرسمي، والأمير الذي كان يثرثر بمرح. دفعني الجنود خلفهم. ضممت ذراعيّ حولي، وأنا ألعن الشتاء والملوك وحياتي في صمت.

انتابني شعورٌ بالخوف واليقين وأنا أدخل ورشة الحدادة، وحرارة النيران المتصاعدة تحرق خدي من جديد حتى ارتجف الهواء بآثار الصقر والأسد المحترقة التي سأحملها معي إلى قبري. كان الحداد واقفاً على أهبة الاستعداد.

حاول فاني الإفلات بينما كانوا يربطونه بالعمود، لكنه لم يكن قويًا بما يكفي. ثم بدأ يتوسل، ووجهه المليء بالندوب شاحب اللون. "ألكسندر... صاحب السمو. يجب أن تفهم. والدي... العار... التعامل مع العبيد..." عندما سحب الحداد أكبر مكاويه المتوهجة من النار، تحول الهذيان إلى أنين خافت.

لم أكن لأشاهده. كنتُ على وشك الصراخ قبل ساعتين فقط، وكان الحداد حريصًا عليّ. أغمضتُ عينيّ... لذا لم أكن مستعدًا على الإطلاق عندما حشر الحداد الضخم مقبضًا حديديًا ثقيلًا في يدي.

"افعلها"، أمر الأمير، الذي ابتسم وضم ذراعيه منتظراً. "فاني لا يرضى بأن يكون سيداً للعبيد. إنه يعتقد أنه لا يمكن أن ينحدر إلى ما هو أدنى من ذلك: أثبت له كم هو مخطئ."

"يا سيدي، أرجوك." بالكاد استطعت الكلام من شدة اشمئزازي. كل ما كنت أعتبره مقدساً، كل ما كنت أدعو به، ما زال حبيساً في داخلي...

انتقلت إليّ تلك النظرة الكهرمانية الحارقة. أردتُ أن أُشيح بنظري، لعلمي أنه لن يأتي خيرٌ مما قد أفعله أو أقوله. لكن ثمة أفعالٌ مستحيلة، مهما كانت عواقب تركها دون فعل.

لن أقبل أي تحفظات إزارية أنثوية. أنا أمنحك فرصة للانتقام. بالتأكيد، العبد يتوق للانتقام.

كتمتُ غضبي، لكنني لم أُحوّل نظري. لم أستطع أن أدعه يُسيء فهم نيتي. وبينما كنتُ أُحدّق في غضبه المُشتعل، رفعتُ الأداة البغيضة لأُلقيها في النار. ولكن قبل أن أُفلتها، زأر الأمير، ولفّ يده القوية حول يدي، ودفع الحديد المُحمّى على وجه فاني.

سمعتُ صرخات فاني وشممتُ رائحة لحمه المحترق طوال تلك الليلة، بعد أن حُبستُ في زنزانة تحت بيت العبيد في ظلام قارس. غطيتُ عُريَّ بالقش القذر، وكافحتُ لاستعادة بعضٍ من السلام والقبول اللذين سعيتُ جاهدةً لبنائهما على مدى ستة عشر عامًا. لكن كل ما كان يدور في ذهني هو مدى كراهيتي للأمير ألكسندر. لم أستطع الحكم على اللورد فاني أو ما إذا كان يستحق ازدراء ألكسندر أم لا، ولكن كيف لي ألا أحتقر أميرًا؟

من ذا الذي يشوه رجلاً ويدوس على بقايا رجل آخر بائسة ليصحح خطأه الأحمق؟

الفصل الثاني

بعد ثلاثة أو أربعة أيام، احتاج الأمير ألكسندر إلى شخص يجيد القراءة. ليس أي شخص، بل شخص يثق به. كان كتّاب القصر معروفين بالتجسس والمؤامرات، نظرًا لاطلاعهم على معلومات سرية. بالطبع، لم يكن الأمر يتعلق بثقته بي بقدر ما كان يخشى أن يقطع لساني إن كررت كلمة قرأتها. كنتُ أدرك ذلك. الثقة في غير محلها درسٌ قاسٍ للغاية.

كنتُ نائمًا عندما أسقط دورجان السلم الخشبي من خلال السقف وصرخ في وجهي لأخرج من حفرتي الصغيرة القاحلة. على مرّ سنوات من هذه العقوبات المتقطعة، تعلّمتُ كيف أستغلّ ساعات الصمت على أكمل وجه. درّبتُ نفسي على النوم في ظلّ أيّ شيء تقريبًا: حرارة خانقة، برد قارس، سلاسل، حبال، رطوبة لا تنتهي، ألم، قذارة، وحشرات. كان الجوع أصعب قليلًا، لكن نادرًا ما كنتُ أتضور جوعًا - فالعبيد كانوا باهظي الثمن بحيث لا يمكن إهدارهم بلا مبالاة - وبشكل عام، لم أمنح أسيادي سببًا يُذكر لتجاوز الضرب والإذلال المعتاد الذي كان يُسعدهم. في هذه المناسبة بالذات، خشيتُ أن أكون قد تجاوزتُ الحدّ وقد لا أنجو، لكن مع ذلك، تمكّنتُ من النوم معظم الوقت.

قال دورغان بينما كنت أصعد وأنا أرتجف وأحدق بعيني في ضوء النهار البارد: "هناك خزان ماء بالخارج، وسترة معلّقة على الخطاف. عليك أن تجعل نفسك بمظهر لائق. هناك سكين بجانب الخزان. انزع شعرك. ولا تظن أنني لن أتأكد من وجود السكين عندما تغادر."

تنهدتُ وفعلتُ ما أمرني به. كانت السكين حادةً للغاية، وكان رأسي ينبض مع كل حركة. قد يبدو الأمر سخيفًا، لكن إجباري على قص شعري أصبح أكثر إزعاجًا من أيٍّ من مضايقات العبودية التافهة الأخرى. كان الأمر عبثيًا تمامًا.

«عليكِ الذهاب مباشرةً إلى حجرة الأمير». لم يُخبرني دورغان بما هو مطلوب. سواءً أكان عليّ تقديم العشاء أو أن أُقتل، فليس من شأنه أن يعرف... أو أن يُخبرني حتى لو كان يعلم. ركضتُ عبر

في فناءٍ صاخبٍ موحلٍ يؤدي إلى المطابخ، نظفتُ الطين عن قدميّ العاريتين في حوض القدمين عند الباب الخارجي، ثم صعدتُ الدرج مسرعًا، نادمًا على الروائح الشهية والدفء المتصاعد الذي تركته خلفي وأنا أمرّ بجانب أسياخ الشواء وأفران الخبز. ربما سأحظى بلحظةٍ من

التمهل في طريق العودة. بالتأكيد لم يكن الأمير ليكلف نفسه عناء تنظيفي لو كان ينوي قتلي.

طرقت على الباب المذهب ولعنت نفسي لانتهاكي قاعدتي التي التزمت بها منذ زمن طويل بالتفكير فيما وراء اللحظة الراهنة.

"يأتي."

ألقيتُ نظرةً خاطفةً حولي قبل أن أجثو على ركبتيّ وأُحوّل نظري، فأدركتُ أن الأمير ورجلاً آخر فقط كانا حاضرين. كان الرجل الآخر أكبر سناً بكثير، بوجهٍ مُتجعد، وشعرٍ رماديّ طويلٍ مُجعّدٍ بالكاد يُصفّف، وذراعين قويتين كأنه يُلاعب الصخور للمتعة.

كان ألكسندر مستلقيًا على أريكة زرقاء من الديباج. "من أنتم...؟ آه." لم تكن آه تنمّ عن غضبٍ شديد، لكنها لم تكن أيضًا من نوع "سأنسى أنك تحدّيتني". مع حظي العاثر، سيظلّ ذاكرته قوية. "تعالَ إلى هنا واقرأ هذا."

لم يتعلم نبلاء ديرزي القراءة والكتابة، أو إن تعلموها، فلن يُظهروا ذلك لأحد. كان الديرزي شعبًا محاربًا، ورغم تقديرهم لعلمائهم وتجارهم، إلا أن هذا التقدير كان أشبه بتقديرهم لكلابهم التي تؤدي الحيل، أو طيورهم التي تحمل الرسائل بدقة متناهية، أو سحرتهم الذين يحولون الأرانب إلى زهور أو يُخفون الفتيات الجميلات. لم يكن هذا شيئًا يرغبون في فعله بأنفسهم.

لمستُ رأسي بالسجادة، ثم نهضتُ، وجثوتُ مجدداً بجانب الأريكة حيث كان الأمير يرقد، وهو يلوّح لي بورقة ملفوفة. كان صوتي أجشّاً في البداية، إذ لم أستخدمه إلا نادراً منذ إرسالي إلى تاجر الرقيق قبل أسبوع تقريباً، ولكن بعد فقرة واحدة، تمكنتُ من نطق الكلمات بوضوح.

زاندر،

يحزنني كثيراً أنني لا أستطيع الحضور إلى زيارتكم. أنا مشغولٌ جداً بترتيبات تنصيب مندوب الخالد هنا في بارنيفور. قائمة متطلباته لمقر إقامته لا تُصدق. يجب أن يكون مطلاً على التلال. يجب أن يتسع لثلاثمائة شخص على الأقل. يجب أن يتمتع بإطلالة رائعة على المدينة.

يجب أن تحتوي على بئرين غير متصلين. ويجب أن تحتوي على مساحة حديقة كافية مع نبع خاص بها لزراعة أطعمتها الشهية. وهكذا دواليك.

لا أدري لماذا اختار والدك إرسال أصغر حكامه للإشراف على هذا الأمر... مع أنني ما زلت ممتنًا للغاية لهذا التعيين، وأشعر بالفخر لتولي هذه المهمة الجليلة. خشيتُ أن يستاء مندوب الخليد من مهمتي، معتبرًا إياها أقل من حقه، لكنه دائمًا ما يكون لطيفًا ومتعاونًا - طالما أنني ألبي جميع متطلباته. قد أضطر إلى طرد البارون فشيكار من قلعته إن لم أجد بديلًا أفضل. إن تجريد بارون من أراضي فونتيزي هيغيد من ممتلكاته أمرٌ أفضّل تجنبه. لكنني أحمل تفويض الإمبراطور، لذا سأفعل كل ما يلزم.

كما ترى، من المستحيل أن أكون هناك، مع أنني أعلم أنه احتفالٌ يستحق أن يُضحي المرء بحياته من أجله. يؤلمني حلقي الآن، وأنا أفكر في القوارير التي وُضعت طوال هذه السنوات الثلاث والعشرين ليوم تتويجك، وكل شيء آخر يتألم لأجل النساء اللواتي ستتركهن لنا لنستمتع بهن! يجب أن تُخبئ لي قارورة وفتاة، ونارًا تكفي لسباق من زاجاد إلى درافا في الربيع القادم. حصاني زيور أسرع من أي وقت مضى، ومع فارسٍ بارع - أنا - لن أجد صعوبة في مواجهة موسى البائس وسيده الضعيف. سأراهنك بألف زينار الآن. هذا سيعطيك سببًا لعدم نسياني بينما أقبع هنا في أطراف المملكة.

ابن عمك الموحش،

كيريل

قال الأمير وهو ينهض فجأة: "تبأ! لن يكون وليمةً حقيقيةً بدون كيريل. إنها رحلة أسبوعين فقط على ظهر حصانٍ جيد. كنتَ تظن أنه يستطيع البقاء هنا يومين أو ثلاثة أيام على الأقل من أصل اثني عشر." انتزع الأمير الرسالة من يدي وحدق فيها وكأنه يُرسل استياءه إلى كاتبها. "ربما كان عليّ استدعاؤه. كيريل محارب، وليس مجرد خادمٍ دبلوماسي. يمكن لأبي أن يُرسل شخصًا آخر للقيام بهذا العمل." ثم ركل الرجل الأكبر سنًا بحذائه. "كيف سمحتَ لأبي أن يفعل هذا بكيريل؟ ظننتُ أنه ابن أخيك المُفضل."

هل ترسل ابنك إلى مثل هذا المنفى الكئيب؟ ربما لهذا السبب لم يرزقك الآلهة بأبناء.

قال الرجل الأكبر سنًا، وقد بدا القلق واضحًا في صوته أكثر مما يستدعيه وجود ابن عم غائب: "ألم أتوقع هذا؟ بينما يتسلل الخيليون إلى حظوة والدك، يزدادون مطالبهم. قيل لي إنهم يصرون على أن سحرتهم فقط هم من يُسمح لهم بممارسة السحر في كارن هيغيث، وأن يتولى خيليون مراسم كل زواج وجنازة واحتفال ديني. لم يمضِ

سوى ثلاثة أشهر منذ أن منحهم والدك المدينة، وهم الآن يُسيّرون شؤونها كما لو كانوا غزاةً لها."

ركعتُ بلا حراك، وعيناي مثبتتان على النقوش الحمراء والخضراء المعقدة للسجادة السميكة، محاولةً إخفاء اهتمامي. كان البارون الوحيد من بين أسيادي الذي سمح لي بسماع أي شيء عن العالم يتجاوز ثرثرة بيت العبيد السطحية. لقد كانت متعةً صغيرةً في حياةٍ قلّما فيها المتع، وقد ندمتُ على فقدانها أكثر من أي شيء آخر تقريبًا عندما عرضني للبيع.

قال الأمير: "أنت تقلق كثيراً يا ديمتري. لقد مكثت على الحدود وقتاً طويلاً، وما زلت غاضباً من أبي لأنه تنازل عن المدينة التي استوليت عليها من البسرانيين. تعلّم أن تستمتع بوقتك مجدداً. حتى في هذه البقعة الجليدية التي زجّ بنا أبي فيها، هناك الكثير من الملهيات. لم تصطد معي منذ ست سنوات، وما زلت مديناً لي بقوس جديد من آخر مرة."

"أنت لا تُبالي كثيرًا يا زاندر. أنت الابن الوحيد لإيفان، إمبراطور الألف مدينة المستقبلي. لقد حان الوقت لتجتهد في ذلك. هؤلاء الخليديون..."

«...لم يستطيعوا هزيمة فيلق واحد من فيالق ديرزي حتى مع أفضل قواتهم. لقد فروا يا ديمتري، واختبأوا لعشرين عامًا. كانوا خائفين منا لدرجة أنهم عادوا متوسلين للسلام. من يهتم بما يفعلونه بكارن هيغيث؟ من يهتم بما يفعلونه بسحرتهم؟ من الأفضل أن تقلق بشأن بهلوانييهم أو لاعبيهم البهلوانيين. في الحقيقة...» نكز الأمير الرجل الآخر الذي كان يجلس متربعًا على الأرض بجانبه. «...قررت استئجار بعض سحرتهم لمأدبة داكراه الخاصة بي. لقد سمعت أنهم بارعون بشكل مذهل.»

لا يجوز لك فعل ذلك. إن تتويج ولي عهد ديرزي في يوم بلوغه سن الرشد ليس مشهدًا للأجانب. لا ينبغي لأي غريب أن يكون في المدينة في ذلك اليوم. وإذا كان سحرتهم جزءًا من دينهم كما يدّعون، فلماذا يستأجرونهم؟

تسلية؟ أود أن أطردهم جميعاً مع كتبهم وبلوراتهم المحشورة في مؤخراتهم.

لم تستطع روحي الإزارية الذابلة سماع مثل هذا الحديث التافه عن القوة الحقيقية دون أن ينتابني قلق شديد. كان "السحر" هو المصطلح الشائع للأوهام، وخفة اليد، وبعض التعاويذ المستخدمة للتسلية

والتشويق. أما الشعوذة فكانت مختلفة تمامًا. القوة الحقيقية قادرة على تغيير قوانين الطبيعة، ويمكن استخدامها لأغراض لا يتخيلها معظم الرجال والنساء. لقد سمعت ما يكفي عن الخليد لأؤمن بأنهم يعرفون شيئًا عن الشعوذة. كان الدرزي يلعبون بأشياء لا يفهمونها. كانت هناك ألغاز... مخاطر... في العالم... أغمضت عينيّ وأغلقت أبواب المعرفة والذاكرة بقوة، الأبواب التي أُغلقت بإحكام في اليوم الذي سلب فيه الدرزي حريتي، وجرّدتني فيه طقوس بالثار من قوتي الحقيقية.

لا بد أن اللورد ديمتري قد شعر بعدم ارتياحي، إذ بدا وكأنه لاحظني للمرة الأولى. مدّ يده إلى ذراعي ولوى ذراعي بقوة حتى كاد يكسرها خلف ظهري.

"هل تدركون العقوبات المفروضة على العبيد الماكرين والمتسللين الذين يفكرون ولو قليلاً في المحادثات الخاصة لأسيادهم؟"

"نعم يا سيدي"، قلتُ بصوتٍ خافت. لقد رأيتُ مثل هذه العقوبات في بداية أسري، ولم أكن بحاجة إلى شيءٍ آخر لإقناعي بالحفاظ على سرّي. كان بإمكاني النسيان بسهولةٍ كما أستطيع النوم.

قال الأمير، وقد خيم الحزن على وجهه المرح: "اخرج. قل لدورجان أن يعيدك إلى حيث كنت".

لامستُ رأسي الأرض مجدداً وعدتُ إلى بيت العبيد، مُخبراً دورجان أن عليّ العودة إلى الأنفاق. كان الدرزي يستمتعون برؤية العبيد يحملون رسائل عقابنا. كانوا سيجبروننا على جلد أنفسنا لو ظنوا أننا سنفعل ذلك بما يُرضيهم.

في الأيام المظلمة الباردة التي سبقت استدعاء ألكسندر لي مجددًا، وبين ساعات نومي الطويلة والدقائق الثلاث التي كنت أقضيها يوميًا مع كوب من العصيدة، أو قطعة خبز يابسة، أو قطعة لحم فاسدة تحتقرها الكلاب البرية، كنت أفكر في الخليد. كان سيدي السابق، البارون، أكثر الدرزي تمسكًا بالتقاليد، ولم يكن يثق بأي أجنبي لم يُهزم بالقوة. حتى الإزاريون كانوا أكثر قبولًا لديه من الخليد. صمدنا لثلاثة أيام كاملة بعد أن عزم الدرزي على التلال الخضراء الناعمة التي تجتاحها الأمطار خلفهم.

الحدود الجنوبية. ظن البارون أننا ضعفاء وأغبياء لأننا سمحنا لامرأة أن تحكمنا، وأننا مشوشون بسبب سحرنا، ولكن على الأقل بذلنا قصارى جهدنا قبل أن نخضع طواعية.

قال، وهو يُفضي إلى عبده لأن لا أحد غيره كان يُصغي إليه: "هؤلاء الخليديون، مع ذلك، لم يُقاتلونا قط قبل فرارهم. لم أُصدق قط أنهم خاضوا معركة حقيقية. لم يكونوا يمتطون الخيول، كما ترى. لا خيول. لكن انظر إليهم الآن، يتبخترون على هذه الخيول التي أحضروها معهم - وحوش كان البسرانيون يعبدونها كآلهة. لا يُمكنك إقناعي بأن الخليديين لا يُقاتلون على ظهور الخيل." لم يكن البارون رجلاً ذكياً بشكل خاص، لكنه كان خبيراً بالخيول والحرب.

عندما سألته عما كان يفعله الخليديون إن لم يكونوا يقاتلون، قال إنهم كانوا "يختبرون" الدرزي. قال: "كانوا يستكشفون هنا وهناك، ثم يختفون. يظهرون في مكان آخر، يُهزمون، ويهربون. وفي يوم من الأيام لم يعودوا أبدًا. لقد عرفوا مكاننا ومدى قوتنا. هل تعلم أننا لم نأسر أيًا منهم حيًا قط؟ فقط أموات. دائمًا أموات."

سألت: "لكن لماذا يختلف الأمر هنا؟" أجاب: "لقد أدركوا أنكم أقوى... كما أدركنا جميعاً. لقد تحملوا فقدان استقلالهم بأقل قدر من الموت والدمار."

لم يكن لدى البارون إجابة على ذلك. لم تكن لديه مفردات لمفاهيم تتجاوز الحرب.

تساءلتُ إن كان اللورد ديمتري يعرف البارون. بدا أنه يُشاركني شيئًا من نفس الشعور تجاه الغرباء ذوي الشعر الشاحب القادمين من أرضٍ نائيةٍ لم يرها إلا قليلٌ من الدرزيين. لقد مرّت ثلاث سنوات منذ أن عاد الخليد للظهور، مُقدّمين ملكهم الأعزل للدرزيين مُكبّلًا بالسلاسل، مُتعهدين بالخضوع لإمبراطورية الدرزيين مُقابل السلام والصداقة والاحترام المُتبادل. أُعدم ملكهم على الفور، وأُرسل رأسه إلى خيليدار مع حاكم عسكري وحامية صغيرة. كانت طيور الرسل تصل بانتظام بتقارير من الحاكم تُفصّل العلاقة الطيبة مع الخليد في أرضهم النائية والقاسية. كانت علاقة مُختلفة تمامًا عن تلك التي تربطهم بالشعوب الأخرى التي تم غزوها حديثًا. كان الملك المنكوب - أو أيًا كان حقًا - هو الوحيد

شخص يرتدي السلاسل.

استيقظ واخرج إلى هنا! أنت تنام مثل الشاستو في منتصف النهار.

كنتُ على وشك اليأس من رؤية ضوء النهار مجدداً. مرّت سبعة أيام منذ أن قرأت رسالة الأمير. افترضتُ أنني لم أُرضِه، ففي الأيام الثلاثة الأخيرة من تلك السبعة، لم يُقدّم لي كوبٌ من طعامي اليومي. لم أكن أملك ما يكفي من اللعاب لترطيب ذرة غبار، ولم أستطع حتى أكل آخر

قطعة خبز يابسة أعطوني إياها. الموت عطشاً بشعٌ للغاية. الموت في الحال أهون.

في مفارقة الصحراء العظيمة، كنتُ عطشاناً لدرجة أنني لم أعد أرغب في الشرب. لكن حتى في حالتي المضطربة، كنتُ أعلم أنني لستُ من وحوش الصحراء القوية، وأنه من الأفضل أن أفعل ما هو مطلوب. ركعتُ أمام دورجان حالما خرجتُ من الحفرة، ومددتُ يديّ. "من فضلك يا سيدي، هل لي أن أشرب؟" تداخلت الكلمات، وتلعثمت على لساني.

زمجر دورجان ونادى على شخص يُدعى فيليب. اندفع صبي نحيل أمهق، من عشيرة فرايث، إلى الغرفة الطويلة ذات الشكل المكعب، حيث بدا أن ما لا يقل عن مئة رجل ينامون على أرضية حجرية مغطاة بالقش. سأل سيد العبيد: "متى كانت آخر مرة سقيت فيها من في الحفرة؟"

هزّ الصبي ذو العينين الشاحبتين كتفيه. "لقد قلتَ فقط أطعمه. لم تقل شيئاً آخر."

ضرب دورغان رأس الصبي بظهر يده بقوةٍ شديدةٍ حتى انقلب الصبي رأسًا على عقب. نهض الصبي وهز كتفيه النحيلتين، ثم خرج من الباب بخطواتٍ هادئة. قال دورغان وهو يرمي عليّ سترةً وكوبًا معدنيًا: "اشرب ما تشاء". وأشار إليّ نحو خزان الماء في نهاية الغرفة، وهو يتمتم طوال الوقت: "فريث الملعون. ليس لديه عقلٌ ليوزعه على الجميع".

كان هناك وقتٌ اعتقدتُ فيه أن الشرب والاغتسال من نفس الحوض أمرٌ غير طاهر، ودليلٌ على اضطرابٍ داخلي يمنع المرء من اكتشاف الحقائق الكونية، ويعرضه لخطر الفساد. كم يكون الشباب جادّين بشكلٍ مثيرٍ للسخرية! في ذلك اليوم، كانت الصعوبة الوحيدة هي ترك ما تبقى من الماء البني المالح للاغتسال به. عندما انتهيتُ من ارتداء ملابسي، أخبرني دورجان أن عليّ الذهاب إلى الأمير مرةً أخرى. "من الأفضل أن تتصرفي بشكلٍ لائق. لقد جعلني أبحث عن خادمةٍ أخرى للقراءة. إنه لا يثق بكِ."

حسنًا، لقد شعرتُ بذلك بالتأكيد. لو كنتُ أعتقد أن العقوبة الوحيدة هي الطرد، لربما فكرتُ في سوء السلوك، لكنني كنتُ أعرف ما هو الأفضل. لم أكن أرغب في لفت المزيد من الانتباه غير المرغوب فيه من إمبراطور ديرزي المستقبلي. كان البقاء على قيد الحياة لا يزال يثير اهتمامي، على الرغم من أنه لم يكن الشغف الذي كان عليه عندما كنتُ في الثامنة عشرة من عمري وما زلتُ أتعلم.

كانت الأصفاد والسياط منتشرة في كل مكان. قلتُ: "شكرًا لك يا دورجان، وشكرًا لك على الماء. لن أفعل شيئًا يُغضبه عليك". انحنيتُ له باحترامٍ بالغ. لم يكن مُلزمًا بأن يُروي عطشي قبل تلبية نداء الأمير.

قال: "اذهب إلى الجحيم إذن".

هذه المرة، كان الأمير وحيدًا في غرفة خرائط متواضعة الحجم ملحقة بغرفته. كانت الجدران مغطاة بخرائط الإمبراطورية. طاولة مستطيلة ومعظم الأرضية كانت مليئة بلفائف الخرائط، وعصي التأشير المصنوعة من خشب الأبنوس، وعلامات ذهبية وفضية تُستخدم لتحديد مواقع القوات والإمدادات. ثريات ضخمة تتدلى فوق الطاولة، تُلقي ضوءًا ساطعًا على أدوات القائد. كان الأمير ألكسندر واقفًا بجانب إحدى الخرائط، يُمرر إصبعه عليها بتكاسل، ويرتشف كأسًا من النبيذ. على عكس غرفه الأكبر، لم تكن هذه الغرفة مُعطّرة، ولم تكن تفوح منها روائح العطور التي تُخفي رائحة الجثث المُجتمعة. مع أن الأمير بدا نظيفًا إلى حدٍ ما، إلا أن عرقه - وهو عرقٌ ذو أصول صحراوية - لم يكن، بشكل عام، مولعًا بالاستحمام. كانت الروائح الوحيدة في غرفة الخرائط هي دخان الشموع والنبيذ.

في الأشهر الأولى بعد أسري، أمضيتُ وقتًا طويلًا غارقًا في ألم النظر إلى الماضي. لكن رجلًا آخر، قضى أربعين عامًا في الأسر، علّمني ضبط النفس اللازم لكبح جماح هذا الجنون. قال: "انظر إلى يدك. تتبّع العظام، وافحص الجلد والجلد المتصلّب، والأظافر، والشريط الحديدي حول معصمك. الآن، تخيّل اليد في ذهنك بمفاصلها المتشابكة، وجلدها المتدلّي والجافّ كالورق، وأظافرها البنية السميكة، ولحمها المبقع من كبر السنّ مثلي. نفس الشريط الحديدي حول المعصم. قل لنفسك... أمر نفسك... أنه فقط عندما لا يكون هناك فرق بين يدك والصورة... حينها فقط سيُسمح لك بتذكّر ما كان. لن يدوم هذا للأبد، لذا ليس من المستحيل طاعة هذا الأمر. وعندما يحين الوقت، لن تتذكّر بوضوح سبب بكائك، ولن يحاسبك أحد على ذلك." اتبعتُ درسه بإخلاص، وأصبحتُ بارعًا فيه. لكن كانت هناك لحظات فشلت فيها هذه العملية، وكنت ألمح صورة واضحة بشكل ثاقب من حياتي الحقيقية.

هكذا كانت اللحظة التي ركعت فيها عند مدخل غرفة الخرائط الخاصة بالأمير ألكسندر، واستنشقت عبير شمع العسل الساخن والنبيذ الأحمر القوي. تراءى أمامي مشهدٌ مريح

غرفةٌ مُزدانةٌ بالكتب، مُغطاةٌ بسجادٍ بألوان الخريف الغنية والعميقة، كتلك التي نسجتها أمي. سيفي وعباءتي مُلقيان على الأرض، بعد يومٍ

طويلٍ من التدريب. شمعةٌ من شمع العسل تحترق بهدوءٍ على مكتب الصنوبر الداكن، ويدٌ قويةٌ نابضةٌ بالحياة تُمسك بكأسٍ من النبيذ في يدي...

"قلتُ تعالي إلى هنا! هل أنتِ صماء أم وقحة؟" عندما رفعتُ عينيّ، كان الأمير يحدّق بي من الجانب الآخر من الغرفة. نهضتُ بسرعة، أحاول استعادة رباطة جأشي، وأحاول كبح جوعٍ لا علاقة له بالطعام.

أشار إليّ الأمير بالجلوس على كرسي. وُضعت الأوراق والقلم والحبر والرمل على الطاولة أمامي.

"أريد أن أرى عينة من كتاباتك."

أمسكت بالقلم، وغمسته في الحبر، وانتظرت.

"حسنًا، فلنبدأ العمل."

هيأت نفسي لغضبه. "هل هناك شيء محدد تود مني أن أكتبه يا سيدي؟"

"تباً لكل شيء، لقد أخبرتك أنني أريد عينة من كتاباتك. هل قلت إنني أهتم بما هي؟"

رأيتُ أنه من الحكمة الرد بالأفعال، وأن يكون الفعل مدروساً جيداً، فكتبتُ: "ليُعمّ كل الشرف والمجد على الأمير ألكسندر، ولي عهد ديرزي". ثم قلبتُ الورقة ليتمكن من رؤيتها من فوق كتفي، وغمستُ القلم مرة أخرى، وسألته: "هل تودّ أن ترى المزيد يا سيدي؟"

قال متهماً: "لقد كتبت اسمي".

"نعم، يا صاحب السمو."

"ماذا وضعت معه؟"

قرأت له الجملة. صمت للحظة، وأبقيت عيني مثبتة على الورقة.

"ليس أصلياً جداً."

رفعتُ نظري بدهشةٍ من الفكاهة الساخرة الكامنة وراء كلماته الجامدة. ربما كان ذلك بسبب فقداني توازني من هول ما رأيت... ربما كنتُ غير متيقظ... ربما ما زلتُ أشعر بالضعف من الجوع، أو ربما كنتُ ثملًا بالماء بعد ثلاثة أيام من انقطاعه... لكنني ابتسمتُ له وقلتُ: "لكنني بخير".

تصلّب وجهه، وبدا للحظة أنني قد أندم على جنوني، لكنه ربت على ظهري فجأة - متناثرًا الحبر على لوحتي - وضحك من أعماق قلبه. "بالفعل. من الصعب إيجاد عيب."

"حتى بالنسبة لي." أنهى كأس النبيذ ودفع ورقة أخرى أمامي. "يبدو أن خطك جيد بما فيه الكفاية. لذا اكتبي الآن ما أقوله لكِ."

كان يدور حول الطاولة وهو يملي. كلما أسرع في مشيه، أسرع في كلامه، مما زاد من دواري. حاولتُ التفكير في شيءٍ يُوقفه، لكنه كان معتادًا على الكُتّاب، بالطبع، وكان يعرف متى تسبق أفكاره يدي. كان يتوقف عن كلامه ليمنحني وقتًا لأستوعب ما أقول، لكنه لم يُبطئ من مشيه.

ابن عم،

أنا مستاءٌ منك للغاية لأنك تأخذ واجباتك على محمل الجد. أعطِ ذلك المندوب الملعون من خليد كوخًا وانتهى أمره. هؤلاء رعاياي، أقسم بالله، وليسوا أسيادي. إن لم تحضر مراسم تأبيني، فسأضع خصيتيك في الشاي في اليوم التالي.

أكره هؤلاء الخليديين اللعينين، وأتمنى لو يعودون زاحفين إلى صخورهم وحفرهم، أينما كانوا. أبي منشغلٌ للغاية بهذا الخليدي اللورد كاستافان وأفكاره الماكرة، لدرجة أنه أرسلني إلى كافارنا لأقيم دار هيغيد الشتوية. الطقس سيءٌ للغاية، وواجباتي مملة، وبالطبع، أرسل أبي ديمتري ليكون معلمي. هل كان هناك أحدٌ منشغلٌ بالمؤامرات والدسائس مثل عمنا العابس الذي لا يخطئ؟ أعرف أنني أشعر بالملل حقًا عندما أبدأ بالاستماع إلى تحذيراته وأخذها على محمل الجد. السبب الوحيد الذي يجعلني أسمح له بدخول غرفتي هو قلة وسائل التسلية الأخرى. الرفقة في كافارنا في منتصف الشتاء كئيبة - جميعهم حمقى أو متملقون. من غيرهم سيتخلى عن روعة أجمل فصول زهاغاد من أجل هذا؟ بين انعدام الثقة الذي يغرسه ديمتري في نفسي والكراهية التي اكتسبوها من خلال هذا النفي الشائن في الشتاء، سأعترف لك بأنني أخطط لقطع رؤوس أو نفي جميع أفراد عائلة خيليد الشيطانية في اللحظة التي أتتلى فيها.

تضاعف الرهان إلى ألفين. لن يسمح موسى لحصانك المحراث بالتغلب عليه.

ابن عمك الذي لا يقلّ عنه وحشة،

زاندر

قرأت الرسالة مرة أخرى للأمير، وأجريت التعديلات الطفيفة القليلة التي طلبها، ثم سألته بكل براءة عما إذا كان يرغب في التوقيع عليها بنفسه قبل أن أذيب الشمع لختمه.

"يا لك من خنزير وقح!" رفع ظهر يده في حركة مألوفة مؤلمة، فسقطتُ على ركبتيّ فورًا، وضغطتُ جبهتي على الأرض. في سنواتي الأولى من الاستعباد، لم أكن أستطيع اتخاذ وضعية الخضوع دون أن ينهش بطني وترتجف يداي غضبًا. لكن مع مرور الوقت، تعلمتُ أن هذه الوضعية تجعل من الصعب على الرجل الغاضب أن يوجه لكمة إلى رأسي. يبدو أن الأمر يتطلب بعض التفكير أو التحضير قبل أن يبدأوا باستخدام أقدامهم.

"أعتذر عن غبائي يا سيدي! أرجوك أمرني." انطلقت الكلمات الضرورية من فمي. لم أكثر الكلام. لا أعذار. فالثرثرة والأعذار تزيدهم غضباً.

لقد صمت لفترة طويلة، ولم أجرؤ على رفع رأسي.

"أذيب الشمع."

نهضت على قدمي وعدت إلى المقعد، ولكن مع تدفق الدم من رأسي المؤلم، جعلتني موجة أخرى من الدوار أترنح قليلاً على الطاولة.

"ما مشكلتك؟"

"لا شيء يا سيدي." لم يكن يرغب حقًا في سماع ذلك. "هل تفضل الشمع الأبيض أم الأخضر أم نوعًا آخر؟"

"أحمر. بالنسبة لكيريل، أحمر دائمًا."

انحنيتُ برأسي وانشغلتُ بختم الرسالة. بعد أن ضغط خاتمه على الشمع الأحمر الناعم، قرع جرسًا، فظهر أحد مرافقيه قبل أن يتوقف الرنين. كان هناك اثنان على الأقل من الشبان الذين يرتدون ملابس ذهبية يقفون خارج الباب طوال الوقت، بالإضافة إلى الحراس الأربعة المدججين بالسلاح.

أرسل الأمير الرسالة في طريقها إلى بارنيفور، ثم التفت إليّ. كنتُ أشعر بالقلق، جالساً بلا حراك على المقعد تحت نظراته الثابتة.

"اخرج. قل لدرغان إنك ستُجلد عشر جلدات بسبب وقاحتك. أنت تفكر كثيراً، ولا تقول ما تفكر فيه."

أديت انحناءتي ولم أقل شيئاً... بالتأكيد ليس ما كنت أفكر فيه.

الفصل الثالث

مرّت سبعة أيام أخرى قبل أن أُخرج من زنزانتي مجدداً. كان اليوم مشمساً ساطعاً، وهو أمر نادر في وادي كفرنا المرتفع، الذي بدا وكأنه يحجب كل ضباب وسحابة تُخيّم على جبال أزهكستان الشمالية. لعلّ هذا الغموض الدائم هو ما أقنع الدرزي، الذين تعود أصولهم إلى بحار الكثبان الرملية في وسط أزهكستان حيث السماء زرقاء فولاذية صافية، بأن كفرنا مدينة مقدسة، مُكرّسة لآلهتهم.

كانت أبواب بيت العبيد مفتوحة على مصراعيها للشمس. كان الجو لا يزال باردًا بما يكفي لظهور أنفاسي، لكن أي شيء كان أفضل من الهواء الراكد النتِن في جحري تحت الأرض. تمددتُ واستنشقتُ الهواء، وشعرتُ أنني نصف إنسان. كان نصفي الآخر يحكّني، وينبعث منه رائحة كريهة، ويُضيّق عينيه ليحجب وهج الشمس المؤلم على الثلج. لكنني لم أكن جشعًا.

"ما بك؟ لم أرَ أحداً يبتسم بعد ما يقرب من ثلاثة أسابيع هناك." أمسك دورجان بالسترة البيضاء بالقرب من صدره مفتول العضلات، كما لو كان يخطط لحجبها حتى أعترف بخطيئتي السرية.

"لقد نمتُ ما يكفي لعشرة رجال، ولم أتعرض للجلد منذ سبعة أيام، ولحم الأمس كان نصفه غضروفاً فقط ولم يكن فاسداً تماماً. لقد مررت بأسابيع أسوأ من هذه."

حدق بي سيد العبيد كما لو كنت مجنوناً. "أنت غريب الأطوار يا عزاريان."

كان بإمكاني قول الشيء نفسه عن دورغان، الذي لم يكتفِ بالتأكد من أن صبي فرايث يرسل لي الماء يوميًا، بل كان يرسل كوبين بدلًا من كوب واحد. وكانت حصص الطعام في وجبتي الوحيدة يوميًا أكبر بشكل ملحوظ من ذي قبل. لكن ليس من الحكمة أبدًا أن تُشير إلى لطف سيدك، خشية أن تكتشف أن كل ذلك كان خطأً.

أشرت إلى السترة وقلت: "هل هذه لي؟"

"أوه، أجل. كما في السابق. في غرفته. أسرع في ذلك."

انحنيتُ، ثم توجهتُ إلى البئر، وبعد أن فحصني سيد العبيد وأعطاني موافقته، انطلقتُ نحو القصر. وبينما كنتُ أغادر بيت العبيد، ناداني دورجان قائلاً: "احترس من لسانك أيها العبد. أفضل من المرة الماضية."

لم أكن أمانع في مراقبة كلامي. كنت أتمنى فقط لو كنت أعرف كيف أفعل ذلك مع ألكسندر.

في هذه المناسبة، فتشني الحراس الشخصيون خارج باب الأمير قبل أن يُسمح لي بالطرق. وبينما كانوا يدققون في جسدي بنظرة استعلائية، سمعت أصوات تحطم زجاج مزعجة وشتائم من خلف الباب. وعندما سمعت كلمة "تعالي" بنبرة حادة، شعرت بوخزات خفيفة من آثار رموشي تحذرني.

كان الأمير يرمي الأشياء: وسائد، تماثيل، كؤوس نبيذ وزجاجات، وسكين بين الحين والآخر. من الواضح أن هذا كان مستمراً لفترة طويلة، فقد كانت سجادة الإسكيمو النفيسة ملطخة بالنبيذ ومغطاة بشظايا الزجاج والخزف والريش والملابس والوسائد. خشيتُ أن أجرح جبهتي بالشظايا، وكان من الصعب عليّ أن أنهض بعد أن انحنيت. لذلك بقيتُ منبطحاً. لم أكن أريد أن يلتفت إليّ. وفي الحقيقة، بدا أنه قد نسيني بالفعل.

"لا يُطاق! سأراهم جميعًا أمواتًا. بل سأراهم جميعًا مكبّلين بالسلاسل. سأرسلهم إلى سيد فيشتاري لينشروا السماد في حقوله. إن الفيشتاريين يعرفون كيف يستغلون العبيد."

"ألكسندر، تمالك نفسك." كان هذا صوت اللورد ديمتري، شقيق الإمبراطور. "تصرفك المتهور هو سبب هذه الفوضى."

"أنت تلومني كما يفعل أبي. أنا السبب في أن هذه المدينة مليئة بالحمقى الذين لا يجيدون حتى الكلام، ومع ذلك يجرؤون على التجسس على ابن إمبراطورهم. وأنا أقبل بهذا؟ أنت من يحذرني باستمرار من هؤلاء الأوغاد، والآن يُلامني أحدهم لمجرد أنني عبرت

عن رأيي في رسائل خاصة. أقسم بقرون درويا يا ديمتري، سيزوجني أحدهم إن لم يتوقف هذا."

لقد انهار اتزاني، الذي كان قد اهتز بالفعل بسبب تحذير دورجان.

"ما زلتُ قلقًا على الخليد كما كنتُ دائمًا يا ألكسندر. ولكن إن كنتَ ستصبح إمبراطورًا، فعليك التفكير قبل أن تتصرف. لقد شوّهتَ ابن أقدم عائلة في شمال أزهاكستان. لقد سخرتَ منه وأهنته - وبالتالي أهنتَ أقاربه إلى الدرجة السادسة عشرة - مما أدى إلى عدائهم لك ولوالدك. ومما يزيد الطين بلة، أنك تُطلق تهديداتٍ حمقاء ضد المقربين الجدد لوالدك، وتُسلّم الرسالة إلى أحد..."

أحد المرافقين، وهو بالمناسبة صهر فاني! كيف يمكن لرجل ذكي أن يكون بهذا الغباء؟

"اخرج يا ديمتري. إلى أن يلغى والدي ولادتي، فأنا أميرك. ستُحاسب لسانك الحقير وإلا سأُخرجه من فمك."

"زاندر—"

"خارج!"

لمحتُ حذاءين باليين، مصنوعين بأناقة من أجود أنواع الجلود، يقفان بجانب رأسي.

"ها هو عبدك يا ألكسندر. فكّر جيداً في الكلمات التي ستجعله يدوّنها. أنا أحبك كثيراً، لكنني لن أقف بينك وبين إيفان. لا تفكر في ذلك أبداً."

اصطدم مصباح زيتي بالباب لحظة إغلاقه خلف ديمتري. عرفت ذلك من مزيج الزجاج المحطم، والنحاس المتصادم، ورائحة الزيت المتناثرة على ظهري. بذلت قصارى جهدي لأبقى ساكنًا. كان الوقت نهارًا. المصباح لم يكن مضاءً.

"يا لك من وغدٍ وقحٍ ملعون!" تمنيتُ أن يكون هذا الكلام موجهاً إلى ديمتري. أبقيتُ رأسي على السجادة. كنتُ أفضل أن أبقيه هناك طوال اليوم بدلاً من أن يرى الأمير العلامة التي بالكاد شفيت على وجهي - رسوماتٌ لأسدٍ هائجٍ يُهدد بالتهام عيني اليسرى، وصقرٍ لا يزال ينبض على عظمة خدي. من المحادثة التي سمعتها للتو، كنتُ منغمساً للغاية في هذا الأمر البغيض - وهو آخر مكانٍ ينبغي أن يكون فيه عبدٌ على الإطلاق.

تساقطت قطرات الزيت ببطء على الجزء الخلفي من ساقي. كيف يمكن لشيء معقد ورائع وغامض كالذكاء البشري أن يبتكر عالماً سخيفاً إلى هذا الحد؟

"هيا، خذ قلمك يا عزاريان." تحوّل الغضب إلى مرارة باردة. أمرٌ في غاية الخطورة.

سألتُ بوضوح، لا بهمسٍ جبانٍ مزعج: "في غرفة الخرائط يا صاحب السمو؟" وأبقيتُ وجهي بعيداً.

"لا. هنا بالضبط." أشار إلى مكتب صغير بجانب النافذة حيث كان يقف. كان قطعة بسيطة، مصنوعة من خشب الكرز الداكن، مصقولة ومنمقة بخطوط ناعمة وأنيقة، أقل غرابة وتعقيدًا بكثير من الطاولات والخزائن الأخرى في غرفته. بدت غريبة، لكنها كانت أكثر إرضاءً لعيني. انزلق الدرج بهدوء عند لمستي. بداخله، كانت هناك سكين صغيرة حادة بجانب كومة من الورق الأبيض الكريمي. بينما كنت أفتح الحبر وأستخدم السكين الصغيرة لشحذ الأقلام الثلاثة الموضوعة على...

على سطح المكتب، مرر الأمير يده بشرود على سطح المكتب ذي الملمس الحريري الناعم، وهو يتمتم: "تباً لك يا ديمتري. تباً لك."

"كل شيء جاهز يا سيدي."

انتظرتُ خمس دقائق كاملة بينما كان ألكسندر يحدق من النافذة، يطوي ذراعيه أمام صدره، فكه مشدود، في وضعية غضب مكبوت. عندما بدأ ينطق بكلماته، كانت كحبات البرد الأولى المتساقطة من السحب المنخفضة، قاسية ولاذعة لدرجة أنها ستدفع القرويين إلى الهرولة لجمع أطفالهم ومواشيهم لحمايتهم من غضب العاصفة القادم.

مولى،

أتقبّل توبيخك المُحقّ لقراري بتخفيض رتبة اللورد فاني. لقد كان تصرفًا طائشًا، مُخالفًا لمصالح إمبراطورية ديرزي، ومُخزيًا لي كابنٍ ووريثٍ لك، وبالتالي لك يا أبي وسيدِي. لم تكن هذه النتيجة، ولن تكون أبدًا، غايتي. إنّ مجرد التفكير في إلحاق أدنى ضرر، أو أدنى شائبة نزاعٍ غير لائق بعهدك المجيد أو بشخصك المُكرّم، لهو أمرٌ بغيضٌ لدرجة أنني بالكاد أستطيع النطق به، وكأنّ مجرد نطق الكلمات سيُسوّد لساني ويُسقطه من مرارة الطعم. أقسم بالحياة التي وهبتني إياها وبالشرف الذي غرسته فيّ، لن يتكرر مثل هذا الخطأ أبدًا.

أما عن أي فعل يتجاوز هذا، فلا أقبل أي عقاب. لقد سعى فاني عمدًا وبخطة محكمة إلى تدمير ممتلكات أميره وسيده. وهذا ليس إلا خيانة عظمى. إن التساهل مع مثل هذه الجريمة يُشجع على المزيد من الإهانات أو التمرد الصريح. عقوبة الخيانة العظمى هي الموت أو

الاستعباد. هكذا علمتني يا سيدي الجليل. لقد جلب فاني هذا العار على عائلته، لا أنا.

أما المسألة الأخرى، فتبدو وكأنها تأكيدٌ للنتائج السابقة. إذا كانت عائلة فاني رعايا مخلصين ظلمهم عدل الإمبراطور كما يدّعون، فلماذا يُضبط اللورد سيرج وهو يتجسس على ابن إمبراطوره؟ هذه خيانةٌ أخرى تُضاف إلى الأولى وتُفاقمها. لا بد من دفع ثمنها، وسيدفعه.

كانت كلماتي لابن عمي خاصة، ولن أعتذر عنها.

لقد استقبلتُ رسولَك الخليديّ بحفاوة، وسمعتُ منه توبيخَ إمبراطوري. إن اختيارك لصوتٍ غير ديرزيّ لهذه الرسالة المؤلمة ليس، بالطبع، أمرًا أجرؤ على إبداء أيّ تحفظاتٍ بشأنه. لكني أرفضُ بشدّةٍ صداقةً طويلةَ الأمد مع هذا السيد الخليديّ الذي اقترحته. قد يكون شعبُ الخليديّ حلفاءَ جديرين، ولهم ثقافةٌ تستحقُّ دراستنا، لكن عندما يتعلّق الأمرُ بحكمِ إمبراطوريةِ ديرزيّ، فإنني أرغبُ في وصايتك أنت فقط، يا مولاي. لا وصايةَ أجانبٍ يتفاوضون على السلام مع سيّدهم المكبل.

بكل الاحترام والتواضع العميق،

ألكسندر، أمير أزهكستان

تحفة فنية. لقد انبهرتُ تمامًا ببراعة ألكسندر، وكدتُ أُطلق العنان لكلمات الإطراء. أن يُجسّد ذكرى ملك الخليد مُكبّلًا بالسلاسل... أن يُخفي غباءه وراء هذه المشاعر النبيلة... أردتُ أن أقف وأُصفّق له. ربما كان الرجل أكثر ذكاءً مما بدا عليه في البداية. ربما يكون قد تعلّم درسًا من تلك الفوضى البغيضة.

نفضتُ الرمل عن الرسالة وجهّزتُ الشمع للختم. ضغط ألكسندر بشدة حتى كاد يعصر كل ما تحت خاتمه.

بينما كنتُ أنظف المكتب، بما في ذلك شظايا الزجاج والريش والزيت الذي تساقط من شعري وذراعي، تحدث ألكسندر إلى خادم خارج بابه. وبعد لحظات، دخل عمه ديمتري وانحنى باحترام، معربًا عن دهشته من استدعائه بهذه السرعة.

"لدي مهمة لك يا عمي."

"وما هذا؟"

"أتمنى أن تنقلوا إجابتي إلى والدي."

"أنت تمزح!"

"أبدًا. لا أستطيع أن أثق في رسلي بأنهم لن يتجسسوا على مراسلاتي، لكنك لن تجرؤ على تسليم رسالة مختومة بختم مكسور إلى إمبراطورك، سواء كان أخًا أم لا. أنت الوحيد الذي أثق به، لذلك، يجب أن تذهب." وضع الأمير الرسالة بين أصابع عمه السميكة.

غضب محارب ديرزي بشدة. "أيها الأحمق الشاب—"

"لا تعصي أوامري يا عمي. ليس هذا هو اليوم المناسب لذلك. أريدك أن تغادر في غضون ساعة."

انحنى ديمتري على ركبته مرة أخرى. "سيدي". ثم خرج من الغرفة غاضباً. لم أكن لأقبل أن أكون أحد عبيده في تلك اللحظة حتى لو مُنحتُ حصصاً غذائية تكفيني لسنة إضافية.

لم يمنعني الأمير من التنظيف، حتى عندما انتقلت من المكتب إلى الأريكة، حيث رأيته مسترخياً. كان ينقر بقدمه ويحدق من النافذة مجدداً.

كان الرجل الذي وصل بعده ضخم الجثة لدرجة أن سرواله الذهبي وسترته بالكاد يتسعان لحجمه. كاد المرء أن يشعر بالغثيان من رؤية تموجات الساتان الذهبي المتمايلة. كان شعره الخفيف منسدلاً على رأسه الوردي في ضفيرة حمراء بلون غير طبيعي، وقد مضى وقت طويل منذ أن رأى الصحراء من على ظهر حصان حرب. والمثير للدهشة أنه كان يرمي القوس برشاقة صبي نحيل. قال: "صاحب السمو، كل بركات جبل آثوس وإخوانه عليكم في هذا اليوم المجيد. كيف لي أن أساهم بمواهبي المتواضعة في خدمة سيدي الكريم؟" كان كلامه متلعثماً أيضاً.

"لدينا ضيوف مميزون هذا المساء. أتمنى أن يتلقى كل نبيل من الدرجة الأولى من آل مزراح استدعاءً شخصيًا من كبير أمناء الخزانة. من فمه هو شخصيًا."

بدا الوجه المتورد متوتراً بعض الشيء. "من..."

"من فمك يا فيندولار، من فمك أنت. أعتقد أن عدد هؤلاء السادة يبلغ نحو تسعة عشر. عليك أن تُحيّيهم بأطيب تمنياتي، ووعدي بالتسامح في جميع تعاملاتنا، واحترامي العميق، ورغبتي في التفاوض معهم، والاستماع إلى شكاواهم، والإنصات إلى حكمتهم... أيًّا كانت المجاملات التي تراها مناسبة. أنت حكيم في هذه الأمور أكثر مني."

انحناءة أخرى. "صاحب السمو كريمٌ جدًا مع—"

"ستخبرهم أنني أرغب في استقبالهم في أقرب وقت ممكن، وستقدمهم إلى مبعوث الإمبراطور من شعب الخليد، كوريلي. في الواقع، سيكونون في قاعات الاستقبال الخاصة بي في موعد لا يتجاوز أربع ساعات من دقات الساعة التالية."

"أربعة—"

حياتك في خطر يا فيندولار، إن لم يحضر واحد من هؤلاء السادة. ولن أسمح بإحضارهم بالقوة. يجب أن يأتوا طواعية، رغم كل شيء.

أي... شك... قد يكون لديهم بشأن تفضيلي. هل تفهمني؟

"بالفعل يا سيدي." لقد فقد الرجل الكثير من لونه القوي، وكان بالفعل مترهلاً في ملابسه قليلاً مثل قطعة من ورق الذهب موضوعة بالقرب من الفرن.

"ما هذا القلق يا فيندولار؟ أنت تفهم هؤلاء النبلاء الشماليين كما لا يفهمهم أحد آخر في خدمة الإمبراطور. أنت تعرف الكلمات المناسبة لإيصالهم."

تقويم العمود الفقري المثقل بالأعباء. "سيتم الأمر كما تأمر يا صاحب السمو. إنني أتشرف بثقتك."

حسنًا. ولأن هؤلاء السادة قد يكونون متخوفين - بسبب بعض الشائعات المغرضة التي تقول إنهم ليسوا في حظوة لدي - فسوف ترتبون لهم هدايا ترحيبية مناسبة عند وصولهم. هدايا فاخرة. وبمجرد أن أستقبل ضيوفنا، سنفاجئهم بدعوتهم لتناول العشاء على مائدتي مع ضيفي الخالدي. هل ستصدرون الأوامر اللازمة؟

"بالتأكيد يا صاحب السمو." كلمات أقل مع ازدياد تعقيد مهام الساعات القادمة بشكل لا يصدق.

"اذهب من هنا يا فيندولار، بأسر ع ما يمكن."

"صاحب السمو". انحنى مرة أخرى، ولكن ليس بنفس القدر من الانحناء، ثم تراجع رئيس التشريفات نحو الباب.

"أوه... شيء آخر"، قال الأمير.

"نعم يا سيدي؟"

"لست بحاجة لدعوة سيرج، صهر اللورد فاني. أنا من سيوجه الدعوة بنفسي."

انسحب فيندولار بأوامره، وسرعان ما حلّ محله محارب ديرزي طويل القامة ونحيل يرتدي زي الإمبراطور الأخضر الأنيق. كان وجهه يشبه المجرفة، ضيقًا من الأعلى، ويتسع ليشكل فكًا عريضًا مسطحًا. أومأ الأمير بانحناءة حادة.

"أنت تقدر تعيينك كقائد لحرس القصر والثقة التي أمنحها لك، أليس كذلك يا ميكائيل؟"

"حياتي ملكك، كما تعلم يا صاحب السمو، منذ اليوم الذي كنت فيه في الخامسة عشرة من عمرك وتم إنقاذك—"

لقد أخبرتني مراراً وتكراراً أنك لن تشكك ولن تتوانى في أداء واجبك، مهما طلبت منك. من أجل شرف إمبراطورك وأميرك. هل ما زال هذا صحيحاً؟

"أفضّل الموت على أن أتخلى عنك يا سيدي."

يكفي اتباع تعليماتي بحذافيرها. عليك أن تأخذ فرقة من الحراس المدججين بالسلاح، وبعد أربع ساعات بالضبط من دقات الساعة التالية، عليك أن تعتقل خادمي سيرج من بيت مزراح في منزله. التهمة هي الخيانة العظمى. يجب اقتياده مباشرة إلى الساحة العامة في كفرنا وإعدامه شنقاً. دون نقاش، دون إعلان، دون إنذار مسبق لعائلته. دون أي تأخير على الإطلاق. هل تفهمني؟

"أجل يا سيدي." ولحسن حظ قائد الحرس، لم يتردد صوته كما قد يوحي شحوب وجهه المفاجئ. "أفترض أنه لا يجوز التحدث عن هذا الأمر، حتى في القصر نفسه، إلى حين إتمام المهمة."

"أنت فطن كعادتك يا ميكائيل. في اللحظة التي تُلقي فيها القبض على سيرج، سيُقدّم اثنان من أفضل ضباطك دعوتي الكريمة لضيفنا الخليدي، كوريلي، ليشهد حدثًا بالغ الأهمية. سيُرافق إلى الساحة، حيث سأنتظره. أرغب في أن يكون بجانبي ليشهد هذا الإعدام قبل أن أستضيفه على العشاء."

"كما تشاء يا سيدي، سيتم ذلك. هل لي أن أقترح مضاعفة الحراسة هذه الليلة؟ لدى بيت مزراح قوة نظامية كبيرة، ويمتلكون ما لا يقل عن خمسة قتلة."

لا، لن نضاعف الحراسة. لسنا خائفين من عائلة عريقة خدمت الإمبراطور خدمة طويلة ومتميزة. ستوضحون هذا الأمر لمن في منزل سيرج وللحرس ولكل من يسأل أو يهتم. لقد خلصتُ إلى أن الرجلين فقط، فاني وسيرج، متورطان في الخيانة. لا أحد آخر من العائلة. حتى زوجاتهم وأطفالهم لن يتضرروا من أفعالهم.

"نعم يا صاحب السمو. بعد أربع ساعات من هنا."

"اذهب بحماية الآلهة يا ميكائيل."

"أنت كاهن آثوس يا سيدي، وحكمته ترشد يدك."

بينما انحنى الرجل وغادر الغرفة، تمنيتُ من صميم قلبي لو أنني أؤمن بإلهٍ ما - سواءً كان إله الشمس ديرزي أو غيره - لأظن أنه مهتمٌ بمؤامرة ألكسندر. كان الأمير إما استراتيجيًا بارعًا بشكلٍ استثنائي، أو أحمقَ مجنونٍ ارتدى تاجًا على الإطلاق. ظننتُ أنه الثاني. ظننتُ أنه يُشعل حربًا من أجل وجهٍ قبيحٍ وعبدٍ ثمنه عشرون زينارًا.

بمجرد أن غادر قائد الحرس، استأنفت تنظيفي على عجل، وقد توقفت بسبب الأحداث غير العادية التي شهدتها.

"ما اسمك أيها العبد؟"

كنتُ آمل ألا يُبالي بمعرفة ذلك. كان عليّ أن أعرف أن الأمل أضعف من ذلك. لقد كان ذلك أقصى درجات الاستعباد - أن أُجبر على التخلي عن أعمق أسراري، عن أكثر جوانبي خصوصية، لشخص لا يملك أي حق، لا صداقة ولا قرابة ولا حتى ضيفة، لشخص لا يُدرك قوة الأسماء ولا الخطر الذي تُسببه للروح. "سيون، يا سيدي". لم يكن هناك انتهاك للجسد أو العقل أشد مرارة من ذلك، باستثناء الطقوس التي كانوا يستخدمونها لتجريدنا نحن الإزاريين من قوتنا.

"أنت رجل محظوظ يا سيون."

توقفتُ ويديّ ممتلئتان بقطع الخزف المكسور والريش، أحاول منع قدمي التي جرحتها للتو بشظية زجاج من سكب الدم على السجادة. أبقيتُ عينيّ متجنبةً النظر وحاولتُ كبح جماح ضحكي الهستيري.

"عندما اكتشفت أن محتوى رسالتي قد وصل إلى مسامع خليد... وبالتالي إلى مسامع والدي، افترضت أنك أنت من فعل ذلك. الموت الذي خططت له لك كان عملاً فنياً."

ابتلعتُ ما كان يملأ جوفي.

"لكن دورجان ورجاله أقنعوني بأنك كنت محتجزاً بإحكام منذ اليوم الذي كتبت فيه كلماتي، وبالتالي، من بين جميع سكان هذه المدينة، أنت الوحيد الذي ثبتت براءته. أليس هذا مثيراً للسخرية؟"

"كما تقول يا صاحب السمو." لقد مر نصف عمر منذ أن اعتبرت نفسي محظوظاً على الإطلاق.

"سمعت أنكم يا أهل إزار تدّعون أنكم تستطيعون رؤية المستقبل. هل هذا صحيح؟"

"لو كنا نستطيع رؤية المستقبل يا سيدي، كيف لم نكن لنمنع هلاكنا؟"

"لقد طرحت سؤالاً. ولم تجب على سؤالي." إذن لم يكن أحمق تماماً.

"لا أحد يستطيع أن يرى المستقبل يا صاحب السمو."

"شفقة."

أرسلني ألكسندر لجلب النبيذ، وأرسل عبيد المنزل الآخرين لتنظيف المكان، وخدمه الشخصيين للاستحمام وتلبيسه. ما إن وجدت ما يحتاجه وسكبت له كأسًا من النبيذ، حتى أعادني إلى بيت العبيد. كان عليّ أن أغتسل وأتوجه إلى المطابخ، حيث سأتعلم عادات الخدمة على مائدة الأمير... على أن أبدأ في تلك الليلة.

الفصل الرابع

هيمن القصر الصيفي لأباطرة الدرزي على وادي نهر غوجان الضبابي لنحو أربعمائة عام. بُني القصر على موقع حصن قديم كان يحمي ممرات الجبال من البرابرة القادمين من الشمال، وقد توسع على يد أسلاف ألكسندر واحدًا تلو الآخر. وكلما اتجهنا شمالًا، اتسعت حدوده.

كلما امتدت رقعة الإمبراطورية، قلّت تحصينات القصر وازدادت فخامته. عندما وصلتُ إلى هناك، كانت أسوار القصر المترامية الأطراف تُحيط بنحو تسعين هكتارًا من المباني والساحات، وورش العمل، والثكنات، ومستودعات الأسلحة، ومخازن المؤن، والحدائق، والإسطبلات. أما مدينة كفرنا نفسها، فكانت بالكاد أكبر منها.

كانت الغرف الأحدث في القلعة الرئيسية تتميز بنوافذها الكبيرة وأسقفها العالية، وأعمدتها وأقواسها المزخرفة، ونقوشها الأنيقة، في بهجةٍ بدت غريبةً في بيئة الجبال القاسية. ولمدة ستة أسابيع رائعة في السنة، كانت أنسمة الإمبراطورية تهب عبر الممرات المقوسة الرشيقة، وتزهر الحدائق في بحرٍ من الزهور. لكن في معظم الأيام الأخرى، كانت الرياح العاتية تهز النوافذ الضخمة وتعصف بالساحات الموحشة. وفي الشتاء الطويل، كانت تُعلق السجادات السميكة والمنسوجات على كل فتحة، مما يجعل ساعات النهار القصيرة معدومة لمن لا يخرجون. وكان لا بد من نقل كميات هائلة من الحطب من غابات الجبال الكثيفة لإبقاء المواقد مشتعلة. ومع ذلك، كانت الحرارة تتسرب إلى أعلى لتتجمع في أسقف القبو، وكان السكان... وبالتأكيد العبيد الذين يرتدون ملابس خفيفة... يعانون من البرد الدائم.

كان هذا القصر سيمثل عالمي بأكمله إلى أن قرر الأمير التخلص مني. نادرًا ما كان يُسمح لعبيد ديرزي بالخروج من أسوار سيدهم. كنا دائمًا مُقيدين بالسلاسل ليلًا وتحت رقابة مشددة نهارًا. ومع ذلك، وبالمقارنة مع عوالم العبيد الأخرى، كان القصر الصيفي مكانًا مناسبًا تمامًا، حيث يضم مجموعة متنوعة من الشخصيات والأحداث الشيقة التي يمكن مشاهدتها.

كان زيرون، العبد الذي أُمر بتعليمي عادات مائدة الأمير، متأكدًا من وقوع خطأ فادح. "إزاري، هارب موسوم، يخدم الأمير وضيوفه؟ مستحيل. لن يكافئ سموه مثل هذا الانحراف، ولن يتسامح مع وجه مشوه أمامه. أنت لا ترتدي حتى الفينزاي..." شدّ سترتي ونظر إلى ظهري. "كما توقعت... بربري عاصٍ. مستحيل. وقاحة فاضحة."

سعى ثلاث مرات للتأكد من الأوامر، حتى بات هو نفسه مُعرَّضًا للجلد. مشكلته، بالطبع، أنه كان بصريًا، مما يعني أنه كان يعتبر نفسه أعلى بكثير من مستوى العبد العادي. كان البصريون قبيلة صحراوية تعبد الخيول، وقد حلت بهم المصيبة بقتل أمير من قبيلة الدرزي عندما كانوا يحاولون اغتيال طاغيتهم قبل نحو خمسين عامًا. على الرغم من أنهم كانوا مرتبطين ثقافيًا ودمويًا ومصاهرين، ومتحالفين في الحرب لثلاثمائة عام، إلا أن الدرزي دمروا كل مدينة وقرية بصرية، وقتلوا أو استعبدوا كل رجل وامرأة وطفل بصري. مع ذلك، كان عبيد البصريين يعتقدون أنهم شركاء في ملكية كل منزل من منازل الدرزي، وكانوا أكثر اهتمامًا بالحفاظ على تقاليد الدرزي من اهتمام الدرزي أنفسهم.

"إن عادات مائدة ديرزي راقية للغاية ومحددة للغاية. ما هو مفهومك عن التقديم الأنيق للأطعمة الشهية؟ كيف يمكنك معرفة طقوس غسل اليدين أو كيفية سكب الطعام؟"

"زيرون، لقد خدمتُ في أربعة بيوت نبيلة من بيوت ديرزي، كان آخرها بيت بارون شديد التمسك بالتقاليد من أكثر البيوت النبيلة تمسكًا بالتقاليد، بيت غوروش. أعرف كيف أضع اللحم فوق الرغيف. أعرف كيف أجثو خلف الوسائد مباشرةً، ومع ذلك أقدم الطعام دون أن ألمس الضيف. أعرف كيف أسكب النزريل فوق الليمون، بدلًا من إسقاط الليمون في الشاي. أعرف أنه لا يجوز أبدًا تقديم اللحم أو الجبن أو البيض إذا كانت سكين الضيف موضوعة بشكل عرضي. فقط أخبرني كيف تختلف مائدة الأمير. إذا أخطأتُ في شيء، فسنتحمل كلانا العواقب."

بدا ذلك وكأنه يُخمد اعتراضاته، مع أنه كان حريصًا جدًا على عدم لمسي، وكان يُشير لكل عبد آخر يمر بنا إلى أنني أحقر الناس ولا يُمكن

الوثوق بي. ظننتُ أن ذلك لن يُغير شيئًا إن كان مصيري البقاء في زنزانة بيت العبيد إلى الأبد بدلًا من الانضمام إلى الرجال الآخرين الذين ينامون مُقيدين بالسلاسل إلى الجدران فوق رأسي كل ليلة. الثقة بين العبيد شيء هش، فإذا فُقدت يصعب استعادتها.

لو تعافى المرء، لوجد نفسه منبوذًا بين المنبوذين. لم ألومهم. فقد سُلبت مني الثقة منذ سنوات طويلة. لكن زرون كان معلمًا جيدًا. فبحلول الوقت الذي انتهت فيه الجواري من وضع الأقمشة المزخرفة والأطباق الذهبية على الطاولات المنخفضة، ووضع أباريق النبيذ، ونشر الوسائد المنعشة بجانبها، كان قد ملأ رأسي بكل تفاصيل أذواق الأمير.

لم يكن لديّ وقتٌ للتفكير في مكائد ألكسندر. عندما حانت الساعة، الساعة التي حددها الأمير لتنفيذ خطته، كنتُ أحاول جاهدةً ألا أسقط صينيةً عليها واحد وعشرون حوضًا صغيرًا من الماء الدافئ المعطر، كانت بين المطبخ ومائدة الأمير. كانت هناك ثلاث طاولات مُعدّة في إحدى غرف الطعام الصغيرة. طاولة الأمير، المُعدّة لواحد وعشرين شخصًا، كانت مرتفعةً فوق الطاولتين الأخريين على منصةٍ منخفضة. بدا وكأن ستين أو سبعين شخصًا سيجلسون على الطاولات المنخفضة ليشهدوا ما يُخطط له الأمير. تسببت نسمة هواء باردة في تذبذب ألسنة اللهب، وكان أحد الخدم يُشعل الموقد الكبير في زاوية الغرفة خلف المنصة. من يجلس على أقصى يسار الأمير سيُشوى، ومن يجلس على أقصى يمينه سيتجمد.

بعد حوالي خمس عشرة دقيقة من دقات الساعة، بدأ رجال ونساء ديرزي، بملابسهم الأنيقة ومجوهراتهم البراقة، بالتوافد إلى غرفة الطعام، يتنافسون على أماكن الجلوس على الطاولات السفلية. لم يكن البارون يستضيف أحدًا، ولا السيد الذي سبقه، وهو تاجر متواضع الحال لم يكن بمقدوره تحمل تكاليف ذلك، لذا فقد مرّت خمس سنوات تقريبًا منذ أن كنت وسط هذا العدد الكبير من الأشخاص المعادين في آن واحد. شعرتُ بالقلق، لكنني شغلت نفسي بالاستماع إلى أي حديث قد يكشف ما جرى مع آل مزراح. لا شك أن هناك شائعات عن إعدام أو استدعاء سادة مزراح. لكنني لم أسمع شيئًا سوى الفضول حول من سيجلس على المائدة الرئيسية، وأي سيدة أعجب بها الأمير هذا الشهر، ومتى سيشرع في شؤون دار هيجد، وهو اجتماع شتوي لعائلات ديرزي الشمالية، وهو الأمر الذي جلب ألكسندر إلى كفرنا في المقام الأول.

تساءلتُ إن كان ألكسندر يُخطط لقتل النبلاء الثمانية عشر. من المؤكد أنه لم يكن بتلك السذاجة، مع أن والده فعل شيئًا مشابهًا في أكثر من

مناسبة. كانت الرهائن تكتيكًا آخر مُفضلاً لدى آل ديرزي، لكنه بدا واضحًا جدًا. لن يكون النبلاء ساذجين لدرجة إلقاء أسلحتهم عند دخول القصر، وإذا هددهم ألكسندر، فسوف يُقاتلون. إلا إذا... ألقيتُ نظرة خاطفة على طاولة كبار الشخصيات المُرتبة بأناقة.

بـ ٢١ مقعدًا. كان لدى قبيلة الدرزي عادات ضيافة صارمة للغاية، مستمدة من أصولهم في الصحراء. عندما كان الماء هو الحياة للجميع، كان الحرمان منه يُعتبر جريمة لا تليق بالمحارب الحقيقي. كان بإمكان ألدّ الأعداء أن يتشاركوا بئرًا بسلام في يوم من الأيام، حتى وإن كانوا يخططون لقتل بعضهم بعضًا في ساحة المعركة في اليوم التالي. الضيافة...

فُتحت الأبواب المزدوجة الضخمة خلف المنصة على مصراعيها، وبدأ صف من الرجال المُغطّين بالفراء - جميعهم يرتدون وشاح الرأس الحريري المُخطط باللون البرتقالي الخاص ببيت مزراح - بالدخول والجلوس على المائدة الرئيسية. كانوا ينظرون إليهم بشك وريبة، لكن بدا عليهم الارتياح عند رؤية المائدة، والضيوف الآخرين الذين يتبادلون الأحاديث، وأطباق الوليمة التي تحملها مجموعة من الإماء. لم يكونوا يعلمون. لم يكن لدى هؤلاء المحاربين الأقوياء الذين لا يرحمون أدنى فكرة أن جثة قريبهم معلقة هامدة متجمدة في الساحة العامة لكافارنا، بعد أن أعدمه الأمير ذو الشعر الأحمر المبتسم قبل أقل من ساعة، والذي تبعهم بلطف عبر الأبواب، مُكرمًا كل رجل منهم باهتمامه الخاص. لو شربوا الماء فقط، لما كشفوا عن أنفسهم، ولكن في اللحظة التي يأكلون فيها لحم ألكسندر أو يشربون نبيذه، سيصبحون ضيوفه وأصدقائه، وتُطوى جميع الخلافات السابقة، وتُنسى جميع المظالم... سواء كانوا على علم بها أم لا. لم يكن بإمكانهم الانتقام للإعدام شنقاً دون خيانة ألف عام من تقاليد ديرزي، لأنهم كانوا سيشاركون ألكسندر مائدته بعد وقوع الجريمة.

انتابتني دهشةٌ شديدةٌ من جرأة الأمير، ومن جسامة المخاطرة التي أقدم عليها، فجلستُ في مؤخرة المائدة، وساعدتُ في ترتيب الوسائد والسيوف والأحذية والأردية حتى استقر الضيوف في منزل الأمير ألكسندر. وكان أكثرهم عبوسًا اللورد باراش، والد فاني، بشعره الرمادي المضفر الذي يتدلى أسفل كتفه العاري، جالسًا في أبعد مكان عن الأمير. وبدا من هيئته أنه لم يكن هناك إلا بأمرٍ من شيوخ بيته.

حان الوقت لأضع جانباً تخميناتي المشتتة خشية أن يلاحظني أحد. كان من المعروف عن نبلاء ديرزي قطع أصابع العبيد أو حرق أيديهم في الشاي المغلي إذا سقط الطعام أو انسكب أو قُدِّم بشكل غير لائق. ملأتُ كؤوس النبيذ الكريستالية بعناية، ووزعتُ أرغفة الخبز الساخن

المسطح بالأعشاب، ثم قدمتُ أطباق لحم الضأن المشوي الشهي ولحم الخنزير المقرمش ذي القشرة البنية اللذيذة. كانت هناك فواكه للتقطيع أو التقشير، وبيض مخلل، وتمر مُحلى، وسمك صغير مملح يُوضع لمن يرغب فيه.

نزرهيل، الشاي المر، يُسكب. المزيد من النبيذ. دروس زرون ودروس معلمين آخرين منسيين تتردد باستمرار في رأسي - خلاصة علم عبد.

اركع دائمًا خلف الضيف مباشرةً. لا تدع جسدك يلامسه أبدًا. قدّم الطعام للأمير أولًا. إذا أشار إليه أو أومأ برأسه - حتى لو كانت الإيماءة خفيفة جدًا لدرجة يصعب ملاحظتها - قدّم للمتذوق، العبد المرتجف الجالس في الظل خلفه، نصيبًا أولًا، ثم ضع الباقي على طبق الأمير. لا تتنفس أثناء تقديم الطعام للأمير، لئلا يزعجه أنفاسك أثناء العشاء. لا تدع الضيوف ينفد منهم اللحم أبدًا، لئلا يبدو الأمير بخيلًا. لا تدعهم ينفد منهم النزرهيل أبدًا، فهذا يُعتبر نذير شؤم. السيد ذو الشعر الرمادي يضع سكينه على طبقه. إنه في منتصف الإفرايل، صيام التطهير.

لا لحوم، ولا أجبان، ولا بيض - لا شيء من الحيوانات يُسمح له بتناوله. لا نبيذ ولا مشروبات روحية. فقط فاكهة وشاي. عندما ينتهي الأمير من طعامه، لا يُقدّم أي شيء آخر لأي ضيف. يجب غسل اليدين قبل...

متى سيعلمون بذلك؟ متى سيدركون كيف خُدعوا؟ ماذا سيفعلون؟ متى سيفهمون لماذا بقيت وسادة واحدة، المقعد في أقصى يسار الطاولة، شاغرة؟ ستون شاهدًا على استضافتهم، عدد كبير جدًا بحيث لا يمكن قتلهم لتصحيح خطئهم. حتى اللورد باراش أكل وشرب.

سأل الرجل النحيل ذو الرداء الأرجواني الداكن، الذي كان يجلس إلى يسار الأمير: "ألا يوجد شراب العسل أو البراندي في منزل الأمير ألكسندر؟ أفضل مشروبًا أحلى لأتقي برد الليل."

قلتُ بهدوء: "بالتأكيد يا سيدي"، ثم أحضرتُ بسرعة براندي سوزان من الخزانة الجانبية. كان أحلى وأقوى أنواع البراندي المتوفرة. ركعتُ خلفه وسكبتُ بضع قطرات في كأسه. "إن لم يُعجبك، يُمكنني إحضار شراب العسل".

رفع الكأس وقال: "آه، اختيار موفق". وبينما كنت أملأ كأسه بالسائل الكهرماني الداكن، لفّ عباءته المبطنة بالفرو حول كتفيه. "لا يمكن لأحد أن يخطئ بين قصر الصيف وقصر الشتاء. من المؤكد أن الأسماء معكوسة". كان صوته الرقيق يحمل لكنة خفيفة.

ألقيتُ نظرة خاطفة على وجهه. لا بدّ أنه الخليد. كيف لم ألحظ مدى اختلافه؟ شعر أشقر فاتح قصير ومستقيم يحيط بوجهه. بشرة ناعمة شاحبة بيضاء، تختلف تمامًا عن...

وجهٌ أحمرٌ مُحمرٌّ، مُتأثّرٌ بعوامل الزمن، بلون الديرزي، أو بلون ذهبي مُحمرّ، كلون عرقي. وجهٌ وسيمٌ نحيل. لا يبدو عليه التقدم في السن. مُبتسم. وبينما كنتُ أُشبع فضولي العابر، التقت عيناه بعينيّ... عينان بلون أزرق جليدي، صافيتان كصفاء سماء الصباح في أعلى الجبال... عينان أرعبتاني أكثر من أي شيء رأيته في ستة عشر عامًا، أكثر من الكوابيس، وأكثر المواقف رعبًا في شبابي، فلم يسبق لي أن واجهتُ عينين كهاتين عاجزتين عن الدفاع عن نفسيهما. لم أجد صعوبة في كتم أنفاسي. لم أستطع التنفس. انحنيتُ برأسي، مُنهيًا التواصل البصري فورًا. لم يُجدِ البراندي نفعًا. لا شيء يُمكنه أن يُدفئ هاتين العينين أو ما وراءهما.

ظلّت دروسي تدور في رأسي بلا معنى.

ضع اللحم دائمًا فوق الخبز. لا تنظر أبدًا في عيون الضيوف. لقد قُتل عبيدٌ لمجرد النظر في عيون ضيف...

...ولم تكن تلك العيون كعيون تلك التي لمحتها للتو. هل كان يعلم أنني عرفته؟ هل كان يعلم أنه من الممكن، أن يكون بيننا من تدربوا على رؤية ما يخفيه في داخله؟ مهما كنتُ عاجزًا، ومهما كنتُ تائهًا، ومهما كنتُ بعيدًا عن الشخص الذي كنتُ عليه والحياة التي عشتها، ما زلتُ قادرًا على تمييز الشيطان.

وضعتُ زجاجة البراندي في متناول يده وبدأتُ بسحب يدي، لكنه أمسك معصمي بأصابع قصيرة باردة ذات بشرة ناعمة مشدودة وأظافر مُقلمة بعناية. لا شك أن هناك أسبابًا كثيرة تجعل يدي العبد ترتجفان.

قال بصوتٍ خافتٍ لدرجة أن الأمير على يمينه، ولا سيد ديرزي على يساره، لم يسمعاه: "أنتِ هي". جذبني إليه، ولوى معصمي بأصابع فولاذية حتى أصبح وجهي ملاصقًا لوجهه. أبقيتُ عينيّ مثبتتين على الطاولة. ثم بيده الأخرى، تتبع رسم الأسد والصقر على خدي، فأشعلت لمسة أصابعه الباردة لهيبًا على جلدي كان أشدّ فظاعةً من حديد الحداد المتوهج. "أنتِ سبب كل هذا. أنتِ الشرارة..." شعرتُ به يحاول تقشير جلدي بنظراته الحادة. "...الممتلكات المتضررة. هذا ألكسندر ذكيٌّ فوق كل تصوراتنا. أن يُحضركِ إلى هنا على مرأى منهم... ساحر. خطير." لم يكن يُخاطبني، بل كان يُخاطب نفسه. حسنًا. لم يستطع التعرّف عليّ؛ لم يكونوا يعرفون أسماءنا. لم أُرِد شيئًا... لا شيء... له علاقة به.

ربما كان عليّ أن أتفحص الغرفة وأحاول قراءة النفوس لأجد روحًا تستحق الإنقاذ. ربما كان بإمكاني أن أستجمع...

مهارةً في التعمق في النظر حتى بعد كل هذا الوقت. لو كنتُ أهتم لأمر رجلٍ أو امرأةٍ في ذلك الجمع، لنهضتُ وصرختُ محذرًا، ولرحبتُ بأي عقابٍ سيأتي. لكن الزمن علّمني أن الاهتمام بأي كائنٍ حيّ يحمل عواقبَ مؤلمةً لا تُطاق، عواقبَ تتجاوز الجلد أو الجوع، وحتى في ظلّ أشدّ أنواع الرعب، لم أستطع مواجهتها. تمنيتُ بشدةٍ العودة إلى جحري في الأرض، عاريًا في الظلام. مختبئًا. نائمًا. وحيدًا.

"سيون!"

أطلق الخليد يدي، حتى وأنا ألعن الأمير لأنه نطق باسمي الحقيقي أمام الشيطان.

تحركت بسرعة حول الخليد وركعت بجانب ألكسندر، وأحنيت رأسي قدر استطاعتي دون أن أضعه في حجره أو طبقه. "صاحب السمو".

"أتمنى منكم غسل أيدي ضيوفي على الطاولة."

"سيدي..." كدتُ أختنق بالكلمات التي كادت تخرج من فمي. ما الذي يفعله بحق السماء؟ عادةً ما يكون غسل الملابس بعد الطعام من مهام العبيد الأصغر سنًا... نساءً أو شبانًا جذابين يُتاحون لليلة واحدة للضيوف الذين يُعجبون بهم. لم يُطلب مني القيام بذلك منذ أن تجاوزت الخامسة والعشرين من عمري، وقد تراكمت عليّ ندوبٌ كافيةٌ تجعلني أقل جاذبية.

"وستستخدمين هذا كقطعة قماش للتجفيف." وضع في يدي وشاحًا حريريًا مخططًا باللون البرتقالي. وشاح سيرج.

كنت عاجزاً عن الكلام. انحنيت برأسي وقلت صلاة المحتضر... رغم أنني لم أعد أؤمن بالصلاة.

كانت الغرفة تعجّ بالضجيج، من أحاديث وقرقعة الأطباق والزجاجات. لم ألحظ ذلك إلا عندما مشيتُ بذهول إلى طرف الطاولة لأتناول إبريق الماء الساخن الذي تطفو فيه بتلات الورد. كان السحرة يرسمون حلقات من النار في الهواء، ويُخرجون منها باقات من الزهور، بينما كنتُ أصب الماء في الوعاء الخزفي الصغير بجانب سيد مزراهن الأول. مع أنني لم أستطع النظر إليه، شعرتُ بنظراته عليّ وأنا أمدّ الوعاء. لا بدّ أنه فضولي. عبدٌ واحد، واضحٌ أنه تجاوز ريعان شبابه، ليقوم بالغسيل. غمسَت يداه الدهنيتان ذواتا الأصابع السميكة في الوعاء، وحرّكتا الماء فيه قليلًا، ثم توقفتا فجأة. لقد لاحظ الندبة على وجهي. لم يستطع تجاهلها وأنا أركع أمامه. بدأت يداه ترتجفان وهو يُخرجهما

من الماء الساخن. أفرغتُ الوعاء في وعاءٍ للنفايات، وسحبتُ الوشاح. أنينٌ مُؤلمٌ من

انبعث من صدره ذعرٌ مكتوم، وما كدتُ ألمس يديه الممدودتين بالوشاح حتى قبض قبضتيه. هيأتُ نفسي لضربه، لكنه لم يفعل. لم يستطع. وللمرة الأولى، باركتُ تقاليد ديرزي. ثم انتقلتُ إلى الرجل التالي.

أمسك أربعة منهم بالوشاح، واضطررتُ للبقاء جاثيًا أمامهم ويدي مفتوحة، أنتظر حتى يُعيدوه إليّ. كاد ثلاثة منهم أن يكسروا أصابعي. أمسك ثلاثة آخرون بأذني ولووا رأسي لينظروا عن كثب إلى العلامة على وجهي. أما السبعة الأخيرون، فقد رفضوا غسل أيديهم رفضًا قاطعًا. مع أن هذا التصرف يُعتبر همجيًا بعض الشيء، إلا أنه لم يكن خرقًا كاملًا للآداب. لم يقتلني أحد منهم. لم يخالف أحد منهم قوانين الضيافة. كانوا يعلمون أنهم مذنبون. لقد تخلوا عن حذرهم استجابةً لأي إغراءات همس بها فيندولار الضخم في آذانهم. ربما أقنعوا أنفسهم بأن فاني كان قبيحًا وغبيًا بالفعل، ولا يستحق إغضاب وريث الإمبراطور أو مبعوثه الخليدي. لم يكن بوسعهم لوم أحد سوى أنفسهم.

تركتُ الخليد والأمير إلى النهاية، فقد كانت تلك هي العادة. بالكاد استطعتُ أن أجبر نفسي على لمس أصابع الخليد الصغيرة مرة أخرى، لكن على الأقل لم أضطر إلى النظر إليه. بعد أن نظفتُ يدي الأمير، رفع ألكسندر ذقني وابتسم لي بخبث كما لو كنتُ شريكته لا مجرد أداة في يده.

"أحسنتِ يا سيون. ألسنا نحن شعب ديرزي شعبًا مهذبًا؟"

همستُ قائلًا: "نعم يا سيدي".

"أنت مطرود. لم يطلبك أي من ضيوفي."

وضعت رأسي على الأرض وانسحبت. لم أستطع الخروج من القصر بالسرعة الكافية، وبالكاد وصلت إلى هواء الليل البارد قبل أن أتقيأ ما تبقى من معدتي.

الفصل الخامس

لم أستطع النوم تلك الليلة. جربت كل ما أعرفه، لكن لم يسبق لي أن شعرت ببرد قارس كهذا، أو ظلام دامس كهذا. سواء أغمضت عيني أم فتحتهما، لم أرَ شيئًا سوى عيون الخليد الزرقاء الجليدية، وتحول ملاذي المظلم إلى بئر من الجنون. انكمشت في الزاوية، وسرتُ خمس خطوات جيئة وذهابًا من جدار إلى جدار حتى شعرت بالدوار ولم أعد أستطيع الوقوف... أي شيء لأمنع نفسي من التفكير، من التذكر، من الرؤية. حدقت في السقف حتى وجدت خيط الذهب الذي يُحدد مربع باب المصيدة، وتمسكتُ بذلك الخيط كما يتمسك الطفل الغريق بيد أبيه. ترجمتُ الخطوات والأصوات المكتومة فوق رأسي إلى بشر لهم أرواح، لهم عيون ليست عيون شيطان. وعندما ساد الصمت واختفى خيط الذهب، تأوهتُ ودفنتُ وجهي بين ذراعي.

ليس أسبوعاً هذه المرة يا دورجان. ولا خمسة أيام ولا ثلاثة. إن كان لديك ضمير يا سيد العبيد، فلا تتركني هنا طويلاً وإلا ستجدني مجنوناً هائجاً عندما تفتح الباب مجدداً.

ربما ظنّ المرء أن الشيطان قد استوطنني، متغذياً على غضبٍ لم أعد أتعرف عليه في نفسي، لأني منعته منه طويلاً. أقنعت نفسي بأنه لا يمكنه أن يعرفني. فليس من طبيعة الشيطان أن يربط الجسد بمن صادفهم في أزمنة وأماكن أخرى. لكن هذه الحجج المنطقية لم تُجدِ

نفعاً حين كنتُ أجلس عارياً في الظلام وأحاول جاهداً أن أغرق في النوم.

حسنًا، يمكننا دائمًا تحمل أكثر مما نعتقد أنه ممكن.

في اليوم الثاني بعد وليمة الإعدام، كنت أنام مجدداً، وإن لم يكن نوماً هانئاً. تلقيت ثلاث وجبات من الطعام والماء، ولذا أعتقد أن ثلاثة أيام مرت قبل أن يُنزل دورجان سُلّمه إليّ مرة أخرى. مع أنني استعدت رباطة جأشي، إلا أنني كنت قد صعدت السُلّم قبل أن يلامس الأرض تقريباً.

نظر إليّ سيد العبيد مفتول العضلات بفضول بينما كنت أركع مرتجفاً في القش النظيف لمنزل العبيد المهجور. كان ذلك في الصباح الباكر.

"لم تكن هذه الأيام الأخيرة سهلة كما كانت من قبل، أليس كذلك؟ لقد سمعتك تصرخ."

"لا يهم يا سيدي دورجان." كانت ثكنات العبيد من أكثر الأماكن ضجيجًا في العالم للنوم. كان لدى معظم العبيد ما يكفي من الذعر لتغذية كوابيسهم؛ وكان لديّ أكثر من معظمهم. لكن لم يكن بوسع المرء أن يُظهر أي تلميح للجنون. كان العبيد المجانين خطرين؛ كانوا يختفون بسرعة كبيرة، ولا يسأل المرء أين يختفون.

"استعدوا. عليكم التواجد في قاعة الاستقبال الأولى اليوم. قيل لي إن هناك طاولة بجانب كرسي الأمير. عليكم الجلوس على الطاولة، مستعدين للكتابة، بحلول الساعة الأولى من المناوبة الثالثة. يمكنكم الحصول على الورق والحبر وأي شيء آخر تحتاجونه من رئيس الخدم الثالث. هل لديكم أي أسئلة؟"

سألت عن مكان وجود المشرف الثالث، ثم سألت عما يُتوقع مني كتابته في قاعة الجمهور الأولى الكبيرة ذات الهواء البارد.

"إنها بداية دار هيجد اليوم. ستكون هناك رسائل وتقارير وأحكام وإعلانات."

"هل من المعتاد أن يكون العبد...؟"

أمال دورغان رأسه جانبًا وألقى نظرة خاطفة عليّ. "لا، ليس هذا معتادًا على الإطلاق. لقد سمعتُ" - ثم حوّل نظره إلى الجانب الأيسر من وجهي - "أن سموّه ربما يُفكّر في عرض تذكير بسيط بالأحداث الأخيرة عندما يأتي أسياده." استدرك دورغان نفسه واحمرّ وجهه. كان يُفكّر بصوت عالٍ بدلًا من أن يُجيبني. لقد صادف أن نطقتُ بالسؤال الذي كان يدور في رأسه بالفعل. "انصرف إلى شأنك واحرص على كلامك."

قلتُ: "دائمًا"، وانحنيتُ له قبل أن أتوجه إلى الصهريج. في ذلك الصباح الرمادي، اضطررتُ لكسر الجليد لأصل إلى الماء لأغتسل. كان هناك آخرون قبلي، فقد كان سطح الصهريج أشبه بسلسلة جبال جليدية مصغرة: مكسورة، ومُزاحة جانبًا، ومتجمدة مرة أخرى، كما لو أن يدًا خفية فعلت ذلك. كانت سكين الحلاقة الباهتة ملقاة بين خصلات شعر متجمدة من كل لون وملمس. لم أرَ بعدُ أولئك الذين شاركوني بيت العبيد. ربما كان الرجال الذين ينزلقون عبر ممرات القصر ومطابخه بشعرهم القصير وقبعاتهم، ممثلين في فرقة جوالة، على حد علمي. ثلاثة أشخاص فقط في القصر كانوا حقيقيين. دورجان، لأنه كان يُطعمني ويتحدث معي.

ألكسندر، الذي سيطر على حياتي. وخليد... الشيطان. ارتجفتُ عند تذكره وحاولتُ نسيانه. لم يكن هناك ما يمكن فعله حيال ذلك الشيطان.

كان دورجان يجلس على الأرض في أقصى بيت العبيد أمام موقد صغير، يشحذ سيفًا طويلًا قديم الطراز. وبينما كنتُ أغادر، رفع نظره وقال: "قيل لي إن لك اسمًا".

توقفت، لكنني لم أقل شيئاً، مستعداً لتذوق مرارة الحقيقة مرة أخرى.

"لا يحب الإزاريون ذكر أسمائهم." استأنف شحذ سكينه، محركًا النصل بإيقاع منتظم على الحجر الرمادي. كانت عبارةً قاطعة، وليست سؤالًا، ومع ذلك بقيت مفتوحة في النهاية. لم ينتهِ مما أراد قوله. كان الأمر غريبًا للغاية.

قلتُ له بنفس الأسلوب: "أنت تعرف شيئاً عن الإزاريين"، مع أنني كنتُ متأكداً من أن ما يعرفه لا يقترب من الحقيقة. الخصوصية... السرية... كانت شريان حياتنا.

"عائلتي من الجنوب. كاريش."

كانت كاريش بلدة صغيرة تقع في سهول مانجانار الجنوبية المتموجة، على بُعد أربعة أيام تقريبًا من حدود إزاريا. كنا نتاجر في كاريش عندما كنت صبيًا، وقد بدت لي مدينةً مكتظةً كمدينة كبيرة، كطفلٍ قادمٍ من أرضٍ ذات مستوطناتٍ صغيرةٍ متناثرةٍ في الغابات. قلتُ: "كاريش تُنتج أجود أنواع الجعة في الإمبراطورية، وطحاننا لا يشتري إلا القمح".

"أجل." ضغطت الأصابع السميكة النصل اللامع على الحجر. انتهى الحديث. لقد قيل أكثر بكثير مما تستطيع الكلمات التعبير عنه.

انطلقتُ نحو الباب مجدداً، ثم توقفتُ، وأغمضتُ عينيّ، وتحدثتُ بهدوء من فوق كتفي: "يا سيد دورجان، إياك أن تتقاطع طرقك مع الخليد".

لمحته من طرف عيني وهو يرفع رأسه فجأة، وشعرت بنظراته تلاحقني وأنا أركض عبر الفناء المزدحم نحو باب المطبخ، ظانًا أنني أغبى إنسان على وجه الأرض. لم تُغير كلمة طيبة شيئًا. كان دورجان يحمل سوطًا.

كان يُعقد مجلس دار هيغيد الشتوي لمدة ثلاثة وعشرين يومًا في الشهر الأول من السنة. وكان كل بيت من بيوت ديرزي في الإمبراطورية الشمالية يرسل ممثلين لتقديم إيرادات الضرائب إلى الإمبراطور، والاستماع إلى احتياجاته من الرجال والخيول والطعام لحملات الربيع، وحل النزاعات مع العائلات الأخرى، وإدارة شؤونه المختلفة.

كانت شوارع كفرنا تعجّ بالنبلاء المحاربين وحاشيتهم، والجنود ذوي الوجوه العابسة يحرسون عربات جباية الضرائب، والعائلات المتحمسة التي تلتقي بأقاربها البعيدين أو أبنائها الذين تزوجوا من خارج عائلاتهم، والباعة المتجولين وأصحاب المتاجر والنُزُل يجنون أرباحًا طائلة من تدفق الزوار، والمعارك تندلع بين الأطراف المتنازعة على الأراضي أو الممتلكات. كان دار هيجد موسمًا للزواج والخطوبات، والمعاهدات والتحالفات، والتجارة، والصفقات، والمفاوضات بشتى أنواعها.

لم ألحظ أي حركة في الشوارع، بل شاهدت فقط الأعمال المعروضة على الأمير. كان يجلس على أصغر كرسيين ضخمين مذهبين في أحد طرفي القاعة المليئة بالدخان، محاطًا بعشرة مستشارين يمثلون أقدم عشر عائلات من عائلة ديرزي. لم يكن وجود المستشارين إلا شكليًا. فالإمبراطور، أو ابنه في هذه الحالة، كان له الكلمة الفصل والوحيدة في أي شأن. امتد طابور دافعي الضرائب ومقدمي الالتماسات عبر القاعة الفسيحة، وامتلأت الجدران بالمراقبين: عائلات، وخدم، وكل من تمكن من تجاوز حراس الباب.

كان مكاني على يمين الأمير مباشرةً، قريبًا منه بزاويةٍ تُمكّنني من رؤيته وسماعه، وكذلك من يسمعون رسالته. وخلفي مباشرةً، كانت هناك طاولة أخرى مُرتبة عليها موازين وأوزان نحاسية لامعة. وكان يُشرف عليها كبير قضاة الأوزان والمقاييس لدى الإمبراطور. فكل قرية كبيرة بما يكفي لتضم سوقًا، كان لديها قاضٍ يُراقب التجار ويُحاسبهم بدقة، ويضمن سكّ العملة بشكل صحيح، والتعامل العادل.

كانت الجلسة اليومية تستمر من الصباح الباكر حتى وقت متأخر بعد موعد العشاء المعتاد. تشنجت يدي من كثرة الكتابة، واسودت أظافري

من كثرة الحبر. كان لا بد من تسجيل كل حكم في دفتر كبير مُجلّد بالجلد، وكثير منها كان يتطلب رسائل أو أوامر إضافية تُرسل إلى أطراف أخرى غير حاضرة في دار هيجد.

كان وجود أجنبي وعبد إهانةً للديرزي، وبينما كانوا يمرون خلفي أو ينتظرونني لأنهي ورقةً يحتاجونها، كانوا يحرصون على أن أعرف ذلك: بعضهم همس بشتائم، وبعضهم الآخر اقترح بوقاحةٍ شديدةٍ وتلميحاتٍ غير محتملةٍ للإيذاء الجسدي. تساءلتُ إن كان دورجان محقًا في أن وجودي معروضًا لغرضٍ ما. كنتُ أستطيع دائمًا أن أُدرك ذلك من خلال شهقة الشهقة السريعة عندما يُخبر أحدُ المُلتمسين آخرَ بدوري في سقوط اللورد فاني وإعدام اللورد سيرج. عندما عبس الأمير في

بسبب الاضطراب، توقف الدرزي قليلاً، لكنه سيعاود العمل مرة أخرى بمجرد أن يتشتت انتباه ألكسندر.

رغم كل ذلك، استمتعتُ بالأيام إلى حدٍ ما. كانت النيران المشتعلة في الموقد متقدة، وكان هناك تنوعٌ في الناس لأراقبهم، ومع أن معظم الخلافات والالتماسات كانت عادية، إلا أنه كانت تظهر بين الحين والآخر أمورٌ مثيرة للاهتمام أو ذات أهمية تستحق الملاحظة. والأفضل من ذلك كله، عندما عدتُ إلى بيت العبيد في الليلة الأولى، كان دورجان قد تلقى أوامر بعدم إعادتي إلى الزنزانة تحت الأرض. مع أن زيرون قد شوّه سمعتي تمامًا بين العبيد، ولم يجرؤ أحدٌ منهم على التحدث إليّ، إلا أن شعوري بأنفاس البشر الآخرين في الغرفة أثناء نومي كان يُريح نفسي. لقد سهّل عليّ ذلك التخلص من المخاوف التي لم يكن لي حيلةٌ حيالها، وسهّل عليّ تقوية حصوني ضد الأحلام التي كانت تعود زاحفةً من حيث طردتها.

أما ألكسندر، من جهة أخرى، فقد كره الأمر برمته. منذ اللحظة الأولى من اليوم الأول، كان يصرخ في وجه كل من يقترب، حتى لو كانوا يقدمون صندوقًا من الثروات لنقلها إلى الخزانة في زاجاد. "ما الذنب الذي ارتكبته لأُحاصر في هذا الكرسي البغيض؟" تساءل بضيق في صباح اليوم الثالث، قبيل فتح الأبواب أمام صف من الديرزي المتأنقين. شدّ وجذب الرداء الأحمر الثقيل المربوط بكتفيه. "إذا كان لأبي أن ينال امتيازات الإمبراطور، فعليه أن يتحمل واجباته. ما شأني باستيلاء آل غوروش على ثلاثة حقول حبوب من آل ريزكا؟ ما مصلحتي في مهر فتاة من الحمراشيين؟ إنها عاهرة قبيحة، ولن أقبلها في فراشي حتى لو كان المهر ثلاثة أضعاف. أود أن أقول لهم: أحرقوا الحقول الملعونة وألقوا بتلك الفتاة في النار."

انزعج الخدم من صراخ الأمير، وتذلّلوا له عند فتح الأبواب ودخول الناس. مع أنه كان فظًا وغير مهذب، إلا أن الأمير بدا أكثر اتزانًا في العلن منه في السر. كان يعرف متى يستخدم سلطته ومتى ينأى بنفسه عنها ويحثّ الأطراف المتنازعة على تسوية أمورهم فيما بينهم. في النزاعات الكبرى، كان ينحاز إلى الخاطب الذي يدفع أكبر قدر من الضرائب، أو يجلب أكبر عدد من الرجال والخيول لجيوش والده، أو يصطحب معه أجمل بناته. موقف لا جدال فيه، إلا إذا كنت أنت المظلوم أو لديك مفهوم مختل للعدالة. على الأرجح، كان الإمبراطور يشعر أن مصالحه قد رُعيت على النحو الأمثل.

حاولتُ جاهدًا التظاهر بأن شيئًا لم يتغير منذ وليمة الإعدام، لكن مع مرور الأيام، وجدتُ عينيّ تجوبان الحشود بحثًا عن الشيطان خليد، وأراقبه بفضولٍ مقلق وهو يتسلل إلى حياة القصر. لم يكن غريبًا أن يأتي راي-كيرا للصيد في كفرنا. فقصر ديرزي يُوفر فرصًا مغرية للشياطين، وحتى لو كان أحدهم لا يزال على قيد الحياة، فلن يجرؤ أي باحث إزاري على المغامرة في معقل ديرزي. من المؤكد أنه ليس أكثر من مجرد مصادفة غريبة أن يأتي شيطان إلى مكانٍ يوجد فيه من يعرف ماهيته - ربما آخر شخص حيّ قادر على التعرف عليه - عاجزًا عن فعل أي شيء حياله. لكنني لم أرَ أي علامات واضحة على مسّ الشيطان في خليد. لا قسوة غير عادية. لا جنون جامح. فقط سحرٌ ناعم واهتمامٌ مهذبٌ بالأحداث. لماذا؟ خمسون مرة تجاهلتُ هذه التأملات، لكنها ظلت عالقة في ذهني كطعم اللحم الفاسد.

في وقت متأخر من عصر اليوم الرابع، تعطلت الإجراءات بسبب رحلة غير عادية إلى المدينة.

ربما كانت عائلة فونتيزي هيغيد أقوى عائلة من عائلة ديرزي في الإمبراطورية، باستثناء عائلة دينيشكار التابعة للإمبراطور. شملت ممتلكات فونتيزي جزءًا كبيرًا من شمال أزهاكستان، بالإضافة إلى ملايين الهكتارات في أراضي سنيغار وثريسي المحتلة. وعلى عكس معظم الهيغيد الذين امتلكوا قصورًا فخمة في كافارنا، لكن ممتلكاتهم العقارية كانت في أماكن أخرى، ادّعت عائلة فونتيزي ملكية حوالي ثلثي الأرض التي بُنيت عليها كافارنا. عمل تجار المدينة وأصحاب المنازل بجدٍّ لضمان تدفق الإيجارات إلى خزائن عائلة فونتيزي.

أما آل جوران هيغيد، فكانوا من العائلات الصغيرة، لا من العائلات العشر التي كانت تشغل مقاعد في مجلس الإمبراطور، ولا حتى من العائلات العشرين التي كانت تملك معظم الأراضي وألقاب ديرزي التقليدية. كان آل جوران أقرب إلى عائلة تجارية منهم إلى عشيرة محاربة. مع ذلك، لم يكونوا بحاجة إلى تعاطف. فقد كانوا يسيطرون

سيطرة تامة على تجارة التوابل وكانوا أثرياء للغاية. ولكن بما أن جميع ممتلكاتهم كانت من الذهب والتوابل لا من الأرض والخيول، فقد تم تجاهلهم واعتبارهم غير مهمين.

في ذلك اليوم، وبينما كان ألكسندر يشعر بمللٍ شديدٍ من سلسلةٍ من الخلافات التافهة والخطابات المملة، حضر إليه البارون سيلدريك، رئيس قبيلة جوران هيغيد، معترضًا على قرار فونتيزي بحرق حيٍّ متداعيٍّ في كافارنا يقع جنوب غرب النهر. كان هذا الحيّ أفقر أحياء المدينة.

كانت المنطقة مكتظة بالمحاربين القدامى المصابين بأمراض وإصابات، وكبار السن الذين لا معيل لهم، والأرامل المعدمات، وجميع أنواع اللصوص، وتجار الجثث، والمصابين بالجذام، والمجانين. وتقع مستودعات التوابل الجورانية في قلب المنطقة.

تثاءب ألكسندر أثناء عرض البارون سيلدريك، ثم استدعى ممثلًا عن هيجيد فونتيزي للرد عليه. كانت النتيجة محسومة سلفًا. لم يكن بإمكان الجورانيين الانتصار على هيجيد بهذه القوة... إلا أن فونتيزي ارتكبوا خطأً فادحًا. فقد أرسلوا أصغر ضباطهم، ابن ابن عم أحدهم، للمثول أمام الأمير.

"وأين اللورد بيتور؟" صرخ الأمير في وجه الشاب المرتجف والمذهول ذي الثمانية عشر عامًا، والذي أثار ظهوره غضبه. "هل يعتقد سيد فونتيزي أنه أهم من أن يستجيب لنداء أميره؟ ربما كان يتوقع مني أن أخدمه."

"لا... لا... يا صاحب السمو. اللورد بيتر سيخرج لركوب الخيل بعد ظهر اليوم." لم يكن الشاب ذو الخدين الناعمين يعرف متى يلتزم الصمت.

"أليس لدى فونتيزي رسل ولا معاونون ولا خيول متاحة للتواصل معه؟ وربما يكون كل نبيل من الدرجة الأولى والثانية والثالثة في عائلتك مشغولاً بالمثل؟ لا أصدق أن سمكة جبانة مثلك قد وصلت حتى إلى الدرجة الرابعة."

«بالطبع لا يا صاحب السمو... أعني، لقد كان مجرد فكرة... بما أن الأمر يقتصر على الجورانيين وليس الإمبراطور—» كاد الشاب أن يبتلع لسانه. «المنطقة لا شيء يا صاحب السمو. إنها وكر قذر موبوء بالطاعون للصوص والمتسولين. يرغب اللورد بيتر في جعلها جميلة... تليق بعاصمة ديرزي الصيفية.»

"وكيف يخطط لجعلها جميلة عن طريق حرقها؟"

استعاد الدنيسار الصغير بعضًا من ثقته بنفسه، فانتفخ صدره وشد سترته الأرجوانية المصنوعة من الساتان. "إنه يخطط لبناء ضريح لأثوس - راعيك الخاص، يا صاحب السمو."

"لكن ذلك لن يتطلب سوى جزء صغير من هذه المساحة. ما الذي يخطط له أيضاً؟ أخبرني الحقيقة الآن، وإلا سأحصل عليها منك بطريقة غير سارة."

أقل يقيناً الآن. "مجرد مسكن... لابنه... قصر صغير... هذا كل شيء."

«حسنًا» - قفز ألكسندر من كرسيه - «بما أن هذا الأمر تافهٌ لدرجة إرسال طفلٍ صغيرٍ أمام الإمبراطور»

يا سيدي الممثل، من الأفضل أن أذهب لأرى هذه الأرض المتنازع عليها بنفسي. ربما أجد فيها فائدة.

فُغر الشاب فونتيزي بفمه وشحب وجهه. لم يكن من الحكمة أن تخسر أراضي سيدك المحصن بسبب عدم كفاءتك.

انحنى اللورد سيلدريك انحناءة عميقة. "سيدي الأمير، سيقبل مجلس جوران هيغيد، بالطبع، أي حكم تراه مناسبًا. نحن نتشرف باستماعك إلينا." كان تعبيره مهيبًا ومحترمًا كما ينبغي. لكنني كنت أجلس بجانبه، واستطعت أن أرى ابتسامته العريضة المفعمة بالرضا وهو ينحني.

وهكذا اضطررتُ إلى حزم حقيبة أدوات الكتابة ودفتر الحسابات، والركض حافية القدمين في شوارع المدينة خلف ألكسندر. انطلق ماشيًا، وأعاد جواده المُسرّج على عجل إلى الإسطبل. كان من غير المألوف أن يسير أحد أفراد العائلة المالكة في الشوارع بدلًا من ركوب الخيل، وتساءلتُ إن كان الأمير يريد إثارة دهشة موظفي القصر الرصينين. أو ربما كان الأمر مجرد رغبة في تحريك ساقيه وتنشيط نفسه بعد أربعة أيام من الملل.

لم تكن رحلة هادئة. عشرة من حاملي المشاعل، الذين تم حشدهم على عجل، أناروا الطريق عبر عتمة الظهيرة، بينما غطى الدخان المكان بكثافة في الهواء البارد الساكن. خمسون حارسًا، وعدد مماثل من المرافقين، وحاملي العباءات، ومنظفي الأحذية، وجميع أنواع الحراس، كانوا لا يزالون يتحركون بسرعة، يحددون مواقعهم وأولوياتهم، حتى بعد مرور الموكب عبر بوابات القصر ودخولهم المدينة.

تجمّع أهل البلدة بسرعة على طول الطريق، يحدّقون في الأمير الشاب الأسطوري الذي لم يره معظمهم من قبل. في البداية، كانت السيدات والأطفال، الذين يرتدون عباءات أنيقة، هم من يشاهدون، والتجار وأصحاب المتاجر ورعاة الماشية والكتبة الذين تركوا مواقعهم لفرصة

إلقاء نظرة خاطفة على أحد أفراد العائلة المالكة. هتفوا ولوّحوا للأمير الذي تجسّد مجد الإمبراطورية. لم يُعرهم ألكسندر أي اهتمام. لم يكونوا ليتوقعوا ذلك. فمن عادتهم الغريبة، كانوا سيفقدون على الأرجح احترامهم له إذا بدا لطيفًا أو لوّح لهم. بل سار بخطى ثابتة طوال فترة ما بعد الظهر، ولم يتحدث إلا مع سوفاري، قائد حرسه الشخصي.

بعد عبورنا جسر غوجان المقوس، ضاق الممرات وازدادت طينية، وبدا المتفرجون في حالة يرثى لها. كانوا نحيلين رثّي الثياب، صامتين خائفين. اختبأ الأطفال ذوو العيون الغائرة خلف أمهاتهم العظميات، وفتح الشيوخ المشلولون أفواههم بلا أسنان. وفي محاولة لإخفاء الرائحة الكريهة المتزايدة، بدأ أحد مرافقي ألكسندر بتحريك مبخرة.

انبعث من ذلك دخان خانق، لكن ألكسندر دفع الرجل جانبًا وأجبره على إطفاء الأعشاب المحترقة في بركة من الطين. "هذا يزيد الرائحة سوءًا. هل تظنني امرأة لم تشم رائحة مؤخرة حصان قط؟"

لكنني لا أعتقد أن ألكسندر قد رأى قطّ حثالة مدنه، وبالتأكيد ليس من على قدميه حيث يستطيع النظر إليهم وجهاً لوجه. لم تكن نظراته ثابتة ومتجهة للأمام كما كانت من قبل، بل كانت تتنقل بسرعة من مشهدٍ بائس إلى آخر. عبس باشمئزازٍ من ثلاثة متسولين قذرين يتمرغون في نهر من الوحل والبراز، يتشاجرون على كلبٍ أجربٍ يئن. ابتعد عن امرأة عجوز نحيلة الخدين، دامعة العينين، كانت راكعة في الوحل ويداها ممدودتان، تئن في بؤسٍ لا معنى له. نظر بفضولٍ إلى الأزقة حيث كانت مجموعات من الرجال والنساء والأطفال، ملفوفين بالخرق، يتجمعون بلا مبالاة حول نيرانٍ بائسة، ضعفاء وباردين لدرجة أنهم لم يلتفتوا إليه.

دفعت عاهرتان زبائنهما الرثين جانبًا، وحدّقتا في الأمير بوقاحة. ابتسمت إحداهما، وهي فتاة ممتلئة الجسم ذات شعر طويل مجعد، ولوّحت له بإصبعها. ضحك ألكسندر، فأرسلت له الفتاة قبلة، ورفعت تنورتها، وعادت إلى عملها.

بينما كان موكب الأمير ينعطف عند زاوية، دُفعت امرأة تحمل رضيعًا يبكي مربوطًا على ظهرها من مدخل مظلم مُغطى بالخرق، وطفلان متسخان مُتشبثان بطرف ثوبها. صرخ صوتٌ حاد من خلف الباب: "لا عمل هنا ولا خبز. موتي في مكان آخر". تعثرت المرأة بحامل شعلة وسقطت عند قدمي ألكسندر.

صرخ الشاب فونتيزي، الذي كان يفكر بلا شك في استعادة مكانته أمام أميره، في المرأة مطالباً إياها بالتراجع، ثم ركلها بعنف، فسقطت أرضاً في قذارة الشارع. أمسك أحد حراسه بالطفلين المذعورين من

رقبتيهما، ورماهما جانباً في كومة من الثلج المتجمد. انطلق الصغيران يصرخان ويحاولان الركض عائدين إلى أمهما، لكنني كنت واقفاً بالقرب منهما، فأمسكت بهما لأحميهما من الأذى. شاهدت برعب ألكسندر وهو يستل سيفه. ظننت أنه سيقتل المرأة المذهولة لجرأتها على لمس قدميه. لكنه بدلاً من ذلك وضع طرف النصل على حلق الشاب فونتيزي، وحدّق في وجهه المذهول، بينما مدّ يده الأخرى إلى المرأة الساقطة. حدقت به بنظرة فارغة، والطين يتساقط من شعرها الخفيف، وعيناها الخاويتان من الجوع تسألان فقط من أي اتجاه ستأتي الضربة.

قال ألكسندر وهو يصافح المرأة دون أن ينظر إليها: "ها هي، ها هي، يا امرأة. خذيها وانهضي وإلا سيدوسك هؤلاء الحمقى".

مدّت يدها كأنها تُدخلها في فم ذئب، لكن الأمير سحبها ودفعها بعيدًا. ثم غمد سيفه وصفع حارس فونتيزي الذي كان يخنق الأطفال بقسوة باردة. دهشتُ، وحثثتُ الصغيرين على التوجه نحو أمهما، فهرب الثلاثة في زقاق. تساءلتُ كم يومًا تبقى لهم في الحياة. ما لم يتحسن الطقس قليلًا، خمّنتُ أنها أيام قليلة.

لم يُعلّق الأمير على الحادثة، لكن بدا أنه لاحظني وأنا أرتجف في سترتي بلا أكمام، أنتظر انطلاق الحملة. حدّق بي مطولًا حتى تساءلت إن كنت قد أغضبته بتدخلي ولو كان بسيطًا. بعد نظرة سريعة حوله، همّ بالكلام، لكنه تراجع وأشار إليّ بالبقاء خلفه. عندما وصلنا إلى مستودع جوران، أمر أحد مرافقي اللورد سيلدريك بإحضار عباءة وصندل لي كي لا أتمكن من الكتابة بسبب البرد. شعرتُ بالحيرة.

لم يستغرق الأمير سوى لحظاتٍ قليلة لتفقد المستودع قبل أن يُصدر حكمه. قال إنه لا يجوز حرق الحي، فقد يُشجع ذلك جميع سكانه المشبوهين على التوافد إلى بقية المدينة. صمتَ قاضي فونتيزي عاجزًا عن الكلام، وظل يُلامس الخدش الصغير الذي أحدثه سيف ألكسندر على رقبته. لا شك أن سادة فونتيزي كانوا يعتقدون أن السكان سيحترقون مع بقية الحثالة.

لكن ألكسندر لم يكتفِ بذلك. قال: "سيدفع الجورانيون ثمن الأرض التي تقع عليها مستودعاتهم، ليس إيجارًا، بل ثمنًا كاملًا لامتلاكها بشكل صحيح. قبل نهاية دار هيغيد، سيحضر لي اللورد سيلدريك إشعارًا بالتسوية. دوّن ذلك يا سيون. وعلى مدى العشرين عامًا القادمة، سيتعاقد الجورانيون حصريًا مع قوافل فونتيزي لنقل توابلهم داخل حدود أزهاكستان."

بارع. سيخسر آل فونتيزي أراضيهم لإهانتهم الأمير. وسيخسر آل جوران ذهبهم لإهانتهم بيتًا أقوى. سيُجبر العائلتان على العمل معًا، ومن المرجح أن يجني كلاهما أرباحًا طائلة من العقد، مما سيترك مشاعر طيبة في كل مكان.

أحسنت. لكن ما أثار فضولي هو تعامل ألكسندر مع المرأة. بدا الأمر غريباً تماماً عن شخصيته.

سرعان ما عدنا إلى حياتنا الطبيعية. في ذلك المساء، بينما كنت أجلس على مكتب الأمير أنسخ التقارير للقادة العسكريين على الحدود الشمالية، دخل ألكسندر من غرفة نومه وسكب لنفسه كأسًا من النبيذ، ثم استدعى أحد مساعديه. أشار إلى باب غرفة النوم المغطى بالستارة وأومأ برأسه.

"ماذا سنفعل بها يا صاحب السمو؟"

"ألقِ بها في المستنقع الذي وجدتها فيه. إنها كريهة الرائحة وأكثر فظاظة من فيشتار. كان سوفاري محقًا."

اختفى المساعد من خلال الستارة ولم يعد.

قال ألكسندر: "ماذا تنظر أيها العبد؟ هل كانت صديقتك؟"

كنت أظن أنها عاهرة الشوارع، مع أنني لم أرها قط.

الفصل السادس

في صباح اليوم الخامس من دار هيغيد، بدأ الأمير يتصرف بغرابة. لم يستطع الجلوس ساكنًا. كان يطرق باستمرار على ذراعي كرسيه. كان يتقلب ويستقر على المخمل الأحمر كما لو كان يستطيع

لم يهدأ. عبث بسكينه، ولفّ جديلته، ولعب بجوهرة على سلسلة حول عنقه، ثم ألقى بالوسائد من على كرسيه جانبًا قبل أن يأمر خادمًا بإعادتها. طلب نبيذًا، لكنه لم يشربه؛ بل ألقى الكأس على الأرض عندما غضب من أحد الحاضرين. كادت سيدة مسنة من عائلة نافذة، تتهم ابنها بتزوير نسب حصان أصيل - وهي جريمة أشد من القتل في إمبراطورية ديرزي - أن تسقط من على كرسيها عندما قفز ألكسندر في منتصف جدالها الرتيب وصرخ في وجهها: "أسرعي يا امرأة. هناك ألف امرأة أخرى تنتظر دورها". طاف حول كرسيه وضرب بقبضتيه على

ظهره، محاولًا حث المرأة على الكلام بسرعة أكبر. ارتبكت، وظننت أنه سيشنقها عندما بدأت تلهث وتضع يدها على صدرها واضطروا لحملها بعيدًا. تقدّم أحد الخدم نحو الأمير وهمس في أذنه بهدوء، فما كان من ألكسندر إلا أن صرخ في وجهه قائلاً: "أنا بخير تماماً. فقط أحضر الشخص التالي إلى هنا قبل أن آمر بجلدك".

في اليوم التالي، ازداد الوضع سوءًا. لم يستطع الأمير الجلوس لأكثر من دقيقة متواصلة، فكان يذرع المنصة جيئة وذهابًا بينما يتحدث إليه الناس، وتتبع رؤوسهم حركاته. تسبب ذلك في تلعثمهم في الكلام، مما زاد من غضبه. ومع مرور الساعات، كافح للسيطرة على هذا القلق، فضمّ ذراعيه بإحكام إلى صدره أو قبض على كأس النبيذ حتى ابيضت مفاصل أصابعه. ولكن حتى مع ذلك، كانت قدمه تدق أو رأسه يهتز. كان الخدم والخدم ذوو العيون الواسعة خائفين. أمر بجلد اثنين منهم لجرأتهما على اقتراح أنه قد يرغب في الراحة، وكان يهدد بفعل الشيء نفسه مع الشخص التالي الذي يسأله عما إذا كان بإمكانه فعل شيء له. في ذلك اليوم،

أما الأمر الثاني الغريب، فكان ملاحظتي لمبعوث الخليدي بين رجال الحاشية والخدم خلف كرسي الأمير. كان الرجل الأشقر النحيل، يرتدي عباءة أرجوانية، يقف يراقب، صامتًا لا ينبس ببنت شفة، يبتسم لنفسه بين الحين والآخر، مع أنني لم أفهم قط ما الذي يُسليه. تجاهلت الأمر سريعًا. ما الذي يهم العبيد في الشياطين أو تسليتهم؟

بدأ اليوم السابع من دار هيغيد، وهو اليوم الثالث من تصرفات ألكسندر الغريبة، بقضية بالغة التعقيد، حيث توفي رب أسرة، تاركًا وراءه ابنةً عزباءً ترث أراضيَ وممتلكاتٍ شاسعة. جلس ألكسندر على كرسيه ممسكًا بذراعيه بإحكام شديد، حتى أنني لم أكن لأستغرب لو رأيت الخشب العتيق يتفتت بين يديه. كنتُ قريبًا بما يكفي لأرى هالاتٍ رمادية داكنة تحت عينيه العنبريتين اللتين كانتا تتنقلان هنا وهناك، دون أن تُركّزا على شيء. كان رئيسُ الخدم قد حذّره من أن طرفي النزاع على الميراث، وهما رجلان من العائلة يدّعي كلٌّ منهما الزواج من الفتاة، بارونان نافذان متساويان في المكانة، ويحرسان أخطر حدود الإمبراطورية. ولن يرغب الإمبراطور في استعداء أيٍّ منهما.

بعد نصف ساعة من الشرح الممل من قِبل ممثل أحد المحاربين، بدأ ألكسندر يرتجف. ارتجفت يداه وساقاه وجسده كما لو أن برد الشتاء القارس في الخارج قد أطفأ نيران الموقد واستقر عليه وحده. قال الأمير بنبرة حازمة عندما توقف المتحدث ليحدق به: "تابع". انتشرت همهمات خافتة في قاعة الجمهور. "قلتُ تابع".

استمر الرجل في حديثه، ثم استسلم للطرف الآخر في الخلاف. لم أفهم كيف يمكن لألكسندر أن يستوعب تفاصيل الروابط العائلية، والديون القديمة، ووعود المحاربين، وتعهدات الزواج - أدق تفاصيل تراث عشيرة ديرزي. بدا كبركان على وشك الانفجار. كان المتفرجون يهزون رؤوسهم، عابسين، في حيرة. وهناك بينهم، متكئًا باسترخاء على مدخل، كان كوريلي، مبعوث الخليد... مبتسمًا.

أخفضت نظري سريعًا إلى دفتر حساباتي. لم أكن لأسمح أبدًا للخليد أن يراني أراقبه، أن يرى أنني أعلم. لم تكن لديّ أي قوة. سأكون عاجزًا. كانت هناك أشياء في العالم تجعل الاستعباد للديرزي يبدو وديعًا بالمقارنة، ولم يكن بوسعي حتى أن أفكر فيها. الشياطين تنجذب إلى الخوف. ولكن في اللحظة التي استغرقتها لأرفع عيني عن الخليد المبتسم، قام بـ

بمجرد أن تحركت أصابعه قليلاً، خفق قلبي بشدة. رفعت رأسي بسرعة لأنظر إلى ألكسندر. كان يهز رأسه يميناً ويساراً وكأنه يحاول تصفية ذهنه. ما الذي يحدث؟

قال المحامي المرتبك: "أرجوكم، لا تنكروا كلامي يا صاحب السمو. لم أتحدث حتى عن الاتفاق مع الشابة في هذه المسألة فيما يتعلق بدعوى البارون جوزاي".

"لا، لا. أنا لا أنكر... تفضل يا سيردان. أنا أفهم أهمية هذا الأمر، وسأستمع إليك باهتمام كما وعدت." بالكاد استطاع الأمير أن ينطق الكلمات من بين أسنانه.

لنصف ساعة أخرى، كافح ألكسندر مرضه الغريب، عاقدًا فكيه كالصخر. وبينما كنت أدون تفاصيل القضية، كنت أرفع نظري بين الحين والآخر وأترك عيني تتجولان على الرجل النحيل عند الباب. ها هو ذا... نقرة أخرى من أصابعه. شدد الأمير قبضته على الكرسي وأجبر نفسه على الثبات. لم يعد الرجل ذو الرداء الأرجواني يبتسم.

بعد أن قدم كلا الجانبين جميع أدلتهما، أغمض ألكسندر عينيه للحظات، ثم قال: "يجب أن أدرس هذه القضية دراسة متأنية. سيحظى هؤلاء النبلاء من خدام الإمبراطورية بكل الاحترام الواجب. سأعتزل في غرفتي وأصدر حكمي صباح الغد". وبضبط نفس لم أشهده من قبل، وقف ألكسندر، وأقرّ بانحناءة السيدين وانحناءة الحشد، ثم خرج مسرعًا من القاعة.

انفجر الناس في حالة من الهياج لحظة رحيله.

"ما الذي يعاني منه؟"

"لا بد أنه مرض... لم أرَ مثله من قبل."

"سمعت أنه لم ينم منذ ثلاثة أيام."

"آه، إنه لا يملك الصبر على الحكم. ليس لديه قوة والده."

"أحمق متغطرس. لن يمتلك أبدًا الذكاء الكافي للحكم. هل سمعت...؟"

"سندعو الله أن يرزقه أبناءً صالحين وأن يموت شاباً."

كان التعليق الذي أثار اهتمامي الأكبر صامتًا. وبينما كنت أنهض، وأغلق حبر قلمي، وأجمع الأوراق، وأغلق السجل لأسلمه إلى أمين الصندوق، ألقيت نظرة أخيرة حولي. دفع خالد العابس ثلاثة خدم جانبًا بعنف واختفى من الباب.

لم ينجح الأمر كما توقعت، أليس كذلك؟ فكرتُ وأنا أضع الأقلام وسكين الشحذ في علبة الكتابة الخشبية. كان أقوى مني.

لقد آمنت. عنيد.

مررتُ بأصابعي الملطخة بالحبر على غلاف الدفتر الجلدي ذي اللون العنابي. لم أكن أنام. بالطبع كان هذا هو السبب. سيكون من السهل معرفة سبب مرض الأمير ألكسندر. ربما هدية، حصان برونزي مصغر أو بيضة خزفية... أو شيء ما تُرك تحت وسادة، ربما خاتم أو منديل. لا، ليس منديلًا. القماش ضعيف جدًا. قد يكون صندوقًا نحاسيًا، مناسبًا لجوهرة، أو حصاة لامعة سقطت في إحدى أواني الحديقة في غرف ألكسندر. كل ما عليك معرفته هو ما تبحث عنه، وما تراه، وما تصغي إليه عندما تصمت...

هززت رأسي كأنني أنفي حلماً، وأطفأت المصباح الذي كان ينير كتابتي. كانت قاعة الاستقبال الأولى شبه خالية. مرّ عمال النظافة بمماسحهم لإزالة البرك والأوساخ التي خلفتها مئات الأحذية الموحلة.

ما الذي كنت أفكر فيه؟ لم تكن لديّ أي قوة. لا سلاح. لم أكن أهتم بشيء... أقل من لا شيء بالنسبة للأمير ألكسندر. لقد سرق هو ورجاله حياتي، ودمروا كل شيء ذي قيمة بالنسبة لي، وشوهوا جسدي وعقلي، ودمروا... يا إلهي، لا تدع ذلك يحدث. ليس الآن. حدقت في يدي المرتجفة التي كانت تمسك بدفتر الحسابات. أجبرت نفسي على تتبع خطوطه، الأصابع الطويلة العظمية الملطخة بالحبر، خشونة وتشققات البرد الدائم، سوار المعصم الفولاذي الذي سيبقى معي حتى الموت، ثم، في ذهني، حولت يدي إلى القشرة الجافة البالية التي ستصبح عليها. لم يكن الواقع والوهم متطابقين بعد. ليس بعد. لقد

طردت الذكرى غير المرغوب فيها بفعالية كبيرة، لكنني لم أستطع التخلي عن إيماني بما يجب عليّ فعله.

لم يكن من أجل ألكسندر أو أيٍّ من الدرزيين أن أمسكتُ بالكتاب العنابي وانطلقتُ إلى حجرة الأمير. لم يكن ذلك لأيّ غايةٍ أسمى. لقد تلاشت غاياتي الأسمى مع قوتي. كان ذلك من أجلي أنا. كي لا أرى تلك الابتسامة الماكرة برفقة تلك العيون الزرقاء الجليدية. كي أستطيع أن أنام بسلامٍ من جديد.

قلت لحارس الباب الذي فتشني وحقيبة الكتابة الخاصة بي بدقة ولم يكن يعرف ماذا يفعل بي: "لقد أحضرت دفتر التسجيل. يحتاج الأمير إلى ملاحظاتي للمساعدة في مداولاته".

"لكنه لم يستدعك."

"حسنًا، ربما يكون قد فعل. الأمر برمته غريب للغاية، كيف أنه لا يستطيع النوم، وقد شهدنا كل هذه الحالات في دار هيجد، والأمر محير للغاية."

أظن أنه أمرني بإحضاره. ربما من الأفضل أن تسأله أنت، فأنت محارب ديرزي. لن يأمر بشنقك لمجرد سؤالك كما يفعل مع العبيد. ربما جلدة أو اثنتين، لا أكثر. لكن إن كان يريدني أن آتي ولم تسمح لي بالدخول... هززت كتفي. "أجل، أنت من يجب أن يسأله."

شحب وجه الحارس ونظر من فوق كتفه كما لو أن السوط على وشك أن يهوي عليه. "بالتأكيد لا، أيها العبد. إن لم تسمع جيدًا، فعليك أن تتحمل عواقب أفعالك."

قال أحد المرافقين: "لقد كان هنا من قبل عندما يحتاج الأمير إلى إنجاز بعض الأعمال الكتابية. وإذا مات بسبب غبائه، فمن يهتم؟"

بالفعل.

طرقوا الباب، فتحوه، ودفعوني إلى الداخل. كان المكان شديد الظلام. كانت الستائر الثقيلة مسدلة على النوافذ، ولم يكن هناك سوى شمعة واحدة تضيء على الطاولة بجانب الباب. كان ألكسندر ممددًا على الأريكة، وذراعه تغطي وجهه، وصرخت في نفسي على غبائي. كان نائمًا. لقد خاطرت بحياتي عبثًا.

"من هذا؟"

ركعت بسرعة، وأحنيت رأسي، وأخذت نفساً عميقاً. "سيون، يا صاحب السمو".

أبعد ذراعه، وبدت عيناه كحفرتين مظلمتين في الغرفة المعتمة. "هل لديك رغبة خاصة في الموت اليوم يا عزاريان؟ لم أستدعك."

"لا يا سيدي. لقد جئت لأعيد إليك نومك."

انتفض فجأةً وهو يجلس. "هل جنّ العالم كله وليس أنا فقط؟ سأجعلك تُسلخ وتُعلّق للذئاب بسبب هذه الوقاحة."

لم يساورني شك في أنه سيفعل، مع أنني كنت آمل أن يُبطئه الإرهاق قليلاً. تحدثت بسرعة كبيرة. "قبل أن تفعل ذلك يا سيدي، سأخبرك بحقيقة واحدة، وإن كنت مخطئًا، فلك أن تفعل بي ما تشاء. بالطبع لك أن تفعل بي ما تشاء على أي حال، ولكن..." توقفتُ ولعنتُ نفسي على ثرثرتي الحمقاء، ثم بدأتُ من جديد.

"في ساعة ما قبل أن تُصاب بهذا المرض من الأرق، زارك شخص في هذه الغرف. أظن أن هذا الزائر أحضر لك هدية - شيئًا من النحاس أو البرونز أو الخزف. وضعها مباشرة في يدك. وبعد ذلك بوقت قصير، شعر بالحاجة إلى إشعال شمعة أو سحب غصن مشتعل من نارك. قد تكون أو لا تكون

لاحظتُ أنه يرسم نقشًا في الهواء بالنار. ربما بدا الأمر وكأنه يستخدم يديه للتعبير عن نفسه ونسي أنه يمسكها. هل أخبرك من كان هذا الزائر يا سيدي؟ وهل أخبرك بالكلمة التي نطق بها عندما لمس النار؟

جلس الأمير بلا حراك. "لديّ العديد من الزوار وأتلقى العديد من الهدايا. إذا كان لهذا الكلام معنى، فمن الأفضل أن تبادر إلى فهمه ما دمت قادرًا على الكلام."

تنفست الصعداء بارتياح. لو كنت قد أخطأت في التخمين، لكنت في طريقي إلى حبل المشنقة في أحسن الأحوال.

"إذا استطعت اكتشاف هذه الهدية... هذه القطعة الأثرية... يا سيدي، هل ستستمع إلى ما يمكنني إخبارك به عنها؟"

"أنا لا أساوم مع العبيد."

"إنها ليست صفقة. بالطبع لا. أنا فقط أتوسل أن يُستمع إليّ وأعتقد أن فعلي سيُضفي مصداقية على كلماتي."

"أرِنِي."

انحنيتُ، ثم نهضتُ والتقطتُ الشمعة. بعد لحظةٍ من الاستعداد - تصفية ذهني وتحويل تركيزي لأرى وأسمع بحواسٍ أعمق - بدأتُ أتجول في الغرفة الكبيرة الهادئة. سلطتُ ضوء الشمعة على كل سطح،

على كل قطعة زجاج أو معدن، أفحص كل زجاجة، كل زينة، الأطباق المزخرفة ببقايا فطورٍ مبكر، الأجراس، الخواتم، صندوق أحجار الأوليات والأوتاد، المجوهرات المتناثرة، حزام سيف الأمير الملقى على الأرض، مشبك رداء الفرو الملقى بجانبه، سوط الركوب والقفازات الملقاة على الطاولة. أدركت حواسي المعتادة أن أحدهم يتحدث إليّ، لكنني لم أكن أصغي للأصوات، لذا لم أسمع ما كان يقوله.

لم تكن المهارات التي استخدمتها سحرًا. لقد تلاشت قوتي منذ زمن، ودُمّرت عمدًا وبشكل منهجي في الأيام الأولى من أسري. لكنني تدربت منذ الخامسة من عمري على الرؤية والسمع والتذوق والشم بحدة تفوق المعتاد بكثير، لأكتشف الاختلالات في نسيج العالم التي سببها السحر. لا يمكن للمرء أن يعيش كل لحظة بهذه الحساسية؛ فسيل الأحاسيس سيكون مُرهقًا، أشبه بالعيش داخل طبل يدق بقوة أو الغرق في وعاء ألوان فنان. ولذا تعلمت أيضًا التنقل بين الحواس العادية والخارقة، ولا ألجأ إلى تلك المهارات المُعززة إلا عند الحاجة.

هناك... ما هذا؟ تقدمتُ نحو مكتب الكتابة الصغير بجانب النافذة، وسمعتُ موسيقى هادئة تُثير القشعريرة تتردد في رأسي. أقرب. أنا

رفعتُ الشمعة عاليًا، وتلألأ ضوؤها الخافت على سطح المكتب المصقول. أين هي؟ كانت الموسيقى أعلى صوتًا، حادة، نشازٌ يُقشعر له البدن، حيثُ تُصبح النغمةُ التاليةُ التي تتوقع سماعها مُزعجةً للأذن والروح. بسرعة... قبل أن تُصيبك بالصمم. موسيقى الشياطين تلتهم العقل.

فتحتُ الدرج فوجدتُه، ختمًا نحاسيًا ثقيلًا بمقبض عاجي، يطبع عليه عند ضغطه في الشمع الساخن نفس أسد وصقر ديرزي الموجودين على خاتم ألكسندر. ختم أكبر من خاتمه، مصمم للاستخدام في الوثائق الرسمية للإمبراطورية. علامة على بلوغه سن الرشد، حين يصبح صوت أبيه لا مجرد ابنه. موجات السحر المنبعثة من ذلك الشيء الجميل جعلت جلدي يحكني وعمودي الفقري يرتجف. حولتُ نظري مجددًا، والتقطتُ القطعة الثقيلة، والتفتُّ إلى ألكسندر، الذي كان يقف على بُعد خطوات قليلة مني، يحدق في الشيء الذي في يدي.

"ها هو ذا يا سيدي. هذا ما أعطاك إياه الخليد."

قال الأمير بصوت خافت: "ما هذا السحر يا إزاريان؟" لم أستطع رؤية وجهه في الظلام. "ألم تخضع للطقوس كما قيل لي؟ أم أن هذه خيانة عادية؟"

من الغباء أن أظن أنه سيصدق كلامي. "لقد خضتُ طقوس بالثار يا سيدي. لا أملك أي قوة، ولا سبيل لاستخدامها. لكن هناك مهارات... مهارات مُمارسة لا تختلف عن المبارزة أو ركوب الخيل أو الرقص... لا تستطيع الطقوس أن تسلبها. هذا ما استخدمته لأجد هذا الشيء."

"ما علاقة هذه الموهبة بمرضي هذا؟ انتقِ كلماتك بعناية أيها العبد. لستُ الأحمق الذي تظنني."

انتبه! كدتُ أضحك. لقد تخلّيتُ عن ستة عشر عامًا من الحذر بمجرد دخولي غرفته. يا لسذاجتي! أن أضع إصبعًا واحدًا في قدر يغلي، ولأنني لم أغمر يدي بالكامل، أعتقد أنني سأنجو من الحروق. كل درس في حياتي كان يُلزمني بالصمت.

لقد رأيت هذا النوع من البلاء من قبل. لقد تعرفت على علاماته خلال الأيام الثلاثة الماضية. تحمل هذه التعويذات قطعًا أثرية تم إشعالها بالنار. هذا هو المكان الذي تنام فيه. كان لا بد أن يكون هنا. ألقِ به في النار لمدة ساعة وسوف تنكسر التعويذة.

"ولماذا تخبرني بهذا؟ لا تقل إنك تحبني. أتظن أنك ستحصل على حصة إضافية الليلة؟ أو ربما وسادة حريرية أو امرأة مطيعة لسريرك في بيت العبيد؟ أتظن ذلك لأني اشتقت إليك؟"

هل يكفي بضع ساعات من النوم لأصدق أول قصة مجنونة يرويها لي عبد جبان متذلل؟

قبل أن أتمكن من محاولة الإجابة، صفعني ظهر يده فسقطتُ إلى الوراء متعثراً. اصطدم كتفي بزاوية مكتب الكتابة، وانتهى بي الأمر ملقىً على الأرض عند قاعدته. طار الختم العاجي والنحاسي من يدي وسقط على أرضية البلاط خلف السجادة.

"أنا لا أؤمن بالسحر، أيها العبد." أصابني حذاؤه في جنبي قبل أن أتمكن من رفع نفسي لحماية أجزائي الأكثر حساسية. "تظن نفسك ذكيًا جدًا... نعم، لقد رأيت ذلك. تراقبني وتحكم عليّ، وهذه هي النتيجة. لقد أخبرتك أنك تُفرط في التفكير، لكنك لم تُعر تحذيري أي اهتمام." كان حذاؤه ثقيلًا جدًا، وكانت قدماه سريعتين وقويتين للغاية. "أخبر هذا الأحمق الدرزيّ بهذه القصة،" فكرت. "أخبره أن الخليد هو من أنقذه، فهو لا يثق بهم. سينام قريبًا، وسيصدق أن عبده هو من أنقذه. سيشكرني." أهكذا تسير الأمور؟

ظلّ يهاجمني بالكلام والضرب. بدأت أفقد تركيزي في غيبوبة من الدوار والألم. لم أستطع لومه بالطبع. ما الذي يدفعه للاعتقاد بأن عبدًا

سيحاول مساعدته؟ ومع ذلك، حتى مع حلول الظلام، شعرتُ بالرضا. على الأقل لن أرى عيون شيطان تلك الليلة.

الفصل السابع

كان تحريك رأسي خطأً فادحًا. كان شيء صلب وحاد يخترق عيني، وظننت أنني إذا حركت رأسي سيتوقف. لكن على الرغم من أن الشيء الصلب الحاد - الذي كان

لم يعد الشريط الفولاذي حول معصمي والسلسلة المتصلة به يؤلمان عيني، بل أيقظتني الحركة بما يكفي لأدرك أن كل عظمة وعضلة وجزء من لحمي يؤلمني. حتى شعري كان يبدو وكأنه مصاب بكدمة.

لم أكن بحاجة لفتح عينيّ لأعرف أين أنا. ليس الأمر أن فتح عينيّ كان ليكشف الكثير؛ فلن يكون هناك أي ضوء في حفرة دورجان. إضافةً إلى ذلك، سيكون الأمر مؤلمًا. سيكون من الرائع لو استطعت العودة إلى النوم أو فقدان الوعي، أو إلى أي مكان كنت فيه منذ أن ذكّرني الأمير ألكسندر بمدى غباء المرء عندما يحاول الاهتمام بقضايا مثل الخير والشر. قضايا خارجة عن سيطرة عبد.

بالطبع، ما إن استيقظتُ بما يكفي لأفكر في كل هذه الأمور، حتى أدركتُ مدى عطشي وبردي. لم أكن جائعًا - أو على الأقل لم أستطع التمييز بين ألم المعدة الخفيف والجوع، هل هو مجرد أثر حذاء ملكي؟ وهكذا بدأتُ تفكيرًا عميقًا حول ما إذا كان الأمر يستحق عناء الانتقال لأعرف إن كان دورجان قد ترك لي كوبًا من الماء حين أعادني إلى زنزانتي. انتصر العطش. العطش شعورٌ قويٌّ جدًا.

لا بد أن أحدهم كان يتنصت لأصوات الحياة. أطلقتُ عدة أناتٍ لا إرادية وأنا أتحسس الزنزانة الصغيرة، ولم أجد الكوب المعدني، وبعد فترة وجيزة، انفتح باب المصيدة فجأة. ومن بين الضوء الساطع، هبط الكوب نفسه معلقًا بخطافه وحبله المعتادين. تشبثتُ به بإحكام وجلستُ على الحائط. قلتُ: "شكرًا"، وكانت الكلمات تخرج بين نقيقٍ وأنين. تركتُ الشعور بالانزعاج يزول قبل أن أبدأ بالشرب. من الأفضل الاستمتاع به قدر الإمكان. رشفةً تلو الأخرى. دعه يدوم. تذوقه.

انهرتُ مجدداً وغرقتُ في النوم تقريباً عندما انتهيت من شرب الماء. نتيجةٌ مباركة.

لا أعرف كم من الوقت مرّ قبل أن يُفتح الباب السريّ مجدداً. أعتقد أنني كنتُ في حالةٍ من الذهول. لم يكن مربع الضوء ثابتاً.

"عزاريان، اصعد"، قال الهمس القاسي من الضوء. "حرك قدميك أيها العبد".

حدقتُ ملياً في الظلام الذي يحيط ببطني المتألم، لكنني لم أرَ سوى بقع ضوء راقصة. "لا أستطيع أن أجد قدميّ."

"اصمت أيها الأحمق، واصعد إلى هنا."

لم أفهم شيئًا مما قلته، فانقلبتُ على جانبي وأغمضتُ عينيّ. وقبل أن أغفو مجددًا، سحبتني يدان كبيرتان خشنتان من التراب والقش ودفعتاني إلى أعلى السلم. كان القش في أعلى السلم أنظف بكثير من القش في أسفله، فزحفتُ خارج الباب واختبأتُ فيه مباشرةً، محاولًا أن أتدفأ.

همس الرجل الذي تبعني خارج الزنزانة: "هيا يا فتى، لقد مررت بوقت عصيب، لكن عليك أن تُصفّي ذهنك. تفضل—" ثم رمى عليّ شيئًا. بطانية رقيقة تفوح منها رائحة الخيل... كانت أروع ما لمسته منذ زمن طويل. "تلفّف بها واذهب إلى هناك بجانب النار. علينا أن نُجهّزك. إنه يريدك خلال خمس دقائق."

لم يستطع إلحاحه اختراق ذهولي، فاضطر إلى حملي وسحبي بين صفوف الرجال النائمين. أنزلني بجانب موقده الصغير، ثم سكب

جرعة من البراندي في حلقي. شهقتُ وتقيأتُ وسعلتُ. لقد مرّت ستة عشر عامًا منذ أن تذوقتُ شيئًا أقوى من الجعة الحامضة، ولم أكن متأكدًا من أنني سأتنفس مرة أخرى.

"هل هذا أفضل؟"

قلتُ بصوتٍ متقطع: "لا أعرف". لقد كان براندي ممتازاً.

"تفضل، تدفأ وكُل هذا. سأحضر لك بعض الماء لتنظيف نفسك." حشر قطعة خبز طرية في إحدى يديّ وقطعة جبن في الأخرى، ثم انصرف مسرعًا. أعطتني اللقمة الأولى من الخبز لمحة عن المدة التي انقضت منذ آخر مرة أكلت فيها. اختفى الخبز والجبن قبل أن يعود دورجان. كان يحمل سكينًا في يده.

تراجعتُ للخلف متخبطاً، وأسقطتُ برميلاً خلفي مباشرة، وانتهى بي الأمر في كومة ترتجف، وكان بطني يؤلمني بشدة، ولم أكن متأكداً من قدرتي على الحركة مرة أخرى.

حدّق دورغان بي، ثم نظر إلى السكين في يده. "هل استيقظت الآن؟ عد إلى هنا. قلتُ إننا سننظفك."

"نظيف..." تسللتُ ببطء عائدًا نحو النار. "الطعام. شكرًا—"

"لا تقوليها. أنا أفعل ما يُطلب مني فقط." دفع السكين القديمة الباهتة في يدي ووضع دلوًا من الماء على النار. "اعتني بشعركِ. سأرى ما يمكنني فعله بشأن الدم. أنتِ في حالة يرثى لها. لن يُعجب الأمير بذلك." ولأسفي الشديد، نزع الغطاء عن كتفيّ.

لا بد أن المنظر كان غريبًا للغاية. رجل ضخم يرتدي ملابسه كاملة، ورجل نحيل عارٍ تمامًا، يجلسان متقاربين بجوار النار الصغيرة، يتهامسان كي لا يوقظا مئة عبدٍ يشخرون. قصصتُ شعري الذي نما أسبوعًا كاملًا، محاولًا ألا أجرح نفسي، بينما كان دورجان يمسح بخشونة على الجلد المتشقق والمتورم على جبهتي وكتفيّ وساقيّ وظهري. كانت كل بقعة من جلدي ملطخة بالأسود والأزرق والأخضر الباهت. كنت سعيدًا لأنني لست مضطرًا للقلق بشأن الحلاقة. عندما انتهينا، وجلست أرتجف، أشار دورجان إلى دلوه البخاري. لم أصدق حظي السعيد تمامًا، فغرفت الماء الدافئ اللذيذ وسكبته على رأسي، مما أنعش معنوياتي حتى صفى ذهني بما يكفي لأتذكر كيف وصلت إلى هذه الحالة المزرية.

قال سيد العبيد وهو يلقي إليّ بسترة بيضاء: "كفى، عليك الذهاب إلى حجرات الأمير... بتكتم".

"هل يمكن أن تخبرني-؟"

"لا أعرف شيئاً. فقط لأرسلك إلى الأعلى. ستُقابل."

انطلقتُ عبر الفناء المظلم الهادئ، أخوض في الثلج حتى كاحليّ، وأحاول أن أهدأ. لا تفكري. لا تتساءلي. انطلقي فقط. افعلي فقط. ما سيأتي سيأتي، وستنجين منه أو لا. كان من الصعب جدًا اتباع أوامري، فكل خطوة تصدر صريرًا تُذكّرني بمغامرتي الأخيرة أمام الأمير. ما زلت أرى كل شيء مرتين، وكانت لديّ كدمات كثيرة تنبض حتى أن الظلام كان ينبض باللون الأحمر بنفس إيقاع دقات قلبي. كيف كنتُ حمقاء إلى هذا الحد؟

قال دورجان بتكتم. كان ذلك صعبًا في قصر يضم ألف شخص، معظمهم موجودون فقط لخدمة الرجل نفسه الذي كان من المفترض أن أقابله. لا بد أنها كانت ساعات الليل الأولى، أو بعد الانتقال إلى الثانية مباشرة، حوالي الساعة الرابعة بعد منتصف الليل. ربما كانت تلك الساعة الوحيدة الهادئة في القصر. بدت المواقد الكبيرة في المطابخ كالقبور في الظلام. لن تُشعل النيران مجددًا إلا بعد ساعة. كانت الممرات والسلالم مهجورة، ولم يبقَ سوى عدد قليل من المصابيح الصغيرة مضاءة لتبديد ظلام الليل الدامس. كان الساهرون يغطون في نوم عميق بعد سهرة صاخبة، إما في حالة سكر أو في حالة خمول.

الإرهاق. عاد العشاق خلسةً إلى فراشهم، وغرق العبيد في كوابيسهم الخاصة. وحدهم الحراس خارج أبواب الأمير كانوا مستيقظين ومنتبهين، بينما كان ثلاثة من المرافقين المتشحين بالذهب متكئين على مقاعدهم المخملية، وقد يئسوا من نزوات أميرهم الليلية. تراجعتُ خلف عمود في أعلى الدرج، متسائلاً كيف سأمر من الحراس خلسةً، حين سقطت يد على كتفي. كدتُ أقفز من مكاني.

قال ديرزي، وهو يرتدي ثوباً ذهبياً، ساحباً يده بسرعة، وفعل كل شيء عدا مسحها بسرواله باشمئزاز: "كنتُ سأنتظرك. سأصطحبك إلى مدخل خاص".

قادني الشاب ديرزي - لم يكن يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، ولم يخض غمار المعارك بعد، إذ كان شعره لا يزال غير مضفر - عبر متاهة من الممرات الهادئة إلى غرفة تخزين صغيرة مليئة بالشموع من كل شكل وحجم. كانت شمعة واحدة مشتعلة على طاولة خالية. قادنا باب على الجدار البعيد لغرفة الشموع، ليس إلى غرفة تخزين داخلية كما قد يتوقع المرء، بل إلى غرفة جلوس بلا نوافذ بها عدة كراسي مريحة، وأريكة، ومصباح، وحارس مسلح لم يبدُ عليه أنه يحرس الشموع. كان يقف متصلبًا، ينظر أمامه مباشرة كما لو كان معتادًا على مرور الناس

دون أن يلتفت إليهم. لم أتفاجأ إطلاقًا بدخولي غرفة نوم الأمير ألكسندر.

كان أحدهم مستلقيًا بين الفراء والوسائد على السرير الضخم، لكنه لم يكن ألكسندر إلا إذا تغير لون شعره من الأحمر إلى الذهبي الباهت وأصبحت ساقاه أكثر رشاقة ونعومة. ربما وجد الأمير تسلية لتخفيف ألمه.

أشار لي الخادم بالمرور عبر المدخل ذي الستارة الذي يؤدي إلى الجزء الأكثر ألفةً من شقق ألكسندر. لم يكن يُضيء الغرفة سوى بضع شموع، ونار صغيرة ساطعة في الموقد الرخامي. كان الأمير يرتدي رداءً فضفاضًا من الحرير الأزرق مُطرزًا بالذهب، مفتوحًا من الأمام، وكان مسترخيًا على أريكة يتحدث مع رجل يرتدي قلادة ذهبية مرصعة بشعار رسول ملكي. فور دخولي من الباب ذي الستارة، ركعتُ ووضعتُ رأسي على السجادة، وهو أمرٌ في غاية الصعوبة. كان ظهري كدمةً صلبة، وكسرت ضلعان على الأقل، واضطررتُ إلى الضغط على بطني لأمنعه من التمزق. كنتُ آمل ألا يكون الألم شديدًا إلى هذا الحد.

انهض كما كان عليه أن ينزل وينحني. "هل ستكون جاهزًا للمغادرة قبل الفجر؟"

قال الرسول: "لقد أبلغت الإسطبل بالفعل بضرورة تجهيز حصان جديد".

انتظروا في الخارج في الممر. ادفعوا هؤلاء الكسالى البائسين من على مقاعدهم ونموا إن استطعتم.

سأنتظر مكالمتك يا صاحب السمو.

"وأخبروا من هم في الخارج أنني لا أرغب في أن يتم إزعاجي مرة أخرى."

سمعتُ الباب يُفتح ويُغلق. لمحتُ من طرف عيني أقدامًا حافية تمر بجانبي، عبر الستارة المتلألئة إلى غرفة النوم. لا شك أنه رآني. لقد تحرك رأسه عندما دخلت. كان الدم يتدفق بغزارة في رأسي المنهك، وبدأتُ أعدّ خيوط السجادة، وأحاول جاهدًا ألا أفقد الوعي.

لا تقلق. تجاهل الأمر. ما سيأتي سيأتي.

سمعتُ همساتٍ خافتةً من غرفة النوم خلفي، وضحكةً مكتومةً، وصوت إغلاق باب. خطواتٌ خفيفةٌ، ثم توقفت الأقدام بجانبي. لم أتحرك. لن أرتجف أو أتراجع. على الأقل لم يكن يرتدي حذاءً.

من بين كل ما كنت أتوقعه، لو سمحت لنفسي بالانغماس في التخمين، ما كان ليخطر ببالي أبدًا أن يدًا قوية ستمتد تحت ذراعي وتساعدني ببطء ولطف على الوقوف. تركني حالما وقفت منتصبة، بالكاد منحنية قليلًا من ألم معدتي. أبقيت عيني على السجادة، حتى وأنا أتمنى لو أستطيع تحريكهما في محجريهما لألقي نظرة خاطفة على وجهه.

"هل تعرضت لإصابة خطيرة؟" سؤال هادئ. بل ومتزن. لم يُلمح إلى الأسباب أو النوايا. ومع ذلك، كان يسأل. كان الأمر غريباً للغاية.

"لا يا سيدي، لا أعتقد ذلك." ستلتئم أضلاعي، وافترضتُ أن السكين الساخنة المغروسة في مكان ما في أسفل عمودي الفقري ستتوقف عن الالتواء يومًا ما. لو أستطيع فقط أن أبقى ساكنًا لبعض الوقت...

أشار إليّ بالجلوس على كومة من الوسائد على الأرض بجانب الموقد. قال: "لا، لا. اجلسي. أرجوكِ اجلسي"، بينما كنتُ أعود ببطء إلى وضعية الجلوس على ركبتيّ بجانب الوسائد، أترنّح وأضمّ ذراعيّ بقوة حول أضلاعي. جلس هو على كومة مماثلة من الوسائد مقابلي، متكئًا إلى الخلف وواضعًا ذراعيه الطويلتين على ركبتيه. لم أكن مستعدةً للاتكاء بسهولة، لكنني استمتعتُ بدفء ناره بينما كنتُ أنتظره ليتكلم.

"لماذا فعلت ذلك؟"

أجاب سؤاله الهادئ على سؤالي. لقد دمر التعويذة. هذا يكفي. الآن كل ما عليّ فعله هو الابتعاد عن نظره دون أن أتعرض لمزيد من الأذى. لكن السؤال كان غير متوقع. بدا وكأنه

لو كان يريد حقاً معرفة الحقيقة. تقلبتُ على وسادتي، وصرخت معدتي تذكيراً قاسياً بالحقيقة.

حدقتُ بعينيّ على بلاط الموقد. "حياتي مُكرسة لخدمتك يا سيدي."

بقيت كلماتي معلقة في الهواء، لا قيمة لها أكثر من دخان الموقد. لم يُعر الأمر اهتماماً، بل جلس صامتاً، بلا حراك، ينتظر. انطفأت النار فجأة، وسقطت قطعة من الخشب في الرماد، مُطلقةً شراراتٍ إلى الأعلى.

حاولتُ مجدداً. "أعرفُ التعاويذ، أما خدمك الآخرون فلا. الحياة... أفضل... عندما يكون سيدي بخير." كان هذا تصريحاً جريئاً من عبد، يُوحي بنقصٍ ما في السيد. لكن اللحظة كانت استثنائية، وبدا أنه يتوقع شيئاً يتجاوز العبارات المبتذلة.

"وما هو المقابل الذي تتوقعه؟ ألا يوجد أي معروف تطلبه مني مقابل هذه الخدمة؟"

"لا شيء يا سيدي." قفزت شرارة على البلاط الأبيض، وتوهجت باللون البرتقالي الساطع، ثم انطفأت، تاركة بقعة سوداء على البلاط المصقول.

"لكنك ستفعل ذلك مرة أخرى، إذا كان هناك شيء آخر مثله، أليس كذلك؟"

"نعم." وبخت نفسي بعد قولها. كان ردًا سريعًا جدًا، وكأنني مهتم. من الأفضل أن أبقى هادئًا. "حياتي لخدمتك."

شعرتُ به يميل إلى الأمام. أجبرتني شدة وقفته على رفع نظري إليه. كانت عيناه، تشتعلان فضولاً، مثبتتين على وجهي. "النبدأ من جديد. لماذا فعلتِ ذلك؟" لم يكن في استجوابه الهادئ أي تهديد. كان ينتظر الحقيقة. كان يستمع كما لو كان يتوقع سماعها وسط تملق عبد.

هل سيدرك الحقيقة لو أخبرته بها؟ توقفتُ للحظة، لا أتحرك، خشية أن تُجبرني كدماتي على الكلام. ثم قلتُ أخيرًا: "ماذا تعرف عن راي-كيرا؟"

ولأن اللحظة كانت استثنائية للغاية، لم يُسهب في الحديث عن الخرافات السخيفة، ولم يسخر من أصولي المتخلفة، ولم يلعنني على وقاحتي في تجنب سؤاله الحقيقي بسؤال من عندي. "شياطين؟ لقد سمعت قصصًا... حكايات المحاربين التي تُروى حول نيران المخيمات عشية المعركة. 'تتجمع الشياطين في الليلة التي تسبق المعركة، مستعدة لالتهام أرواح الموتى'. يقول الجنود إنهم يسمعون أنين شهوة الشياطين ويرونها تحدق من عيون الرجال الآخرين، بينما تبحث هذه المخلوقات عن...

أولئك الأكثر خوفاً. إنّ راي-كيرا أساطير ولدت من رحم الحرب والجبن.

لم أتوقع غير ذلك من ديرزي. لكنه أراد الحقيقة، ولذا، في تهور غريب ربما كان سببه ضربات على رأسي - أو ربما رغبتي في البقاء بلا حراك أمام ناره لفترة أطول قبل أن أُلقى مجدداً في زنزانتي الباردة - قررت أن أقولها. "لن يكون لإجابتي على سؤالك معنى إلا إذا علقتَ هذا الاعتقاد للحظة، يا سيدي. لقد حذرتك من السحر الذي كان يسرق نومك لأنه من صنع شيطان، وإذا استطعت أن أنطق بكلمة أو أفعل أي فعل يعيق مقاصد شيطان، فإن لحياتي معنى. بالنسبة لعبد، هذه غاية تستحق أي مخاطرة."

"حتى اقتحام غرفة أمير ديرزي مجنون طواعية؟"

رفعتُ نظري إلى وجهه مجدداً، وتعرفتُ على تلك اللمحة من الوعي الذاتي الساخر التي لاحظتها فيه وأنا أكتب الرسائل في غرفة الخرائط. وهكذا أجبتُ بحقيقة بسيطة: "حتى هذا."

توقعتُ أن ينتهي الأمر عند هذا الحد. إما أن يأمر بضربي لتجرؤي، أو أن يصفني بالهمجي المجنون الذي يدّعي أن أساطير الجنود حقيقية. لكنه بدلاً من ذلك، مدّ يده إلى زجاجة على طاولة منخفضة وصبّ لنفسه كأسًا من النبيذ، ثم استند إلى وسائده وكأن الساعة لم تتجاوز منتصف الليل بثلاث ساعات. "إذن أنت تقول إن الراي-كيرا أكثر من مجرد أسطورة؟ بعد قليل ستخبرني أن لديّ روحًا حامية تركب بجانبي لتحميني من العار."

الآن وقد بدأت، لم أستطع معرفة كيفية التراجع. "لا أعرف شيئًا عن الأرواح الحامية. لكن الشياطين حقيقية تمامًا."

"استمر."

"إنهم يأتون من الأراضي المتجمدة في أقصى الشمال، باحثين عن ملاذ دافئ... عن وعاء... عن إنسان يُشبع جوعهم. غالبًا ما يلتهمون الوعاء ويرحلون، لكن قوتهم وذكائهم يزدادان عندما يجدون مضيفًا مضيافًا، يُطعمهم المزيد مما يشتهون. إنهم حقيقيون مثلك تمامًا يا سيدي."

"لكن يمكن رؤيتي ولمسي. لا أؤمن بأي شيء لا أستطيع رؤيته."

لم يكن هذا بحاجة إلى إجابة. كان من المنطقي إنهاء هذا الحديث الغريب عند هذه النقطة. لكن خطر لي أن هناك فائدة من الإفصاح عن المزيد. إذا كان الخليد مصممًا على تعذيب أمير ديرزي، فلا حيلة لي في ذلك. لم أعد قادرًا على مواجهة شيطان. لكن إن استطعت أن أجعل ألكسندر حذرًا، فربما يزول عدم ثقته وشكوكه الفطرية.

القوة ستُرهق الشيطان أو مضيفه وتجعله يذهب إلى مكان آخر... بعيدًا عني. لم يكن بوسعي أن أُؤخذ على يد راي-كيرا. كنت أعرف الكثير... الكثير جدًا... مما يجب ألا يعرفوه أبدًا. وهكذا واصلتُ.

إنها حقيقية كضوء الشمس، الذي لا يمكنك الإمساك به بيدك، ومع ذلك يغير مظهر الأرض، فيجعلها خصبة وارفة أو قاحلة جرداء. إنها حقيقية كالحقيقة والشرف، اللذين لا يمكنك رؤيتهما ومع ذلك يغيران جوهر الإنسان. إنها كالفراشات، لا تنجذب إلى النور، بل إلى السلطة والخوف والموت المشؤوم.

أنصت إليّ بانتباه وأنا أتحدث، لكنه هزّ رأسه بعد ذلك. "إذن، أرسل لي شيطانٌ خفيٌّ ختمًا مسحورًا على يد مبعوثٍ من الخليديين؟ أظنّ أن رأسك مصابٌ أكثر مما تظن."

شعرتُ بالمسافة بيننا، التي رُدمت فجأةً بلمسة يده وأسئلته الفضولية، تتسع من جديد، وتعود أفكاره إلى مفاهيم الديرزي المعتادة عن "خرافات إزاريا". كنا نسميها "ميليدا" - قوة أعظم؛ سحر حقيقي في مقابل الوهم والخداع الذي يمارسه سحرة الديرزي. لكن لم يكن الشك هو الشعور الوحيد الذي انتابني من الأمير، بل كان خائب الأمل. كان يريد مني أكثر من مجرد حكايات خيالية لا يصدقها. لقد أرعبه الحدث، مع أنني كنت متأكدة من أن هذه الكلمة تحديدًا لم تخطر بباله قط، وكان بحاجة إلى نوع من الطمأنينة. تنهدتُ. طالما أنني قطعت شوطًا طويلًا، فلأخبره بجوهر الأمر.

"لا يا سيدي. إن الخليد يحمل الشيطان."

انفجر ضاحكًا. "لقد فعلتها الآن. لا أكنّ أي ودّ لهذا كوريلي. إنه ماكر وطموح، وقد تجاوز حدوده، وهو ليس تجاوزًا كبيرًا، إذ لم أكن أرغب في مجيئه أصلًا. لكنه ليس آكل أرواح خارقًا للطبيعة. أخبرني قصة أفضل."

لقد طفح الكيل. لن أنبش الماضي لأمير ديرزي. لن أخبره كيف عرفت ما عرفت، أو كيف استطعت تمييز الشيطان، أو أي شيء آخر قد يعتبره "قصة أفضل". لن أثق به أكثر مما يملكه من نفسي.

«لا أستطيع إثبات ذلك لك يا سيدي، ولا أستطيع تخمين سبب سعي الخليد لإصابتك بهذا السحر. ليس للشيطان غايةٌ خاصةٌ به سوى إشباع شهوته. إنه الوعاء الذي يوجه شرّه. لا يسعني إلا أن أخبرك بما أراه وما أعرفه يقيناً». أعدتُ النظر إلى بلاط الموقد.

كان الأمير يعجن وسادة صغيرة بلا مبالاة، ثم رماها فجأةً إلى كومة الوسائد. "تستغرق وقتًا طويلاً للتوصل إلى إجاباتك. كيف لي أن أصدق أي شيء تقوله؟ ربما المشكلة فيك أنت. هذا هو التفسير الأسهل. ماذا لو لم تتطهر كما ينبغي في طقوس بالثار؟ ربما علينا إعادتها للتأكد."

"أنا تحت رحمتك يا صاحب السمو، كما هو الحال دائمًا." لم أكن لأضيع وقتي في الرد على تلك الاتهامات. لم أظن أنه يؤمن حقًا بما يقول، وإلا لكانت هذه الزيارة الليلية قد بدأت بشكل مختلف تمامًا. كنت آمل ألا أضطر لإخباره بأنه لو خضعت للطقوس مرة أخرى، لما كان لديّ عقل لأخدمه.

"أليس لديك ما تقوله أكثر من ذلك في هذا الشأن؟"

الحس السليم، والاستراتيجية، والحماية الذاتية... رفضتُ الإسهاب، لكنني لم أجرؤ على التقليل من شأن الأمر. "هذا فقط يا سيدي. سيحاول مجددًا. الشيطان لا يحب التحدي، وقد فعلتَ ذلك. أولًا،

لأنك حاربتَ سحره بنجاحٍ نسبي. رأيته يزداد إحباطًا منك في دار هيغيد. ثانيًا، لأنك دمرتَ السحر. لن يعرف السبب أو الكيفية... إلا إذا أخبرته، وهو أمرٌ غير حكيم... بل في غاية التهور. وسيحاول بالتأكيد معرفة ذلك."

"لديك لسان جريء بالنسبة لعبدة، سيون."

"فقط فيما يتعلق بالشياطين يا سيدي."

"حسنًا. يكفي هذا الليلة. سأكتشف من يقف وراء هذا، سواء كان محاربًا أو عبدًا أو شيطانًا."

نهضتُ على قدمي بهدوء، معتبراً كلامه بمثابة رفض.

"انتظر لحظة. هناك أمر آخر." لوّح الأمير بيده نحو الأريكة التي كان يجلس عليها عندما وصلت. "خذ هذا واقرأه. الرسول ينتظر ردي."

كسرتُ ختم الشمع الأبيض للرسالة، وركعتُ قرب النار لأتمكن من الرؤية. هذه المرة بقيتُ راكعًا. لقد عدنا إلى وضعٍ أكثر اعتيادية، ولم أُرِد أن أُعرِّض صبره للخطر.

ألكسندر،

وصل خبر مغامرتك الصغيرة إلى زاغاد بعد ساعات قليلة من وصولي. الآن بات واضحاً لماذا كان عليك التخلص مني بهذه السرعة. لقد تصرفت بحماقة.

كان إيفان على وشك أن يتبرأ منك عندما سمع رسالتك الوقحة، وكنت سأقف إلى جانبه لو أنه نصب ابن آوى مكانك. ولكن الآن، بعد أن انقلبت الأمور رأسًا على عقب

حسنًا، إنه يسخر من حلك، وهو منشغلٌ جدًا باقتراح اللورد كاستافان لعاصمة جديدة لدرجة أنه لا يكترث لما فعلته بحصوننا الشمالية. وفقًا لتقاليد ديرزي، فإن بيت مزراح حليفٌ قويٌ كما كان دائمًا. مع ذلك، لو لم أكن مُقيدًا بيد أخي، لكنتُ قد عدتُ إلى كافارنا، لأُلحق بك هزيمةً لم ألحقها بك منذ طفولتك. الجندي يُقاتل بقلبه أكثر من ذراعه. إنه درسٌ يجب أن تتعلمه وإلا ستخسر أعظم إرثٍ مُنح لأي أمير. ستُقاتل أذرع مزراح من أجلك، لكن قلوبهم لن تُقاتل أبدًا.

سأعود إلى كافارنا بعد عشرة أيام. وحتى ذلك الحين، أحثكم على توخي الحذر الشديد والتركيز التام على شؤونكم. قد يبدو دار هيغيد أمرًا تافهًا - نعم، أستطيع سماع تذمركم الطفولي حتى من هذه المسافة - ولكنه أساس قوتكم. لا تبذروه كما فعلتم مع تحالف مزراهن. أعتقد أن وقتًا

سيأتي قريبًا ستحتاجون فيه إلى كل القوة التي تملكونها. هناك مؤامرات تُحاك في الإمبراطورية. لدينا الكثير لنناقشه.

ديمتري

قفز الأمير على قدميه بعد الجملة الأولى من رسالة ديمتري، وعندما انتهيت، انتزعها مني وسحقها بقبضته.

«أحقاً بالآلهة، هل وُجد رجلٌ متغطرسٌ إلى هذا الحدّ مثل ديمتري؟ سأرسله إلى الحدود مجدداً. عشرة أيام. اللعنة، لا أطيق فكرة موعظته». ألقى الأمير بنفسه على الأريكة الزرقاء وركل ما لا يقل عن عشر وسائد على الأرض. «أستطيع أن أراه جالساً على كتفي في دار هيغيد، رافضاً كل قرار. لا يتكلف عناء الكلام أمام المتضرعين، بل يدخر كل شيء ليلقيه عليّ لاحقاً، كما لو كنت أستطيع قراءة أفكاره لأختار كما يختار. ولهذا سُحبتُ من فراشي؟»

"هل هناك رسالة رد يا سيدي؟" أردت أن أذكره بوجودي هناك، خشية أن يكون أقل حذراً في كلامه.

«كان لا بدّ من ذلك. لكن ليس الآن. لا أجرؤ على الوثوق بكلماتي للرسل. ليس عندما يتعلق الأمر بتسميم شقيق الإمبراطور». ألقى بالرسالة المكرمشة في النار، فاشتعلت مصحوبة بصوت أزيز. «لا، بعد تفكير، سأرسل له ردًا».

"لحظة من فضلك يا صاحب السمو." أشعلتُ الشمعة على مكتب الكتابة المصنوع من خشب الكرز، ووضعتُ الورق والحبر وأحد الأقلام التي تركتها حادة. "والآن يا سيدي." كان ألكسندر يذرع المكان جيئة وذهاباً بغضب وهو يملي.

ديمتري،

في اليوم الذي تعود فيه إلى كفرنا، سأحررك من جميع قوانين الولاء، وأدعوك لمحاولة هزيمتي كيفما تشاء. قد لا يكون الأمر سهلاً كما كان عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، ولكن سنرى. حتى ذلك الحين، سأستمتع بفكرة مواجهتك. أما الآن، وبما أنك ما زلت مقيدًا، وولاؤك يمنعك من العصيان، فسأطالبك مجددًا بواجبك تجاهي.

أرغب منك التوجه إلى أفينخار لترتيب وسيلة نقل آمنة إلى كافارنا لليديا ومرافقيها. لستُ ساذجًا لأطلب منك مرافقتها بنفسك. ورغم رغبتي الشديدة في ثني والدي عن إجباري عليها، فلن أسمح بأن تُغضب زوجتي المستقبلية بترتيبات غير مثالية، أو أن تُعرّض للخطر بترتيبات غير آمنة. لن تدعني تلك المرأة الوقحة أسكتها، ولن أسمح لها بالتذمر مني طوال اثني عشر يومًا. سيحلّ موسم قطاع الطرق

بحلول موعد وصولها، وبما أن الممرات بين أفينخار وكافارنا هي الأخطر، فلا بدّ لها من أن تأتي من طريق آخر.

من المؤسف أن هذه الترتيبات قد تتطلب غيابك لأسابيع بعد انتهاء دار هيجد، لكنني سأحاول تدبير أموري دون حكمتك. إذا كان والدي يفكر في استبدال لؤلؤة أزهاكستان بعاصمة جديدة، فأقول إنه أحوج إلى التوجيه مني. تلاشى صوت الأمير بعد الجملة الأخيرة. انتظرتُ لحظة، لكن بدا أنه قد انتهى من كلامه.

"كيف ترغب في توقيعها يا سيدي؟"

فكر للحظة. "زاندر."

هززت رأسي في نفسي وتساءلت عما إذا كان ديرزي العجوز العنيد، الذي أغضبته الرسالة المهينة، سينتبه إلى الاسم الحنون في نهايتها. وبالنظر إلى كلمات ديمتري اللاذعة للأمير، استنتجت أن مودة ألكسندر للرجل العجوز لا بد أن تكون كبيرة حتى يقدم ولو تنازلاً بسيطاً في الرد. بعد أن ختم ألكسندر

أمسك بالرسالة وقال إنه سيتولى أمرها. يمكنني الذهاب. انحنيت، ثم نظرتُ بغباء من الباب إلى ستارة غرفة النوم، غير متأكدة من أي طريق أسلك للخروج.

"كما دخلتَ من قبل. وعليك أن تكون في دار هيجد غداً كما في السابق."

"نعم يا سيدي." انطلقتُ من خلف الستار، تاركًا ألكسندر مستلقيًا على وسائده، يحدق في النار. "نومًا هنيئًا يا سيدي."

رفع رأسه متفاجئاً... كما كنت أنا. "سأفعل."

الفصل الثامن

كانت البوابة مفتوحة. خلفها، غيومٌ متلبدة، تخترقها ومضات برق أرجوانية، تحجب منظرًا طبيعيًا من الصخور والجليد الملتوية. اهتزت الأرض بقلق وأنا أراقب. فوضى عارمة. لن يكون هذا الأمر سهلاً. ولكن لم يكن أيٌّ منها سهلاً. ظلّ الطريق ثابتًا، لا يتحرك، صلبًا... جاهزًا لقدمي. لم يكن سوى وضع قدمي عليه هو الصعب. أن أترك كل شيء خلفي: الحياة والنفس، الحب والفرح. أن أكون وحيدًا تمامًا في مملكة الشر.

"أبداً"، همس صوت في أعمق زاوية من عقلي. "أبداً وحدي". كان ذلك مصدر راحة، لكنني كنت أعرف الحقيقة.

كانت أسلحتي جاهزة: الخنجر الفضي، والمرآة البيضاوية المصنوعة من الفضة والزجاج، ويداي، وعيناي، وروحي. لم يكن لديّ سوى هذه الأشياء لأحملها معي عبر البوابة. لقد فعلت ذلك مئة مرة، ولكن في كل مرة كانت أصعب... لعلمي بما سيحدث.

عاد الهمس المطمئن مرة أخرى: "سأنتظرك حتى تعود. لا تشك أبدًا." لم أستطع الرد، فقد كنت مستعدًا، والكلام سيقطع صمتي. ثم صمت الصوت، وكان عليّ أن أذهب أو أبقى. لم يعد هناك مجال للتأخير.

دوى الرعد، وهبت عاصفة هوجاء حملت شعري ولوّحت بعباءتي حولي بينما كنت أخطو عبرها وبدأت تحولي. شعرتُ بعيون الشر تتسع دهشةً من هذا الغزو.

"من يجرؤ على المجيء إلى هنا؟" دوى صوتٌ أذبل القلب.

أغرق عقلي باليأس. كيف سيتجلى هذه المرة؟ أفعى بأربعة رؤوس؟ تنين؟ محارب ضعف طولي بأصابع مدببة؟

هل سيدفعني ذلك إلى المطاردة أم سينبثق من أعماق الأرض بجانب قدمي؟ كل واحد كان مختلفاً.

"أنا الحارس، مرسل من قبل أيفي، سوط الشياطين، لأتحداك على هذا الوعاء. هيساد! ارحل! إنه ليس لك."

لم يكن عليّ سوى التأخير قليلاً، وسيكتمل التحوّل. لم تعد قدماي تتركان أثراً على الطريق، وبات بإمكاني الشعور بنسيم الريح الخفيف.

"أيها العبد الوقح، أنت لا تعرف مكانتك. أنا أملكك. كل ما أنت عليه وكل ما ستكون عليه هو ملكي لأفعل به ما يحلو لي."

"أنا رجل حر."

"كل من تسمونهم أصدقاء يرتدون قيودي - أو قيود الموت يا حليفي. أنت الأخير. وحياتك... ألم تخمن؟ الحياة هي لي أيضاً."

قلت: "مستحيل"، ولكن تحت قدمي بدأ الطريق ينهار، وعندما أدرت رأسي في الريح العاتية، رأيت البوابة تتلاشى.

صرختُ: "لا! حبيبي، لا تتركني!" ركضتُ نحو البوابة المتضائلة بينما كانت ضحكات الراي-كيرا تمزق لحمي كأصابع جليدية. زحف الظلام من كل اتجاه عبر المشهد المضطرب. كان تنفسي متقطعًا؛ شعرتُ وكأن

سكاكين تخترق جنبي، لكن البوابة كانت دائمًا أبعد، وخافتة جدًا لدرجة يصعب رؤيتها. "ليس هنا... لا تتركني..."

استيقظتُ غارقًا في العرق ومذعورًا، قلبي يخفق بشدة، جسدي يصرخ من شدة الفراغ، وروحي تبكي في إنكار. كنتُ أعرف أين أنا. الظلام، البرد، رائحة الجثث الكثيرة التي لم تُغسل جيدًا، القش الخشن تحتي وفوقي. لم يكن هناك مجال للخطأ بين مكان وآخر. لكن هذه أيضًا كانت أرضًا للشر، ولم أستطع التخلص من رعب حلمي حتى أظهر لي ضوء الصباح الرمادي وجوه العبيد لا وجوه الشياطين.

عندما وصلتُ إلى قاعة الاستقبال ذلك الصباح، راجعتُ سجلّ الأحكام لأستشفّ كيف مرّت الأيام التي قضيتها في السجن، وكم كان عددها. لم يعد الأمير إلى القاعة بعد أن ضربني ضربًا مبرحًا، لكنه عاد في اليوم التالي وأصدر حكمه في نزاع الميراث. جعل الشابة تحت وصاية والده، وقسّم إدارة ممتلكاتها بين البارونين. وسيكون للإمبراطور أن يقرر مقدار ما سيُخصّص للفتاة من الميراث، ومن سيكون زوجها. كان الأمر مُحكمًا. لم أظنّ أن اللورد ديمتري سيُعارض قرار ابن أخيه. تساءلتُ إن كانت الفتاة، من باب الصدفة، ذات شعر ذهبي باهت وساقين طويلتين. كنتُ لأراهن على ذلك.

لم تصدر أي أحكام أخرى في ذلك اليوم، ولا في اليوم التالي. وقد شوهت العديد من بقع الحبر والتصويبات الملاحظات. من الواضح أن الأمور لم تسر على ما يرام. من ناحية أخرى، بدا أن اليوم الثالث، الذي امتد إلى ساعات الليل المتأخرة حين أُخرجت من زنزانتي لمقابلة الأمير، قد سار على غرار الأيام الأولى لدار هيجد، حيث كان الأمير يدير شؤونه بكفاءة عالية.

لقد تركتني المواجهة مع الشيطان، حتى من مسافة قريبة، في حالة من القلق، وأيقظت فيّ أصداء أصواتٍ ميتة ومخاوف دفينة. وبينما امتلأت القاعة كالمعتاد بمزيج من المتضرعين والخدم، وجدتُ نظري ينصرف عن دفتري، باحثًا عن أردية أرجوانية وعيون زرقاء باردة. لقد حذرتُ الأمير من أن الشيطان سيحاول مجددًا. هل صدقتُ ذلك؟ ضغطتُ عيني على الصفحة. ما سيحدث سيحدث.

سارت الأمور في دار هيغيد بهدوء خلال الأيام الثلاثة التالية. سمح لي دورغان بالنوم فوق الأرض مجددًا، رغم أنه لم يتلقَّ أي أوامر بهذا الشأن. ولأن مهامي كانت كما كانت قبل الحادثة المؤسفة مع الأمير، فقد افترض أن وضعي كسجين قد عاد إلى طبيعته. لم يكن لدى سيد العبيد أي سبب للتحدث معي عن أي شيء. كان يفك قيود يديّ من

الحلقة المعلقة على الحائط صباحًا، ويعيد ربطها ليلًا، ويتأكد من أننا، نحن العاملين في القصر، نتناول طعامنا ونحافظ على نظافتنا.

لم أسمح لنفسي بمزيد من الأحلام، وعملت بلا هوادة لأقنع نفسي بأن كل شيء على ما يرام. سيشعر الشيطان بالملل ويغادر كافارنا. سأنام وأعمل وأعيش في سلام غريب خاص بي حتى أموت.

لكن لم يكن للسلام وجود. في اليوم الرابع بعد عودتي إلى قاعة الاستقبال الأولى، لم يصل الأمير في الموعد المحدد. انشغل الخدم وكبير أمناء الخزانة بالسجاد ومساند الأقدام. أما المتوسلون ودافعو الضرائب، الذين كانوا ساخطين بالفعل بسبب اضطرارهم لتمديد إقامتهم في كفرنا نتيجة مرض الأمير الغريب، فقد تذمروا وهم يقفون في صف استعدادًا للانطلاق. أُضيئت المشاعل، واستعد عازفو البوق لعزف النغمات الاحتفالية للإعلان عن وصول الأمير. غردت الطيور والقرود المحبوسة في أقفاص، والتي جُلبت كهدايا ملكية، وصاحت. ومع ذلك، لم يأتِ ألكسندر.

لم يكن من عادة الأمير التأخر. فرغم كرهه الشديد للمراسم وتذمره من أعبائها، إلا أنه لم يتخلف قط عن الالتزام التام بمتطلباتها. أمر غريب. ومقلق.

بعد ساعتين من الانتظار، بدأ النبلاء يشعرون بالضيق من رئيس الخدم.

"أخبرنا يا فيندولار، أين أميرنا؟"

"الثلوج تتراكم بعمق شديد، ولن نتمكن من العودة إلى المنزل هذا الموسم إذا لم نغادر قريباً!"

"لم يسبق أن كان دار هيجد في مثل هذه الحالة المزرية."

"هل عاد مرضه؟"

«هل صحيح أنه دمّر شقته؟» قلت لنفسي إنه لا شيء، ربما امرأة، امرأة لم يستطع أن يطردها من فراشه. أو ربما له علاقة بحصانه. فما من درزهي إلا ويُفضّل حصانه على كل شيء آخر. ومع ذلك، ظلت عيناي تجولان بين الحشد. لم يكن الخليد هناك.

"سيدي رئيس التشريفات، هل أذهب لأستفسر عن سبب التأخير؟" انطلقت الكلمات من لساني قبل أن أتمكن من إيقافها.

"لقد أرسلنا خمسة رسل بالفعل." كان فيندولار مشتت الذهن لدرجة أنه نسي أن يهينني. "ابقَ في مكانك."

بدأتُ في شحذ الأقلام كما لو كانت رؤوس رماح تُحمل إلى المعركة.

ولحسن حظ فيندولار ومخزون القصر من أدوات الكتابة، وصل الأمير بعد ذلك بوقت قصير، واستأنف أعماله اليومية دون أي عوائق أخرى، وإن لم يُقدم تفسيراً للتأخير. إلا أن سموه لم يكن في مزاج جيد على الإطلاق، مما يعني أن قلة قليلة من المراجعين غادروا القصر وهم أكثر سعادة مما كانوا عليه عند وصولهم.

قبل أيام قليلة، أُعيدتُ إلى خدمة رئيس الخدم السمين، فيندولار، للعمل المسائي. كنتُ أعمل حتى منتصف الليل كل ليلة، أكتب نسخًا لا حصر لها من أحكام دار هيجد وسجلات الضرائب. كان العمل شاقًا وباردًا، فالنافذة الصغيرة في الغرفة الأمامية الصغيرة المتربة حيث كنتُ أعمل كانت مكسورة منذ قرنٍ مضى، ولم يكن رئيس الخدم ليُهدر الوقود على عبد. كل بضع دقائق، كنتُ أضطر إلى وضع محبرتي أو أصابعي فوق لهيب شمعتي الوحيدة لأمنعها من التجمد. بعد يوم طويل في قاعة الاستقبال الأولى، كانت أصابعي وعيناي ترفضان السيطرة على نفسي، لذا كنتُ أُجبر باستمرار على تصحيح عملي أو البدء من جديد حتى تتراقص الأرقام والأسماء في الهواء على ضوء الشمعة الخافت. مع ذلك، اعتبرتُ نفسي محظوظًا. لقد عملتُ في كل مهمة يُمكن أن تُسند إلى عبد، باستثناء فترة العمل القصيرة والقاتلة في المناجم. خدمتُ سبعة أسياد، ثلاثة منهم كانوا وحشيين وواحد منهم كان مجنونًا. كان البرد والملل في العزلة أقرب ما يكون إلى النعيم. لقد عاش الكثير من العبيد حياة بائسة للغاية؛ لم يكن لدي ما أشتكي منه.

في نهاية يوم وصول الأمير المتأخر، أرسلني فيندولار مجددًا إلى الغرفة الباردة مع حقيبة أدوات الكتابة. وبينما كانت الساعات تمر وأنا أقرأ صفحات سجلات الضرائب، استحضرت ذكرى جميلة لبطانية دورجان الصوفية وموقده، وصورة أحلى لحرارة نار الأمير. يا لها من ليلة غريبة! أن أتبادل الحديث مع وريث عرش الأسد في ديرزي. للحظة وجيزة، شعرت أنني إنسان، لا عبد. حتى البارون لم يسألني سؤالًا حقيقيًا قط، وكأنني قادر على التفكير.

قال أحد مساعدي الأمير من المدخل: "انتهى دورك هنا الليلة"، فأخرجني من شرودي تمامًا حتى كدتُ أُسقط محبرتي. كان قلبي يدقّ كالمطرقة. "يحتاج سموّه إلى خادمه الكاتب. عليك الدخول بهدوء، كما في السابق". كان هو نفسه الشاب الذي أراني المدخل الخاص من قبل.

"هل أضع هذه الأشياء جانباً قبل المغادرة يا سيد ألديكار؟"

"بالتأكيد لا. أي نوع من الحمقى الجاهلين أنت؟ سموه ينتظر. عليّ تنظيف فضلاتك حتى تتمكن من تلبية استدعائك." كان الصبي مستاءً

للغاية من أوامره. من المحتمل أن طبيعته الحادة لم تُحسّنها حقيقة أنني كنت أطول منه بكثير. إذا لم يزد طوله قليلاً ويحصل على جديلة شعره قريبًا، فسوف يُحكم عليه بحياة التابع، ويعمل لدى شخص مثل فيندولار. من الحكمة أن أتجنبه.

انحنيتُ وجففتُ أصابعي بقطعة ورق، ثم هرعتُ عبر غرف عمل رئيس التشريفات الفخمة، وعبر فناءٍ كئيبٍ ذي نوافير متجمدة وأشجار عارية، متجهاً نحو جناح الأمير في القصر الصيفي. كنتُ في منتصف الطريق عندما أدركتُ ما يُسرع خطواتي. كنتُ متحمساً.

توقفتُ عند الرواق المؤدي إلى مساكن القصر، تاركًا الهواء البارد يلسع جسدي المُندب والجليد تحت قدميّ العاريتين يُجبرني على تذكّر من أنا وما أنا وأين أنا. لم يتغير شيء. لا شيء. بعد كل هذا الوقت، لم أستطع السماح لنفسي بتدمير السلام الذي صنعته مع القدر. الحماس يعني الأمل. ولم يكن للأمل مكان في وجودي.

بافتراض أن كلمة "بتكتم" تعني الدخول من الباب الخاص، توجهتُ إلى غرفة الشموع، متسائلاً عما إذا كان عليّ شرح سبب وجودي عند باب غرفة نوم الأمير للحارس. لكن يبدو أن الشاب ألديكار قد أخبر الحارس مسبقًا بقدومي.

فقد التفت الجندي برأسه نحو الباب الداخلي لحظة ظهوري. لمحت امرأة عارية تجلس على الأرض بجانب السرير، تبكي بصمت، قبل أن تمسك يد حديدية بذراعي وتجرني عبر غرفة النوم ذات الإضاءة الخافتة إلى الشقة الخارجية.

"أين هو؟" صاح ألكسندر بصوت عالٍ، دافعًا إياي إلى منتصف غرفته الخارجية. كان يرتدي فقط مئزرًا أبيض من الحرير. كان شعره الأحمر الطويل منسدلًا ومتطايرًا حول رأسه. "اعثر على ذلك الشيء اللعين."

انحنيت على ركبتي. "كما تأمر يا صاحب السمو، ولكن أرجوك أخبرني ماذا عليّ أن أجد؟"

"الخبيث، المسحور... أيًا كان. كيف لي أن أعرف؟"

كان بإمكاني أن أسأله نفس السؤال، لكنني لم أعتقد أن ذلك حكيم.

"اعثر عليه وإلا سآخذ عينيك على الإفطار أيها الساحر. لن أكون أضحوكة العشرين هيجد."

بحثتُ في كل تجاربي عن الكلمات المناسبة للسادة الذين كانوا على وشك العنف، لكنهم لم يوضحوا سبب انزعاجهم. لم أجد ما يناسب حالتهم. استسلمتُ للمتاعب، وحاولتُ مرة أخرى. "لكي أعرف ما الذي

أبحث عنه، يجب أن أعرف نوع السحر الذي تم إجراؤه، يا سيدي. أو إذا كنت قد حصلت على شيء مريب، فأنا..."

رفعتني يدٌ من حول عنقي حتى وقفت على أطراف أصابعي. "إذا تسربت كلمة واحدة... أو تلميح واحد... أو حتى نفس واحد من هذا، فسوف تموت ميتة لم يذقها أي عبد من قبل."

"لا كلمة"، قلتها بصعوبة من بين قبضته الحديدية. "أقسم بذلك."

دفعني بعيدًا وأدار ظهره. "لا أستطيع... منذ الليلة الأخرى... منذ أن تمكنت من النوم... في الليلة الأولى كان عليّ أن أنام. لم أحاول. في الليلة التالية قاطعتنا الرسولة فأرسلتها بعيدًا. ظننت أن الأمر استغرق وقتًا أطول من المعتاد لأنني كنت مشتت الذهن. لكن ليلتين أخريين... كان عليّ أن أتظاهر بأنني لم أجد السيدة مرضية... ولذا أرسلت الليلة في طلب شيوني، وهي جارية تُرضيني دائمًا. فكرت، لأكون متأكدًا..."

اتضح كل شيء على الفور. كنتُ أعلم جيدًا أنه لا يجوز لي الاسترخاء أو الاستسلام للضحك الذي انطلق دون استئذان. كان الخطر حقيقيًا للغاية. بالنسبة للديرزي، كان الفشل في مثل هذه الأمور أمرًا لا يُتصور، لا يقلّ فداحةً عن الهزيمة في ساحة المعركة.

"هل أحضر لك الخليد المزيد من الهدايا يا سيدي؟" كان من المستبعد جدًا أن تكون قطعة أثرية، كما كان الحال من قبل. بل كان من المستبعد جدًا أن تكون سحرًا. فالأمر المعني معروفٌ بعدم القدرة على التنبؤ به، و

لذا نادراً ما يكون هدفاً فعالاً لصنع التعاويذ. لكن هذا كان جواباً لن يروق لألكسندر.

"لا. لقد ذهب كوريلي إلى بارنيفور لزيارة قريبه. وعلى أي حال، لم تقنعني بأنه هو من يفعل ذلك. ابحث عنه، كما فعلت من قبل."

"بالتأكيد." وهكذا فعلت. وكما توقعت، لم أجد شيئاً سوى الجارية البائسة، ترتجف من الرعب لأنها أغضبت الأمير.

كان عليّ أن أخبره بشيء. هناك أسباب كثيرة لحدوث مثل هذا الأمر، حتى لشاب قوي البنية، يبدو بصحة جيدة، ولكن إن أردت الحفاظ على جميع أعضائي، فأنا بحاجة إلى إجابة مقنعة. "لا توجد أي قطعة أثرية مسحورة هنا في شقتك، ولكن هذا النوع من الأمور غالباً ما ينتقل عن طريق الطعام. هل تناولت شيئاً غير عادي مؤخراً؟"

"لا شيء. لكنني سأحرق المطابخ. سأقتلهم جميعاً—"

رفعت يديّ وهززت رأسي بقوة. "لن يكون ذلك ضروريًا. لا أعرف سوى طريقة واحدة للتعامل مع الأمر. يجب عليك الامتناع عن تناول المزيد من السم. ربما... الإفرايل. أليس محاربو ديرزي يطهرون أنفسهم بالإفرايل مرة في السنة يا سيدي؟"

"ماذا في ذلك؟"

"ربما حان الوقت لتفعل ذلك. سيُطهّر جسمك من أي سموم، كما هو مُصمّم له." وسيُبعد النساء عن فراشه لمدة أسبوع، ويُتيح له فرصة تعويض ما فاته من نوم. بدا لي هذا أفضل فرصة لي لتشخيص حالته بدقة.

قال متأملاً: "إفرايل، لقد مر وقت طويل. وهل سيخلصني من هذا؟"

لا أستطيع أن أحدد نوع السحر الذي يعذبك هذه المرة، ولكن إذا قام أحدهم بتلويث طعامك، فلا توجد طريقة أضمن لإجباره على التخلي عنه. لن يؤثر عليك مثل هذا السحر إذا انفصلت عن مصدره.

«سأفكر في الأمر». أمال رأسه جانبًا. «قبل مغادرته المدينة، عرض عليّ مبعوث الخليد، كوريلي، جرعة منومة. كان قد سمع أنني لا أنام جيدًا. رفضتها وقلت إنني أنام نومًا عميقًا كالدب في الشتاء. أمضى تلك الأمسية بأكملها يتحدث عن الأمر، محاولًا معرفة العلاج الذي استخدمته. قال إنه تدرب كطبيب في السابق، وما زال يجمع العلاجات عندما يسافر إلى أماكن جديدة.

أماكن. وفي نهاية المطاف، سألني من كان مستشاري في مثل هذه الأمور. ظننتُ أنه سؤال غريب... خاصةً وأنك توقعتَ ذلك.

"وماذا قلت له؟" لم أستطع إلا أن أسأل، حيث كان الخفقان المفاجئ في صدري يتطلب التهدئة.

قلتُ إنني لم أستمع لنصيحة أحد منذ أن غادرت الحضانة.

بعد تسعة أيام تقريبًا، في حفل انتهاء عهد دار هيجد، شاهدتُ الأمير ألكسندر، وقد بدا أنحف قليلًا وعيناه صافيتان، وهو يرفع شابة طويلة ذات شعر ذهبي باهت من وضعية السجود، ويترك يده تتجول من مرفقها إلى صدرها. من نظراته وابتسامتها التي لم تخجل، لم يعد لديّ أي قلق بشأن علاجي، سوى الانزعاج المعتاد الذي ينتابني بعد تلبية رغبات أحد الأسياد غير اللائقة. لكن ألكسندر سيحصل على ما يريد، لذا كان عليّ أن أكتفي برضا ضئيل، وهو أنه على الأقل لن تعاني أي جارية لأنه لن يستطيع فعل ما يحلو له.

رغم أن الخليد كان غائباً، إلا أن أصداء موسيقى الشياطين ظلت تتردد في أذني مثل رائحة الموت البعيد في ريح صيفية.

الفصل التاسع

إن الانخراط في أمور مثل مشاكل ألكسندر في غرفة نومه لا يُساعد إزاريًا عازبًا على كبح جماح خيالاته غير المرغوب فيها والمزعجة. مع ذلك، فقد أصررتُ على

رغم انضباطي الذاتي الكافي خلال النهار، وتمكني من كبح جماح الأحلام الأكثر جدية أثناء النوم، إلا أن رؤى غير مرغوب فيها كانت تتسلل إلى ليالي. وفي خضم أحد هذه الأحلام، أيقظني دورجان في وقت متأخر من إحدى الليالي بعد انتهاء دار هيجد مباشرة. "إزاريان، استيقظ."

"ألا يُجري الأمير أي أعمالٍ خلال النهار؟" سألتُ بحدة، قبل أن ينطق لساني بما يكفي لأُحسن الكلام. كان الشعور بالذنب يُصارع رغبةً جامحةً في مُتابعة علاقتي العابرة في عالم الأحلام حتى نهايتها. "ليس الأمير من يستدعيك، بل أنا." جلستُ - وهو أمرٌ مُحرجٌ بعض الشيء عندما تكون معصمي مُقيدةً إلى الحائط بسلاسل قصيرة - وكبحتُ جماح مشاعري المُقلقة لأتمكن من الإنصات. "ما الأمر يا سيد دورجان؟"

"لدينا عشرة عبيد جدد تم جلبهم من عائدات الضرائب، وأحدهم متجه نحو المشاكل. ظننت أنه ربما سيسهل الأمور على الجميع لو تحدثت معه."

كنتُ مستيقظًا تمامًا حينها، مستعدًا للبصق على الرجل الضخم الجاثم بجانبي. كان هناك عبيد يتجسسون على عبيد آخرين، يبلغون عن المخالفات أو الكلام البذيء. كان هناك عبيد يجلدون أو يوسمون غيرهم، أو يستغلون الطعام والشراب، ظانين أنهم سيرفعون من شأنهم فوقنا. لولا أنني اعتبرتنا جميعًا نصف مجانين من جراء العبودية، لكنتُ خنقتُ أيًا منهم بكل سرور. كنتُ أعرف حدود وجودي، والتزمتُ بها. لكن إن كان دورغان قد أساء فهم امتثالي فظنّه رغبةً في أن أكون بديلًا عنه، وأن أشتري رضاه بأن أصبح حليفًا له، فعليّ أن أصحح له هذا الظن. "آه، لا يا سيدي دورغان. لستُ ممن تثق بهم لتنفيذ مثل هذه الأوامر. لن أكون بارعًا في ذلك."

"فاو! الأمر ليس كما تظن. سيموت هذا في غضون يوم إذا لم تُعِدْه إلى رشده. هيا." فتح قفلي

أمسك بمعصميّ وقادني إلى باب زنزانة تحت الأرض. وضع فانوسًا صغيرًا في يدي، ثم فتح الباب وأنزل سلمه. خفت صوته إلى همس: "إذا كنت تعتقد أن الأمر يستحق إنقاذ حياة، حتى لو كانت حياة أسيرة، فانزل. اطرق مرتين عندما تكون مستعدًا للخروج."

لقد أثار ذلك فضولي بلا شك. إذا كان دورجان يريد حبسي في زنزانته، فليس من الضروري أن يخدعني. بإمكانه أن يلقي بي هناك في أي وقت. لكن تجوله خلسةً في الليل بدا وكأنه يقول إنه لا يريد أن يعلم

مساعدوه أو عبيده الآخرون بهذه الأمور. لذلك نزلت السلم ورفعت الفانوس.

لم يكن يتجاوز السادسة عشرة من عمره، كان منكمشًا في الزاوية، يرتجف من البرد والإرهاق. كان جلده برونزيًا، وشعره قصيرًا أسود، وكذلك عيناه الواسعتان المائلتان قليلًا، اللتان اتسعتا من الرعب والألم والغضب. كان ظهره الخالي من الندوب يحمل آثار بضع خطوط من الدم، وكانت الدائرة المتقاطعة المحفورة على كتفه لا تزال منتفخة وملتهبة.

قلتُ بهدوء: "تينوخ حافد". تحية قلبي. كانت تحية شخصية للغاية، لا تليق بشخص غريب. لكن الصبي لم يكن غريبًا. لم يكن سوى أنا، قبل ستة عشر عامًا. كان إزاريان.

كل الجهد الذي بذلته لأنسى أيام الرعب الأولى تبدد في لحظة. مرآة لوثن، التي تعكس الشر على نفسها، لم تكن لتكون أشد تدميراً من رؤية ذلك الشاب لدفاعاتي الداخلية. في لحظة، عشتُ من جديد إذلال التجوال عارياً أمام الغرباء، والإذلال حين لمسوني وفحصوني وسخروا مني بأمور لا حق لهم فيها، وعذاب طقوس بالثار، والألم حين دمروا إيماني وأملي ومبادئي وشرفي. وتذكرت جيداً عزمي على الموت بدلاً من العيش على هذا النحو.

قلتُ: "ليتني أستطيع تخفيف ألمك". كلماتٌ عقيمةٌ لا طائل منها. "ليتني أستطيع إعادة ما سُلب منك، أو على الأقل مشاركة كل ما تعلمته مما قد يساعدك على التنفس من جديد".

كان بجانبه كوب ماء لم يمسه أحد وقطعة خبز بحجم قبضة اليد. ربما لم يأكل أو يشرب منذ أيام.

جلستُ على القشة مواجهاً له. "أنت بحاجة للشرب. لا فائدة من انتظار الماء الذي تعتقد أنه نظيف. لن تحصل عليه."

همس قائلاً: "Gaened da"، وقد جعل صوت أسنانه المصطكّة غضبه واشمئزازه يبدو طفولياً.

"أعلم أنني نجس. لقد كنت كذلك منذ اليوم الأول الذي أُخذت فيه. وكذلك أنت."

هز رأسه نافياً.

"ليس ذنبك. لا تفكر في الأمر أبداً. أعرف ما يقوله أهلنا عن أولئك الذين وقعوا في الأسر، ولكن لا يوجد شيء... لا شيء... يمكنك فعله لتستحق ما حدث لك."

"لا بد أن م... قد فعل ذلك."

"أنت لا تصدقني الآن، لكنك ستدرك ذلك لاحقاً، إذا منحت نفسك الوقت الكافي."

أردتُ أن أُفيض عليه بكل ما في قلبي، أن أجعله يرى الحقيقة، لكنني كنت أعلم أن ذلك غير ممكن بعد. كل ما استطعت فعله هو مساعدته على تجاوز هذه اللحظة.

أغمضت عينيّ وضغطت بقبضتي على صدري. قلتُ: "ليس نا سيون"، مانحًا إياه أسمى هدية من الإزاريين، ألا وهي الثقة والقرابة. "أرجوك أن تصغي لما أقول. لم يبقَ أمامك إلا خيار واحد: الحياة أو الموت. لا رجعة، ولا مساومة مع القدر. ليتني أستطيع أن أقول لك غير ذلك. الحياة أو الموت. هذا هو جوهر الأمر. وماذا يُعلّمنا فيردون عن مثل هذا الخيار؟"

انتظرتُ أن يقولها. لن يطول الأمر. إن شغف الحياة قويٌّ جدًّا لدى شابٍّ في السادسة عشرة من عمره... حتى في مواجهة الرعب والخراب.

"عِش." أغمض عينيه وانهمرت الدموع بحرية على وجهه المتورم.

كنتُ أغش. كان لا يزال يؤمن بآلهة قد يكون لها مصلحة فيما يفعله. ربما بحلول الوقت الذي يعرف فيه الحقيقة، ستصبح الحياة - حتى لو كانت حياة عبودية - عادة لا يرغب في التخلي عنها. منحته بعض الوقت، ثم وضعتُ كوب الماء في يده.

قلتُ وأنا أُبعد الكأس عنه قبل أن يفرغها دفعةً واحدة: "رشفةٌ واحدةٌ فقط الآن. ستكفيك طوال اليوم إن سمحتَ لها بذلك. هل لديك أي إصاباتٍ أخرى غير الجلد والحروق؟" كان الكيّ سيئًا بما فيه الكفاية، لكن الحدادين لم يكونوا حذرين أبدًا عند إغلاق الحلقات الفولاذية حول الكاحلين والمعصمين.

هزّ رأسه. "قالوا إنني سأبقى هنا حتى أموت. لماذا أرسلوك أنت؟" سأل بصوت أجشّ.

كان يتعلم بالفعل ما سيحتاجه. ضحكت قليلاً. "سمح لي دورجان بالمجيء لأنك ذو قيمة على قيد الحياة وعديم القيمة بعد الموت، وهذا ما يجعل أصحاب العمل في غاية التعاسة عندما يتحول العبيد ذوو القيمة إلى

هؤلاء لا قيمة لهم. إن رفضتَ الطعام والشراب، سيجبرونك على تناولهما. وإن هربتَ، سيضربونك أو يكوون وجهك - أسوأ بكثير مما

حدث لي - وسيقطعون إحدى قدميك. العبد المُقعد لا يزال بإمكانه العمل. لن يقتلوك مهما استفززتهم. لن يفعلوا ذلك إلا عندما يُلحقون بك ضررًا لا يُمكنك استخدامه... وهذا أمرٌ بعيدٌ جدًا. دورجان، على عكس العديد من أسياد العبيد، لا يُحب كل هذه الفوضى." كنتُ أُخيفه أكثر من أي وقت مضى، لكن كان ذلك ضروريًا. "دورجان يفهم شيئًا عن الإزاريين أيضًا، لكن لا يجب أن تفترض ذلك."

تمنيتُ لو أسأله من أين أتى. العبيد الإزاريون القلائل الذين قابلتهم في سنوات أسري الأولى أُسروا مثلي، يوم سقوط إزاريا. جاء الهجوم سريعًا في ذلك اليوم الأخير. نحن الذين نملك مهارات قتالية بذلنا قصارى جهدنا لمنح الناجين الأخيرين وقتًا للهرب، ولكن في اللحظة التي لفظت فيها أنفاسي الأخيرة، كان كل رجل وامرأة وطفل في مرمى بصري قد فارقوا الحياة. أين الأحياء؟ من هم؟ تراقصت الأسماء على لساني، تُلحّ عليّ أن أنطقها. ربما يكون ابن أصدقائي. غمرتني الذكريات، تُلحّ عليّ أن أشاركها مع من يفهم. أسئلة حول ما حدث بالضبط بعد أول ضربة من ديرزي أثقلت كاهلي... جوعٌ مبهمٌ للفهم، مُغلّفٌ بقلقٍ غريبٍ مُرتجفٍ يُثير فيّ مشاعرَ مُضطربة... تسللت إلى طرف لساني. لكن لم أستطع إشباع رغباتي. كان عليّ أن أُعلّم الصبي حقائق حياته الجديدة.

"لا تقلق بشأن أمر واحد. لن يسألك الديرزي عن الآخرين، لأنهم لا يهتمون كثيراً. لسنا جديرين بعناء البحث عنا. لقد كان اختطافك حادثاً. فعلت شيئاً أحمقاً ولفتت انتباه ساحر ديرزي. أليس كذلك؟"

أومأ الصبي برأسه بتردد.

"السحرة هم الوحيدون الذين يهتمون بنا الآن."

"لماذا؟"

"نخشى أن نتسبب في فقدانهم لوظائفهم. لا يجيدون سوى صنع الأوهام. يعثرون على الأشياء صدفةً، لكنهم فقدوا أي ذكرى عن السحر. يعلمون أن لدينا القدرة على ممارسة السحر الحقيقي، لكنهم لا يفهمونه ولا يستطيعون معرفة كيفية الحصول عليه بأنفسهم. يبدو أنهم لا يستوعبون أننا لا نهتم بتسلية نبلاء ديرزي به."

"كنت أحاول فقط إيجاد طريق العودة إلى ... كنت أحاول فقط الوصول إلى المنزل." كاد أن يعض شفته حتى أحدث ثقباً.

"أنت محق في عدم الوثوق بي. لا تثق بأحد. حتى أن هناك رقيباً مقيماً بين الناس هنا - في مبعوث خليدي -"

"راي-كيرا؟" اتسعت عيناه. ذعر. محاصر. لم يخطر بباله مثل هذا الاحتمال. ولكن، لم يخطر ببالي أنا أيضاً.

"لا يمكنه أن يعرفك. فقط كن حذرًا للغاية. لم يعد لديك أي دفاعات. عمومًا، من الأفضل أن تبقى منعزلًا، ولكن إذا استطعت مساعدتك، فسأفعل. اسألني ما تشاء."

لم يرغب بالتحدث معي. ظلّ يُشيح بنظره وكأنه لا يطيق رؤية شخصٍ كان سينبذه قبل أيامٍ قليلةٍ لفساده المُطلق. ثمّ تعود عيناه إليّ، إلى العلامة على وجهي، إلى الندوب على كتفيّ وذراعيّ، إلى كدماتي الباهتة. "منذ متى وأنتِ... على هذه الحال؟" لم يستطع حتى أن ينطق بالكلمة.

"لقد كنت عبداً لمدة ستة عشر عاماً. منذ سقوط عزاريا عندما كنت في الثامنة عشرة من عمري." طوال حياته. لا بد أن ذلك بدا وكأنه دهر.

"ماذا كنتِ من قبل؟ هل كنتِ تملكين ميليدا؟"

استطعتُ أن أسمع ما كان يسأله حقاً. لو كان قد مُنح قوة حقيقية، ولم أُمنحها أنا، لربما كان وضعه أفضل. ربما كان سينجو من مصيري.

قلتُ: "هذا هو الشيء الوحيد الذي سأجيب عنه بخصوص الماضي، لأنني تركته خلفي... كما يجب عليك أن تفعل أنت أيضاً". نظرتُ إليه مباشرةً في عينيه ليتأكد من صدقي. "كنتُ حارسًا".

لم أكن أظن أنه يمكن أن يصبح أكثر شحوباً. وضعت الخبز في يده وشجعته على الأكل. أكل، ثم فعل ما كان عليه فعله... تحدث عن الحاضر.

"يحاولون إجباري على ذكر اسمي، وارتداء ملابسهم غير المحتشمة، والركوع لعبادتهم كما لو كانوا آلهة. يقولون إنني سأخدم على المائدة. سأضطر إلى لمس لحومهم النتنة وأطعمتهم الفاسدة، واستخدام مياههم النجسة لغسل أيديهم."

بالطبع أرادوه أن يخدم على المائدة. كان شابًا وسيمًا... بلا ندوب... ساذجًا... بريئًا. غلى قلبي كرهًا، وتمنيت ألا يكون راي-كيرا يصطاد في تلك اللحظة وإلا سيجد وعاءً مناسبًا في داخلي. "هناك بعض الأمور الأخرى التي يجب أن أخبرك بها عن خدمة مائدة ديرزي..."

مرّت نصف ساعة أخرى - نصف ساعة كئيبة - حتى فتح دورجان الباب وأمرني بالخروج. أمسكت بيد الصبي المرتجفة وقلت: "أنت

ستنجو من ذلك. نقاؤك يكمن في روحك. لا يُمس. سترى الآلهة النور فيك." تمنيت لو أستطيع تصديق ذلك.

وبينما كنت أتركه وأصعد السلم، أغمض الصبي عينيه، وقبض قبضته على صدره، وقال: "Lys na Llyr".

قلت: "تينوش هاد، لير. نيفارو ويد". النوم في سلام.

عانيتُ في التفكير بشأن ما يجب فعله حيال لير. كان حدسي يُملي عليّ الابتعاد. الوحدة أمان، كما أخبرته. وكان على الصبي أن يتعلم دروسه بنفسه، وكلما كان ذلك أسرع كان أفضل. مع ذلك، كان احتمال كسب ثقته والحصول على إجابات لأسئلتي مغريًا لدرجة مؤلمة. لكن القدر، في صورة ألكسندر، سلب مني خياري.

في اليوم التالي مباشرة، نُقلتُ إلى القصر ليسهل على الأمير وحاشيته الاستفادة مني. كانت الاستعدادات جارية لـ"داكرا" ألكسندر، لذا كان عليّ إنجاز ألف مهمة كتابية: دعوات إلى النبلاء المحليين، وإعلانات من كل نوع، ومراسلات لا تنتهي مع التجار والموردين والأصدقاء والضيوف.

مرّ أسبوعٌ قبل أن أرى لير مجدداً. استدعاني الأمير ذات مساءٍ على العشاء، لأقرأ قصيدةً كُتبت عن المهرجان القادم، وتركتها امرأةٌ مفتونةٌ في منزله. لم يُصرّح لي ألكسندر بالانصراف حين انتهيتُ من إلقاء القصيدة الحزينة، فجلستُ في الظل خلفه، وراقبتُ فتى إزاريا وهو يغسل أيدي الضيوف. كانت عيناه غائرتين داكنتين، وجلده شبه شفافٍ، مشدوداً على عظامه. انقبض قلبي. لم يكن يأكل. كان لا يزال يُصارع كيفية تجنّب تلك الأشياء التي تربينا على أنها نجسة، دون أن يُهلك نفسه - الفساد المطلق، وفقاً لقانون إزاريا. كان من الصعب للغاية تغيير تعاليم العمر. ولم يكن هناك حلٌّ لهذه المعضلة إلا إذا تعلّم حقائق جديدةً يعيش بها. بالكاد استطاع لير أن يُجبر نفسه على لمس يدي محارب ديرزي مفتول العضلات. وعندما مدّ الرجل يده وداعب شعره القصير، محدقًا بنظرةٍ خبيثةٍ مترقبة، شعرتُ بيأس لير كما لو كان يأسي. وهو كذلك بالفعل... وما زال كذلك.

بعد ليلتين، بينما كنت أجلس في غرفة الانتظار الباردة في منزل فيندولار، أكتب قائمة بالبياضات الإضافية المطلوبة لألفي ضيف كان من المتوقع وصولهم بعد ستة أسابيع قصيرة، ظهرت جارية شابة على الباب. "يأمرك السيد دورجان بالحضور إلى بيت العبيد."

كان ترك مهمتي الموكلة إليّ لإطاعة مسؤول أدنى مني رتبةً خرقًا صارخًا للبروتوكول، لكنني لم أتردد. كنت أعرف ما سأفعله.

يجد.

لم يكن الصبي الأحمق يعرف كيف يفعل ذلك بسرعة أو بدون ألم. لقد غرز سكين الحلاقة الكليلة في بطنه. وضع دورجان الصبي في أحلك زاوية في بيت العبيد، وألقى عليه بطانية ليهدئ ارتعاشه.

قلت: "آه يا بني، ماذا فعلت؟"

لم يُجب، بل أدار رأسه بعيدًا عني. لم يكن فسادي هو ما لم يستطع مواجهته، بل على العكس تمامًا. قال: "اذهب بعيدًا". كان يشعر بالخجل.

ضممته بين ذراعيّ، وشعرت بدمه الدافئ يغمر ردائي. قلت: "لست خائفًا من الفساد يا لير، أنا فقط آسف. أتمنى..." حسنًا، ما أهمية ذلك؟ أنشدت بهدوء ترنيمة الموتى، على أمل أن تُخفف عنه بعض الشيء.

"هل كنت حقاً حارسًا؟" همس لي بعد أن انتهيت من الصلاة القديمة.

"نعم."

"هل ستنظر... إلى الداخل... وتخبرني بما تراه؟"

"لا داعي لذلك—"

"أخبرني من فضلك. أنا خائف جداً."

"إن شئت." حدّقتُ مليًا في عينيه الداكنتين المليئتين بالألم، لكنني لم أستخدم مهارة الحارس لأقرأ روحه وأجيبه. "ليس فيك شرٌّ يا لير. لا فساد. أنت ابن فيردون وأخو فالديس، وستعيش إلى الأبد في غابات النور."

استرخى وأغمض عينيه، فظننتُ أنه رحل. لكنه ابتسم بنعاس وقال: "أخبرني غالادون أنه كان يعرف شخصًا أصبح حارسًا في السابعة عشرة من عمره. وقال إنني لن أحظى بمثل هذه السعادة حتى لو حاولتُ ألف عام."

"غالادون..." كدت أنسى كل شيء في سحر الاسم.

"أنت من فعل ذلك، أليس كذلك؟"

"لم يسبق له أن تفوه بمثل هذا المديح في حضوري. كان دائماً يقول إنني "غير كفؤ، جاهل..."

"... غير مدرك، وغير مناسب لمواهبك."

ابتسمتُ لصدى الفرح الضائع. "غالادون ما زال حيًا..."

"هناك..." اختنق بالدم الذي تدفق من فمه، وتشنج جسده النحيل. ضممته إليّ.

قلت: "لا بأس، اهدأ."

"...خمسمائة..."

"اصمت يا ولد."

"...مختبئًا، مختبئًا، مختبئًا. بارد ونظيف... آه... هششش. لا تخبر أحدًا أين. الوحش المتحرك يقود الطريق..." كان يبتعد تدريجيًا، وتحولت كلماته إلى لحن خافت أشبه بأغنية طفولية. "...اعثر على الطريق...اعثر على طريق العودة إلى المنزل...اتبع الوحش المتحرك...سيقودك إلى المنزل..."

تنهد، ولم يقل شيئاً آخر.

قلت: "نيفارو ويد، لير". النوم في سلام.

إذا كان لير ينعم بالسلام، فأنا لم أكن كذلك. حاول دورغان التحدث إليّ بينما كنت أغسل الدم عن سترتي وأرتدي الثوب المبلل، لكنني لم أرد البقاء لسماعه. قلت: "يجب أن أعود إلى عملي. لا تتصل بي لمثل هذا الأمر مرة أخرى، يا سيدي. لا أريد أن يجدني الأمير أو رئيس الوزراء غائبًا عن واجباتي لخدمة عبد بربري."

كانت فترة عصيبة. كنتُ أفضل النوم متجمدًا في بيت العبيد، والعمل على إزالة أكوام القمامة بيديّ العاريتين، على أن أنجرف أكثر في حياة الديرزي. لكن مع مرور الأسابيع، انشغلتُ كثيرًا فلم أعد أطيق التفكير في الأمر. كنتُ قاسيًا على نفسي، أمنع أي فكرة، مهما كانت عابرة، قد تربطني بالماضي. لم أحلم أحلامًا، ولم أسمح لنفسي برؤية أي رؤى، ولم أتحدث إلى أحد خارج نطاق عملي المُحدد. ومحوتُ تمامًا من ذهني الخبر المذهل بأن خمسمئة من الإزاريين مختبئون في مكان ما في العالم، وأن من بينهم من كان مرشدي منذ عيد ميلادي الخامس، اليوم الذي اكتُشف فيه إصابتي بالميليدا. لم يُؤكد لي لقائي بلير سوى أنني كنتُ مُحقًا في البقاء بعيدًا، مُحقًا في النسيان، مُحقًا في التظاهر بأنه لا توجد حياة أخرى غير اللحظة التي أعيشها.

الفصل العاشر

لم يتبقَّ سوى ثلاثة أسابيع على بدء احتفالات الأيام الاثني عشر التي ستُحيي ذكرى بلوغ ألكسندر سن الرشد. سيبلغ من العمر ثلاثة

وعشرين عامًا، وهو السن الذي يُصبح فيه رجال ديرزي مُساوين لآبائهم. يحصلون على نصيبهم من ممتلكات آبائهم وأراضيهم وفقًا لأمهاتهم، وترتيب ولادتهم، وعدد إخوتهم، ويُمكنهم الزواج دون إذن آبائهم. يُمكنهم مُجادلة آبائهم في النزاعات القانونية ومُحاربتهم في المعارك دون خطر الإعدام بتهمة عدم الاحترام. يُمكنهم التحدث بنفس سلطة آبائهم، ولكن لكي يُحترم رأيهم، كان عليهم أن يكسبوه بالطريقة التي يتبعها جميع رجال ديرزي - في المعركة.

بصفته ابن الإمبراطور، كان وضع ألكسندر مختلفًا بعض الشيء. سيملك ممتلكاته الخاصة - في حالته، ما يكفي من الأرض والخيول والكنوز لتأسيس ممالك مزدهرة - لكن لن يكون له الحق في اختيار شريكة حياته. كان هذا قرارًا بالغ الأهمية لا يُترك لنزوة شاب. وبالتأكيد لن يكون ألكسندر ندًا للإمبراطور، مع أن صوته سيحمل سلطة إمبراطورية. إذا خالف رغبة والده، فلن يُعاقبه إلا والده. لن يُسمح لأحد غيره بذلك. ولن يستطيع أي رجل أو امرأة رفض أمر ألكسندر، ظنًا منهم أنهم سيعقدون صلحًا مع إيفان من وراء ظهره كما فعلوا في الماضي. سيُعاقبهم إيفان بشدة. ستكون كلمة الأمير هي قانون الإمبراطورية.

كان كل نبيل، وكل خادم، وكل عبد في بلاط الأمير - ومعظمهم في كفرنا - منغمسين في الاستعدادات المتواصلة للداكراه. وقد أُنجز قدر كبير من العمل في الخريف السابق، حين جُلبت أشهى المأكولات والمواد الثمينة من أقصى أرجاء الإمبراطورية قبل أن تُغلق ثلوج الشتاء ممرات الجبال العالية. وتم تخزين عربات محملة بالحرير والديباج، وصناديق من الخزف ذي الحواف الذهبية، وبراميل من النبيذ النادر تحسبًا لطول فصل الشتاء الذي قد يحول دون وصولها. كما شُحنت جواهر من أمهر صائغي الأحجار الكريمة في زاجاد، وعُطرت.

آلاف الشموع، وكميات هائلة من الذهب لدرجة أن العربات تركت أخاديد عميقة في الطرق.

عانى الخدم كثيراً في التخطيط لاثني عشر يوماً من الولائم لألفي ضيف، وفي تحديد كميات الطعام المناسبة لسكان كفرنا والقرى المحيطة بها، خشية أن يموتوا جوعاً عندما تُخصص جميع الموارد لاستخدام القصر. وقد تم استيراد قطعان من الماعز والأغنام والخنازير والأبقار، وأسراب من جميع أنواع الدواجن، بالإضافة إلى كميات كافية من العلف لتسمينها خلال أشهر الشتاء.

كان الخياطون والخياطات يعملون على الأردية والفساتين لمدة عام أو أكثر. تم تجهيز ألكسندر بردّية مرصّعة باللؤلؤ تكفي لفدية إزاريا بأكملها،

ورأيت تصاميم قلادة من الماس من شأنها أن تسحق رجلاً أصغر حجماً بثقلها.

ومع ذلك، ورغم كل الاستعدادات التي استمرت طوال العام، كان القصر في حالة من الفوضى. كان لا بد من طلاء غرف الإمبراطور وتجديدها، وتجديد أماكن إقامة الضيوف، وتوفير أماكن إقامة لأولئك الضيوف الذين لم يتمكنوا من الإقامة حتى في نُزُل واسع مثل قصر ديرزي الصيفي.

وصلت الهدايا من كل حدب وصوب: جواهر، تماثيل، صناديق من العاج واليشم، سكاكين وسيوف وأقواس مصنوعة بدقة متناهية، أغطية رأس مرصعة بالجواهر ودروع من حلقات معدنية، خيول، ديوك مقاتلة، عطور، وطيور نادرة. ورغم إصراره على عدم إيمانه بالسحر، طلب مني الأمير فحص كل واحدة منها بحثًا عن أي سحر. ومنذ أن "شفيته" من مشكلته في غرفة نومه، بدا أنه يثق بنصيحتي. لم أجد شيئًا، ولكن بما أنه لم تحدث أي اضطرابات أخرى، بدا أنه يعتقد أنني أقوم بعمل جيد.

رغم رغبتي الشديدة في ذلك، لم أستطع نسيان الشيطان.

غادر الخليد كفرنا لزيارة باميفور، لكن كان من المقرر أن يعود لحضور وليمة الذكرة. ورغم أنني حاولت إقناع نفسي بعدم القلق - فقد يسقط عليه جبل أو يشق زلزال الأرض ليبتلعه - إلا أن عظامي أخبرتني بغير ذلك. لم نرَ منه آخر مرة.

وكأنّ مسألة الدكراه لم تكن معقدة بما فيه الكفاية، فقد قرر ألكسندر أنه بحاجة إلى سيف جديد ليحمله في يوم التتويج. ورغم أن السيوف المُهداة كانت مزخرفة بإتقان وباهظة الثمن، إلا أن أياً منها لم يكن السلاح الممتاز الذي اعتبره الأمير مناسباً لإمبراطور مُستقبلي من سلالة محاربة.

قال لبعض الأصدقاء ذات صباح في غرفته: "لقد صنع ديميون من أفينخار نصلي الأخير. إنه أفضل صانع سيوف في الإمبراطورية".

سأل نيفاري وهو يحتسي كأسًا من النبيذ بصوت عالٍ: "لماذا لا تطلب من ديميون أن يصنع لك كأسًا آخر؟". كان اللورد نيفاري ذلك الشاب الأنيق ذو العينين الضيقتين الذي كان برفقة ألكسندر وفاني في مزاد العبيد. كان يبدو دائمًا وكأنه قد شمّ للتو جثة هامدة.

كان ألكسندر يراقبني وأنا أفرغ صندوقًا من كؤوس الذهب المرصعة بالجمشت، لكن لم يسترعي انتباهه شيء مثل اقتراحاتي السخيفة. "هل أنت أحمق تمامًا يا نيفاري؟ لم يتبق سوى ثلاثة أسابيع على

الحفل، وسيستغرق ديميون معظم هذا الوقت لصنع سيف لائق. إنه يقسم أنه لا يوجد حداد آخر يصنع نصلًا مثله. من الصعب عليه أن يأتي إلى هنا ليجربه على يدي ثم يعود ليكمل صنعه، ولا يمكنني أنا أيضًا أن أذهب إلى هناك وأجربه، ثم أعود في الوقت المناسب."

"ألم يكن بإمكانك إرسال الطلب بواسطة طائر؟ لقد طلبت هذا السيف من زهاغاد، وكنت راضياً تماماً عن النتيجة. لم أرَ أي داعٍ لوجودي هناك أثناء صنعه." ثم أخرج سلاحاً برونزياً سميكاً بمقبضٍ مزخرف للغاية، مرصع بالجواهر، وثقيل جداً لدرجة أنه كان يصلح أن يكون هراوة أفضل بكثير.

قلب ألكسندر عينيه ناظرًا إلى الشبان الثلاثة الآخرين في الغرفة، وضرب بإصبعه على رأس نيفاري المسطح قليلًا. "سيفك مجرد زينة عاهرة يا نيفاري. كيف حصلت على ضفيرة المحارب هذه؟ هل استأجر والدك مرتزقة ليُدبّروا لك معركة؟ آه! فهمت، لقد خمنتُ الأمر!"

"بالتأكيد لا!" تمتم الشاب الذي كان يرتدي ثوباً وردياً من الساتان، ووجهه بلون ثوبه تماماً. غطى رفاقه أفواههم لإخفاء ابتساماتهم الساخرة.

"تعلموا مني، إن كان عقولكم تستوعب ذلك. لا يمكن لمحارب حقيقي أن يحمل سيفاً لم يُصنع ليناسب يده ولم يُوازنه بما يتناسب مع أسلوبه ومتعته. ليس كلنا راضين عن السيوف الثقيلة التي تجر على الأرض."

رفع الشاب البليد سلاحه السخيف عاليًا حيث سقط عليه ضوء الشمعة، وعقد حاجبيه بجدية وهو ينظر إلى اللعبة المتلألئة. "لكنه يبدو جيدًا، ألا تعتقد ذلك يا ألكسندر؟ كيف يمكنك تحمل عمل بسيط كهذا الذي تحمله؟ قد يكون سيفك سيف جندي كسول. سيف الإمبراطور يجب أن يكون أجمل من سيفي."

لكن ألكسندر لم يكن يستمع إلى نيفاري. كان يحدق في غمده الملقى على طاولة مستديرة ذات سطح رخامي. فجأة استدار. "سيون!"

وضعتُ عملي وانحنيت. "سيدي؟" "هل وصلك أي خبر من عمي؟" "لا يا سيدي. لم يصلني أي خبر منذ آخر رسالة من زاجاد." كانت هذه هي الرسالة المكونة من ثلاثة أسطر التي وافق فيها الرجل العجوز على خطة ألكسندر لإبعاده عن كفرنا لصالح دار هيجد.

صاحب السمو،

كلمتك أمرٌ لي. سيتم توفير كل ما تحتاجه السيدة ليديا. سأراك في كافارنا، عندما أنتهي من مهمتي في أفينخار.

ديمتري

لم يشعر ألكسندر بأي سرور أو انتصار من تلك النغمة. قال لنفسه بعد سماعها: "سنصلح الأمور. سنصلحها."

لا شك أن ديمتري قد ذهب إلى أفينخار الآن. إنه يعرف كل نقاط قوتي وضعفي، ويعرف التصميم الأنسب لي. من أفضل من أفضل مبارز حمل سيفًا على الإطلاق ليحكم على عمل ديميون؟ لن يؤدي ذلك إلا إلى تأخير عودته قليلًا. إذا مرّ عبر ممر جيبار، فسيكون هنا قبل بدء المراسم بوقت كافٍ.

شرعت فوراً في الكتابة على مكتبي المصنوع من خشب الكرز.

ديمتري،

بما أنك ما زلتَ مستاءً مني، فلأُثير غضبك مرةً أخرى. سيُدفئك هذا وأنتَ تعبر نهر جبار إلى كفرنا. لقد قررتُ سيفًا جديدًا للداكراه. ستأمر ديميون بالتخلي عن كل ما يفعله ليصنع سيفًا يليق بولي عهده - سيفًا يليق بالمحاربين، لا مجرد لعبة احتفالية. يجب أن يكون النصل النهائي أطول بمسافتين من السيف الأخير الذي صنعه لي، كما ناقشنا الصيف الماضي، لكنني أتوقع أن يكون توازنه وحِدّته مثاليين تمامًا. أما بالنسبة للمقبض، فديميون يعرف ذوقي. كل ما أطلبه هو أن يحمل نقش أسد ديرزي وصقر بيتنا. أثق بك يا عمي في اختيارك له، وأن تُحضره بأسرع ما يمكن من أفينخار لافتتاح الدكراه. أرسل لي خبرًا بأنك ستتولى هذه المهمة.

زاندر

طلب مني الأمير أن أرسل الرسالة عبر طائر ساعي إلى أفينخار، ثم ظل قلقاً ومتذمراً لمدة أربعة أيام حتى وصلت رسالة رد.

صاحب السمو،

سيفك سيكون مُرضيًا. السيدة ليديا موجودة هناك.

الطريق. بعد ثلاثة أسابيع سأكون في كفرنا.

ديمتري

هزّ ألكسندر رأسه عند سماع الرسالة. قال: "أظن أن عليّ أن أكون مستعدًا لضربك، يا ليكاي". ثم أضاف بنبرة حنين غير معتادة: "لماذا رأسك قاسٍ هكذا؟"

ليكاي. هذا ما فسّر الكثير عن ألكسندر وديمتري. كان الليكاي مُعلّم محارب ديرزي، سيد تدريبه في فنون الحرب. مع أنّه من غير المألوف

أن يكون الليكاي قريبًا، كان عليّ أن أتوقع ذلك. لم يكن إيفان ليسمح لأيّ كان أن يتولّى تدريب ابنه. والأكثر غرابة هو أنّهما خرجا من هذه التجربة دون أن يصبحا عدوّين لدودين. كان الليكاي الجيد صارمًا في تدريبه، وقد خمّنتُ أنّ ديمتري كان بارعًا في ذلك. لا محالة، قادتني هذه الأفكار عن المُعلّمين والطلاب إلى العودة إلى لير، وعدتُ إلى عملي ألعن جميع الديرزي.

كان التحضير الوحيد الذي وجده ألكسندر مسليًا للاحتفال هو استئجار الفنانين. كُلِّف خمسة من أصحاب البيوت بتصميم فقرات ترفيهية لكل يوم وليلة من أيام الاحتفال، وكان هناك تدفق مستمر من الموسيقيين والراقصين، والمهرجين والسحرة، يتدفقون إلى كفرنا، يتنافسون على العقود المربحة. كان أصحاب البيوت يفحصون المتقدمين، ثم يرسلون من يبدو مناسبًا إلى الأمير للحكم النهائي. وبالطبع، لم يكن الأمير يتردد أبدًا في التعبير عن تفضيلاته.

"صوتك يشبه صراخ الأوز."

"بكاءك يجعلني أتقيأ."

"أنتِ تُشكلين إهانة لأثوس. أليس هناك إله موسيقى ما ليخنق هذه المرأة؟"

واحدًا تلو الآخر، انسحب الطامحون غير المؤهلين خلسةً. أخبر الأميرُ أحدَ حكماءِ قبيلةِ البسرانيين أنه لا يجوز لها الظهور في كافارنا أو زهاغاد لعشر سنوات. ركلَ مغنيًا من قبيلة هوليني أسمر البشرة في مؤخرته، في اللحظة التي بلغ فيها الرجل ذروة انفعاله. ففتح المغني عينيه على مصراعيهما، وكاد الرجل المسكين أن يبتلع لسانه.

"سيون، اكتبي إعلانًا يمنع الهوليني من غناء أغاني الحب الديرزية. إن مشاعرهم المبتذلة تُسيء إلى تقاليدنا."

أردتُ أن أخبره أن هذا الشعور ربما كان مرتبطًا بحقيقة أن أزواج قبيلة هوليني كانوا يُرتبطون منذ الولادة، ولم تُتح لهم فرصة الاعتراض على اختيار خاطبة القبيلة. عندما كان أفراد هوليني يُغنون عن الحب من طرف واحد وأحزان الزواج المستحيل، كانوا يُدركون تمامًا ما يقولون. لكنني امتنعتُ عن ذلك.

في نهاية يوم طويل من الاختبارات غير المُرضية، عزف عازف عود على وترٍ نشازٍ في منتصف أداءٍ كان جيدًا في مجمله. قفز ألكسندر من كرسيه، وانتزع الآلة، وضرب بها رأس الموسيقي التعيس. فرّ الرجل المنهار من قاعة الموسيقى في القصر وهو يبكي.

"حسنًا، ما الذي تنظر إليه؟" أمسك بي الأمير قبل أن أتمكن من خفض عيني.

"أنا لا أنظر إلى شيء يا سيدي."

أترى؟ مرة أخرى، أنت لا تقول ما يدور في ذهنك حقًا. لقد كان الوضع أسوأ من أي وقت مضى خلال الأسبوعين الماضيين. ما الذي يشغل بالك؟

"لا أفكر في شيء سوى تنفيذ إرادتك يا صاحب السمو."

"ها هي ذي. من الواضح أنها كذبة. قل لي الحقيقة وإلا سأجلدك. لقد مر وقت طويل منذ أن تعرضت للجلد، لذا من الأفضل أن تجعلني أصدقك. أنت مفيد، لكنك لست لا غنى عنك."

كنت أجلس على كرسي مرتفع عند مكتب موظف، أحدق في أصابعي العظمية الملطخة بالحبر والتي كانت تحمل مرآة لوتين ذات يوم، وقد غلبني إرهاق شديد لدرجة أنني لم أستطع التراجع خلف حواجز كلماتي المعتادة.

"كنت أفكر أن عائلة عازف العود ستموت جوعاً، لأن آلته الموسيقية، التي هي مصدر رزقه، قد دُمرت الآن."

"آه، ربما يكون قد خبأ كيساً من الذهب في عباءته. أم أن سحرك الإزاري يخبرك بغير ذلك؟"

"لا يا سيدي. عيناي فقط هما ما يخبراني. إنه من قبيلة ثريد، ولذلك سافر شهرًا كاملًا ليصل إلى هنا، وعليه أن يسافر شهرًا آخر ليعود إلى دياره، ومع ذلك فإن نعال حذائه مثقوبة. الوشوم الخمسة على ذراعه اليسرى تدل على أن لديه خمسة أطفال، ومع ذلك لا يرتدي أي عاج. إن ثريدًا باع آخر تميمة عاجية لديه لا يرث شيئًا لأبنائه. لذلك فهو لا يملك شيئًا، وستموت عائلته جوعًا، فأي تاجر أو مزارع سيرحم ثريدًا، وهم مكروهون ومحتقرون من جميع الأجناس؟" لقد تركتُ مرارةً شديدةً تتسرب من كلماتي.

"ما بكِ اليوم يا سيون؟ ما شأنكِ برجل من الثريد؟ ليس لديه حلقات عبيد. كان جنود الثريد في الطليعة عندما استولينا على إزاريا."

كنت أعتقد أنني سيطرت على غضبي إزاء وفاة لير. لكن بعد يوم طويل قضيته أشاهد سلوك ألكسندر الفظ، لم أستطع كبح جماح لساني عندما استفزني.

"إنه كائن حي يتنفس يا سيدي. لديه أيدٍ وصوت ليكرمك، وروح ليعبد آلهته ويجلب الخير إلى العالم. لقد دمرته لأنك تشعر بالملل."

"كيف تجرؤ على التحدث معي بهذه الطريقة؟"

كانت إحدى أصعب المعارك التي خضتها في حياتي أن أتخلى عن مقعدي، وأجبر نفسي على الركوع، وأجبر لساني على الطاعة. قلتُ: "أنا أفعل ما تأمر به يا سيدي". كنت أرتجف من الغضب. لم أكن يومًا على وشك فقدان السيطرة على نفسي كما كنتُ حينها، ومن طرف عيني، رأيتُ قبضة ألكسندر تنقبض وتنتفض، مستعدًا لإسقاطي أرضًا. دعوتُ الله أن يفعل ذلك قبل أن أزيد الطين بلة. لكن كل ما قاله هو: "اخرج. وأحضر معك لسانًا مهذبًا غدًا وإلا فلن تجد يدين تكتب بهما".

طوال ذلك المساء، وأنا أعمل في أعمال فيندولار الشاقة، كنت ألعن نفسي لغباء. غباء. غباء أن أدعه يستفزني لأقول ما في قلبي. إذا تركتَ قطرةً تتسرب من السد، فكم من الوقت سيمر قبل أن تفقد الطوفان؟

كنتُ آمل أن ينسى الأمير الحادثة. كان سريع الغضب، سريع الانفعال، سريع النسيان. كنتُ أراه طفلاً خطيراً، واعتقدتُ أن هذا هو سبب مشاكله العميقة مع الناس. لم يكن يفهم المظالم القديمة أو المتجذرة، وكان أي تذكير بها يثير غضبه أو يهينه. كان يعتقد حقاً أن سادة مزران سيحبونه من جديد ويرسلون أبناءهم ليكونوا حاشيته النبلاء ورفاقه المحاربين. في الواقع، أولئك الذين عانوا من طباعه العنيفة والمتهورة أو إهاناته الصبيانية المهينة، تظاهروا بالقوة أمام الرجل الذي سيتحكم يوماً ما بمصيرهم. لكنني رأيتُ تعابير وجوههم عندما لم يكن ألكسندر ينظر، ولم أصدق أنهم نسوا.

لسوء الحظ، لم ينسَ ألكسندر كلماتي المتهورة. في صباح اليوم التالي، جلستُ مجدداً على كرسي الكتابة المرتفع في قاعة الموسيقى الفسيحة المذهبة. كانت المدفأة الضخمة المفتوحة في وسط الغرفة تُصدر حرارة ضئيلة، وكان الأمير مُسترخياً على كرسيه المبطن.

بجانبه، كان يحدق بي بمرارة بينما يستمع إلى المزيد من الفنانين الطموحين. لم يُرضِه شيءٌ طوال ساعة. ولكن مع مرور اليوم، حالف الحظ ثلاثة فنانين. عزف الأول على الميلانغار، وهي مزمار ديرزي ذو الصوت المنخفض، بطريقةٍ جعلت أسود زهاغاد الحجرية العملاقة تتودد إليه. أما راقصة مانغانار الرشيقة ذات العيون السوداء، فقد استحقت ليس فقط عقدًا، بل أيضًا مرافقةً إلى مساكن القصر، حيث لم يساورني شكٌ في أنها ستتلقى عروضًا أخرى لا تُرفض نيابةً عن الأمير. كما حظي راوٍ للقصص بالموافقة، فجعل الغرفة الباردة المضاءة جيدًا تبدو مظلمةً وحارةً بقصة محاربٍ يغامر بدخول كهف درويا إله الثور.

لكن عند الظهيرة تقريبًا، أخطأ لاعب خفة نحيل من ثريد، كان يؤدي خدعة جريئة، في التقاط الكرة وكاد يصيب ألكسندر بكرة خشبية كبيرة في رأسه. لم يكن أسبوعًا سعيدًا لثريد. سقط الشاب النحيل ذو الخدين الغائرين على الأرض في رعب شديد. عندما التقط الأمير الهادر حقيبة أدوات الرجل وصوّبها نحو موقد النار، أدرت وجهي بسرعة. لا بد أن ألكسندر قد غيّر رأيه حينها، لأن الحقيبة الثقيلة كادت أن تسقطني من على مقعدي.

قال ألكسندر وهو ينقر الرجل بقدمه: "هيه، ثريد. انهض وأرني نعلي حذائك."

لم يستطع الرجل المسكين، الذي كان فمه مفتوحاً على مصراعيه، أن يتحمل ارتطام ركبتيه ببعضهما البعض بهذه الشراسة.

"همم. لا توجد ثقوب. وأريني ذراعكِ اليسرى. طفل واحد. وثلاثة من حليّكِ العاجية حول عنقكِ. ما رأيكِ يا سيون؟ هل لي أن أضربه دون اعتراضكِ؟"

"لك أن تفعل ما تشاء كما هو الحال دائمًا وإلى الأبد، يا صاحب السمو. إرادتك مقدسة لدى جميع الذين يعيشون في نور إمبراطورية ديرزي." حدقت في الورقة البيضاء على مكتبي وأنا أردد الكلمات المطلوبة.

"انصرفي يا ثريد، وتعلمي مهنتك قبل أن تظهري أمام أميرك. لحسن حظك، هناك من يسيء إليّ أكثر منك."

لم أرَ سوى قلة من الرجال يتحركون بسرعة أكبر من لاعب الخفة الثالث. حتى أنه لم يأخذ حقيبته.

ضممت يديّ إلى صدري كما لو كنت أستطيع حمايتهما من غضب ألكسندر. شعرت بارتياح كبير لأنهما لم ترتجفا عندما أبعد إحداهما عني وفحصها.

"الجلد لن يغير أفكارك، أليس كذلك يا عزاريان؟ ولا حتى لو نفذت تهديدي وقطعت هذه اليد عن جسدك؟" و...

لا تجرؤ على أن تعطيني، "لك أن تفعل ما تشاء يا سيدي".

قلت: "لن يجعلني هذا العقاب غير ما أنا عليه، إلا إذا جننت بسببه، وهو أمر محتمل. ولكن حينها، بالطبع، لن أكون ذا فائدة لك".

"هل يُعقل أن يكون بربري تحكمه امرأة لا يخشى سكيني؟" سحب السلاح المذكور وسحب طرفه على معصمي، تاركًا خيطًا رفيعًا من الدم يتدفق من الجلد المشدود.

ما الذي دفعني لإخباره بالحقيقة؟ ربما كنت قد استسلمت. ربما تركني لير في حالة من اليأس الشديد لدرجة أنني لم أعد قادرة على التفكير. ربما لم أكن أملك شجاعة الصبي لأطعن نفسي بسكين، لذا سأجبر ألكسندر على فعل ذلك نيابةً عني.

نظرتُ مباشرةً إلى وجهه. "أنا خائفٌ حقًا يا صاحب السمو. كل لحظةٍ من وجودي تحمل عبئًا من الرعب لا يمكنك تخيله. أخشى أنني بلا روح. أخشى أنه لا وجود للآلهة. أخشى أنه لا معنى للألم الذي عرفته. أخشى أنني فقدتُ القدرة على حب أي إنسان أو حتى رؤية الخير فيه. وسط هذه المخاوف يا سيدي، لا مكان لك."

لم يكن هناك أحد بالقرب منا. كانت الغرفة واسعة جدًا، وكان أصحاب المنزل يختبئون عند الأبواب في انتظار إشارة لإرسال مرشح آخر.

قال ألكسندر: "بإمكاني أن أجعلكم تخشونني"، بهدوء قاتل لم أره إلا مرة واحدة من قبل - بينما كان يخطط لإعدام اللورد سيرج.

"لا يا سيدي، لا يمكنك ذلك."

شعرتُ بحرارة غضبه الحارقة بوضوحٍ تام، كما لو أن الشمس قد سقطت من السماء على رأسي. ولأنني ظننتُ أن النهاية قد حانت، ورغبتُ في رؤية روح جلادي، حوّلتُ حواسي وبحثتُ عميقًا في عينيه العنبريتين... فوجدتُ شيئًا لم أتوقع أبدًا أن أجده.

بريق فضي، يتلألأ في الصمت... لحظة باردة من الوضوح المذهل... ألف نتيجة محتملة وواحدة... يا إلهي ارحمني، كان النور ساطعًا جدًا، حتى أن بصري الداخلي أصبح خافتًا، أعمى من روعته.

مستحيل! ليس ديرزي! ليس ذلك الذي قتل على الأرجح مئات الرجال والنساء العاجزين عن إيذائه، ومئات آخرين لم يرتكبوا أي ذنب سوى الوقوف بينه وبين ما يشتهيه. ليس هو ممثل كل ما أكرهه في العالم.

كيف يُعقل أن تُمارس الآلهة هذه المزحة البشعة؟ لقد فقدتُ قدرتي. لقد طال غيابها. لم تُغذَّ حواسي الخارقة بالميليدا، ولم أكن يومًا من العرافين. كان الأمر كما لو أنني اكتشفتُ في مكان ما في أحشاء جثة متعفنة مليئة بالديدان لؤلؤة من الكمال ستُخلِّص العالم.

تأوهت بصوت عالٍ في حالة إنكار يائسة. ضغطت بكعبي يدي على عيني، لكن وهج الضوء ظل محفورًا في بصري، مثل الصورة اللاحقة عندما تنظر إلى الشمس.

"ما الذي أصابك يا إلهي؟"

لم يكد غضبه يخترق أطراف حواسي الأخرى، تلك الحواس التي كانت تكشف لي آثار الشياطين، الحواس نفسها التي كانت تكشف لي العلامة، العلامة التي تكشف عن روح القدر، روح الإمكانات، مادة خام يمكن للزمن والقدر أن يصقلاها ويشكلاها إلى شيء عظيم... روح يجب الحفاظ عليها حتى لو كلّفني ذلك حياتي. لم تكن قيود عبوديتي شيئًا أمام هذا الرباط الجديد الذي يربطني بألكسندر، ففي اللحظة التي اكتشفت فيها الإمكانيات المضيئة الكامنة في أعماقه، كشفت عن العبء الذي لا مفر منه الكامن في داخلي، قسم حارسي. لطالما اعتقدت أنه مدفون في مطر روحي، مجرد شظية أخرى في حشد الشرف والكرامة، الحب والصداقة والغاية. لكن لحظة رؤيتي تلك كانت كضربة يد عملاق، أزالت الأنقاض لتكشف أن الأساس ما زال قائمًا. كان قسمي جوهر وجودي، المبدأ الوحيد الذي لن أتنازل عنه، ونقطة الشرف التي لا يمكنني التخلي عنها. لقد ألزمني ببذل كل ما في وسعي لإحباط مقاصد الشياطين، وطالبني ببذل كل ما في وسعي لحماية ورعاية من يحملون العهد - لحماية ورعاية ألكسندر، أمير الديرزي.

الفصل الحادي عشر

ما بك؟ تبدو وكأنني قتلتك بالفعل.

"هل هو نوع من السحر؟" "سحر... نعم... يجعلني أتكلم بكلام غير مفهوم..."

كوابيس... أردتُ أن أصرخ. أن أبكي. أن أخنق أحدهم. ألعن كبريائي اللعين. لماذا كنتُ مصممةً على الانتقام منه إلى أقصى حد؟ وحده من تدرب على قراءة النفوس مثلي يستطيع رؤية الخلل - ربما واحد من كل ألف حتى بين قومي. لوّحتُ بيديّ أمام وجهي كما لو كنتُ أزيل خيوط العنكبوت. "يا سيدي، اغفر لي أي شيء غير لائق قلته في الأيام الماضية. كنتُ أبحث عن تعاويذ... لحمايتك... وهذا عمل معقد للغاية... والآن فقط... الآن فقط استعدتُ وعيي."

"اللعنة على لسانك الكاذب!" أمسك بكتفيّ وهزّني حتى اهتزت عظامي، كما لو أن الحقيقة ستسقط من فمي وترتد على الأرض عند قدميه.

ربما لم يكن ينوي قتلي، لكن صرخة من الجانب الآخر من الغرفة أنقذتني من معرفة ذلك.

"يا صاحب السمو! أخبار! أخبار سيئة!" كان ميكائيل، قائد حرس القصر النحيل، يركض نحونا، وصدى خطواته يتردد على البلاط ذي اللون الرملي الأحمر. تبعه رجل أشعث، أبطأ منه، لكن بخطوات متعبة تنم عن إلحاح حقيقي. قال الجندي الطويل، وهو يلقي نظرة فضولية نحوي: "يا صاحب السمو، ألف عذر على المقاطعة. لكننا كنا نعلم أنك سترغب في سماع قصة هوجرت على الفور". وأشار إلى الرسول.

انحنى الرجل الأشعث، الذي كانت طبقات الصوف والجلد المبطنة التي يرتديها متسخة ومهترئة، انحناءة عميقة، وبدأ يروي قصة مروعة عن بلدة دمرها قطاع طرق وأضرموا فيها النيران. أما الناجون من السكان، فقد تُركوا يتجمدون من البرد القارس بلا طعام في ذلك الطقس العاصف.

ابتعدتُ عن ألكسندر وبدأتُ في وضع أدوات الكتابة في حقيبتها. كانت يداي، اللتان كانتا ثابتتين في مواجهتي المجنونة مع الأمير، ترتجفان بشدة لدرجة أنني بالكاد استطعتُ إيقاف الحبر.

لم أستوعب ما عليّ فعله. كيف لي أن أحمي من سيقتلني حالما تسنح له الفرصة؟ كيف لي أن أعتني بمن يملكني، ولا يراني إلا كرسيًا أو مسندًا للقدمين؟ كان الأمر عبثيًا. لا قسم يُجبر على المستحيل. انتزعتُ عقلي من جنوني، وأمرته بالتركيز على مهمتي لا غير.

انطلق. افعل ما سيحدث. ما سيأتي سيأتي. ستنجو منه أو لا.

لكن ترنيمتي المعتادة لم تجدِ نفعاً. لم يعد الأمر متعلقاً بي وحدي. لحظة رؤيتي حطمت عزلتي بسرعة وفعالية كما اجتاح الديرزي إزاريا.

"الأمير ألكسندر، أطالب بتفسير!"

رفعتُ رأسي فجأةً لأرى الخليد، مرتدياً ثوباً أبيض ناصعاً، يندفع عبر البلاط الأحمر نحو الأمير. وتبعه فيندولار، كبير الخدم، كقاربٍ ذهبيّ على نهرٍ هادئ، يتدفق من وجهه المنتفخ سيلٌ متواصل من التواضع والاعتذار. توقف الرسول الجاثم عن سرد قصته عندما نظر إليه ألكسندر بضيق.

قال الخليد بنبرة آمرة: "لقد عدتُ للتو من بارنيفور، وقد أُوقِف موكبي عند أبواب القصر وهُدِّدنا بالتفتيش كما لو كنا مجرمين عاديين! لولا تدخل رئيس الوزراء فيندولار في الوقت المناسب لكان هذا الإهانة التي لا تُطاق. وقد أكد لي الإمبراطور أنني سأُستقبَل هنا بكل الاحترام الذي أظهره لي من قبل."

قال الأمير باقتضاب: "لم أقصد الإهانة يا كوريلي. لقد وردتنا تقارير عن غارات قطاع طرق على مسافة قصيرة من كافارنا، وكان الحرس على أهبة الاستعداد. الآن عليّ أن أهتم بالأمر. اسمحوا للحاجب أن يُريحكم ويؤكد لكم استمرار ترحيبنا وتقديرنا لكم." ثم التفت الأمير بعيدًا عن خيليد ذي البشرة الشاحبة.

قال الخليدي، وهو ينحني بأدب، وقد تبدد غضبه كقطرات الندى في منتصف الصباح: "بالطبع لن أتدخل في شؤون الدولة، يا صاحب السمو". كان صوته لطيفًا وناعمًا كما سمعته في حفل العشاء. "أرجو أن تسمح لي بلحظة لأقدم لك الهدايا التي أرسلها نظيري في بارنيفور. تمنعه واجباته من حضور الاحتفال القادم، لكنه أرسل ثلاثة من أمهر سحرة الخليديين لترفيهك، وطلب مني أن أتأكد من استلامك هذه الهدايا مني فور عودتي. لعلها تفيدك في هذه الأزمة".

مدّ الخليد بيده صندوقًا رقيقًا من الخشب المصقول بدقة. وباليد الأخرى فتح الغطاء ليكشف عن

خنجر برونزي رائع، بسيط وأنيق الشكل، بمقبض منحني ناعم مرصع بالفضة، لكنه خالٍ من الزخارف الأخرى، تمامًا كما أراد ألكسندر. لمع طرفه في ضوء النار. وكما توقع الخليد، أشرق وجه الأمير فرحًا.

تذكر، همستُ في نفسي. فكّر يا أحمق. حتى دون أن أتحرك، كنت أسمع موسيقى الشيطان المنبعثة من السكين. كان هذا الخليد جادًا للغاية في كراهيته لألكسندر.

أخذ الأمير السلاح من علبته، ورفعه، وأداره بثبات بين أصابعه. قال: "جيد. جيد جدًا. أُهنئ مواطنكم على ذوقه الرفيع."

بينما كان الأمير يسحب خنجره من غمده المعلق بحزامه ويلقيه على كرسيه، اقترب الخليد أكثر... أكثر من الكرسي الذي وضع عليه الصندوق الخشبي... ثم أكثر من الموقد، ولفّ عباءته بإحكام حول كتفيه. قال بمرحٍ خفيف، وهو يفرك يديه قرب اللهب: "ليلة باردة في مملكتك الصيفيّة، أيها الأمير ألكسندر. أظن أنني سأنتزع بعضًا من دفئك لأعود به إلى شقتي وأتركك لشأنك". ثم تناول عودًا صغيرًا بحجم الإبهام وأشعل طرفه.

انظر إليه، فكرت. راقبه وتذكر ما قلته لك. لقد صدقتني.

لكن السكين الجديدة كانت قد غُمرت بالفعل، وعاد ألكسندر ليُركز انتباهه على الرسول. انحنى الخليدي واستدار ليغادر، متظاهرًا بتدفئة يده فوق عصاه المشتعلة بينما بدأ يُحرك طرفها الأحمر بحركة دائرية.

لم يكن هناك وقت للتفكير في العواقب. لم يعد لديّ خيارات. حركتُ سدادة جرة الحبر برفق، ووضعتها على المكتب، ثم اصطدمتُ بمقبض حقيبة الكتابة التي كانت بجانبها. سقطت الجرة الزجاجية، وتحطمت على البلاط الأحمر، وتناثر الحبر على رداء الخليد الأبيض.

صرخ الخليد غاضباً: "كاسماغ!"، وبينما كان يستدير ليرى ما يحدث، أحرقت الشعلة الصغيرة أصابعه وانطفأت. لم يلحظ أحد على الأرجح تلك اللحظة المظلمة التي حبست الأنفاس حين نطق باللعنة، وكنتُ ممتناً لانطفاء ناره قبل أن ينطق بها. لولاها لما استطعتُ صدّها، ولربما اشتعلتُ أنا أيضاً. كانت كلمةً بذيئةً للغاية. على أي حال، سقطتُ على الأرض، وحرصتُ على السجود في الحبر لأُظهر ذلّي.

"سامحني يا صاحب السمو، لغبائي. أرجو أن تسمح لي باستدعاء طبيب. لقد أحرق السيد العظيم أصابعه على غصنه. إن خرقتي لا تُغتفر يا سيدي، خاصة بعد تحذيراتك بضرورة توخي الحذر الشديد حول ضيوفنا."

اسمعني يا ألكسندر، أضفتُ في صمت. أنت لست غبيًا، لذا اسمعني. إذا كنت كما أخبرتني الآلهة، فلا بد أنك قادر على الاستماع بأكثر من مجرد غضبك.

قال فيندولار بعد أن صرخ طالباً من أحد الخدم إحضار الطبيب: "يا لك من عبدٍ حقيرٍ لئيم! ستحتاج إلى طبيبٍ لنفسك عندما تنال عقابك العادل على هذا الفعل."

"هل أنت مصاب بجروح بالغة يا سيد كوريلي؟" كان صوت ألكسندر بارداً كالبلاط الذي ضغط على وجهي المحموم. "سأطلب من جيزيك، طبيبي الخاص، أن يعتني بك."

قال الخليد بصوتٍ ناعمٍ، وإن لم يعد لطيفًا: "يسهل تهدئته. أحمل معي علاجاتنا المعتادة. أستغرب سماحكم يا درزي لمثل هؤلاء الخدم غير الأكفاء بالاقتراب منكم. في الخليد، ما كان ليعيش هذا الشخص طويلًا ليُهين ضيفًا ملكيًا بهذه الطريقة."

"فيندولار، اهتم براحة ضيفنا. إذا رغب في ذلك، فاصطحبه إلى بيت العبيد في غضون ساعة بالضبط ليشهد عقاب هذا العبد."

قال فيندولار، وهو يفيض بالانتصار ويتأكد من أن يدوس على يدي أثناء مروره: "كما تأمر يا سيدي".

"وأخبر جيزيك أنني أرغب في الحصول على تقريره الشخصي عن إصابة اللورد كوريلي في غضون نصف ساعة."

"بالتأكيد يا صاحب السمو."

لم أسمع خطوات تقترب، ولم أرَ الحذاء الجلدي الناعم إلا عندما وقف بجانب رأسي مباشرةً. انحنى صاحبه ورفع وجهي بسكين من تحت ذقني.

كان ينبغي على العبد أن يأخذ التحذير بعين الاعتبار. يجب على المرء أن يحمل التحذيرات دائماً في ذهنه. عواقب عدم القيام بذلك مؤسفة.

نهض الأمير مرة أخرى ونادى قائلاً: "ميكائيل، خذ هذا المخلوق إلى دورجان. أخبر سيد العبيد بخمسين جلدة بعد ساعة من الآن".

خمسون إلهًا... للحظة ظننت أنه فهم تحذيري. لكن بينما كان الحراس يسحبونني بعيدًا، تُركت في حيرة تامة، لأن

كانت السكين البرونزية الجديدة ملقاة مهجورة في بركة الحبر.

في وقت ما خلال الساعة الطويلة الباردة التي تلت تجريدي من ملابسي وتقييدي إلى عمود الجلد في انتظار عقابي، دخل رجل من السزينيين، يرتدي ملابس متواضعة، إلى بيت العبيد. تبادل الحديث مع دورجان، الذي كان يجلس عابسًا بجانب موقده في أقصى الغرفة الخالية. أومأ دورجان برأسه، فاقترب مني الرجل الغريب. أخرج السزيني النحيل الشاحب من جراب جلدي بني معلق بحزامه قارورة زرقاء، ثم فتحها وقربها من شفتي قائلًا: "اشرب هذا. ستكون سعيدًا بذلك."

قلتُ وأنا أُرجع رأسي إلى الوراء قدر استطاعتي: "من أنتَ؟" كانت رائحة المادة كريهة للغاية. "وما هذا؟ أحاول تجنُّب الجرعات الغامضة من أشخاص لا أعرفهم."

ضمّ شفتيه الرقيقتين بانزعاج. "قيل لي أن أعطيك إياها، لكن ليس أن أجبرك إن لم ترغب بها. لم يُخبرني أحدٌ بشيء عن الإجابة على أسئلة عبد." ثم فتح حقيبته بسرعة ليعيد القارورة.

قلت: "انتظر! سآخذها." في مواجهة خمسين جلدة، كان عليّ أن أستجمع بعضاً من إيماني.

كان طعمه سيئًا بقدر رائحته - أشبه بطعم أحشاء خروف مسلوقة مع قرون الفلفل. ولكن حتى مع شعوري بخدر لطيف يتسلل من معدتي ويبدأ في تخدير أطرافي، تمكنت من رسم ابتسامة باهتة. "جيزيك، الطبيب. أليس كذلك؟"

شخر وانصرف.

كانت مجموعة من عشرين أو ثلاثين قاطع طريق قد أغاروا على بلدة إيروم الجبلية، التي لا تبعد سوى ستة فراسخ عن كفرنا. في معظم السنوات، كان أوائل الربيع أفضل أوقات قطاع الطرق. فعندما تبدأ الممرات الضيقة عبر الجبال الوعرة بالانفتاح، يعود المسافرون والقوافل إلى المرور عبرها. تستطيع القوافل التحرك بسرعة أكبر في الصيف، ويمكن لبعض الفرسان الذين يُرسلون إلى التلال حماية الطريق. أما في الربيع، بينما لا يزال الثلج يغطي الأرض، تتحرك العربات والخيول ببطء وتغوص بسهولة، ويستطيع من يعرف التضاريس المغطاة بالثلوج أن ينهبها، ويكسب رزقه لسنة كاملة في غضون أسابيع قليلة. مع ذلك، كانت القوافل التي تحمل المؤن أو الضيوف إلى الدكرة تخضع لحراسة مشددة، لذا اضطر الغزاة في ذلك الربيع إلى البحث عن أرباحهم في مكان آخر، في بلدة ذات دفاعات ضعيفة لقربها من كفرنا.

قرر ألكسندر، الذي ضاق ذرعاً بجمود دار هيجد والمشاورات والتجهيزات التي لا تنتهي للدكرة، أن يتولى القيادة بنفسه.

أُرسلت فرقة من المحاربين لمطاردة هؤلاء المجرمين الجدد. أصدر أوامره بأن تصل جميع مراسلاته إليّ أثناء غيابه، وأن أقرر ما إذا كان من المنطقي المخاطرة بإرسال رسول لإيصالها إليه. كانت مسؤولية جسيمة على عبد، وكاد فيندولار أن ينفجر غضبًا عند سماعه الخبر. ارتجفت فكاه الضخمتان غضبًا.

"صاحب السمو، اعذرني على صراحتي، ولكن لديّ العديد من الكُتّاب والمساعدين الممتازين المتاحين لخدمتكم. من غير اللائق أن يقوم عبدٌ همجي، عوقب بالأمس فقط لعدم كفاءته وإهانته الفظيعة لضيوفنا الكرام—"

"لن تخبرني بما هو غير لائق يا فيندولار. أنا أختار خدمي كما يحلو لي. لو جعلت هذا العبد كبير أمناء شرف سيدي، فمن سيجرؤ على الاعتراض على ذلك سوى والدي؟"

"لكن يا صاحب السمو—"

"لقد عوقب هذا العبد بشدة أمامك وأمام ضحيته. والآن أطالبه بخدمتي ورد الجميل لي على ما بذلته من جهد في السماح له بالعيش."

لحسن الحظ، لم يكن فيندولار ذكيًا بما يكفي ليتساءل كيف استطعت المشي أو الركوع بعد خمسين جلدة، وإلا لكان قد خمن أن جيزيك الطيب قد زودني بجرعات وفيرة من قواريره الزرقاء طوال الليلة والصباح السابقين. كما أعطى الطبيب دورجان مرهمًا يُسرّع الشفاء، ورغم أنني لم أكن مرتاحًا، إلا أنني لم أُصب بالشلل، كما كان يُمكن أن يحدث لولا ذلك. ولحسن الحظ، لم أشعر إلا بالقليل من الجلد نفسه، وظننت أن دورجان قد أُمر بتعديل ضرباته لإظهار المزيد من الضرر بدلًا من إلحاق ضرر حقيقي.

انحنى فيندولار بتصلب وغادر الغرفة، محدقًا بي كما لو أنني التهمت أطفاله. لم أكن أتطلع إلى المرة القادمة التي سأُجبر فيها على الخضوع لتوجيهاته.

كان قائد الحرس، سوفاري، يربط حزام سيف ألكسندر حول خصر الأمير. تساءلتُ عما حلّ بخنجر الخليد. لم أتحدث مع الأمير على انفراد منذ تلك الحادثة. كان محاطًا دائمًا بعشرات الأشخاص، وكان من الصعب استدعائي من غرفة العلية الخالية التي أشاركها الآن مع عشرين عبدًا آخر، في ظل وجود مسؤول عن العبيد يقف دائمًا عند الباب. لا بد أن الأمير لاحظ نظرتي، لأنه استلّ خنجره وأضاءه في ضوء المصباح. "أظن أنني سأضطر للاكتفاء بخنجري القديم. من المؤسف أن..."

كان النصل الذي أحضره الخليد غير متوازن. طلبت من الحداد أن يعيد صهره. ربما يستطيع صنعه بشكل أفضل.

بعد سبعة أو ثمانية أيام، عاد ألكسندر من غارته الناجحة، تاركًا رؤوس ثلاثة وعشرين لصًا معلقة على أسوار إيروم المتفحمة. كان الأمير مبتهجًا. قال لمجموعة من الكهنة الشباب قبل ثلاثة أيام من بدء

الداكراه: "يا إلهي، كم كان شعورًا رائعًا أن أكون على صهوة جوادي مجددًا وسيفي في يدي!". "قال قاضي إيروم إنه يجب عليّ إعدام قادة عصابة اللصوص فقط، وأن الباقين مجرد رجال جائعين يائسين. لكنني كنت عاطلًا عن العمل لفترة طويلة ولم أستطع تحمل الرحمة. لقد اختار الأشرار وقتًا سيئًا ليكونوا جائعين."

بينما كنت أشعر بالاشمئزاز، أومأ خدام إله الشمس الخمسة ذوو الرؤوس الحليقة بتعاطف. لقد جاؤوا للتخطيط لسباق جري إلى قمة جبل نيرود في أحد أيام الدكراه، وهي عادة مقدسة في كافارنا. تساءلتُ إن كان إله الشمس سيُشرق على قمة الجبل المُغطى بالغيوم في يوم السباق، فمن المؤكد أنه لا يُشرق في أي يوم آخر. ربما لهذا السبب لم يلحظ العادات الدنيئة لمن يحكمون إمبراطوريته.

قال أحد الكهنة: "لا شك أن ردكم السريع والقوي سيجعل الممرات أكثر أماناً لضيوف الدكرة. ويخبرنا العديد من الوافدين الجدد عن جرأة المهاجمين".

وأضاف كاهن آخر: "أبلغت ثلاث جهات على الأقل عن هجمات في الممرات الغربية. وقد فقدت اثنتان منها حراسهما على يد المجرمين".

أدى ذكر ضيوف الدكرة إلى تعكير مزاج ألكسندر المبهج. "سيون، هل وصلك أي خبر من ديمتري؟"

هززت رأسي.

نظر الأمير إلى وجهي بتمعن. ضاقت عيناه، ثم دفعني من على المقعد وأمرني بالخروج من شقته. صرخ خلفي: "لقد استحقوا ذلك. ما كان ينبغي لهم حرق مدينتي. وهذا ليس من شأنك". لم أنبس ببنت شفة.

في الأيام الأخيرة قبل بدء الاحتفالات، عاد ألكسندر إلى تجارب الأداء، وهذه المرة للسحرة. أمضى يومًا كاملًا يشاهد ساحرًا تلو الآخر من سحرة ديرزي وهم يقدمون عروضًا متقنة من السحب الملونة، ونوافير الضوء، والزهور، والفتيات الجميلات، والقرود، والطيور. صاح قائلًا: "يا إلهي!"، بعد أن أظهرت ثلاث ساحرات سربًا آخر من الطيور من خلف المرآة. "ألا يوجد ترفيه سحري لائق متبقٍ في أزهكستان؟ ألا تستطيعون ابتكار شيء؟"

هل هناك شيء مميز حقًا لدار أميرك؟ بإمكان خادمي الكاتب من إزاريا أن يبتكر شيئًا أكثر إثارة.

أردتُ أن أحشو فم ألكسندر بورقة كتابتي. لم يعد الإزاريون بحاجة إلى مزيد من العداء من نقابة سحرة ديرزي. فالنقابة هي التي لفتت انتباه إيفان إلى التلال الخصبة على حدوده الجنوبية، وأقنعته بأن سحرة

الإزاريين المتكتمين خطرون. وهي نفسها التي دفعت المال أو عذبت أو أجبرت عالمًا إزاريًا مسنًا يُدعى بالتهار على ابتكار طريقة لتجريد ساحر إزاري من المليدا.

قالت إحدى الساحرات، وهي امرأة طويلة القامة ذات ذقن بارزة وعظام وجنتين بارزتين: "ربما لو أريناك المزيد يا صاحب السمو، فهذه مجرد البداية".

همست امرأة أخرى: "ربما علينا أن نسأل الإزاري عما يقترحه". كانت نساء النقابة الأكثر قسوة في إدارة طقوس بالثار. ربما كنّ يغارن من مكانة نساء إزاريا، المتساويات مع الرجال في كل شيء إلا في الحكم، حيث رأينا أنه من الأنسب أن يتولين زمام الأمور. ففي إزاريا وحدها، من بين جميع الأراضي التي غزاها الدرزي، تولت امرأة عرشًا.

"سيون، إعلان." انتشلني الأمير من شرودي. غمست قلمي وأومأت برأسي، وأنا أشعر بيقينٍ مضطرب بأن أي شيء سيطلب مني ألكسندر كتابته سيكون خطأً.

"لن يؤدي أي ساحر من طائفة ديرزي عروضه في بوابتي أو في أي بوابة تابعة لأي بيت نبيل لمدة ثلاثة وعشرين عامًا. ربما بحلول الوقت الذي يبلغ فيه ابني سن الرشد، سيكونون قد فكروا في شيء جديد."

"يا صاحبة السمو! بالتأكيد لا يمكنكِ أن تعني هذا." شعرت النساء الثلاث بالذهول.

ترددتُ قبل أن أبدأ بالكتابة. قلتُ: "يا سيدي، أريد التأكد من صحة الصياغة. لا أجرؤ على إهانتك أو إهانة نقابة السحرة الموقرة بتفسير كلامك بشكل خاطئ."

ربما لو التزمت النساء الصمت، لكان ألكسندر قد أعاد النظر في الأمر، لكنهن لن يتركنه.

"يا صاحب السمو، هذا أمر لا يمكن تصوره."

"ماذا ستظن العائلات إن لم يكن لديها سحر في احتفالاتها الأكثر قدسية؟"

"يجب عليك التراجع عن هذا الإعلان."

"أنت تهين نقابتنا."

سننقل احتجاجنا إلى الإمبراطور. لطالما أبدى احتراماً لمهنتنا. ولن يرضى بمنعنا من ممارسة حرفتنا في أهم مناسبات العائلات النبيلة.

قال ألكسندر، وهو يقفز من كرسيه ويجمع أدواتهم من على طاولة طويلة: "اصمتوا جميعًا، وإلا سأمنعكم من ممارسة سحركم في أي وقت. عودوا إلى أبراجكم وأقبيةكم وتعلموا ما تفعلون. واحتجوا لدى الإمبراطور مهما كلف الأمر. إنه يُفضّل سحرة الخليد حاليًا. ربما لن نحتاج إليكم في المستقبل."

انسحب الثلاثة ووجوههم تغلي بالكراهية، حتى أنني تساءلت إن كان عليّ محاولة تحذير ألكسندر. هل يعقل أنه لا يدرك ما فعله؟ حتى أولئك الذين يملكون القليل من القوة الحقيقية قد يكونون خطرين.

تبددت كل الشكوك حول الموضوع مع إعلان وصول الليدي ليديا ومرافقيها من أفينخار. سارع الخدم بإخلاء الغرفة من السحرة المتذمرين عندما قال الأمير إنه لن ينتقل إلى قاعات الاستقبال الرسمية لاستقبال المرأة التي اختارها والده عروسًا له، وإلا سيرفض ذلك رفضًا قاطعًا.

"لن أتحرك خطوة واحدة لرؤيتها. اللعنة على كل شيء، لماذا لم تقع الساحرة ضحية للصوص؟" زمجر ألكسندر في وجه رئيس الخدم. "لن أتزوج الذئبة. سأشنق نفسي أولاً." عدّل قميصه الحريري بلون الغزال وجلس على كرسيه بجانب الموقد، بينما كان الخدم ينشغلون بإحضار الكراسي ومساند الأقدام لوضعها بالقرب من النار ووضع قدر من النبيذ الساخن على الطاولة.

واصلتُ كتابة إعلانه، مضيفًا جميع الإجراءات الشكلية اللازمة لجعله قانونًا. لو كنتُ سريعًا، لربما أديتُ التحية وغادرتُ قبل دخول السيدة، خشية ألا أتمكن من الحصول على إذن بالمغادرة، وبالتالي أفوت حصتي المسائية.

انطلاقًا من نفور ألكسندر من المرأة، توقعتُ امرأةً من آل درزهي، ذات وجهٍ طويلٍ وندوبٍ كثيرة، ضعف عمره، تنتمي لعائلةٍ ثريةٍ ونافذةٍ لا يرضى عنها أحدٌ سواه. بدت كل امرأةٍ دون الأربعين من عمرها وكأنها تُدلل الأمير، سواءً احتقرها أم ضاجعها. افترضتُ أنهن يعتقدن أن هناك دائمًا احتمالًا أن يُقنع الوريث ذو الإرادة القوية والده بالسماح له بالزواج ممن يُريد، وأن فرصة أن يصبح إمبراطورًا لآل درزهي كانت مغريةً للغاية بحيث لا يُمكن المخاطرة بها.

لكن أول نظرة لي على السيدة ليديا من آل ماراغ أخبرتني أنها لا تُبالي إن كانت الإمبراطورة أم لا. ستفعل ذلك إن لزم الأمر، وستفعله على أكمل وجه، لكنها لن تبذل أي جهد إضافي لتسهيل الأمر. في ذلك، وفي كل جانب مهم آخر، فاجأتني تمامًا.

لم تكن أكبر من ألكسندر، وكانت بطولي، بل أطول لو احتسبنا خصلات شعرها الأحمر المجعدة التي بالكاد تم ترويضها. ورغم نحافتها وقوامها الممشوق، وعظامها الطويلة الأنيقة، لم تكن هشة ولا رقيقة. لم تكن فائقة الجمال. بل ربما وُصفت بأنفها القصير المستقيم، وشفتيها الرقيقتين، ووجهها الضيق ذي الزوايا الحادة. لكن رقبتها الطويلة الرشيقة كانت كفيلة بدفع أي نحات إلى الجنون، وعيناها الخضراوان، المتوهجتان تحت حاجبيها الشاحبين ورموشها الكثيفة، كانتا تشتعلان ببريقٍ آسر حين رفعت رأسها من انحنائها العميق وألقت بنظراتها على ألكسندر. لقد وجدتها فاتنة.

قال الأمير، وهو يبقى جالساً عند مدخلها كما لو كان يتخذ موقعاً في ساحة معركة: "أهلاً وسهلاً بكِ يا سيدتي. آمل أن تكون رحلتكِ قد مرت بسلام".

أشار إليها بالجلوس على كرسي، فانزلقت من عباءتها الداكنة المبطنة بالفرو إلى الوسائد الناعمة بحركة انسيابية واحدة. وبدون ضجة أو إزعاج أو أمر، كانت إحدى الخادمات ذوات الخدين الورديين تضع مسندًا للقدمين تحت قدمي السيدة، بينما كانت أخرى تحمل عباءتها وقفازاتها ومعطفها الفروي، وكانت ثالثة تصب لها كأسًا من النبيذ الساخن في يديها النحيلتين. لم يكن هؤلاء الخادمات الثلاث عبيدًا.

"هل "الهدوء" هو أفضل ما يمكنك أن تتمناه لي يا صاحب السمو؟ أعتقد أنه يمكنك على الأقل أن تأمل في أن يكون الأمر مرضياً، أو ربما حتى ممتعاً، لأننا نعرف بعضنا البعض منذ فترة طويلة." كان صوتها منخفضاً وعذباً مثل آلات الكمان الوترية التي عزفها الكوفاي.

«بالتأكيد. هؤلاء أيضاً». تعافى الأمير جيداً من الهجوم الأول. «لقد واجهنا قطاع طرق على بعد ستة فراسخ غرباً، وسمعنا تقارير عن هجمات على ضيوفنا المسافرين، لذا فإنّ مرور الأمور بسلام ربما يكون أملاً أكبر مما يبدو».

أومأت السيدة برأسها بجدية. "سمعتُ ذلك أيضاً، لكن قيل لي إنك قد ضحيت بما يكفي من الدماء لجعلنا جميعاً بأمان مرة أخرى. أليس هذا صحيحاً؟"

"لقد فعلت ما كان ضرورياً." كان الأمير يعبث بخيوط الكرسي المطرز، ولم يكن يتلوى تماماً تحت نظرتها الثابتة.

"بالتأكيد." ابتسمت بهدوء. "رحلة هادئة تصف رحلتي خير وصف. لقد حرص اللورد ديمتري كل الحرص على ضمان سلامتها."

لم أشعر بمثل هذه الحماية من قبل. ربما تمتلك نساء ديرزي أرواحًا حامية كما هو الحال مع محاربي ديرزي؟ هل يُعدّ هذا القول هرطقة؟ بصفتك كاهنًا ومحاربًا، لا بدّ أنك تعرف الإجابة.

تجاهل ألكسندر التلميح وتخلى عن موقفه الدفاعي عندما ذُكر اسم عمه. استقام وجلس على طرف كرسيه. "هل كان عمي برفقتك إذن؟"

"للأسف، لا. قال إن لديه مهمة أخرى ستؤخر رحلته."

استرخى الأمير الكئيب في كرسيه، وضرب بقبضته نصف المغلقة على مسند الكرسي. "لكنه كان بخير عندما رأيته آخر مرة؟"

حسنًا. لقد تشرفتُ باهتمامه، وتشرفتُ أيضًا بإرسالك إياه. خرجنا للصيد بالصقور قبل أيام قليلة من مغادرتي. كان في غاية اللطف والجاذبية، مع أنني سأخبرك سرًا، لا أعتقد أنه يظن أن ترتيبات سفر السيدات ترقى إلى مستوى ذبح النساء وشق بطونهن. أنا متفاجئة من استغلالك له بهذه الطريقة. عليكِ أن تشرحي لي ذلك.

وجدتُ نفسي أحاول كتم ابتسامتي، وحتى نظرة ألكسندر الحادة لم تُطفئ متعتي. لا عجب أنه ثار عليها. حتى بدون دليل أكثر من هذا، كنتُ أعلم أنه لم ينجح في إغوائها. لم يجد أي سبيل للسيطرة عليها، وهذا ما كان يُجنّنه.

"عمي سعيد بخدمة الإمبراطورية بأي طريقة يطلب منها ذلك."

لم تتكلف السيدة ليديا عناء التصدي لمثل هذه المناورة التافهة. بل اتبعت نظرة ألكسندر واكتشفتني.

«من هذا الرجل اللطيف يا سيدي؟ هل لديك من يكتب لك؟ أتذكر استياءك من الكُتّاب في كفرنا. لطالما اتخذت ذلك ذريعةً لعدم مراسلتي. هل أجد أنك امتلكت الوسائل، لكنك لم تمتلك الرغبة في الكتابة؟» كان لاهتمامها تأثيرٌ عجز عنه ألكسندر. شعرتُ بحرارةٍ في جسدي، وأغمضتُ عينيّ.

قال ألكسندر: "العبد يغادر الآن. يمكنه إنهاء عمله لاحقاً".

نزلت من على مقعدي، وانحنيت للأمير، ثم نهضت لأغادر.

قالت السيدة وهي تقفز من كرسيها: "انتظري لحظة". توقفتُ ووضعتُ يديّ على صدري منتظرةً ردة فعلها. "لا، أرجوكِ استديري مرة أخرى".

أدرتُ ظهري لها، متمنيةً لو أستطيع فعل أي شيء آخر. خمسون جلدة، مهما كانت طريقة تنفيذها، تُخلّف فوضى عارمة. لا أذكر أنني

شعرتُ يومًا بمثل هذا الإحراج من وضعي. على الأقل كنتُ أرتدي سترةً طويلةً حتى لا ترى كل شيء.

"أنت سيد صارم للغاية يا سيدي. هل لطّخ ورقة أم تعثّر في نطق كلمة؟" لقد تحوّلت حدّة مزاحها إلى قسوة.

"عبدي ليس من شأنكِ يا سيدتي." كان الأمير مهذبًا للغاية، لكنه استعاد ثقته بنفسه مؤقتًا. "يمكنكِ الذهاب يا سيون." كنتُ قد بدأتُ أؤمن أن ألكسندر، بطريقةٍ ما لا تُوصف، كان يُدرك الفرق بين سلطته الحقيقية ومزاجه المتقلب. وهذا يُفسر لماذا، رغم العار والتشويه، كان فاني يعيش حرًا، بينما مات صهره سيرج. اعتقدتُ أن هذا هو سبب بقائي على قيد الحياة، ولماذا لم يدعني أعاني أكثر من اللازم بسبب خطئه بسكين الشيطان. لم يكن لديّ تفسير آخر. "تعالي يا سيدتي،" قال. "أرى راخان يُخبرنا أن العشاء جاهز، ولديّ أصدقاء مُسجلون للعب أوليات الليلة. ربما تفوزين بصقر وير ليحل محل الذي خسرتيه أمام كيريل العام الماضي. هل ما زلتِ تُؤمنين بأن النساء قادرات على المنافسة في ألعاب الاستراتيجية؟"

احمرّ وجه السيدة بلونٍ يُطابق لون شعرها، لكن صوتها لم يُظهر أيّ استسلام. "ربما لن تُقاطع مباراتنا هذا العام أعمال الدولة في الوقت الذي أبدأ فيه بالفوز."

انحنيتُ وانسحبتُ، متمنياً هذه المرة لو أستطيع البقاء لأشهد المناوشة التالية بين الأمير والسيدة. قد تكون حرباً مثيرة للاهتمام.

الفصل الثاني عشر

في منتصف نهار اليوم الأول من الشهر الرابع من السنة، شهر آثوس، وصل إيفان زها دينيشكار، إمبراطور الدرزي، إلى كافارنا. استقبلت الأبواق، وعروض راقصي الدرزي التقليديين وعازفي الطبول، ووابل من الأشرطة الملونة، الملكَ طويل القامة مفتول العضلات لدى دخوله البوابات وتقدمه عبر المدينة. حمل ثمانية محاربين من الدرزي مظلة حمراء فوق رأسه ليقيوه من الثلج الكثيف الرطب. منذ لحظة نزوله عن جواده الحربي الأبيض عند بوابات القصر، سار على سجادة بيضاء ناعمة مرصعة بتلات زهور الأليفيا، حيث فُردت السجادة أمام قدميه والتفت بسرعة خلفه خشية أن تطأ قدم غير جديرة طريقه. رافقت إيفان الإمبراطورة جينيا، والدة ألكسندر الجميلة ذات النظرة الباردة، وكاستافان، كبير سفراء خيليدار.

التقى الأمير ألكسندر بالإمبراطور تحت رواق القصر الصيفي الشاهق، وأدى التحية الكاملة لوالده الملك. حمله إيفان وعانقه وسط هتافات الحضور. ثم توجها إلى القاعة الكبرى، حيث أعلن إيفان رسميًا بدء الاحتفالات التي تستمر اثني عشر يومًا، والتي ستتوج بتنصيب ابنه إمبراطورًا منتظرًا. بعد ذلك، برفقة ألفي صديق وحليف، جلس إيفان وألكسندر على المائدة، وقضيا بقية فترة ما بعد الظهر والمساء في حالة سكر شديد.

لم أرَ شيئًا من هذا. كنتُ مستيقظًا منذ ما قبل الفجر، أحمل الماء الساخن إلى غرف الضيوف، وأزيل جرار النفايات، وأصعد السلالم لأكشط السخام عن زجاج المصابيح وأستبدل الشموع المحترقة، وأجرّ سلال الكتان النظيف من المغسلة إلى غرف الكتان البعيدة، وأحمل أحمالًا ثقيلة من الحطب، وأحمل دلاءً لا تنتهي من الرماد الساخن، وأغسل آلاف آثار الأحذية الموحلة من أرضيات البلاط. لقد أُجبر كل عبد وخادم في القصر، والعديد من النساء والفتيات والفتيان من كفرنا، على العمل. لن ينعم أيٌّ منا بنومٍ هانئ خلال الأيام الاثني عشر القادمة. مشاركتي الوحيدة

بدأ الاحتفال في الليلة الافتتاحية بعد منتصف الليل بوقت طويل، حين كنتُ جاثياً على ركبتيّ أمسح برك القيء من أرضية القاعة الكبرى. كنتُ منهكاً لدرجة أنني لم أشعر حتى بالاشمئزاز.

بسبب ارتباطي بمنزل الأمير، لم يُطلب مني العمل في المسالخ أو حفر الصرف الصحي أو أي عمل خارجي آخر، وكان عملي، حتى كتابتي المتأخرة ليلاً لفيندولار، خاضعًا دائمًا لتقدير ألكسندر. ولكن نظرًا

لانشغال الأمير الشديد وعدم حاجته لخدماتي، وضغط العمل على الموظفين، وُضعتُ تحت تصرف كبير أمناء الخزانة طوال فترة الاحتفالات. وكما توقعت، حرص فيندولار على ألا تُسند إليّ أي مهام ترفيهية كالقراءة أو الكتابة، وبالتأكيد ليس أي عمل يُقرّبني من الأمير أو الاحتفالات.

في الليلة الرابعة من الظفرة، في ساعات منتصف الليل بعد أن خلد الضيوف إلى النوم، طُلب مني إخراج بقايا وليمة الليلة الماضية من القاعة الكبرى. كنت أترنح نحو الباب، حاملاً أربعة دلاء كبيرة وثقيلة على عصا على كتفي، عندما انزلقت قدمي على البلاط المبلل وسقطت. كان الأمر سيئاً بما فيه الكفاية أنني تناثرت الفوضى النتنة على أحد أطراف القاعة، واضطررت إلى قطع ساعات نومي القليلة لتنظيفها، ولكن لسوء حظي، تناثرت القذارة على بوريش، أحد مساعدي فندولار.

صرخ قائلاً: "وحشٌ أحمق!"، ثم ضرب وجهي بحذائه. لم يكن سريعًا أو قويًا كألكسندر، لكنه أوصل رسالته. توسلت إليه واعتذرت، ثم أمضيت ساعتين في تنظيف الفوضى العارمة، بالكاد أستطيع الرؤية بسبب التورم في وجهي. في معظم الليالي، كنت أحمل جرة ماء إلى العلية وأغتسل قبل النوم، لعلمي أنني سأرتاح أكثر. لكن في تلك الليلة، سقطت على فراشي المصنوع من القش، متسخًا ومرهقًا، ووعدت نفسي بأنني سأنهض فورًا عندما يصرخ الحارس علينا في الصباح، وسأكون أول من يقف عند حوض الغسيل الوحيد لدينا.

لم يكن هناك وقت للاستيقاظ في صباح اليوم التالي. لحسن حظي، رآني أحد العبيد الآخرين نائمًا أثناء نداء الصباح، فدفعني وهو يغادر. لم يكن لديّ سوى وقتٍ كافٍ لأسرع إلى الخارج لقضاء حاجتي، ثم أُبلغ بوريش، كبير الخدم، لأبدأ كل شيء من جديد. بالطبع، في ذلك الصباح بالذات، استدعاني ألكسندر. كنتُ واقفًا على الدرجة العليا من سلمٍ متداعٍ نوعًا ما في القاعة الكبرى، أمدّ يدي عاليًا لأنزع شمع الشمعة من شمعدانٍ نحاسي. كانت عيني اليمنى متورمة ومغلقة، مما جعل من المستحيل عليّ تقدير المسافات بدقة، لذا لم يكن العمل...

كان الأمر يستغرق مني وقتاً طويلاً للغاية. لقد تلقيت عقاباً بالجلد على التباطؤ، لكن ذلك كان أمراً بسيطاً. كان الأهم بكثير ألا أفقد توازني على السلم. لم أكن أرغب في أن أنتهي كبقعة قذرة على الأرض البعيدة الضبابية.

"هل توجد هنا جارية اسمها سيون؟" سأل رئيس الخدم.

لطالما شعرتُ بعدم الارتياح عندما سمعت اسمي يتردد صداه في العلن. "هنا".

"عليكِ التوجه إلى سموه في غرفة الهدايا." نزلتُ من على المنصة وأمسكتُ ببوريش قبل أن يغادر. "هل عليّ الذهاب لأغتسل أولاً؟" سألتُه، عندما عبس وجهه اشمئزازاً من رؤيتي وشم رائحتي.

"أُمرتم بالتوجه إلى الأمير فوراً. ما شأنكم إن رآكم على حقيقتكم؟ لقد سمعت أنكم أيها البرابرة تلطخون أنفسكم بالوحل."

لم يكن الأمر أنني فقدت أي إحساس. لقد كنت في حالة أسوأ بكثير، وكان ألكسندر مرحب به ليرى ما فعله بي. ما كنت أكرهه حقًا هو احتمال التعرض للمضايقات. سيشعر الأمير بالإهانة من مظهري، وسيصرخ في وجهي متهمًا إياي بعدم الاحترام والقذارة البربرية، وسيطالب بمعرفة أي وقاحة أظهرتها لأستحق الضرب. وللاستعداد لذلك، كان عليّ أن أسير عبر القاعات والمعارض المزدحمة في الجناح السكني، وأشعر بالجميع ينكمشون اشمئزازًا. أن يلاحظني كل هؤلاء الناس كان أشبه بألف عنكبوت تزحف فوقي.

كانت غرفة الهدايا قاعة استقبال واسعة حُوِّلت إلى مستودع للتماثيل والفضيات والأواني والمجوهرات والفخار والسجاد والعطور والأعمال الفنية التي كان الناس يعتقدون أنها ستجلب لهم رضا إمبراطورهم المستقبلي. رُتِّبت خمسون طاولة طويلة لعرض الهدايا الصغيرة، ووُضِعت الهدايا الكبيرة على محيط الغرفة. كانت الغرفة محروسة من قِبَل محاربي ديرزي المدججين بالسلاح، وقضيتُ عشرين دقيقة أنتظر قبل أن تصلهم رسالة من الداخل تُفيد بأنني مُطالبٌ بالتواجد هناك. ولدهشتي، لم يكن ألكسندر وحده. كان معه ثلاثة محاربين شباب من ديرزي يرتدون ملابس أنيقة، وامرأة سوزينية سمراء ترتدي ثوبًا أحمر من الساتان... والسيدة ليديا.

ركعت بالقرب من الباب قدر الإمكان ووضعت رأسي على البلاط، متمنية بلا جدوى ألا يحتاج الأمير إلى أي شيء يقربني منه.

"آه، سيون، تعالي إلى هنا." لم يحالفنا الحظ على الإطلاق في هذا اليوم.

نهضتُ وتقدمتُ خطوةً إلى الأمام، وأبقيتُ عيني على الأرض. قلتُ: "يا سيدي".

"أخبرني ألديكار أن هذه الهدايا لم تكن..." ساد صمتٌ مُنذرٌ بالسوء. "انظري إليّ يا سيون."

فعلتُ ما طلبه مني، مستسلمةً ليده حول عنقي كما في المرة الأولى التي أتيتُ إليه فيها بوجهٍ مُشوّه. لكنني رأيتُ بدلاً من ذلك جبيناً مُقطّباً وسمعتُ سؤالاً خافتاً: "ماذا فعلوا بك؟"

تحدثتُ بصوتٍ خافتٍ أيضًا، وأعدتُ نظري إلى الأرض. من الجانب الآخر من الغرفة، سمعتُ ضيوفه يضحكون على طقوسٍ جنسيةٍ صريحةٍ للغاية متعلقةٍ بالخصوبة عند الفشتاريين. "لا شيء يا سيدي. أنا آسفةٌ لعدم وجود وقتٍ للتنظيف—"

"أجيبي على سؤالي يا سيون."

"كنتُ أخرقاً في أداء واجباتي. لقد استحققتُ ذلك—"

"وما هي تلك الواجبات؟"

"كل ما يلزم لخدمتك يا سيدي."

لقد تحدثت معي بصراحة في الماضي، وأطلب منك الشيء نفسه الآن. لقد اكتشفت للتو أن العديد من هذه الهدايا لم يتم فهرستها لأن فيندولار ليس لديه كتّاب فائضين، ومع ذلك فقد تم تكليفك بـ "مهام أخرى"؟

"أُكلَّف بنفس واجبات باقي عبيد المنزل، يا صاحب السمو. لا شيء آخر." مهما كان ما كان يعرضه بغضبه الصامت، لم أكن أرغب في أن أكون جزءًا منه.

كان حذاؤه المصنوع من الجلد الذهبي يطرق على الأرض كمنقار نقار الخشب. "هل تستطيع الرؤية بوضوح؟"

"لا يا سيدي." لا فائدة من الكذب بشأن ذلك. سيكتشف الأمر بنفسه إن أراد مني قراءة أو كتابة أي شيء. "يوم أو يومان كفيلان بإصلاحه."

"والرموش أيضاً. هل تناولتِ طعامكِ اليوم؟" ما الذي كان يقصده؟

"لا يا سيدي."

"سأقطع رؤوسهم بسبب هذا."

"يا صاحب السمو، أرجوك لا تفعل." لم أصدق الكلمات التي خرجت من فمي. "لا يهم."

"ألكسندر، أليس الوقت قد حان للرحيل؟" نادى أحد الشبان من الجانب الآخر من الغرفة. "يبدأ الرقص عند الظهر."

"أجل، أجل، أنا قادم." توقف صوت الحذاء عن النقر. "غدًا أريد فحص بقية هذه الهدايا وتصنيفها. لقد كنت أشعر... بشعور غريب... خلال اليومين الماضيين."

"كما تأمر يا سيدي." انحنيت، ولأنني لم أكن متأكدًا من أنني سأراه قبل عيد ميلاده، أضفت شيئًا آخر: "ليُغدق عليك آلهتك المجد والحكمة في مناسبة عيد ميلادك." كانت أمنيتي مزيجًا غريبًا. دعاء المجد كان "ديرزي" بالطبع، ودعاء الحكمة كان "إزاريان".

"يمكنكِ الذهاب يا سيون."

في طريقي إلى الباب، رأيت السيدة ليديا واقفةً على بُعد خطواتٍ قليلة، بجانب درعٍ ذهبي مرصع بالياقوت، حيث لم يكن بإمكان ألكسندر رؤيتها. التقت أعيننا مباشرةً قبل أن أتمكن من التظاهر بأنني لم ألحظها. كانت عيناها الخضراوان الكبيرتان تفيضان بفضولٍ لا يُخفى.

قضيت بقية ذلك اليوم وتلك الليلة بنفس الطريقة الشاقة التي قضيتها في الأيام السابقة، ولكن في صباح اليوم التالي، صر بوريش على أسنانه منزعجاً وأرسلني إلى غرفة الهدايا.

كانت فترة جلوسي في الغرفة الهادئة استراحةً ممتعة. باستثناء الجولات الدورية للحراس وزيارة بوريش العرضية للاطمئنان على عملي والشكوى من كسلي، كنتُ وحدي مع دفتري وحقيبة أدوات الكتابة. كانت النوافذ مغطاة بستائر ثقيلة لحجب البرد، لذا كان المكان مضاءً بضوء الشموع المتلألئ على المعدن المصقول. شعرتُ بالنعاس يتسلل إليّ مع مرور ساعات الظهيرة، حتى أيقظتني أصواتٌ من خارج الباب. أصوات نساء.

"انتظري عند الباب يا نيراه. أريد أن أرى قوس كوفاي مرة أخرى. يقول معلم الرماية إنها الأفضل في العالم، وفكرت في صنع واحد إن استطعت شد وتره. ولن أسمح لأي عين خبيثة أن تراني وأنا أحاول ذلك." كانت السيدة ليديا. لم يكن هناك مكان للتراجع. لمحتُ خضرةً متدفقةً على الجانب الآخر من الغرفة خلف الطاولات المكتظة. ربما لن تراني جالسةً على مقعدي في الزاوية المظلمة. ثبتتُ نظري على دفتر الحسابات وأقنعتُ نفسي أنني أعمل.

"ظننت أنني قد أجدك هنا."

رغم أنني كنت أتوقع ذلك جزئياً، إلا أنني قفزت فزعاً عندما جاء الصوت من خلفي. نهضت من مقعدي وانحنيت. "سيدتي، هل لي أن أخدمكِ بشيء؟"

"فقط لأجلس مجدداً وأخبرني من أنتِ." كانت تنورتها الخضراء المخصصة للفروسية، وسترتها ذات اللون الصدئ، وحذاؤها الجلدي الطويل، تليق بها أكثر بكثير من فستانها الفضفاض الذي كانت ترتديه في البلاط. كانت خصلات شعرها الحمراء منسدلة لتتراقص حول وجهها النحيل. وعلى كتفها كانت تحمل ربطة عنق بالية، وفي يدها ربطة عنق كوفاي الطويلة التي كانت هدية.

عدتُ إلى مقعدي وعبثتُ بقلمي وحبري. "أنا خادمة الأمير في الكتابة، يا سيدتي. لا شيء آخر."

«أعتقد أن الأمر يتجاوز ذلك بكثير. لا أستطيع تصديق ما رأيته وسمعته بالأمس. لهذا السبب كان عليّ المجيء». جلست على كرسي مذهب مصمم على شكل ثعبان - هدية من زعيم قرية مانغانار - ووضعت مرفقها على طاولة الهدايا، وأسندت ذقنها على يدها، تراقبني بهدوء وأنا أتحرك بعصبية. «من أنتِ حتى تطلبي من ألكسندر الأزهاكستاني أن يكبح جماح غضبه وتجعليه يفعل ذلك؟ حتى والداه، اللذان يتغاضيان عن كل عيوبه، وجدا هذا الأمر مستحيلاً. عمه، الذي يعشقه، ييأس من إمكانية حدوث ذلك. لا أحد في العالم سيكلف نفسه عناء المحاولة. ومع ذلك، فإن عبدًا هادئًا يروضه كما يروض سيد الخيل مهرًا. إنه أمر أود فهمه».

"لا أستطيع تفسير أي شيء يا سيدتي. لا ينبغي لي أن أتحدث عن—"

"بالطبع لا يجب أن تتحدث عنه. قد تذكر سهوًا أنه طفل حقير، انتقامي، متعطش للدماء. لكن لا أحد يسمعك تقول ذلك سواي، ولا يمكنك أن تجهل نوايا الإمبراطور تجاهي. فكّر في أنني قد أصبح عشيقتك يومًا ما."

حتى بالنسبة لإحدى الديرجيات القوية الإرادة، فقد أظهرت عزيمةً استثنائية. كان من الصعب جدًا رفض طلبها. لكنني فعلت. "هذا الاعتبار لن يؤدي إلا إلى ضمان التزامي التام بمكانتي، يا سيدتي. لن أفعل شيئًا يستحق قلق سيدتي. ولن تسمح لي بالتحدث عن سيدي دون إذنه."

ازداد ضوء الشمعة سطوعًا مع ابتسامتها. "قال إنك تحدثت بصراحة. أسمع لمحة من ذلك... وفطنة وذكاء استثنائيين لشخص في... ظروفك. حسنًا، هذا يكفي. لا تذكر شيئًا عن ألكسندر. بدلًا من ذلك، قل شيئًا عن سيون. أنت إزاريان؟"

"نعم يا سيدتي."

"ساحر. ربما هذا يفسر كل شيء. لقد سمعت أن سحرة إزاريا يستطيعون علاج الجنون. هل هذا ما فعلته؟"

"لقد مررت بطقوس بالثار يا سيدتي. من المستحيل عليّ أن أفعل أي شيء من السحر."

"كم من الوقت خدمت الأمير؟"

"فقط هذه الأشهر الثلاثة الأخيرة."

"ثلاثة أشهر لاختراق حصن من الانغماس العنيد في الذات بُني على مدى ثلاثة وعشرين عامًا. أنا معجب أكثر من أي وقت مضى."

سيدتي، أمنيتي الأخيرة هي أن أزعجك، ولكن يجب أن أعود إلى—

"لا يا سيون، لن تثنيني عن ذلك بسهولة. ستنبهني خادمتي إذا جاء أحد." ثم أخذت ربطة كوفاي التي كانت قد وضعتها على طاولة الهدايا. "إذن، ما عملك إلى جانب الكتابة؟"

"فقط ما أُمرت به: القراءة والكتابة والأعمال المنزلية."

لن يكون ذلك ذا أهمية بالنسبة لسيدة.

همهمت وهي تمرر أصابعها على القوس المصقول وتعقد حاجبيها. "كم من الوقت وأنت مقيد؟"

"ستة عشر عاماً".

"إلى اللقاء؟ حسنًا، إذا كنت لا تريد التحدث عن الحاضر، فأخبرني عن نفسك قبل سبعة عشر عامًا. ما الذي جعلك شخصًا يكن له ألكسندر احترامًا لا يظهره لأحد آخر؟"

"أرجوكِ يا سيدتي، لا أستطيع. ليس هناك ما أقوله."

"أصرّ على ذلك. لا أعرف شيئاً عن الإزاريين، سوى شائعات السحر وأنهم كانوا أذكياء بما يكفي للسماح لامرأة بحكمهم. أنِرني."

لم أستطع السماح بذلك. ولا حتى لشخصٍ يتمتع بهذه الشخصية الجذابة. "أرجو أن تتفهمي يا سيدتي. لم أكن موجودًا قبل سبعة عشر عامًا. لم أكن موجودًا قبل ثلاث سنوات، ولا حتى قبل ساعة واحدة. لا يمكن للعبد أن يوجد إلا في اللحظة الراهنة. أرجو منكِ العفو، ولكن ليس لديّ ما أضيفه. أنا عبدٌ أقرأ وأكتب، ويشرفني أن أخدم إمبراطور ديرزي المستقبلي."

"أفهم." ندمتُ على برودة صوتها كما ندمتُ على غروب الشمس بعد يوم مشمس نادر في كافارنا. "إذن، سؤال أخير فقط. من كان سيدك قبل ألكسندر؟"

كنتُ أفضل ألا أخبرها، لكنها كانت ستكتشف الأمر بسهولة، ولم أُرِد إحراجها أكثر. "البارون الراحل هاركسيان، سيدتي."

"هل مات البارون اليوم؟ لم أسمع بذلك. لقد رأيته مساء أمس فقط."

شعرتُ ببعض الارتباك. كان طبيب البارون متأكدًا من أنه لن ينجو من تغيير العام. "لا، أقصد... لقد كان مريضًا جدًا عندما أُرسلتُ بعيدًا. افترضتُ..."

"إنه ضعيف بشكل ملحوظ، لكنه لم يمت بعد. كان يرفع قدحه حتى وقت متأخر من الليل مع كل محارب آخر. لا أعتقد أنه فوّت نخبًا أو أغنية."

لم أستطع إلا أن أبتسم عند التفكير في الأمر. "يسعدني سماع ذلك. لطالما قال إن براندي سوزيني والجعة القوية سيحافظان على صحته أكثر مما توقعه طبيبه."

"أترين... حتى الآن تكذبين على كلماتكِ يا سيون. سنكمل هذا الحديث في وقت آخر. أما الآن، فأظن أنه يجب عليّ أن أتركِكِ تعودين إلى عملكِ."

نهضت من كرسيها، فانحنيت لها. "أرجو المعذرة على صراحتي يا سيدتي. ليس لدي أي نية للإساءة."

"صراحتك تخدمك جيداً يا سيون. أنا لست مستاءً على الإطلاق."

استغرق الأمر وقتاً طويلاً قبل أن أتمكن من استجماع تركيزي الكافي للعودة إلى عملي. قضيت جزءاً كبيراً من ذلك الوقت أتساءل كيف لرجلٍ فطنٍ كألكسندر أن يغفل عن جائزةٍ أروع من أي جائزةٍ في خزائنه.

الفصل 13

في نفس مساء حديثي مع الليدي ليديا، وبعد أن تناولتُ وعاءً من الحساء الدسم مع العبيد الآخرين، وتلقيتُ تعليماتٍ بشأن واجبات المساء، استُدعيتُ إلى جناح الأمير. كان يرتدي سروالًا أبيض من الساتان وجوارب حريرية بيضاء، لكنه لم يكن يرتدي قميصًا. كان عبيده الشخصيون يحيطون به، يعرضون عليه قميصًا أبيض رقيقًا مطرزًا بالذهب، وحذاءً أسود، وثلاثة خواتم مرصعة بالجواهر في علبة مخملية، وشرائط لؤلؤية لضفيرة شعره، وعباءة مبطنة بالفرو، لكنه كان يتمشى جيئةً وذهابًا بقلق، وكاد أن ينقض عليّ عندما دخلت.

"تجاوزوا الانحناء واكتبوا رسالة. أريد إرسالها فورًا بواسطة طائر رسول إلى كبير قضاة أفينخار. لقد سئمت الانتظار ولا أحد يستطيع إعطائي أي معلومات. وكوريلي يسألني باستمرار متى سيأتي عمي، وكأنني لم أفكر في الأمر. خليد اللعين كالعقرب في حذائي."

حفزتني نظراته وأنا أجهز الأدوات وأبري القلم.

روزين،

أحتاج إلى أخبار عاجلة عن ديمتري زها دينيشكار، شقيق الإمبراطور. لقد تأخر خمسة أيام عن موعد وصوله إلى كافارنا. كان من المفترض أن يُنهي أعماله مع ديميون، صانع السيوف، ثم يتوجه مباشرةً إلى هنا. إن كنت تُقدّر منصبك وشجاعتك، فعليك أن تُقدّم لي تقريرًا في موعد أقصاه منتصف ليل اليوم السابع من هذا الشهر.

ألكسندر، أمير أزهكستان

قال الأمير بينما كنتُ أُلفّ قصاصة الورق في غلافها الجلدي: "تباً لكلّ ديرزي عنيد. أين الرجل؟". "لا شكّ أنه يُعاقبني. قرّر أنه لم يعد بإمكانه ضربي، لذا سينتقم بطريقة أخرى. أقسمتُ ألا أسأل عنه، لكنّ نصف الدكراه تقريباً قد انقضى. لا بدّ أنه هنا."

قلت: "ستُلغى الرسالة خلال ساعة يا سيدي".

أردتُ أن أسأله المزيد عن استفزازات كوريلي. ما مصلحة الشيطان خيليد في اللورد ديمتري... أم أن الأمر لا يعدو كونه إثارةً لهذه الحمى في الأمير سريع الغضب؟ ولكن قبل أن أتمكن من الاقتراب منه بما يكفي لأسأله بتكتم، أمسك أحد العبيد بذراعه وساعده على ارتداء قميصه. وبينما انقضّ عليه الباقون كذبابٍ على جثة، ناداني قائلاً: "عليك البقاء في قفص الطيور بانتظار الرد. وإلا سيحاولون إرساله عبر فيندولار، الذي لن يجرؤ على مقاطعة أي شيء مهم، لكن عليك أن تأتي فوراً، مهما كنتُ أفعل: حتى لو كنتُ على المائدة مع والدي أو في الفراش مع امرأة. هل تفهمني؟"

"بالتأكيد يا سيدي. رئيس التشريفات..."

سيتم إبلاغ رئيس التشريفات. والآن، انصرفوا.

مع أنه كان من المستحيل عودة طائر الرسائل من أفينخار قبل يومين، فقد أطعت أمر الأمير وقضيت كل ساعة، مستيقظًا ونائمًا، في الحظيرة حيث كان ليوكا، مربي الطيور، يرعى قطيعه الصغير الثمين. لم تُستخدم طيور الرسائل إلا للرسائل العاجلة جدًا. كان تدريبها مكلفًا، ولم يُسمح بامتلاكها إلا لنبلاء ديرزي. وكان يُشنق عامة الناس إذا ضُبطوا بحوزتها. وكان الناس يشعرون بالقلق إذا ما كثرت الغربان في حقولهم، خوفًا من أن يتهمهم القضاة بتدريب الطيور على حمل الرسائل.

بعد ساعاتٍ من الخمول المُرهِق - كرهتُ البُعد عن ألكسندر الآن بعد عودة كوريلي - عرضتُ على ليوكا مساعدته في مهامه التي لا تنتهي من إطعام الطيور وسقيها وتنظيف أقفاصها. بدوره، أمتعني بسرد أسماء وشخصيات ومغامرات كل طائر من الطيور الخمسين التي يرعاها. "نيبا طائر من طيور زاجاد. تستطيع الوصول إلى هناك في خمسة أيام. قامت بالرحلة حوالي ستة وأربعين مرة. قبّلها الإمبراطور بنفسه. بالطبع فراخي المُفضّلة، تلك التي درّبتها بنفسي على العودة إلى هنا، مُنتشرة في جميع أنحاء الإمبراطورية. لم يضل أيٌّ منها طريقه قط. أتساءل دائمًا أيّها سيظهر تاليًا. دائمًا ما يأتون أولًا إلى المدخنة. أسمعهم يُثرثرون..." تعلّمتُ الكثير عن طيور الرسائل ودورها في مغامرات ديرزي أكثر مما كنتُ أتمنى معرفته.

وبالفعل، بعد يومين، مع غروب الشمس خلف عاصفة مطرية باردة قارسة بدت وكأنها استقرت للأبد، أعلن ثرثرة من المدخنة عن وصول أريلو، طائر سمين رمادي أنيق. قبلت ليوكا الطائر وغنت له بهدوء.

بينما كان يفك الرباط الجلدي حول ساق الطائر ويكشف عن قطعة الورق المدهونة بالزيت.

قلت: "سأذهب الآن. لقد كان يومين رائعين."

قال ليوكا: "في أي وقت. الطيور تحبك. لديك يد لطيفة."

أسرعتُ عبر الساحات، حيث استُبدلت أكوام الثلج المتجمد التي تصل إلى الكاحل ببرك مائية تصل إلى الكاحل، مغطاة بطبقة من الجليد.

سألتُ بوريش، الذي كان يُرتب جيوش العبيد والخدم لواجبات المساء: "أين سأجد الأمير؟" فأجاب: "لديّ الرسالة التي كان ينتظرها".

قال: "أعطني إياه. سأتأكد من حصوله عليه. أمامك ثلاثة أيام عمل لتعويضها."

"يا سيد بوريش، لقد أصدر الأمير أوامره بأن أحضر له رسالة أفينخار بيدي، بغض النظر عن مكانه أو مع من أو في أي وقت. هل نجرؤ على عصيان أمره؟"

بالطبع لم يجرؤ كبير الخدم على العصيان، ليس الآن وقد سمعني عشرون آخرون أُعيد سرد أوامري. كشف على مضض أن الأمير سيحضر حفل المساء في قاعة الرقص. استغرق الأمر خمس مواجهات أخرى مع أتباع فيندولار قبل أن أصعد الدرج الحلزوني نحو المقصورة المُغطاة بالستائر حيث يمكن للعائلة المالكة وضيوفهم المختارين أن يُطلوا على قاعة الرقص.

عندما دخلتُ الرواق الطويل المُحيط بجدران قاعة الرقص، لم أتمكن إلا من إلقاء نظرة خاطفة على الاحتفالات في الأسفل. كانت الكراسي المُذهّبة والمُخملية مُرتبة على نصف مساحة أرضية القاعة الخشبية اللامعة، ومُكتظة بحشدٍ مُتألق من الضيوف. تألقت أضواء مُلونة من المساحة المفتوحة الشاسعة أمامهم، لكن لم يكن لديّ وقت للتوقف والتأمل. كانت الموسيقى غريبة، ألحان قيثارة مُتنافرة تُثير اشمئزازي، وبدا أنها تُصاحب تغيرات الأضواء. بين الحين والآخر، كنت أسمع تصفيقًا أو همهمات إعجاب وتقدير من الحشد.

كلما اقتربت من ألكسندر، ازداد قلقي. لم أستطع تفسير تلك الرعشات الزاحفة أو برودة الأصابع التي سرت في عمودي الفقري. ربما كانت الموسيقى الصاخبة هي ما أزعجني إلى هذا الحد. بدت وكأنها تزحف على الدرجات خلفي وتتشابك في ساقيّ وذراعيّ وبصري بينما كنت أنتظر في الضوء الخافت أن يهمس الحارس باسمي للأمير.

قلت لنفسي إنّ مجرد التفكير في الاقتراب من الإمبراطور هو ما أصابني بالكآبة. فبمجرد إشارة من الإمبراطور، قد يُحرق رجل حيًا أو يُثرى لدرجة تمكّنه من شراء سياج كامل. هذا ما قاله إيفان.

قد يدمر مملكة، وقد يمحو عشرين ألف روح من الجمال والرقة، وقد يغتصب أرضاً جميلة...

أرضٌ تغطيها الأعشاب الخضراء الكثيفة... أرضٌ تتموج فيها المروج، وغاباتٌ مفتوحةٌ من أشجار البلوط والرماد والصنوبر، تتخللها جداول صافية باردة، أرضٌ تهب فيها نسائم عليلة، وليالٍ رقيقة مرصعة بالنجوم... كان ضوء النجوم على دائرة الأعمدة الرخامية البيضاء ساطعًا بما يكفي لإضاءة فسحة الغابة. لماذا كان الليل دائمًا هو وقت النداء؟ الليالي مخصصة للسير في دروب مقمرة للقاء الأصدقاء المجتمعين حول نيران متوهجة. للانخراط في أحاديث طويلة عن الكون لا معنى لها في النهار. لوضع ذراعك حول أكتاف دافئة، واتباع الموسيقى التي تتسلل عبر الأشجار كدخان الخشب... مغرية... مرحبة. لكن في تلك الليلة، سلكتُ الدرب بعيدًا عن الأصدقاء والنار نحو دائرة البياض، حيث كانت يسان سترسلي لخوض المعركة...

فيردون، ماذا كنت أفعل؟ نظرتُ إلى الأسفل بيأسٍ وحفظتُ خطوط يدي المرتعشة. ليس بعد. ليس بعد. أبعدتُ الرؤية... وأغلقتُها من جديد... وانتظرتُ عودة الحارس.

"سيعلن عن ميوله الجنسية. آمل أن يكون لديك ما يريد سماعه."

حسناً، لقد أراد سماع ذلك، لكنه لن يعجبه.

خطا ألكسندر عبر الستارة المخملية الثقيلة. كانت سترته السوداء ذات الياقة العالية مُزينة بالفضة؛ وأشرطة فضية مرصعة بالجمشت تُحيط بأكمامه الطويلة وعنقه. لم يكن اللون الأسود يليق به، بل جعله يبدو شاحبًا ومريضًا في ضوء المصباح. أمسك بذراعي قبل أن أتمكن من الركوع. "ما الأخبار يا سيون؟"

قرأت له الرسالة المكتوبة على قصاصة الورق الملفوفة.

صاحب السمو،

انطلق اللورد ديمتري وخمسة من رفاقه شرقًا على طريق ممر جيبار قبل عشرة أيام. كان الطقس معتدلًا. أرسلتُ فريق بحث على طول الطريق، وأرسلت عائلة ماراج أفضل كشافتها لمساعدتنا. سأرسل إليكم الأخبار حالما تتوفر لديّ.

كل المجد والشرف لكم في هذا الوقت الاحتفالي، ولتكن هذه الرسالة لكم وأنتم مبتهجون بصحبة المارشال ديمتري.

خادمكم المتواضع،

روزين، رئيس قضاة أفينخار

"تباً!" ضرب ألكسندر بقبضته جدار المعرض. "عشرة أيام. كان من المفترض أن يكون هنا في غضون أربعة أيام."

أطلق الحضور في قاعة الرقص تنهيدةً عميقةً حين انطفأت المصابيح المتبقية وحلّت محلها أضواءٌ خضراء وبنفسجية وزرقاء متلألئة. جعل الضوء الباهت وجه ألكسندر شاحبًا كالميت، وغاصت عيناه في ظلماتٍ حالكة. "كفى عبثًا! أخبروا سوفاري أن يحزم أمتعتي وأن يُجهز عشرة من رجالي للتحرك خلال ساعة."

"كما تأمر يا سيدي."

"يا صاحب السمو، ما الذي يؤخرك؟ لقد بلغت المتعة ذروتها." كان الرجل الذي اجتاز الستار المخملي يرتدي رداءً أرجوانيًا فاخرًا، مطرزًا بخيوط ذهبية. ورغم أن عباءته الأرجوانية كانت مبطنة بالذهب ومثبتة بمشبك ذهبي ضخم، إلا أنه لم يكن الإمبراطور. لم يكن شعره الأشقر مضفرًا، وكانت كتفاه نحيلتين للغاية بالنسبة لمحارب من الدرزي، ولم يكن صوته الناعم ذو اللهجة المميزة هو صوت الرجل الذي حكم معظم العالم المعروف. كان وجهه الشاحب غير واضح المعالم في ذلك الضوء الغريب، لكنني استطعت أن أرى أنه من الخليديين.

انحنيتُ وبقيتُ في وضعية خضوع، أتساءل من يكون. لم أكن أعرف كيف أميز رتبة الخليد.

"لقد وصلني خبر أن عمي مفقود في ممر جيبار. سأذهب للبحث عنه."

"لكن يا صاحب السمو، المراسم... الإمبراطور... ضيوفكم..." مفاجأة. اهتمام لطيف.

"لا قيمة لها إذا كان عمي في خطر، يا لورد كاستافان."

كاستافان. أعلى رتبة من الخليد في أزهكستان. هو الذي كان يُقنع الإمبراطور بالتخلي عن زاجاد، مهد الدرزي. الرجل الذي بادل ملكه المشوه برضى الدرزي. ألقيتُ عليه نظرة خاطفة، لكنه كان يُدير ظهره لي.

ازدادت الموسيقى صخباً وغرابة. انعكست الألوان على الجدران والوجوه من حولي في مزيجٍ مثيرٍ للغثيان. تصبب العرق بين لوحي كتفي. لم يكن للأمر أي معنى.

قال كاستافان، واضعًا يده متعاطفًا على كتفي ألكسندر: "بالطبع، أتفهم. إنه لأمرٌ مُحزنٌ للغاية. لذا أرسل عبدك ليُجهز بينما تُشاهد ختام عرضنا. دقائق معدودة فقط. سيذبل كوريلي وكينيدار في ذلٍّ إن لم تكن حاضرًا لتشهد انتصارهما - إنه حدثٌ فريدٌ من نوعه في تاريخ أزهاكستان الجميلة. مُصممٌ خصيصًا لك."

عرض ساحر... كوريلي. موسيقى تخدش الأعصاب. ضوء يثير الغثيان. ذكريات بالكاد يمكن دفنها. شياطين.

"انصرفي يا سيون، وافعلي ما قلت. أخبري سوفاري أنني سأكون في الإسطبلات خلال ساعة." بالكاد كنت أسمع الأمير، فقد كان دويّ التحذير يتردد في رأسي. الآن وقد أطلقته، ظننت أنه قد يسحق عظامي. هل كان ذلك الشيطان الوحيد الذي رأيته أم أن هناك المزيد؟ بالتأكيد لم يكن الرعب الزاحف الذي تجمد في روحي من كوريلي وحدها.

قلتُ تلقائياً: "كما تأمر يا سيدي".

اتجه الأمير والخليد نحو الستارة المخملية. ارتجف جلدي مما كان عليّ فعله. تحركتُ وكأنني سأرحل، ثم وطئتُ بثبات على الرداء الأرجواني المتدفق، ممسكةً به لبرهة كافية لأشدّ المشبك الذهبي الثقيل بقوة على حلق الخليد. ترنّح للحظة واختنق، ثم استدار بغضب بينما تعثرتُ عن الحرير الأرجواني وسقطتُ على ركبتيّ. صرختُ: "ألف عفو يا سيدي!" ونظرتُ إلى الأعلى. قبل أن تهوي يد كاستافان على رأسي، لمحتُ ما كنت أخشاه: زوج من العيون الزرقاء الباردة التي تنمّ عن شهوةٍ بلا روح، شهوة وجدت وكرًا شريرًا يناسبها تمامًا. لكن عظمة ما رأيته تجاوزت خوفي. كان هذا يفوق أي شيء عرفته في حياتي، يفوق أي شيء رآه أي إزاري، حيًا كان أم ميتًا. لقد لمحتُ كائناً من أقدم كتاباتنا، كائناً مرعباً لدرجة أننا لم نصدقه خشية أن نرفض خوض غمار العمل خوفاً من مواجهته. كان كوريلي شخصية ثانوية. أما كاستافان... فكان كاستافان هو السيد.

زحفت بعيدًا، محاولًا طرد الظلام من رأسي، وأنا أتمتم بالاعتذارات، غير جريء على التفكير خشية أن يقرأها الشيطان بطريقة ما.

قال ألكسندر: "سيعاقب العبد على هذا".

قال الخليد بهدوء: "لا داعي لذلك. لن أدع أسيراً وحشياً يُفسد احتفالكم. يمكن للعبد أن يرد لي الجميل بأداء واجبه. تعال يا صاحب السمو، وشاهد ذروة الأمسية."

بدا لي من حسن حظي - إن صحّ التعبير عن حسن الحظ في أي مواجهة مع الشياطين - أن كاستافان كان منشغلاً بألكسندر وما يجري في قاعة الرقص. لكن اهتمامه بالأمير بحد ذاته كان ينبئ بمكرٍ عظيم، ولم أكن أعرف كيف أتصرف حيال ذلك.

قال ألكسندر ببرود: "أنت أكثر تساهلاً مني"، ثم فتح الستار لضيفه. "تفضل بالدخول". وبينما كان الخليد والخادم

اختفى الأمير من خلال الفتحة، ونظر إليّ بانزعاج. وهمس قائلاً: "هل أنت مجنون تماماً؟"

قلتُ وأنا أنحني على ركبتيّ، كما هو متوقع من عبدٍ مُعرَّض لغضب الأمير: "لا تدخل يا سيدي". وبإشارة من ألكسندر، عاد الحراس إلى مواقعهم بجانب الدرج. "ابحث عن سبب. ابتعد عنه."

"لا يوجد سبب كافٍ. لا يمكنني المغادرة دون إخبار والدي. لن أبقى بالداخل أكثر من خمس دقائق. افعل ما قلته لك، وكن مستعدًا لتبرير موقفك عندما أعود من الجبار." دفعني بقدمه نحو الدرج، ثم اختفى خلف الستار. لم تكن الركلة قوية، فقط كافية لزعزعة توازني. أكملت الباقي، تمددت على أرضية المعرض وتسللت بعيدًا.

دفعني الحراس من أعلى الدرج، لكنني لم أنزل إلى الأسفل تمامًا. كان عليّ إنجاز مهمة الأمير، وفي الوقت نفسه، كان عليّ فهم ما يفعله الخليد. لقد رأيت سيد الشياطين... غاي كيالت، ذو الوجه المتغير... ذلك الذي يستطيع اتخاذ مئة شكل مختلف عندما يُجبر على التجسد، والذي كان يُعتقد أنه من المستحيل قتله في معركة شياطين، لقوته ومكره. زعمت أقدم كتاباتنا أن غاي كيالت يستطيع جمع الشياطين وتوجيههم نحو هدف مشترك، ويستطيع قيادتهم جميعًا بنظرة واحدة كما تحكم ملكة النحل خليتها. لم أكن أتصور مثل هذا الخطر.

وقفتُ عند السور، أُطلُّ على قاعة الرقص. اختفى طرف القاعة، وفي الفضاء المفتوح خلف الحشد، عالمٌ من العجائب. بين أعمدة الجرانيت المتينة، امتدت غابةٌ ساحرة، يلهو فيها شبانٌ وفتياتٌ، يضحكون مرحًا وهم يمسكون ببعضهم ويتبادلون القبلات ثم يهربون. طيورٌ ووحوشٌ خياليةٌ تلهو معهم: غزالٌ برأس خنزير بري، وطائرٌ بأجنحة نسر ومخالب أسد، وحصانٌ برأس رجل. طوال لعبهم، كانوا يرقصون على أنغام موسيقى شيطانية صاخبة، أو ربما سمع المتفرجون

المفتونون صوت آلة الميلانغار أو مزمار الجبل بلحنٍ أكثر ألفة، وكنتُ أنا فقط من سمع تلك الموسيقى الشيطانية. هبَّت نسمةٌ عطرةٌ تُحرك قمم الأشجار، وتسللت إلى الجمهور، تُبعثر الشعر والفساتين، وتخطف أنفاس ديرزي المذهولة.

وقف خمسة خليديين على جانبي العرض. دخل أحدهم وسط الحشد، وأمسك بيد شابة، وجذبها إلى داخل المشهد. عندما تجاوزت الأعمدة الجرانيتية، أصبح زيها الرسمي ضبابيًا.

استُبدلت ملابسها بملابس ريفية، وبدلًا من المروحة الحريرية، حملت سلة من الزهور. وسرعان ما انضمت إلى الرقص مع البقية، ثم خرجت الخليد مرة أخرى وأمسكت بيد شاب. فتعالت صيحات التصفيق والضحك من الجمهور.

مررت يدي أمام عينيّ وحوّلت حواسي. توقعت أن أجد سحرًا. كانت الرؤية بالغة التعقيد؛ لا يمكن أن تكون إلا من صنع سحر. ورغم أنني دعوت الله ألا يكون الأمر كذلك، توقعت أن تكون عيون سحرة الخليد باردة ومرعبة كعيون كوريلي وكاستافان. كان وجود شيطان بهذه القوة أمرًا خطيرًا للغاية، حتى لو تجاهلت الحكايات التي ربما تضخمت عبر السنين. لكنني كدت أغرق في الرعب من الحقيقة كاملة. لم تكن الغابة السحرية سحرًا، بل مكانًا حقيقيًا تمامًا. في مكان ما، رجل أو امرأة مسكينان يخدشان رأسيهما بجنون، يمزقان لحمهما، يصرخان من الأهوال المحبوسة في الداخل. قريبًا سيسحب الشبان الراقصون سيوفهم أو تكشف الفتيات عن أنيابهن. ربما تمد الوحوش مخالبها الفولاذية أو تبصق السم أو تلعق الراقصين بألسنة من اللهب. سيكون كل شيء دماءً ورعبًا، دمارًا وجنونًا. ربما يرى متفرجو ديرزي ذلك؛ ربما لن يحدث إلا في عقلٍ مُحطّم. قد يكون للشياطين غايات أخرى. لكنه سيحدث، ولن يعود ذلك البائس الذي انتهكوا روحه كما كان. لم أستطع السماح باستمرار هذا. فالغابة كانت كالمناظر التي سافرت فيها حين كنت حارسًا، حين كنت أعبر وحيدًا بوابة روح بشرية وأخوض معركة مع الشياطين.

الفصل الرابع عشر

حاولتُ العودة لتحذير ألكسندر. توسلتُ، وتذللتُ، واختلقتُ كل عذرٍ وذريعة، وعرضتُ كل رشوةٍ أو خدمةٍ تخطر ببالي، سواءً أكانت ممكنةً أم لا، لإقناع الحراس بالسماح لي بالعودة إلى أعلى الدرج. لكنهم رأوا الأمير يركلني بعيدًا، لذا لم يكونوا مستعدين للاقتناع بأنه سيرغب برؤيتي مجددًا. بعد عشر محاولاتٍ فاشلةٍ للتسلل والدفع والتحدث، هددني الحراس بتقييدي بالسلاسل إن أزعجتهم مرةً أخرى. هددني أحدهم بإخبار دورجان أنني مجنون، وفي غمرة خوفي وعجزي، كان ذلك قريبًا جدًا من الحقيقة.

كان الخطر لا يُتصور. كان الخليد يمارسون تعاويذ بأعمق أنواع السحر الموجودة في العالم، مستمدين قوتهم من جنون روح بشرية معذبة. ومع ذلك، لم يكن لدي أدنى فكرة عما كانوا يحاولون تحقيقه. هل كان ضيوف ديرزي هم الهدف، أم ألكسندر، أم الإمبراطور نفسه؟ حتى لو تمكنت من الوصول إلى ألكسندر، فماذا عساي أن أخبره؟ أن كل خليد في القصر قد يحمل شيطانًا في داخله، وأن سحرهم خطير، نجّس، مدمر للأرواح؟ وأن والده، إمبراطور ديرزي، ربما كان واقعًا تحت سيطرة غاي كيالت، سيد الشياطين، الأقوى بينهم، والذي تنبأ بأنه سيقود الشياطين في حرب لإنهاء العالم؟ لن يصدقني أبدًا.

هل لي أن أشرح له كيف أن ألكسندر يحمل في داخله ما تكرهه الشياطين أكثر من أي شيء آخر، شرارة القوة والشرف التي تمكّن الرجل والمرأة من الصمود في وجهها؟ ولكن فقط إن استخدمها. فقط إن رعاها وتواضع أمام قوتها.

مستحيل. إنه ديرزي متغطرس وقاتل. لقد جردني قومه من الأدوات التي كنت أحتاجها لاكتشاف ما يجري. تمنيت لو كنت على بعد ألف

فرسخ. الموت أهون. أن أُقيد بالصخور في أعماق مناجم الديرزي أهون من أن أواجه معضلةً جسيمةً كهذه، مستحيلة الحل إلى هذا الحد.

حلّت المشكلة. لم يكن للأيمان والتمنيات أي تأثير على الإطلاق. لم أستطع حتى الاقتراب منه بما يكفي لتحذيره.

انطلقت من قاعة الرقص ضحكات وتصفيق، وموسيقى صاخبة لم تستطع أذناي إسكاتها. لم يكن الحراس ذوو الزي الرسمي المحيطون بالقاعة مسلحين بشكل واضح كحراس الدرج، لكن صفوفهم لم تكن أسهل اختراقًا. لم أستطع رؤية ما يجري... وفي الحقيقة، لم أرغب في رؤيته. مهما كانت نوايا الشياطين، لم أستطع إيقافهم. لم يسبق لي أن شعرت بمثل هذه القسوة في العبودية.

تسللتُ بعيدًا عن قاعة الرقص، وقد أصابني شعورٌ بالغثيان من هالة الشيطان، فوجدتُ سوفاري، قائد فرقة الأمير الخاصة. نقلتُ إليه أوامر ألكسندر، فأرسل سوفاري على الفور إلى فرسانٍ مختارين بعناية للاستعداد، وإلى المطبخ لتجهيز المؤن للمجموعة، وإلى الإسطبل لتجهيز الخيول وتحميلها. ثم توجه إلى حجرة ألكسندر ليجمع أسلحة الأمير المفضلة وملابس ركوب الخيل ومعاطف الشتاء. انتهزتُ الفرصة. عندما مرّ قائد ديرزي من أمام حراس الباب ودخل شقق الأمير، تبعته عن كثب. أشعلتُ الشموع وجلستُ بجدية على مكتب الكتابة كما لو كان لديّ عملٌ لأنجزه هناك. أرسل سوفاري الملابس الإضافية إلى الإسطبل، ووضع ملابس ركوب الخيل والأسلحة على الطاولة. ثم انصرف. انهمرت صفحاتٌ من الهراء من قلمي وأنا أنتظر، آملًا أن أحظى بخمس دقائق مع الأمير قبل أن ينطلق لمطاردة ديمتري.

لكن ألكسندر لم يأتِ. مرت ساعة، ثم ساعة أخرى.

"هل أنت متأكد من رسالتك أيها العبد؟" سأل سوفاري عندما فحص الغرفة للمرة الخامسة في نصف ساعة.

"أقسم بحياتي يا سيدي. قال لي أن أكون مستعداً للمغادرة خلال ساعة. كان ينوي فقط توديع الإمبراطور والضيوف في المقصورة. خمس دقائق، كما قال لي. هل انتهى الترفيه؟"

"مرّ أكثر من ساعة منذ ذلك الحين."

"أنا آسف يا سيدي. لا أعرف شيئاً آخر."

"ربما منعه الإمبراطور من الذهاب"، تمتم لمحارب آخر كان يقف عند المدخل، يرتدي ملابس سميكة مناسبة لرحلة ليلية إلى الجبال.

قال الآخر: "أود أن أعتقد ذلك. المطاردة إلى الجبار في منتصف الليل... ليست هذه هي الطريقة التي أختار أن أقضي بها وليمة دكراه".

قال سوفاري: "بالتأكيد لن أفعل ذلك من أجل ليكاي خاصتي"، وضحك الاثنان وهما يخرجان. لم أستطع أن أتخيل كيف يمكن لأي شخص أن يضحك على

في تلك الليلة.

تركتُ قلمي يسقط على ورقة الهذيان أمامي، ووضعتُ رأسي بين يديّ، وحاولتُ جاهدًا أن أفهم ما عليّ فعله. لقد تدربتُ منذ الخامسة من عمري على رؤية ما وراء ما تراه عيناي، وعلى سماع الفروق الدقيقة التي لا تُدركها الآذان العادية، وعلى تذوق ولمس وشمّ أدقّ الاختلافات في ملمس العالم، حتى أتمكن من مواجهة أعمال الشياطين. لكن هذه المهارات صُقلت للعمل مع "ميليدا"، وهي قوة لم أعد أستطيع استخدامها.

مرت ساعة أخرى. انطفأت الشموع واحدة تلو الأخرى. وبينما كانت رياح الليل تعوي، تقذف المطر والبرد على النوافذ وتئن خلف الستائر، دخلت خادمة وأشعلت النار الخافتة. بقيت صامتًا في الظلام، ولم ترني. بين الحين والآخر، كانت سوفاري تفتح الباب، وتنظر إلى كومة ملابس الركوب التي لم تُمس، وتتمتم بلعنة قبل أن تغلق الباب بقوة. ربما انتهى العالم خلف الألواح المذهبة لباب ألكسندر.

كان عليّ الرحيل. سيشرع رجال رئيس التشريفات بالبحث عني قريبًا، وستكون عواقب بقائي "خارجًا عن السيطرة" لفترة طويلة وخيمة. كنتُ أشعر بخدرٍ من شدة الرعب، وأتوق إلى أمان الظلام والعزلة والجهل. ساعة أخرى. ثم سأرحل.

لا بد أنني غفوت، فعندما سمعت الباب يُغلق بهدوء، لم يكن النار سوى جمر متوهج، ويدي مخدرة تحت ثقل رأسي. بقيت ساكنًا صامتًا في الظلام، أستمع.

انبعث من الأرض بين الأريكة الزرقاء وجمر الموقد الأحمر المتوهج هديرٌ خافت. صوتٌ حزينٌ أشبه بصوت الحيوانات. كان لدى ألكسندر قطيعٌ من كلاب الصيد - كلاب كوزيه رشيقة تستطيع أن تتفوق في سرعتها على أسرع الغزلان - لكنه لم يكن يحب وجودها في شقته. ربما أطلق أحدهم سراح أحدها من الأقفاص.

لكن عند سماعي الثاني، بدا أنين الألم الخافت إنسانيًا للغاية. تسللتُ عبر الغرفة، وقدماي الحافيتان صامتتان على السجادة، ونظرتُ إلى مصدر الصوت. كان الأمير منكمشًا على الأرض بجوار الموقد. تجمعت

المياه على بلاط الموقد تحت ثيابه السوداء المبللة، وكان يرتجف بشدة.

انحنيت على ركبتي بجانبه. "يا صاحب السمو، هل أنت مصاب؟"

ارتدّ إلى الوراء عند لمستي. "من هناك؟" كان صوته أجشّاً ومتشنّجاً بشكل مؤلم.

"سيون، يا سيدي. كنت أنتظر التحدث إليك. هل أرسل في طلب جيزيك؟"

"لا... آلهة، لا."

أخذتُ بطانيات من سريره لأغطيه بها، ثم قلّبتُ الجمر وأشعلتُ النار من جديد. بعد ذلك، أحضرتُ براندي وكأسًا، وساعدتُ ألكسندر على الجلوس ليشرب. كانت هناك بقع داكنة على وجهه وعلى يديه المرتجفتين اللتين تمسكان بكأس النبيذ. وبينما كان يرتشف النبيذ ويقترب من النار، سخّنتُ وعاءً من الماء وأحضرتُ منشفة نظيفة.

"هل لي أن أساعدك في تنظيف نفسك يا صاحب السمو؟"

بدا عليه الحيرة حتى أشرتُ إلى يديه. ارتطم كأس النبيذ بالموقد، وتجمّع السائل الداكن على البلاط، ثم تسلّل بخفة عبر الشقوق الملاطية، مُصدرًا صوت فحيح وهو يتقاطر على الجمر. همس ألكسندر: "كان مجرد حلم. كابوس. لم أشرب نبيذًا ولا مشروبات روحية". عندما غمس يديه في الحوض، امتزج الدم الأحمر بالماء الصافي، ثم سحبهما فجأة كما لو كانا قد سُلقا. "جنون".

"هل أنت مصاب يا سيدي؟ هناك المزيد من الدماء على وجهك."

"هذا غير ممكن." دفع الحوض بعيدًا، ثم انتزع المنشفة المبللة وفرك وجهه بعنف قبل أن يلقي بالمنشفة في النار.

أخذتُ الوعاء وأفرغته. عندما عدتُ إلى الأمير، لم يكن يرتجف، بل كان يحدق في النار ويداه مضمومتان على فمه. تركت ألسنة اللهب البرتقالية بشرته شاحبة.

"صاحب السمو، هل هناك أي شيء آخر يمكنني فعله من أجلك؟"

"لا. اذهب من هنا."

"إذا سمحت لي بالكلام يا سيدي، فهناك أمور يجب أن أخبرك بها عن الخليد. أظن أن أخباري قد تؤثر على ما يزعجك إلى هذا الحد."

"لم يحدث لي شيء. لقد ثملت وتجولت في الخارج. هذا كل شيء. لا شيء أكثر. ربما جرحت إصبعي... أو شيء من هذا القبيل..."

لم يُقدّم أي تفسير لعدم ظهور أي جرح أو كيف سُكر دون أن يشرب شيئًا. حاولتُ مجددًا. "ما كنتُ أحاول إخبارك به سابقًا هو أن هذا الخليد كاستافان يحمل أيضًا راي-كيرا - راي-كيرا خطير جدًا. أخطر بكثير من شيطان كوريلي. يا سيدي، أظن أن جميع الخليد في القصر مسكونون بالشياطين. لم أرَ مثلهم قط... كل هذا العدد في وقت واحد، يعملون معًا بهذه الطريقة. لا أستطيع تخيّل الخطر... وأنا أعرف الكثير عن الشياطين."

"إذا نظرت في أعينهم، يمكنك أن ترى من يحمل الشياطين ومن لا يحملها. هل هذه هي طبيعة الأمور؟"

"نعم يا سيدي."

ثم قال وهو يشير بإصبعه إلى عينه: "أخبرني إذن بما تراه هنا. قل لي إنني أسيرٌ لـ"راي-كيرا"، عندها ربما ستتضح الأمور."

فعلتُ ما طلبه. كان من الممكن، وإن كان نادرًا، أن يكشف شيطان عن نفسه طواعيةً. لكنّ الخوف كان لا يزال مشتعلًا في داخله، ما يعني أنه لا شيطان يحكمه. مع ذلك، لم يكن بمنأى عن الخطر. فقد غطّى هالة من السحر مركزه المتألق - وهو تحديدًا ما كان ينبغي عليّ حمايته منه.

"إذن هذا صحيح، أليس كذلك؟" اتكأ على الوسائد المكدسة بجانب الموقد وسكب لنفسه كوبًا آخر من البراندي من القارورة التي تركتها هناك. "أرى ذلك في وجهك. أنا واحد منهم أيضًا."

"لا." كان الخوف واليأس يسيطران عليّ، وكان من الصعب جدًا العودة إلى إدراكي الحقيقي، فلم يعد لديّ أي إحساس بالحذر في اختيار الكلمات. "لا يا سيدي، ليس فيك شيطان - ليس شيطانًا لم تولده."

لدهشتي، وبعد لحظة صمت، انفجر ألكسندر ضاحكًا - ضحكة مدوية، صحية، ويائسة. قال رافعًا كأسه في تحية ساخرة: "لم أعرف قط شخصًا مثلكِ يا سيون. أنتِ تنعين على الكون بينما تتجاهلين سكينًا مصوبة إلى عينكِ. هيا، أيتها العبد، أخبريني ما رأيكِ بي حقًا."

أزعجني ضحكه وأثر فيّ بشدة، كجروٍ مزعج، وقبل أن يمرّ وقتٌ آخر، كنت أضحك معه. لعشر دقائق، استرخينا على الوسائد الحريرية وضحكنا بصوتٍ عالٍ كراكبي ماشيةٍ سكارى. لم أضحك منذ زمنٍ طويل. لم يُشفِ الضحك شيئًا، ولم يُخفّف من وطأة المأزق قيد أنملة، ومع ذلك استمددتُ منه القوة.

مررت يدي على شعري القصير محاولاً استعادة بعض رباطة جأشي. "لا يمكننا تجاهل هذا يا سيدي. أتمنى لو نستطيع. ليس فيك شيطان، لكنهم تمكنوا من تقييدك بسحرٍ خبيث. أظن أن هذا حدث في العرض الليلة. كان السحر الذي استخدموه قوياً للغاية."

استلقى على ظهره وتأمل مليًا كأس النبيذ الذهبي وهو يلمع في ضوء النار. "يجب أن أقتلكم جميعًا. خالد وإزاريان. ربما سأفعل. كل هذا مجرد كلمات ومرايا ومشتتات. مسرح."

"مجرد دعائم. لا شيء من ذلك حقيقي." لم يكن ليخبرني بما حدث له. شعر أيضاً بأنه أقوى، واعتقد أنه يستطيع مقاومة الأمر، أياً كان، تماماً كما قاوم الأرق.

"إذا استطعت السيطرة على كل ما فعلوه بك، فأنت أقوى من أي ساحر."

"لم يحدث شيء."

"إذن، عليك أن تطردني يا سيدي. كلما ابتعدت كان ذلك أفضل، فأنا المجنون. ولكن إن تكرر ما لم يحدث، فقد أكون عونًا لك." ضغطتُ جبهتي على الأرض، واتجهتُ نحو الباب. "هل أوصل رسالة إلى الكابتن سوفاري؟"

"سوفاري!" جلس منتصبًا. "يا إلهي، كم الساعة الآن؟"

قلت: "في مكان ما خلال نوبة الحراسة الثانية".

"تباً. قل له أن يوقظني عند الفجر، وسننطلق. قل له... قل له إني قررت أننا بحاجة إلى الركوب في وضح النهار."

"كما تأمر يا سيدي."

تركته يُقلّب النار، وتسللتُ متجاوزًا الخدم النائمين خارج بابه. بعد أن أوصلتُ رسالتي إلى قائد ديرزي، الذي كان يشخر تحت غطاء حصان في الإسطبلات، صعدتُ الدرج الخلفي إلى غرفة العلية وانهارتُ على فراشي. رغم إرهاقي الشديد، لم أستطع النوم. سيد الشياطين... هنا، يُمارس هذا السحر... الحرب التي ستُنهي العالم. وبينما كنتُ مُستلقيًا في الهواء المُظلم الخانق، أستمع إلى أنين أحلام العبيد المُفزع، تجولت أفكاري في أروقة نبوءة إزاريا المُغبرة. تنبأت مخطوطة إيداوس بمعركة خاسرة - نبوءة اعتقد كثير من أبناء وطني أنها تحققت مع غزو ديرزي. كان هذا النص هو نفسه الذي تحدث عن غاي كيالت... وتنبأ بمعركة ثانية، إذا خسرناها، ستترك العالم في قبضة الشياطين. كان قومي على ثقة تامة بأنه مهما كانت هزيمتنا الأولى مروعة، فإن هذه المعركة الثانية

والأخيرة ما زالت بعيدة المنال. كل ما علينا فعله هو ضمان نجاة بعضنا، لكي نستعيد قوتنا. ولكن ماذا لو كنا مخطئين؟ رفعت ذراعيّ فوق رأسي، وانضمت أنيني إلى أنين إخوتي النائمين. لم أستطع تحمل التفكير في الأمر.

لم يغادر الأمير عند الفجر. لم يكن له أثر عندما جاءت سوفاري لإيقاظه، هكذا سمعت. سمعتُ العديد من الشائعات التي انتشرت في القصر ذلك اليوم. بعد أن جلدني خمس جلدات وضربني ضربًا مبرحًا بهراوة مبطنة، وخفض حصتي الغذائية إلى النصف لمدة شهر بسبب اختفائي مساءً، كلفني بوريش بتنظيف الأرضية.

البلاط. خمنت أن مساحة أرضية القصر الصيفي كانت كافية لتغطية مملكة مانجانار بأكملها. ولكن حتى في غمرة الجوع والألم وقلة النوم، كنت أسمع الحديث أثناء عملي.

الأمير مريض. يندم الأمير على اندفاعه للبحث عن اللورد ديمتري، فهو يكرهه بشدة، وقد هدده بالسم، ولعنه، وحاول إبعاده عن كافارنا. يخيّم سوء الحظ على هذه المدينة: المارشال ديمتري مفقود، وغارات قطاع الطرق على إيروم. نزلت وحوش من الجبال وشوهدت في المدينة. تعرض صاحب حانة لهجوم عنيف الليلة الماضية.

بعد الظهر بقليل، حركتُ ركبتيّ المتألمتين إلى مربع آخر من الصخر البارد في الرواق الذي يفصل الجناح السكني عن الجناح الإداري للقصر. وبينما كنتُ أجزّ على أسناني وأغمس يدي المتشققة في دلو الماء مرة أخرى، مرّ رجلان مسرعين. كان أحدهما ألكسندر، يُثبّت ياقة عالية على سترة خضراء وهو يمشي. قال: "... لستُ مضطرًا لتبرير نفسي لأحد. لقد تأخرتُ الآن..."

أسرع ألكسندر في سيره، بينما توقف رفيقه ووضع يديه على وركيه في حالة من الضيق. كان سوفاري.

قلتُ: "هل لي أن أكون في خدمتك يا قبطان؟" وتوقفتُ للحظة لأريح كتفيّ المحترقتين.

بنظرة واحدة، تعرف على هويتي، والتصقت السترة الملطخة بالدماء بظهري. قال: "يبدو أننا شعرنا كلانا بوطأة أحداث هذه الليلة".

قلت: "لقد مررت بصباحات أفضل من هذه".

لقد غيّر رأيه. لن نلاحق المارشال بعد أن سهرنا نصف الليل لنكون مستعدين. لقد أرسل مجموعة أخرى إلى الجبار. تم تحرير محضر ضدي بتهمة إزعاج أهل المنزل. قد أتعرض للجلد.

"أنا آسف يا قبطان. لقد نقلت الرسالة التي أُبلغت بها فقط."

"كلنا نفعل ما يُطلب منا، لكن في بعض الأيام لا يبدو أن الأمر مهم."

لم أرَ ألكسندر مجدداً ذلك اليوم. عملتُ حتى منتصف الليل بساعتين قبل أن أنهي عملي. لم يعد عقلي ولا جسدي قادرين على العمل، وكنتُ سعيداً بذلك. حتى قرقرة معدتي لم تُبقِني مستيقظاً. ولكن بينما كنتُ أتعثر صاعداً درجات العلية، مستعداً لإراحة عظامي المنهكة ولحمي الممزق على الفراش، أمسكت يدٌ بذراعي وهمست في أذني: "تعال معي يا عزاريان".

تمتمتُ قائلًا: "لقد أنجزتُ كل ما هو مطلوب، يا سيد بوريش. إذا كان لديك المزيد من الأرضيات لتنظيفها—"

"اهدأ." سحبتني اليد بعيدًا عن باب غرفة الثكنات والحارس الذي كان يشخر، ونزلنا درجًا خلفيًا آخر. من كان؟ لم يكن بوريش بحاجة إلى السرية. وبينما كنا نستدير عند إحدى الدرجات، تسللت خيوط من ضوء القمر عبر نافذة متسخة وسقطت على وجه مانجانار عريض ومسطح محاط بشعر خشن رمادي اللون.

"سيد دورجان!"

قلتُ لكَ أن تُغلق فمكَ. فقط تعال.

لم أعد أقاوم، بل ذهبتُ طواعيةً، وقد ضخّ الفضول بعض الحيوية في ساقيّ. خرجنا إلى فناء المطبخ المرصوف بالطوب، وشققنا طريقنا عبر البراميل والصناديق المغطاة بالثلوج، وأكوام أنابيب المواقد الصدئة، ومررنا بأكوام النفايات النتنة وحاويات الرماد المتصاعد. لم يأخذني دورغان إلى بيت العبيد، بل إلى ورشة عمل طويلة مفتوحة في الطرف الآخر منه. في أحد طرفي الورشة كان هناك مخزن، حيث تُحفظ الحبال والسلاسل والبكرات الاحتياطية وما شابهها. توقفنا عند باب المخزن.

قال سيد العبيد: "نشأتُ في الأراضي الجنوبية، حيث كانت تُروى حكايات غريبة عن الخير والشر حول مواقدنا... لطالما قالت جدتي إننا نشعر بالأمان، ونحن نعيش بالقرب من أرض السحرة. قالت إن سحرة إزاريا كانوا يحرسوننا بحرص ويصدّون الظلام. في الحقيقة، لم أنم قرير العين طوال السنوات التي تلت سقوط إزاريا. هناك شرٌّ يعمّ الأرض. في الأسابيع الماضية، شعرتُ به قريبًا، وهذه الليلة أعرفه. هل سمعتَ عن الوحش الذي جاب المدينة الليلة الماضية؟"

سمعت أن دبًا أو قطًا جبليًا من نوع ما هاجم صاحب نُزُل. ربما استيقظ جائعًا من سباته الشتوي...

"كنت أظن نفس الشيء. كنت أراقبه، ظنًا مني أنه قد يظهر هنا بالقرب من أكوام القمامة، وبالفعل، رأيته الليلة يتسلل عبر الفناء. طاردته فدخل إلى هنا، ولكن عندما أخذت سيفي ودخلت، لم أجد أي وحش."

انتابني شعورٌ بالرعب من الليلة الماضية، فدفع إرهاقي جانبًا. كنتُ أعرف ما سأجده عندما يفتح دورجان الباب. قلتُ: "أحضروا البطانيات والشاي الساخن أو النبيذ"، ثم دخلتُ المخزن وجثوتُ بجانب الأمير ألكسندر. "يا سيدي، هل تسمعني؟"

كان يرتجف في الزاوية، وعيناه جحيمتان من الخوف، خاليتان من أي إحساس أو ذكاء. كان رداؤه الأخضر ممزقًا وملطخًا، وقدماه حافيتان. وكما في الليلة السابقة، كان يرتجف بشدة، وينطلق من صدره أنين خافت وحشي.

قلتُ: "سنُدفئك قريبًا". حاولتُ فحصه بحثًا عن إصابات، لكنه زمجر وانكمش. مع ذلك، تحدثتُ إليه بهدوء، وبحلول عودة دورجان بالبطانيات وإناء من النازريل المغلي، تأكدتُ من سلامة جسده. غرفتُ كوبًا من الشاي القوي من إبريق دورجان وقربته من وجه ألكسندر ليُدفئه البخار وتُعيد رائحته المألوفة تركيز حواسه. سرعان ما بدأ يرتشف من الكوب، وبدأت الغشاوة تتلاشى من عينيه.

قلت لسيد العبيد: "نحن بحاجة إلى نار، في مكان لا يزعجنا فيه أحد".

قال: "ورشة عمل البستاني. لن يكون هناك أحد في هذا الوقت من السنة". وأشار إلى الطريق، ثم أسرع إلى الأمام لإشعال النار.

أعطيتُ ألكسندر المزيد من الشاي وحاولتُ إيقاظه وتحريكه. انكمش على نفسه ككرةٍ صغيرة، وغطى رأسه بذراعيه، وهو يئن في بؤسٍ شديد. همس بصوتٍ أجش: "جنون. لقد جُننت".

قلتُ: "لا، لم تفعل. لقد أخبرتكَ أنكَ مسحور. إذا أردتُ مساعدتكَ، فأنا بحاجةٍ لمعرفة ما يحدث." من قصة دورجان، خشيتُ الأسوأ. "لكن تعالَ معي، وسنُدفئكَ أولًا."

كانت رائحة كوخ البستاني مزيجًا من رائحة التراب البارد والخشب الرطب. تناثرت الأواني المقلوبة والبراميل الفارغة والنباتات الذابلة والأدوات الصدئة في المكان الذي لن يعود إليه الحياة إلا بعد شهرين. كان موسم عمل البستانيين قصيرًا في كافارنا. أشعل دورجان نارًا دافئة في الموقد المبني من الطوب والمتسخ بالدخان، وأجلسنا ألكسندر بجانبها. ألمحتُ لدورجان إلى أهمية وجود حارس في الفناء حتى يُستعاد الأمير، ولحسن حظي، أخذ باقتراحي. لم أكن أرغب في أن يُقاطعني أحد.

قلت: "كيف يبدأ الأمر؟ هل تشعر بقدومه؟"

قال الأمير وهو يمسح وجهه بيده المتسخة: "حارّ. حارّ لدرجة أنني لا أستطيع التنفس. في البداية ظننتُ أن السبب هو الرقص. لقد جعلوني أرقص في مسرحيتهم الملعونة. عندما انتهى الأمر، احتجتُ إلى الهواء، فخرجتُ إلى الخارج".

"وشعرتَ ببداية التغيير."

"آلهة الليل... لم أشعر بمثل هذا من قبل. كأن عظامي تنحني وتتشوه لكنها لا تنكسر، كأن لحمي يتمزق. العالم... كل شيء... يغرق في الظلام، وعندما أستطيع الرؤية مجدداً..." نظر إلى الأعلى، حائراً، متألماً. "... لا أستطيع التفكير. لا أستطيع التذكر. كل شيء

يبدو مختلفًا تمامًا... الألوان باهتة، والزوايا والأوضاع غريبة. والروائح... أعتقد أنني سأغرق في هذه الرائحة الكريهة. حينها سأفقد صوابي. لديّ هذا الحلم... لا بدّ أنه حلم." ارتجف وشدّ الغطاء البالي حول كتفيه. "أستيقظ هكذا. ماذا يحدث لي؟"

"كم مرة حدث ذلك؟"

ثلاث مرات. الليلة الماضية عندما وجدتني. هذا الصباح... استيقظت قبل الفجر ظنًا مني أن الفراش يحترق. ركضت إلى الخارج، واستعدت وعيي في منتصف جبل نيرود في منتصف الصباح. ثم بعد ظهر اليوم، كنا نفعل شيئًا ما... نقسم... حلف الولاء لعشرين هيجد. لم أستطع إكماله. قلت إنني مريض واختبأت في حديقة المطبخ. لن يكون هناك أحد ليرى... هذا مستحيل. لماذا أتحدث عنه أصلًا؟

"إنه سحر شيطاني يا سيدي. رأيته فيك، لكنني لم أكن أعرف ما الذي سيفعله."

"إذن هل هو كما كان من قبل... شيء تافه... شيء سام؟ أخبرني كيف أوقفه."

تمنيتُ لو أستطيع إخباره. "هذا الأمر ليس بهذه البساطة يا سيدي. إنها ليست تعويذة مرتبطة بأثرٍ ما، بل تعويذةٌ دُفنت فيك بفعل سحرهم. إنها جزءٌ منك إلى أن يُزيلها أحدُهم... أو شخصٌ ما. علينا أن نعرف ما يريدونه منك."

"ماذا يريدون؟"

كان الإرهاق يتسلل إليّ ويحول بيني وبين صفاء ذهني، وكان ظهري الممزق ينزف مجدداً من حيث اتكأ عليه ألكسندر بينما كنت أساعده إلى كوخ البستاني. فركت مؤخرة رقبتي محاولاً التخلص من ثقلي. "هل

قال لك الخليد... هذا الكاستافان... أي شيء؟ هل جادلته... تحديته... أغضبته؟ إنه يظن أنه سيستفيد من هذه المحنة."

"لا. لقد أخبرته أنني أعتقد أنه من الحماقة بناء عاصمة جديدة، مهما كانت رائعة. لكن والدي مُصرّ على المضي قدمًا في ذلك على أي حال، ومن غير المرجح أن يموت قريبًا. لا يهم حقًا ما أفكر فيه بشأن أي شيء."

"ماذا يحدث إذا لم تتمكن من إتمام الخطبة؟ إذا لم تتمكن من الحصول على المسحة؟"

"ألا أنتهي...؟ هذا مستحيل. ما لم يُنجز اليوم، يُمكن إنجازه غدًا. سأُمسح بالزيت، سواء في عيد ميلادي أو أمام اثنين."

سواء كان ذلك بحضور ألف شخص أو بعد أسبوع في غرفة نوم والدي بحضور خادمة المطبخ، فلا فرق.

"إلا إذا اختار والدك شخصًا آخر ليخلفه."

حتى وهو يرتجف من الألم والبرد، كان بإمكان ألكسندر أن يُصغّر المرء إلى حجم ذبابة بازدرائه. "أنا ابنه الشرعي الوحيد. ديمتري هو أخوه الوحيد وليس له أبناء. جميع أبناء عمومتي الذكور من نسل الإناث. لو كنتُ أبرصًا مُصابًا بالجذام، لما مسح أبي أحدًا غيري."

لكن والدك سيرغب بالعودة إلى زاجاد لمتابعة خططه، ولن يبقى هنا بانتظار شفائك من هذا "المرض" الغريب. هذا يعني مزيدًا من التأخير. وإذا كان كاستافان قد تمكن من إقناع الإمبراطور بالتخلي عن زاجاد - لؤلؤة أزهاكستان - فماذا سيتمكن من إقناعه به أيضًا؟ ربما سيجد والدك نفسه عاجزًا عن النوم أو عن معاشرة امرأة.

"قرون درويا." كان هناك ارتعاشٌ تحت اللعنة الخافتة. "لماذا لا يقتلونني وينتهون من الأمر؟"

هززت رأسي. "ماذا سيفعل والدك إذا وُجدتَ ميتاً؟"

وبينما كان يقول ذلك، اتسعت عينا ألكسندر فهماً. "سيعذب ويقتل كل رجل وامرأة وطفل في أزهكستان حتى يكتشف من فعل ذلك."

"لذلك، لا يمكنهم قتلك."

"إذن يجب إتمام الذكرة." تنفس بعمق. "سأضطر لإخباره... بشيء ما. سأطلب منك شرحه."

"لا!" تجمد الدم في عروقي لمجرد التفكير في إيفان، وبالتالي كاستافان، أو حتى مجرد سماع اسمي. "سيُعرّض ذلك الإمبراطور

للخطر. إذا لم تجد الشياطين ما تلعبه، فسوف تستمتع بالفوضى قدر استطاعتها. يجب أن نساعدك على اجتياز الدكراه. لم يتبقَّ سوى ثلاثة أيام." وبعد ذلك، سأحتاج إلى التفكير مليًا في الشياطين والنبوءات، وفي معرفة لا أملك أي وسيلة للتصرف بناءً عليها.

"لكن كيف أوقف هذا... التغيير؟ لقد قلتَ—"

"لا نستطيع إيقافه. ربما نستطيع السيطرة عليه... لا، ليس تمامًا." كان عليّ أن أخمد الأمل اليائس الذي اشتعل في وجهه. "يجب أن تطلب من جيزيك أن يعطيك شيئًا يجعلك تنام. شيئًا يكفي لكي لا يوقظك سقوط برج على رأسك من لحظة استلقائك حتى اللحظة التي يجب أن تستيقظ فيها. لا يمكنك أن تحلم."

"أستطيع أن أهتم بذلك. وماذا عن ساعات اليقظة؟"

«سيكون ذلك أكثر صعوبة». بل مستحيل على الأرجح. فالتغيير الليلي سيُحفَّز بالأحلام، أما في النهار... «لو سمحت يا سيدي، أخبرني بكل ما تتذكره من عصر اليوم وليلة أمس».

أطلعته على الأمر ثلاث مرات. في كل مرة كان يُقسم أنه أخبرني بكل شيء، لكن في كل مرة كنتُ أستخلص المزيد من التفاصيل. لكن أي تفصيل كان الأهم؟ هل كان نفاد صبره؟ لا، وإلا لكان قد تحوّل أمام عينيّ في كوخ البستاني المظلم. هل كان قد شعر برغبة جامحة عند رؤية امرأة؟ إن كان الأمر كذلك، فلن نتمكن من كبح جماحها. "لكن ألم تغضب من اللوردات المُحاطين بالقلنسوات لتأخرهم في إلقاء خطاباتهم؟"

قلتُ لا! لماذا تهتم؟ هذا أمر لا يُطاق.

"علينا أن نكتشف المحفز، الشيء الذي يُشعل فتيلها. قد يكون شعوراً، أو رائحة، أو صوتاً، أو لمسة لحم، أو طعم الجبن، أي شيء."

"لا أتذكر شيئاً عن ذلك. فماذا أفعل؟"

عليك تجنب أي شيء أكلته أو شربته أو لمسته في تلك المناسبات. إذا شعرت بالغضب أو التشتت أو النعاس، فركّز ذهنك على صورة واحدة - شيء تحبه. شيء يغمر كيانك كله عندما تفكر فيه - شيء لم تفكر فيه خلال اليومين الماضيين. انغمس فيه حتى يزول الاضطراب. لعل ذلك يساعدك على تجاوز الأيام القادمة.

"وماذا لو لم يكن الأمر كذلك؟"

"أرسلوا في طلبي. لا أستطيع منع ذلك، ولكن ربما أستطيع مساعدتك على تحمله. عقلك لم يختفِ مع السحر."

لمس ألكسندر خيطًا من اللؤلؤ يتدلى من سترته الممزقة. "لا أصدق أيًا من هذا. كلما جلست هنا، ازددت اقتناعًا بأن شيئًا لم يحدث. إنه مجرد وهم، مثل تلك الغابة الملعونة في قاعة الرقص."

كان الوقت قد فات وكنا منهكين للغاية لأشرح له أمر الغابة. لكن لم يكن بوسعي أن أرحمه. "في الليلة الماضية، تمزق حلق رجل في المدينة على يد قط كبير أو دب كان يجوب الشوارع. رأى دورجان مثل هذا الوحش في هذه الليلة يا سيدي. رآه يركض إلى غرفة التخزين خلف بيت العبيد، وعندما تبعه، وسيفه في يده مستعدًا لقتله، وجدك. لا ينجو رجل ينزف حتى الموت في شوارع كافارنا من أي وهم."

تلاشى اللون الذي عاد إلى وجه ألكسندر أثناء حديثنا مجدداً. "آلهة الليل..."

"أنا آسف. أتمنى لو كنت أستطيع منع هذا."

أخذ نفسًا عميقًا. لم يكن من الصعب تخيّل همسات الرعب والفزع تتكدس في الفراغ خلف عينيه. "ماذا لو لم يوقفها الخليد؟ كيف لي أن أتخلص منها؟ أنا الإمبراطور."

نعم. السؤال الجوهري. لم أستطع بعدُ أن أجد الإجابة الوحيدة. "علينا أن نجد من يساعدك." حدّقتُ في يديّ المتسختين، المتشققتين، عديمتي الفائدة، وبدأتُ من جديد في تتبع آثارهما.

وكأن ألكسندر يقرأ الجزء من عقلي الذي منعت نفسي منه، قال بهدوء: "هل كان بإمكانك فعل ذلك... قبل أن يتم أخذك؟"

"نعم."

توقعتُ وابلاً من الأسئلة والمطالب والخطابات، وربما التهديدات. لكنه قال ببساطة: "ليتني أستطيع إصلاح ما حدث". ولم يكن يقول ذلك لنفسه فقط.

الفصل الخامس عشر

نمتُ في غرفة ألكسندر تلك الليلة، على الأرض أمام موقده. طوال السنوات التسع التي انقضت منذ أن أُحضرتُ إلى كفرنا، لم أنم قط في دفء، لذا كنت أستيقظ مرارًا وتكرارًا من غرابة الأمر، ثم أغرق في نوم هانئ مرة أخرى.

في صباح اليوم التالي، وبعد أن شرب ألكسندر ما يكفي من الشاي القوي ليُفيق من تأثير جرعة جيزيك المنومة، استدعى فندولار. وصل كبير الخدم ليجد ألكسندر يرتدي مئزرًا فقط. كان من المقرر أن يشارك الأمير في سباق الجري إلى قمة جبل نيرود في ذلك الصباح برفقة ثلاثمائة شاب آخر من ديرزي. كان المئزر هو الزي التقليدي، بغض النظر عن تساقط رقاقات الثلج الكثيفة والرطبة من السماء الرمادية.

"يا تشامبرلين، لقد قررتُ أن عبدي الكاتب لن يكون متاحًا للخدمة المنزلية حتى بعد انتهاء فترة الداكراه. سيُحتفظ به لاستخدامي الحصري. وسيتولى دورجان أمر نومه وإطعامه وتأديبه."

قال الرجل وهو يضم شفتيه الممتلئتين في تعبير عن استيائه: "بالتأكيد يا صاحب السمو، كما تشاء. ولكن هل لي أن أسأل لماذا؟ نحن بحاجة إلى كل يد عاملة لنحافظ على منزلكم لائقاً بمجد هذه الأيام."

«آه، كما ترى، الأمر كذلك تمامًا.» جلس الأمير على كرسيٍّ وذراعاه ممدودتان، بينما كان خدمه يدهنون ظهره وصدره وذراعيه بالزيت، ويربطون الصنادل في قدميه استعدادًا للموكب عبر المدينة. سيُقام السباق حفاةً، بالطبع. فمحاربو ديرزي معروفون باحترامهم الشديد لتقاليدهم. «لقد قررتُ أن تُدوَّن قصة دكرائي ليسمعها أبنائي. لا أثق بهؤلاء المنشدين وحُكّام التراث في نقل القصة بدقة. خطّ الإزاري هو

الأجمل بين جميع كتّاب القصر، لذا يجب أن يكتبها هو. ثم سأستمع إليها تُقرأ وأحكم إن كانت قد سُجِّلت بشكل صحيح.»

"لكن يا سيدي، ألا ينبغي أن يكتب هذه الحكاية كتّابنا من الدرزي، بدلاً من أحد البرابرة المتسللين؟"

لم يكد فيندولار يُفصح عن احتجاجه حتى بدأ ألكسندر بالصراخ في وجهه، متهمًا إياه بالخيانة والوقاحة. كان سيل الشتائم نموذجًا صارخًا لنوبة غضب أميرية. فرّ رئيس الخدم من الغرفة قبل أن تتطاير كؤوس النبيذ، وانفجر ألكسندر ضاحكًا ضحكًا لم يفهمه خدمه المتوترون وخدمه النبلاء. أظن أنه شعر بالارتياح لأنه لم يتصرف إلا كوحش ولم يتحول إلى وحش.

اتفقنا على أنه من غير الحكمة أن أحضر مراسم الدكرة. فوجود عبدٍ سيكون ملفتًا للنظر. سأبقى في غرفة الخرائط بالأمير أكتب، وسيراقب دورغان حديقة المطبخ. سيرسل سيد العبيد في طلبي إذا وصل ألكسندر... أو أيًا كان ما سيصبح عليه ألكسندر... إلى هناك. كان الأمير متأكدًا من أنه سيتمكن من الوصول إلى هذا الحد، إذا ما حلّ به التغيير مرة أخرى.

وبينما كان ألكسندر يستعد لمغادرة شقته، ناداه أحد رجاله النشطين قائلاً: "هل ستفوز اليوم يا سيد الأمير؟"

أجاب قائلاً: "السباق يستحوذ على كياني كله. أستطيع أن أركز ذهني عليه تماماً ولا أفكر في أي شيء آخر. لن أخسر". التقت عيناه بعيني، وابتسم.

كان ذلك اليوم العاشر من الدكرة.

فاز ألكسندر بالسباق، سواءً كان ذلك بفضل براعته الحقيقية أم لأن أحداً لم يجرؤ على تجاوزه، لم أكن متأكداً. مع أنني لم أشك في قوته وسرعته، إلا أنني رجّحت الاحتمال الثاني. كان قد أمر مرافقيه بإحضار تقارير لي كل ساعة من أجل "التاريخ" الذي كنت أكتبه، فعلمت أنه لم يشرب سوى النزرهيل في وليمة النصر، ولم يأكل سوى فاكهة الداخ، مدعياً أن آثوس، أثناء سباقه مع الإله، أمره بتطهير نفسه قبل يوم تتويجه.

بعد ساعات طويلة، عاد إلى شقته للاستحمام وارتداء ملابسه استعدادًا للمساء. بقيتُ في غرفة الخرائط كما هو متوقع. قبل أن يغادر مجددًا، دخل الغرفة، وتبعه اثنان من الخدم يُحاولان جاهدين وضع اللمسات الأخيرة على طبقاته الخمس الرائعة من الديباج الأخضر والذهبي والحرير. نظر من فوق كتفي، حيث كنتُ أُدوّن بدقة آخر التقارير عن

أنشطته كما أخبرني بها كبير الخدم العابس، الذي كان يجلس على كرسي بجانبي. قال الأمير: "هكذا يسير العمل".

"بالفعل يا سيدي. إلى جانب كتابة نصر اليوم، فقد بدأت أيضًا في سرد أحداث اليوم الأول، من ذكريات خدمك."

أدعو الله أن يكون عملي جديراً بالثقة التي منحتني إياها.

سأحكم على عملك عندما ينتهي الدكرة. أما الآن، فاستمر كما أخبرتك.

انحنيت برأسي. "كما تأمر يا صاحب السمو."

وبينما كان يخرج من غرفة الخرائط، نادى على عبد آخر قائلاً: "تأكد من أن ناري مشتعلة. لقد كنت أشعر بالبرد طوال اليوم."

ابتسمتُ لنفسي، مما أثار نظرة استغراب من مساعد رئيس الخدم. قلتُ: "عفواً سيدي، كنتُ شارد الذهن. كنتَ تتحدث عن قائمة طعام الليلة الأولى..."

كان الوقت متأخرًا جدًا عندما أعلن صخب الأصوات، ووقع الأحذية، وارتطام الفولاذ، وأصوات الأواني الزجاجية من الغرف المجاورة عن عودة الأمير. قال، كلماته متلعثمة، يكاد لسانه يختنق: "اذهبوا فحسب. لا أريد سوى أن أخلع هذه الثياب الرثة وأجد فراشي. اخرجوا جميعًا. هيسيو قادر على فعل ما يلزم."

بعد سلسلة من مراسم التكريم والوداع، خفت الضجيج. سرعان ما لحق هيسيو، العبد الهادئ ذو البشرة الفاتحة، وهو شاب من قبيلة باسراني خُصي قبل بلوغه سن الرشد، كما كان حال جميع من قُدِّر لهم خدمة العائلة المالكة بهذه الحميمية، بالآخرين خارج الباب. كانت فتاة المصابيح قد أطفأت معظم المصابيح والشموع. جلستُ في الظلام لنصف ساعة، ولم أجرؤ على الخروج إلا بعد أن تأكدتُ من خلو بقية غرف الأمير من أي شخص. كان ألكسندر ممددًا على سريره، نصف عارٍ، غارقًا في نومٍ عميقٍ يُشبه الموت، وفي يده قارورة زرقاء. أخذتُ القارورة وتسللتُ خارجًا من الباب عبر غرفة الشموع. لم يكن هناك أحدٌ ليراني. كان ألكسندر قد صرف الحارس في وقت سابق من اليوم، وأرسله للسير حول الأسوار حتى الفجر عقابًا له على قبحه، ولم يُصدر أي أوامر باستبداله. يومٌ مضى.

في اليوم الحادي عشر من مهرجان داكراه، شروق شمس باهت فوق جبل نيرود. إن كان ذلك نذير شؤم، فلا سبيل لي لتفسيره، لكن اليوم بدأ بدايةً سيئة. وصلت فرقة بحث من أفينخار دون أي خبر عن ديمتري. كان الجنود الخمسة الذين أرسلهم حاكم أفينخار قد سلكوا

الطريق الجنوبي إلى كافارنا تحسبًا لانعطاف المارشال عن طريق جيبار الخطير. أما الفرقة التي أرسلها ألكسندر إلى جيبار فلم تعد بعد.

راقبتُ الأمير بانتباه وهو يستمع إلى التقرير. إذا كان سحر الشيطان قد انطلق بفعل عاطفة قوية، فقد خمنتُ أنه قد يحدث.

مع نبأ البحث غير المثمر. الغضب، والضيق، ونفاد الصبر، والشعور بالذنب - كلها بدت واضحة للعين المتفحصة، لكن الأمير لم يُظهر أي آثار سلبية.

كانت مراسم ذلك اليوم أكثر رسمية من مراسم الأيام العشرة الماضية: سلسلة من الطقوس والبركات التي تسبق مراسم التتويج المهيبة في اليوم التالي. وكما في اليوم السابق، انسحبتُ إلى غرفة الخرائط بينما تولى سيد العبيد حراسته في حديقة المطبخ. ومن رجال المنزل الذين كانوا يأتون ليقدموا لي تقاريرهم كل ساعة، علمتُ بأمر كؤوس النبيذ الاحتفالية وحرق البخور، وبتلاوة تاريخ ديرزي التي لا تنتهي لدرجة أنها تكاد تحفر عتبة باب، وبالقبلات المتبادلة وكسر العصي الخشبية الرمزية. عند غروب الشمس، سيسلم ألكسندر سيفه وخاتمه إلى والده كبادرة أخيرة للخضوع، ثم سيقضي المساء في الشراب مع النبلاء الشباب الآخرين الذين لم يبلغوا سن الرشد بعد. أما الإمبراطور والإمبراطورة فسيستضيفان الضيوف الأكبر سنًا في غرفة طعام منفصلة.

كنتُ أُنهي كتابة التقرير الأخير، عندما اقتاد أحد الحراس فيليب، الصبي الأمهق، من بيت العبيد. قال الحارس، وهو يُبعد الطفل النحيل عني: "يقول إنه يحمل رسالة للعبد الكاتب. لم أثق به ليدخل غرف الأمير بمفرده. فريث يسرق كل ما ليس مُثبتاً".

على أمل ألا ينبه دقات قلبي الحارس، أومأت برأسي.

قال الصبي وهو ينظف أنفه ويحدق في الروعة: "أنت مطلوب. من قبل السيد دورجان".

قلت: "بالتأكيد. فوراً"، ودفعت الطفل جانباً وبدأت بالركض، دون أن أتوقف لإيقاف الحبر أو مسح يدي.

لم أستطع اجتياز الممرات التي لا تنتهي بالسرعة الكافية. كان عليّ أن أكون مع ألكسندر قبل اكتمال التغيير. "إزاريان!" ناداني صوت حادّ بينما كنت أركض عبر الباب إلى الأروقة. بورش. انحنيت إلى مدخل مظلم وكافحت لأكتم أنفاسي بينما كان يمر. وقف مساعد رئيس الخدم ذو الوجه المجعد في الممر ذي الأعمدة عابسًا، ينظر يمينًا ويسارًا ويعبث بالسوط الصغير الذي كان يحمله على حزامه. "إلى أين ذهبت

بهذه السرعة، أيها العبد؟" تمتم لنفسه. بدا الأمر وكأنه دهر حتى عاد من حيث أتى. انطلقت مسرعًا عبر غرفة الغسيل الواسعة وحرارة المطابخ المتصاعدة، عبر فناء المطبخ الصاخب، مرورًا بالمخازن.

والورش، وعبر البوابة الحديدية التي تؤدي إلى أرض قاحلة متضررة من الشتاء في حدائق مطبخ القصر.

تسللت شعاعٌ وحيدٌ حادّ الزاوية من ضوء الشمس عبر قبة الغيوم الكثيفة، مُلقيًا بضوءٍ برتقاليٍّ غريبٍ على المشهد القاحل، بينما تساقطت أولى قطرات المطر الباردة من السماء. تراكم الثلج المتسخ في بقعٍ متقشرةٍ في زوايا حديقة الأعشاب. غطت طبقاتٌ من النباتات الذابلة الأجزاء الخشبية المربعة، وتُركت عرباتٌ مقلوبةٌ ولفائفٌ من الشباك المتعفنة على جانبي الطريق. يفصل الجدار البعيد، المُبطّن بتعريشاتٍ تدعم نموًا ميتًا على مدار عام، حديقة الأعشاب عن حديقة المطبخ الرئيسية الأكبر.

دوى الرعد في الشرق الذي بدأ يظلم بينما كنت أتبع آثار أقدام موحلة إلى داخل الحظيرة المسورة.

كانت صفوف من أشجار الفاكهة العتيقة، المتشابكة والجرداء، تقسم الحديقة، ومن خلف الأشجار سمعت صرخة ألم تقشعر لها الأبدان. ركضت نحو الصوت وكدت أصطدم بدورجان، الذي تجمد في مكانه من الرعب، ممسكًا سيفه بيد ومتشبثًا بغصن شجرة متفرع باليد الأخرى.

كان الأمير جاثيًا على ركبتيه في الوحل، ظهره منحني للأمام، وقبضتاه مشدودتان بقوة على وجهه. وكأن المطر المتزايد قد حجب رؤيتي، تذبذب شكل جسده: انحناء ظهره يتمدد، ورأسه ينتفخ، وجذعه يزداد ضخامة، وساقاه الطويلتان تنحنيان في أشكال مستحيلة. نبضت ألوان ملابسه الخضراء والذهبية وتداخلت لتشكل لونًا ذهبيًا موحدًا. ولبرهة مؤلمة، تذبذبت الصورتان - الرجل والوحش - واجتاحت موجة من البرد القارس تلك الحديقة حتى ظننت أننا تجمدنا في مكاننا. مد ألكسندر ذراعيه وصرخ... وتحولت أنينه إلى غضب أجش مرعب مع تغير الصورتين مرة أخرى.

في ذلك الوقت، كنت على بُعد ذراعٍ منه. لم أجرؤ على لمسه، لكنني ناديته بهدوءٍ وثباتٍ قدر استطاعتي: "ألكسندر، أمير الديرزي، اسمع كلماتي. مع أنك تشعر بأنك غارقٌ في الألم والسحر، فأنت لستَ ضائعًا". انطلقت الكلمات من لساني وكأنني تدربت عليها قبل ساعاتٍ فقط، لا عبر أعمارٍ مديدة. "السحر يُسيطر على جسدك، لكنك تُسيطر على عقلك. استمع إلى صوتي. تمسّك به. مع أنني لا أستطيع المجيء

معك إلى ذلك المكان المُخيف، فلن تكون وحيدًا. سيُزيل اتحادنا حواجز هذه التعويذة الخبيثة، ويمنع إغلاق الأبواب على الحياة التي تعرفها. ستفعل

حافظوا على سيطرتكم على أفعالكم وأفكاركم، ولن تتنازلوا عن النصر لأولئك الذين أوصلوكم إلى هذه الحالة.

كان التغيير شبه مكتمل. وبينما ابتلع الليلُ آخرَ شعاعٍ من أشعةِ الغروبِ البعيدة، لمحتُ وميضًا أخيرًا من الساتان الأخضر والشعر الأحمر، وسمعتُ صرخةً أخيرةً قصيرةً من الألم... وإذا بي أرى شنجار، أسد الصخور، ذلك الوشق الشرس الذي يسكن جبال أزهاك. هو... هو... قفز واقفًا وواجهني، كاشفًا عن أنيابه، يزأر في غضبٍ عارمٍ من الألم.

"من أجل آثوس، يا عزاريان، ارحل." وضع سيد العبيد المرتجف يده على كتفي.

قلت: "الأمير ألكسندر لن يؤذيني. إنه يتحكم بنفسه تماماً." كنت آمل ذلك.

الوحش، الذي يزن ضعف وزن الرجل ويبلغ طوله من الرأس إلى الذيل نصف طول ألكسندر، لوى رأسه وأطلق هديرًا طويلًا منخفضًا أثار الرعب في الأعصاب. تحرك ببطء إلى اليمين، ثم إلى اليسار مرة أخرى، دون أن يرفع عينيه عن عينيّ. بقيتُ جاثيًا على ركبتيّ، لا أتحرك، أحدق في عينيه العنبريتين الجامحتين اللتين كانتا لا تزالان تمثلان الكثير من ألكسندر.

سأبقى معك يا سيدي، وسنتحدث. سأتحدث، على ما أظن، مع أنني لا أدري عمّا سأتحدث. سامحني إن تلعثمت قليلاً، وآمل أن تنسى معظم ما أقول حين تعود إلى هيئتك. لقد مرّ وقت طويل منذ أن أجريت حديثًا مطولًا. وكما لاحظت مرارًا، لا يتحدث العبد علنًا مع أسياده من الدرزي. وأي حديث دار بيني وبين عبيد آخرين، في الأيام الأولى حين كنتُ أهذي، ربما لا يليق بسمعة سيدي. ليس مدحًا للدرزي ولا لإمبراطوريتهم.

خفض الوحش رأسه وأطلق صرخة غضب عارمة في وجهي، حتى أن حرارتها دفأت أصابعي الباردة. رفع دورجان سيفه، لكنني وضعت يدي على النصل ودفعته جانبًا.

"لن يشكرك الأمير على طعنه يا سيد دورجان. أترى كيف يوبخني على وقاحتي؟ لكنني أعرف من يختبئ وراء هذا الوهم. وقد أخبرته مرارًا وتكرارًا أنه لا يخيفني."

همس دورجان من فوق كتفي: "هل يمكنك قراءة أفكاره؟"

"لا. لا يسعني إلا أن أخمن أفكاره مما أعرفه عنه. ألا تراه هنا؟ أقول كلمة واحدة تمس سمعة الدرزي، فيحاول تخويفي. إنه متنمر..."

"ليُسكت الآلهة لسانك يا إزاريان! سيقطع رأسك."

"...مُحتال، ووحشٌ مُتغطرس. لكن لا بدّ أن يكون فيه شيءٌ آخر، شيءٌ أسمى مدفونٌ تحت جلده، وإلا لما احتاجت الشياطين إلى بذل كل هذا الجهد من أجله. عليه فقط أن يبحث عنه وينصت إليه... وهو ما قد يكون في النهاية أكثر عناءً من هذا السحر."

دار الوحش ألكسندر حولنا، منزلقًا بسلاسة على مخالبه الضخمة، وعضلاته القوية تتلألأ تحت فرائه الأسمر. بقيتُ ساكنًا، آملًا ألا أكون قد تجاوزتُ الحد. فلو أغضبته كثيرًا، لربما قطع صلته بي، وأصبح أسيرًا لعقله الصغير وعواطفه الجامحة. شككتُ في قدرتي أنا أو دورجان على النجاة من مثل هذا المصير. وإن تكرر الأمر، فلن ينجو ألكسندر أيضًا.

تصاعدت أنفاس حارة على مؤخرة عنقي. لم أتحرك. قلت: "أنت المتحكم يا سيدي. ستفعل ما تشاء. لكن لا تتجاهل تمامًا ما يطلبه منك هذا الجسد. إن عطشت، فأروِ. إن جعت... ففكّر... وكل ما يناسبك دون خجل أو اشمئزاز. إن احتجت للهرب، فافعل، مستخدمًا حذرك ومهارتك مع مهارة الوحش لتجنب الخطر. انتبه للحواس التي وُهبت لك، فهي ستحميك، لكن استخدم عقلك لتفهم ما يعجز الوحش عن فهمه... كالصيادين والرماة والأبرياء الذين سيخشونك ويعانون من قوتك. شعبك يا سيدي. أولئك الذين أوكلتهم الآلهة إليك."

ابتعد عني وظلّ يدور في الحديقة بقلق. لولا أن قميصي كان مبللاً بالمطر، لكان عرقي قد تبلل تماماً.

سأل سيد العبيد: "هل تعتقد أنه يسمعك؟"

قلتُ وأنا أشعر فجأةً بالضعف والبرد، وأرتجف تحت المطر المتواصل: "أتمنى ذلك. هل قال أي شيء عندما جاء؟"

"فقط لأرسل إليك، ولأحضر سيفي."

"للحصول على سيفك؟"

قال: "أحضر الإزاري... السيف". فظننت أنني سأحضره.

"لكنني لا أعتقد أنه كان يقصد أن تقتله."

بينما استمر ألكسندر في التجول حول محيط الحديقة، سأل دورجان عما إذا كنا نجرؤ على التحرك، لأنه كان بحاجة إلى الابتعاد لبضع دقائق.

"تفضل. سأبقى هنا." لم أتوقع عودته. كان السنجار شرسين ولا يمكن التنبؤ بتصرفاتهم.

عاد مانغانار الضخم بعد خمس دقائق. عرفتُ أنه قد وصل عندما وضع عباءة صوفية خشنة على كتفيّ العاريتين. لحسن الحظ، كانت جافة. قلتُ: "شكرًا لك".

"هذا هو الصواب. ليس من واجبك مساعدته."

قلتُ وأنا أستمد الدفء الجاف من حولي وأستسلم للمرارة التي غالباً ما كانت تغمرني عندما أجد نفسي ممتناً للفتات البائسة التي ينبغي أن تكون حقاً للرجل: "أنا لا أساعد أياً منكما. لا تفكرا في الأمر أبداً."

"لكنك أحد الحراس؟ أنت تحارب الظلام، كما أخبرتنا جدتي؟"

"بالطريقة الوحيدة المتبقية لي."

"هل يعلم الأمير من أنت؟"

شاهدت القط الكبير وهو يتجول في الحديقة الشاسعة، يمدد عضلاته الطويلة.

قلت: "أنا مجرد عبد لديّ القليل من المعرفة، ولن أكون شيئاً آخر أبداً".

ولأنه غير راغب أو غير قادر على مناقشة هذه النقطة، عاد دورجان باتجاه أشجار الفاكهة واستقر لمراقبة مدخل الحديقة.

بعد حين، عاد إليّ ألكسندر. زمجر بهدوء ودار حولي. فهمتُ أنه يريدني أن أتحدث مجددًا. قلتُ، وقد جعلني النعاس وقرب السحر أشعر بالدوار والإهمال: "هل أُهذي بكلامٍ غير مفهوم؟ هل أروي لك حكايات؟ أم أغني؟ أم أتحدث عن النساء أو الكتب أو حياة الأشجار؟ أم أروي لك عن النجوم في سماء الجنوب... إن كانت لا تزال هناك نجوم في مكان ما؟ يا للأسف. كنتُ أعرف شيئًا عن هذه الأشياء في الماضي، لكنني نسيتُ الآن. ربما سأتحدث عن تنظيف أرضيات البلاط والأماكن التي رأيتُ فيها شقوقًا في أساسات منزلك، أو سأخبرك أن صانع أقلامك يغشّك لأن القصب الذي يستخدمه ليس من أجود الأنواع."

لم أكن أهتم لألكسندر. كانت لفتاته القليلة مجرد فتات. أعطِ العبد لقمة لحم منزوعة الغضروف. أعطِه كوبين من الماء. آه، نعم، يدي تحت ذراعه عندما أركله حتى يكاد يموت. جلدة واحدة فقط اليوم يا عزاريان. لا يهم أننا سلبنا حياتك وروحك وسحقناهما بلا رجعة. لا يهم أنك لو كنت

أُطلق سراحك في هذه الساعة بالذات، ولن تستطيع العودة أبدًا. أبدًا. تدحرجت على يديّ وركبتيّ وتقيأت مرارة.

تراجع ألكسندر، وهو يزمجر من القذارة التي خلفتها على الأرض. ناديته بتعب: "عد". شددت الرداء المبلل على كتفيّ، ثم رفعت وجهي نحو السماء، وأنا أرتجف وأشعر بالفراغ، تاركًا المطر يبرد وجهي ويغسله. "لن أتركك. لن يتخلص كاستافان وتوأمه الشرير منا بهذه السهولة."

تحدثتُ عن الطقس والأرض، وخاصةً كيف كان طقس كفرنا مختلفًا تمامًا عما اعتدتُ عليه في طفولتي، مع أننا كنا نشهد أمطارًا غزيرة أيضًا. كان هذا هو الشيء الوحيد الذي استطعتُ التعبير عنه دون مرارة أو رعب أو مللٍ لا يُطاق، لأنني أغلقتُ ينابيع أفكاري أثناء وجودي في عالم ديرزي. وبينما كانت أي ذكرى لإزاريا مؤلمة، كانت الجغرافيا أبعد ما يكون عن أي شيء ذي أهمية حقيقية.

لأكثر من ثلاث ساعات، كنت أتحدث وأهدئ أمير الأسد المضطرب، حتى بدأت جفوني تثقل وتلعثمت كلماتي. ثم صرخ الشنجار، فأيقظني فجأة. كنت مرتبكًا ودوارًا، فسقطت على ظهري في الوحل، وقلبي يدق كدقات مطرقة الحداد.

ناديت "ألكسندر!"، خشية أن أكون قد تركته يفلت مني.

هبّت عليّ موجة حرارة كغصن صنوبر جاف أُلقي على نار، كادت أن تُشعل شعري المبلل. لمحة من الأخضر والأحمر. شكلٌ بلا ملامح - صورتان متشابكتان - يتلوى في الوحل، يُصارع نفسه. انطلقت أنّة مُؤلمة وسط هدير وعواء، كما لو أن وحشًا هائجًا يلتهم رجلًا حيًا. زحفتُ إلى الوراء، مُنزلقًا في الوحل كي لا يمسّني الصراع. استغرق الأمر خمس عشرة دقيقة حتى تلاشى السحر، تاركًا ذلك الجسد النحيل الطويل مُمددًا على وجهه في الوحل، والمطر يتناثر على شعره الأحمر ولباسه الأخضر. وما كادت آخر آثار الشنجار أن تختفي حتى سمعتُ همسةً أجشّة من بين أسنانٍ تصطك، "متنمّر، أليس كذلك؟"

"بالفعل يا سيدي، أنت كذلك. وأنت تعلم ذلك جيداً." ساعدته على النهوض وعلقت الرداء المبلل على كتفيه العريضتين.

"إذن، يجب أن تعترفي بأنكِ روحي الحامية يا سيون. إذا لم أعد أستطيع التظاهر، فلن تستطيعي أنتِ أيضاً."

تلاقت أعيننا للحظة. ثم صرفت نظري أولاً. في أعماق روحه، اشتعلت نار الغضب.

الفصل السادس عشر

عدنا إلى كوخ البستاني، رغم أن ألكسندر أقسم أنه اكتفى من الاختباء في القذارة. قال: "أستطيع التخلص من المتطفلين في شقتي بسهولة، ولن أضطر للجلوس مبتلاً". كان في حالة معنوية عالية للغاية، بالنظر إلى ما مر به للتو. "وأنا جائع بشدة. في المرة القادمة، ابحثوا لي عن قطيع من الأيائل. لم يكن هناك حتى أرنب واحد في تلك الحديقة".

في المرة القادمة. لقد تحدث عن الأمر كما لو كان حفل عشاء، حتى وهو لا يزال يرتجف بشكل لا يمكن السيطرة عليه من جراء زوال السحر.

أما أنا، فكنت منهكًا وخائفًا. كان التعامل مع تعاويذ الشياطين وأنا عاجزًا أمرًا مرعبًا في أحسن الأحوال، وكان استهتار ألكسندر بالميليدا مثيرًا للقلق. قلت: "يوم واحد فقط يا صاحب السمو. عندما يضع والدك إبهامه على جبينك حاملًا زيت تشيسم، حينها قد تشعر أننا أنجزنا شيئًا ما."

قال وهو يمسك بكوب النزرهيل الساخن بين يديه المرتجفتين ويستنشق رائحته الكريهة بارتياح: "كان السيف. وديمتري أيضاً. أنا متأكد من ذلك."

استغرق الأمر مني لحظة لأدرك ما كان يقصده. "الزناد؟"

كان عليّ أن أسلم سيفي لأبي، رمزًا لآخر ليلة من شبابي. سحبته من غمده ووضعته بين راحتيّ، وبينما كنت أقف هناك أنظر إليه، لم يسعني إلا أن أفكر في كيف كان ينبغي أن يكون ديمتري هنا معي في هذه الأيام. الحماقة السحرية لا تُقارن بهذا العقاب الذي دبره. يا له من وغد عنيد!

"أنت لا تعتقد—"

"لا توجد عصابة قطاع طرق تستطيع إيقاف عمي. لقد هزم ما يصل إلى عشرين منهم بمفرده دون أن يبذل أي جهد. ومحاربو فرقته الجوالة لا يقلون عنه مهارة إلا قليلاً. كلا، ديمتري، سيد الليكاي، يلقنني درساً."

"وتعتقد أن مجرد التفكير فيه مع لمسة السيف يُطلق السحر؟"

"في الليلة الأولى كنت أرقص في هذه الخدعة السحرية الملعونة التي قام بها الخليديون، وقد خلعت سيفي. وعندما انتهينا، أعدته إلى مكانه..."

"...وفكرت فيما كنت تخطط لفعله."

"بالضبط. المرة الثانية كانت عندما كنت نائماً، بالطبع، أما الثالثة، عندما كان اللوردات المحاصرون يقسمون على دعم اختيار والدي لخليفة، فقد كنتُ أنا من يحمل سيوفهم. البارون ديميسكا هو رفيق ديمتري القديم..."

تنهدتُ. "يبدو ذلك محتملاً للغاية. لذا غداً..."

"لن ألمس أي سيوف، وسأبذل قصارى جهدي لألا أفكر في ذلك الوغد الحقير."

قلت: "كن حذراً يا سيدي. إذا شعر الخليد بأي تلميح بأنك قد اكتشفت الأمر، فقد يغيرون التعويذة أو يحاولون أخرى."

"غدًا هو يوم تتويجي يا سيون. سأُنصَّب إمبراطورًا مُنتظرًا. لو جعلوني ابن آوى، فلا تظن أنني سأستسلم." كان واثقًا للغاية.

لم أكن كذلك. لم تكن هناك يقينيات قط عند مواجهة الراي-كيرا، ولم أستطع تخيل غاي كيالت. هل أبرم الخليد صفقة ما مع سيد الشياطين، أم أن جشعهم وطموحهم جعلهم مجرد وقود لأغراضه الغامضة؟ لم يقدم لي أي شيء في كل المعارف التي درستها أي إجابات. بينما كان ألكسندر ينهي نازريله، استحضرت كل ما أعرفه مما قد يعطيني بعض الدلائل حول هذه الأحداث. وهكذا وجدت نفسي أفكر مرة أخرى في نبوءة إيدا، وتحذيرها من معركة أولى وثانية في الحرب التي ستنهي العالم. كان الإزاريون يعتقدون أن المعركة الأولى، غزو ديرزي لإزاريا، قد خسروا كما تنبأ الأنبياء، لكنهم وجدوا عزاءً في التنبؤ بأن المعركة الثانية لن تحدث إلا عندما يصبح هؤلاء "الغزاة من الشمال" أنفسهم واحدًا مع الشياطين. لو نجا أحدنا، لكان لدينا متسع من الوقت للتعافي، وللاستعداد قبل أن يستحوذ الشيطان على جميع أفراد الدرزهي. لكن ماذا لو لم يكن الغزاة القادمون من الشمال هم

الدرزهي، بل الخليد، وهم عرقٌ متوحدٌ مع الشياطين؟ لم أستطع تجاهل هذه الفكرة. لم أعد أؤمن بالآلهة أو النبوءات، لكن القصة ظلت تُلح عليّ وأنا أساعد الأمير على الوقوف، وأتفقد ما وراء كوخ الحديقة بحثًا عن أعينٍ متطفلة. كانت هناك أجزاء أخرى من النبوءة أيضًا: قصص عن محارب، رجلٍ بروحين سيتقدم لمواجهة سيد الشياطين ويمنع دمار العالم... وهنا كان عليّ أن أنهي هذياني العقيم. لم أكن أعرف أحدًا بروحٍ واحدة سليمة، فكيف بروحين؟

عدتُ مع ألكسندر إلى شقته. ورغم أن الساعة كانت قد تجاوزت منتصف الليل، إلا أن الأضواء كانت ساطعة، والجنود وأصحاب المنازل منتشرين في كل مكان. عندما تم التعرف على الأمير من تحت الوحل وملابسه المبتلة، حاول ثلاثون من المرافقين المصدومين فحصه وتجريده من ملابسه والانتقام له واستجوابه في آن واحد.

«أين كنت يا سيدي؟ الإمبراطور منزعج للغاية... منزعج للغاية من غيابك». تمكّن سوفاري، بصفته قائداً خبيراً، من السيطرة على الفوضى. «لقد أرسل فرق بحث تُفتّش القصر والمدينة. عندما علم أنك لم تحضر الوليمة...»

«اخرجوا! جميعكم، اخرجوا من هنا!» أمر الأمير، وهو يدفع أيدي الخدم المتلهفين، ويصدّ أكواب النبيذ والزهيريل التي كانت تُدفع في وجهه. «هل يعقل أن أحظى بساعة لنفسي؟ لقد سئمت من الضيوف والاحتفالات والولائم.»

"ساعة يا صاحب السمو، بل هي السادسة! لقد خرجتَ مسرعًا من الحفل، ولم يعلم أحدٌ أين ذهبت." نظر المحارب إلى الأمير وهو في حالة يرثى لها من البلل. "ظننا أنك مريض. ما الذي حدث لك؟"

"لم يحدث لي شيء. كنت أتمشى تحت المطر. أردت أن أريح ذهني قبل الغد. أن أكون وحدي لبعض الوقت. انزلقت وسقطت وتلطخت بالطين. هذا كل شيء."

"تسيرين وحدكِ... إذن، ماذا عنه؟" أومأت سوفاري برأسها نحوي في حيرة، مع مسحة خفيفة من الشك. كنتُ أنا أيضاً مغطاة بالطين. حاولتُ التسلل عائدةً عبر غرفة الشموع، لكن الطريق كان مسدوداً. "يبدو أن رجلاً واحداً كان مناسباً لكِ."

"ليس رفيقًا على الإطلاق." سخر ألكسندر. "إنه عبد، وليس رجلًا." فرك يديه معًا، مدفئًا إياهما بجانب موقده. "يا إلهي، كيف سمحت لك باستجوابي بهذه الطريقة؟ لو لم تكن مناسبًا لي تمامًا، يا سوفاري—"

قال القبطان على عجل: "بالتأكيد يا صاحب السمو. كنتُ فضولياً فقط، إذ يبدو أن هذا العبد موجود في كل مكان هذه الأيام. ما الرسالة التي يجب أن أحملها إلى الإمبراطور؟"

"أخبره أنه لا شيء."

ضحكت سوفاري ضحكة كئيبة. "لو كنتَ تُقدّرني كما تقول يا سيدي، لما أرسلتني إلى الإمبراطور بمثل هذه الرسالة. أخشى على رأسي."

"أرجو من غوتفريد أن يوصل الرسالة. لطالما كان هو من ينقذني من مشاكلي مع أبي. لقد كنت معه منذ فجر التاريخ."

كان ينبغي أن يكون قاضياً، فهو يعرف كيف ينقل الأخبار غير السارة بأسلوب دبلوماسي للغاية.

"فكرة جيدة." عبس سوفاري وهو يساعد ألكسندر على الخروج من عباءة دورجان المبللة. "هل أنت متأكد أنك بخير يا سيدي؟"

"أحتاج إلى النوم. سيساعدني العبد في كل هذا. هدّئ والدي. أخبره أنني سأكون جاهزًا في الساعة الأولى من الحراسة الرابعة كما أمرني."

"نم جيدًا إذن." عندما وصل إلى الباب، استدار المحارب الشاب وانحنى انحناءة عميقة. "ليكن هذا اليوم بداية مجدك، وليضمن مجد إمبراطورية ديرزي في المستقبل."

أومأ ألكسندر برأسه بوقارٍ مهيب، متأملاً وجهه الملطخ بالوحل، وجديلة شعره المحارب شبه المتشابكة، وملابسه الرثة. بعد رحيل سوفاري، ساعدت الأمير على خلع ملابسه المبللة، وأحضرت له ماءً دافئاً لينظف الطين عن وجهه ويديه. ولما انتهى، سحب قارورة زرقاء من درج في إحدى خزائن ملابسه الضخمة في غرفة نومه، ورفعها نحوي وكأنه يتقدم لي بتحية. قال: "إلى روحي الحامية، لقد أسديتِ لي معروفاً عظيماً هذه الليلة".

قلت: "لا أريد أن أفعل ذلك مرة أخرى. أتمنى لك عيد ميلاد هادئًا".

ابتسم ابتسامة عريضة وانقضّ على سريره. أقسم أنه كان يشخر قبل أن يصل إليه.

انقضى يومان.

قرر آثوس أخيرًا أن يكشف عن مجده يوم الدكراه. أبقى ألكسندر نوافذ غرفته مفتوحة، واستيقظتُ على إشراقة صباحٍ صافٍ. كنتُ قد تجرأتُ على النوم بجوار موقده مرة أخرى. بعد أن أطفأتُ جميع المصابيح، ونظفتُ حذاءه، وأخفيتُ عباءة الصوف المبللة حتى لا يتمكن أحد من

تتبع صاحبها، لم يبدُ الأمر يستحق عناء العودة إلى بيت العبيد. كان دورجان يعلم مكاني. إضافةً إلى كل ذلك، كنتُ متوترًا. إذا كان الراي-كيرا مصممين على منع مسح ألكسندر، فإن السحر الذي وضعوه عليه لم يكن كافيًا. كانوا يخططون لشيء آخر، وقد أمضيتُ ساعاتٍ طويلة ساهرًا أحاول معرفة ماهيته.

لم يكن للأمر برمته أي منطق. إذا كانت معتقدات ألكسندر صحيحة - ولم يكن لديّ سبب للشك فيه - فلن يمنعه من التتويج إلا الموت. لم تكن النزوات ونوبات الغضب والسلوك الغريب أمرًا مستبعدًا في الأوساط الملكية. حتى لو رأى بعض أفراد ديرزي...

الأمير واقعٌ تحت تأثير السحر، ماذا سيظنون؟ لا شيء. لم يكن الدرزي يؤمنون بالميليدا. كانوا سيعتبرونها وهماً، أو مزحة، أو حماقة ألكسندر المعتادة، أو نوعاً من اللذة المنحرفة كتلك التي يشعر بها الرجال الذين يصطحبون الكلاب إلى فراش نسائهم. كان الأمر غريباً، لكنه لم يكن شيئاً يدفع إيفان إلى العداء لابنه.

غادرتُ حجرة الأمير قبل وصول أي شخص آخر ذلك الصباح. كان الخدم يحضرون الحطب لإشعال ناره بينما كنتُ أتسلل عبر الممر، وكان ثلاثة آخرون يحملون جرارًا ثقيلة مليئة بماء الاستحمام الساخن. كان دورجان ينتظرني في بيت العبيد. أما بقية خدمه فقد أُرسلوا بالفعل إلى مهامهم اليومية. أظن أن من يعملون في المطابخ لم يناموا طوال الليل.

سأل دورجان: "هل أخبرك أين يريدك أن تكون اليوم؟ هل سنكون في نفس الأماكن كما كنا من قبل؟"

قلتُ وأنا أحاول تنظيف نفسي عند صهريج بيت العبيد: "أظن ذلك. لم نتحدث عن الأمر قط". لم أعتقد أن ذلك سيُحدث فرقًا. مهما حدث، لن يكون الأمر كما كان من قبل.

أشرقت الشمس ببهجة احتفالية صارخة حين خرجتُ من بيت العبيد. من على الأسوار، رفرفت الرايات بعنف في الريح الباردة، وبرزت ألوانها الحمراء والخضراء بوضوح في مقابل السماء الزرقاء الجليدية. رايات الإمبراطورية ودينيشكار هيغيد. الأسد والصقر. الإمبراطورية والعائلة مرتبطتان ارتباطًا وثيقًا. إيفان، ألكسندر... ديمتري.

في لحظة، انقشعت غيومي، ورأيت الخطر بوضوح كما رأيت قمة جبل نيرود الثلجية تتلألأ باللون الأبيض تحت أشعة الشمس.

ناديتُه وأنا أركض عائدًا إلى بيت العبيد: "سيدي دورجان". كان يُشعل موقده بالحطب ويضع قدرًا من الماء على النار ليغلي. انحنيتُ بالقرب

منه وتحدثتُ إليه بهدوء: "هل تثق بي؟ لو أخبرتكَ أن لديّ شكوكًا رهيبة بشأن هذا اليوم، هل ستفعل ما أطلبه منك دون أن تسألني أي أسئلة؟"

"هل هذا من أجل معركتك ضد الظلام؟"

"نعم."

"وألن يعرض ذلك الأمير للخطر؟"

"إذا كنتُ على حق، فقد يكون هذا هو الشيء الوحيد لإنقاذه."

"لقد رأيت ما يكفي لأثق بك."

"لا بد أن لديك حصانًا جاهزًا، في مكان ما..." أغمضت عيني محاولًا التفكير بسرعة.

"خلف المغسلة توجد غابة من أشجار الألدر. كثيفة. يمكن لرجل أن يختبئ هناك... أو حصان." بدأ يفهم الفكرة.

قلتُ: "نعم، مؤن... طعام يكفي لعدة أيام... وملابس، شيء بسيط... لشخص طويل القامة...". نظرتُ إليه متسائلاً. أن يتحدث عبدٌ عن مثل هذه الأمور، أمورٌ تُنذر بالهروب، كان بمثابة حكم بالإعدام. كان بإمكانه أن يُعرّي عظامي من اللحم لمجرد نطقي بهذه الكلمات، أو أن يزجّ بي في زنزانته ولا يُخرجني منها أبدًا.

"سيتم الأمر كما تقول يا عزاريان. ولكن إن تجرأت..."

"لن أخونك يا دورجان. ربما أكون مخطئًا..."

ركضتُ نحو القصر ووصلتُ إلى الممر خارج باب ألكسندر لحظة خروجه. كان مظهره يوحي بأنه إمبراطور. كان يرتدي الأبيض - سترة وسروالًا من الساتان الضيق والمتين، مطرزين بخيوط الحرير الأبيض واللؤلؤ. ضفيرة شعره مضفرة بخيوط ذهبية، وطوق ذهبي رقيق مرصع بزمردة واحدة يزين جبينه. عباءة طويلة مرصعة باللؤلؤ تنسدل من كتفيه، وفوقها قلادة من الماس. كانت مصنوعة من شبكة ذهبية محكمة النسيج تُحيط بعنقه الطويل وتمتد على عرض كتفيه وطول كفه على صدره. كانت مرصعة بمئات الماسات المرتبة ببراعة، مجموعة متألقة لدرجة أنها كانت قادرة على أن تأخذ لهيب شمعة واحدة وتضيء أحلك ليالي ألف مدينة. كان وجه الأمير النحيل وقورًا وهيئته ملكية. إذا كانت روحه تضاهي مظهره، فلن يرغب الدرزي في أمير أفضل منه.

كان الأوان قد فات لتحذيره من شكوكي. سار خمسون محاربًا من محاربي ديرزي بجانبه وخلفه، ومرّ مسرعًا دون أن يعلم بوجودي.

لعدم وجود خطة أفضل، لجأتُ إلى غرفة الخرائط، لكنني لم أُخرج أقلامي وحبري. كان من المستحيل الاستقرار، وفي غضون عشر دقائق تركتُ موقعي وانطلقتُ مسرعًا في الممر. مررتُ مسرعًا بجانب الخدم والعبيد الأشباح الذين خرجوا من الظلال ليُمارسوا أعمال التنظيف والنقل التي لا تنتهي. نزلتُ الدرج الكبير، دون أن أتوقف لأُجيب على نظرات الاستنكار المُذهولة من أولئك الذين صُدموا لرؤية عبدٍ يطأ أرضًا محظورة.

جذبني دويّ آلة الميلانغار وأصوات الأبواق، لكن الحشود المتدفقة من قاعة عرش الأسد كانت كثيفة للغاية بحيث لم تسمح لي بالرؤية. حتى عندما مرّت موجة الانحناء من مكاني، كان من المستحيل الرؤية.

ركضتُ عبر الردهة ذات السقف المقبب إلى الطرف الداخلي من القاعة، حيث سيُجلس إيفان على العرش بانتظار ابنه. خلف المنصة، حيث يقف عرش الأسد، كانت هناك غرفة تخزين تُحفظ فيها السلالم الطويلة لتغيير الشموع في أعلى الشمعدانات. كانت غرفة التخزين غريبة، عبارة عن تجويف طويل ضيق أُنشئ عند إضافة جناح جديد إلى القصر خلف قاعة عرش الأسد. في وقت من الأوقات، كانت هناك نوافذ زجاجية ملونة طويلة في نهاية القاعة فوق عرش الإمبراطور، ولكن نظرًا لعدم وصول ضوء الشمس إليها، فقد استُبدلت بشبكة برونزية مرصعة بزخارف شمسية فضية.

وضعتُ السلم وصعدتُ. ومن خلال سحب كثيفة من دخان الشموع والبخور، استطعتُ أن أرى حشودًا من الدرزي المتألقين بالجواهر وضيوفهم. وقف النبلاء الأقل شأنًا مكتظين تحت الأعمدة العريضة على جانبي قاعة عرش الأسد، بينما جلس الضيوف ذوو الرتب الأعلى في المساحة الشاسعة بين الأعمدة. كانت كل مصابيح تضيء بزيوت عطرية، وكل شمعة مشتعلة. ارتفعت الموسيقى وتردد صداها من قبة الفسيفساء الذهبية والزرقاء فوق العرش، جاذبةً الروح إلى الأعلى لتسبح في فضاءات الأقواس المتقاطعة النقية.

جلس الإمبراطور طويل القامة عريض المنكبين، مرتدياً رداءً أزرق داكناً وتاجاً مرصعاً بالألماس والزمرد، يتوسط أسدين ذهبيين شامخين يبلغ طولهما ثلاثة أضعاف طول الرجل. كان شعره الأبيض المضفر طويلاً ومزيناً بأشرطة من الياقوت، ووجهه النحيل الذكي الفخور، صورة ابنه بعد أربعين عاماً. كان ألكسندر قد سجد على المنصة المغطاة بالسجاد الأبيض بين العرش والدرجات.

رفع إيفان يده لإسكات الموسيقى. "انهض يا ألكسندر، أمير الدرزي." وصل صوته العميق برنين وجلال لا مثيل لهما، بحيث لم يكن بوسع أي شخص في ذلك الحشد الهائل إلا أن يسمعه، ولم يكن بوسع أي شخص يسمعه إلا أن يدرك أن المتحدث هو أقوى رجل في العالم.

وبرشاقة كانت بمثابة تذكير مزعج بالزنزانة، تحرك الأمير إلى مكانه بجانب والده، وبدأ الحفل.

لم أُعر اهتمامًا للاستعراضات المُبهرجة: رجال ديرزي يدورون على إيقاع الطبول، وجوقات الأطفال المُرتدين ملابس مُزينة بترتر ذهبي مُتدلي، وعازفي المزمار المُتأوهين، أو الكهنة ذوي الرداء الأبيض والرؤوس الحليقة، الذين ترددت أصداء ترانيمهم من الأسقف المقببة. بدلًا من ذلك، بحثتُ بين الجموع عن الآخرين الذين لم يكونوا مهتمين بمراسم ديرزي. هناك،

على اليسار، في الصف الأمامي لأكثر الضيوف تميزًا، كان يجلس من سُمح لهم بالجلوس في حضرة الإمبراطور. ورغم أنني لم أستطع رؤية نظراتهما الزرقاء الباردة من مكاني المرتفع، إلا أنني استطعت تمييزهما من خلال شعرهما الأشقر الناعم. دوّت الأبواق معلنةً احتفالًا مهيبًا، وركع ألكسندر أمام والده مجددًا، وقد بسط خمسة عشر صبيًا صغيرًا عباءته المرصعة باللؤلؤ خلفه. اقترب صبي يرتدي بدلة رسمية ذهبية مرصعة بالذهب من الإمبراطور، حاملًا كأسًا صغيرًا مرصعًا بالجواهر. خيّم جو من الرهبة كالدخان، مع أنني لم أستطع تحديد مصدر التحدي. لكنه جاء بالفعل.

كما يُنذر دوي الرعد المفاجئ بقدوم العاصفة قبل أن تكون مستعدًا، كذلك دوّى الصوت في الصمت المهيب الذي خيّم على القاعة: "قاتل!"

توقف إصبع الإمبراطور في طريقه إلى الكأس المرصعة بالجواهر. انقطع نفس الدهشة لدى الألف مراقب، والتفتوا برؤوسهم نحو المجنون الذي تجرأ على مقاطعة أقدس طقوس حياة الدرزي. بحثتُ أنا أيضًا بين الحشود عن الصارخ، ولاحظتُ أن اثنين فقط من بين كل هؤلاء لم يفعلا الشيء نفسه. لم يلتفت الرأسان الجميلتان في الصف الأمامي، بل بقيتا ثابتتين، وأنظارهما مثبتة على الإمبراطور والأمير. قفز ألكسندر واقفًا وأدار رأسه بسرعة ليرى، مما تسبب في تعثر وسقوط العديد من الأطفال الذين كانوا يحملون عباءته.

"خيانة!" دوّت الصرخة، بصوت الكلمة المشوّهة، في الهواء كالبخور. "يا صاحب الجلالة، أيّ أفعى تختارها لتسير على خطاك؟ في أيّ يدٍ

ملطخةٍ بالدماء تضع ختم الإمبراطورية؟ إلى أيّ جبانٍ ذليلٍ تُسلّم مملكتك؟"

عندما انشقّ قماش مشدود بإحكام، انقسم الحشد إلى نصفين ليكشف عن شخص يرتدي رداءً رماديًا. التفّ الدخان حول ألكسندر، مُخفتًا بريق ماساته، بينما تقدّم الغريب ذو الرداء ووقف في الممر أسفل الدرجات مباشرةً.

«من يجرؤ على التلفظ بالخيانة في هذا الصباح المقدس؟» صرخ الإمبراطور، وقد اتسعت عيناه غضباً. «أظهر نفسك». ركض الجنود ذوو الزي الأحمر نحو الرجل المرتدي الرداء، لكنهم توقفوا عن مصافحته عند إشارة الإمبراطور.

رفع الغريب المقنع ذراعه وأشار بإصبعه إلى ألكسندر. "أشهد على جرائم هذا الأمير الشرير، وأقدم دليلاً على..."

فعلٌ شنيعٌ لدرجة أنك ستدينه بنفسك يا جلالة الملك. قال الإمبراطور: "أظهر نفسك قبل أن تموت أيها الأحمق".

"كما تأمر يا سيدي." أنزل الرجل غطاء رأسه، فشهق من حوله وارتجفوا والتفتوا بعيدًا. انتشرت الهمسات والتمتمات كما تنتشر الأمواج حين يخرج حوت من سطح المحيط. ارتجفتُ أنا أيضًا، وضغطتُ جبهتي الساخنة على البرونز البارد للشبكة. لم يكن للرجل سوى نصف وجه. ما تبقى من جلده على الجانب الأيسر كان متندبًا ومنكمشًا، مما جعل عينه شبه مغلقة. اختفى الجانب الأيسر من فمه، كاشفًا عن أسنانه في ابتسامة جامدة. على ما تبقى من خده الأيسر كانت علامات أرجوانية وحمراء ذابلة لصقر وأسد. فاني.

لم يرتجف ألكسندر، بل انحنى نحو والده وتحدث بهدوء.

قال الإمبراطور: "أنت المجرم الذي دمر ممتلكات أميرك. كان من المفترض أن تكون ميتًا أو مكبلاً بالسلاسل، وقد انتهى الأمر بأطفالك وزوجتك إلى الموت جوعًا. أتظن أنك ستغريني لأصدر الحكم الذي حجبه ابني برحمته؟"

"بالتأكيد لا يا سيدي. لقد جئت فقط لأتهمه بالقتل أمامك." كاد الحاضرون أن يدوسوا بعضهم البعض لينأوا بأنفسهم عن فاني.

لقد أيدتُ حكم الأمير في هذه المسألة، فقد أُعدم اللورد سيرج كما ينبغي باعتباره خائناً وجاسوساً. لا جدال في ذلك. أيها الحراس!

"لا يا جلالة الملك، لستُ هنا لأُدين جريمة قتل صهري الشنيعة، بل جريمة قتل شخص قد ترونه أكثر جدارة من ابن بيت مزراح. إن قائد

ديرزي، ديمتري زها دينيشكار، قد فارق الحياة، وليس من فعل ذلك سوى هذا الأمير الخبيث."

صرخ ألكسندر وهو يمد يده نحو سيفه: "كاذب!"

همستُ قائلًا: "لا! يا ألكسندر، لا تلمسه."

لم يكن بإمكانه سماع توسلي الهامس وسط انفجار الرعب والدهشة الذي ملأ قاعة عرش الأسد، لكن يده توقفت فوق المقبض ولم تتحرك.

صرخ الإمبراطور: "اصمتوا! من يتكلم دون إذني يموت فورًا." لم يقطع الصمتَ الثقيل سوى أزيز المشاعل وأنين طفلٍ مذعور. أشار الملك الطويل بإصبعه متهمًا فاني. "أحضروا لي هذا الرجل... هذا الرجل الميت." دوّت كلماته بغضبٍ يهزّ الأرض. ألقى الحراس بفاني على الدرجات عند قدمي الإمبراطور. تقدّم ألكسندر، لكن يد إيفان اليسرى امتدت ليمنعه. بيده اليمنى...

استلّ الإمبراطور سيفه ووضع حدّه على رقبة فاني. "والآن، قلها مرة أخرى."

قال الشاب، وهو يزمجر بتحدٍّ وكراهية: "لقد أحضرتُ الدليل يا سيدي، وشاهدًا". ومسح بكمّه اللعاب المتساقط من ندبته الغائرة. "هذه ليست حيلتي. عندما صادفتُ هذه القصة، لم أطلب إلا أن أكون أنا من يُبلّغها. استدعِ خدمي الذين ينتظرون عند بابك، وسترى أن ابن مزراح يقول الحق. واستدعِ قائد اللورد ديمتري، فريديك، وستسمع الحكاية التي ستكشف فساد روح ابنك."

"فريديك؟" في اللحظة التي نطق فيها إيفان اسم محارب ديرزي بدهشة وفضول بدلًا من الغضب، أدركتُ أن ألكسندر قد ضلّ طريقه. لو كان بإمكاني الوصول إلى الأمير وانتزاعه من ذلك الجمع، لفعلت. لكن بدلًا من ذلك، كان عليّ أن أشاهد مؤامرة الشيطان تتكشف.

تقدم أربعة جنود يرتدون زي بيت مزراح البرتقالي والأبيض ببطء، حاملين محفة مغطاة بقماش أبيض. وضعوها عند أسفل الدرج أمام الإمبراطور، ثم انسحبوا. أشار إيفان إلى أحد رجاله الذي رفع القماش وكشف عن الوجه. خدود غائرة، شفاه سوداء، لحية ملطخة بالدماء. لكنه كان ديمتري بلا شك.

انزلق الأمير على الكرسي المخملي الأحمر بجانب العرش، وهو يحدق في جثة عمه العارية. وقال بصوت عالٍ يسمعه الجميع: "يا أثوس، ارحمني، ماذا فعلت؟"

لم أتخيل قط أن حشداً بهذا الحجم يمكن أن يسوده صمت عميق كهذا.

تبع رجلٌ قوي البنية، ذو شعرٍ رمادي، يرتدي زيّ المحارب، المحفةَ ببطءٍ وتعبٍ، متكئًا على عصا، إلى الممر. ثم جثا على ركبةٍ واحدةٍ أمام الإمبراطور، وقال: "جلالتك، ليت سيفك العادل يخترق قلبي قبل أن أنقل هذه الأخبار السيئة. سيدي، اللورد ديمتري، يرقد قتيلًا على يد قطاع الطرق، سقط في ممر جيبار قبل نحو خمسة عشر يومًا."

"كيف لك، يا يد أخي اليمنى، يا من أقسمت أن تعيش وتموت معه، أن تمشي وتتكلم بينما هو ميت؟" قال إيفان، وكلماته الحديدية تتردد من بين الجدران الحجرية.

تحدث فريدك ببطء وتأنٍ، وكانت كلماته، بيقينها المُرعب، تدق على الحجر القديم كالمطرقة. "يا سيدي، لقد أصبتُ بنزلة برد شديدة في أفينخار، وأمرني المارشال بالبقاء حتى لا أُعيق الموكب. كان مصممًا على العودة إلى كافارنا بسيف الأمير الجديد في الوقت المناسب لافتتاح الدكراه. كان الأمير قد

أمرته بالمرور عبر جبل جيبار. بقي غاسبار معي، وبعد يومين من رحيل المارشال، انطلقنا عازمين على السير ليلًا ونهارًا حتى نلحق بهم. ولكن عندما وصلنا إلى قمة جيبار، حيث يمكن للمرء أن يرى شرقًا وغربًا أفق الإمبراطورية، وجدنا المارشال ورفاقه الأربعة قتلى. اختفت الخيول والمحافظ والأسلحة... حتى العباءات والأحذية. يا سيدي، لقد قُطعت أجسادهم، ورُبطت، وتُركت في الثلج لتنزف أو تتجمد حتى الموت أو تلتهمها الذئاب، أيهما أسبق.

"يا دروبا العظيمة، انتقمي لخادمكِ العظيم!" زأر إيفان، رافعًا عينيه وقبضتيه نحو السماء كما لو كان يخطط لانتزاع تعاون الآلهة في سفك دمائه. "من هؤلاء اللصوص القتلة؟"

"رجال مجهولون يا جلالة الملك، لكن الأشرار كانوا لا يزالون هناك، يتربصون في الممر، عندما وصلنا. لقد أخذوا خيولنا، وإلا لكنا هنا منذ أيام حاملين الأخبار. لكنهم أبقوا على حياتنا... بشرط أن نوصل رسالة سرية إلى الأمير ألكسندر."

"وما الرسالة التي سيرسلها هؤلاء القتلة إلى ابني؟" قال إيفان ببرود.

لم يتحرك الأمير، ولم يُحِد نظره عن ديمتري. لم أكن متأكدًا حتى مما إذا كان قد سمع كلمات الرجل. نظر المحارب المخضرم ذو الشعر الرمادي من الإمبراطور إلى الأمير ثم عاد بنظره إليه. "قال لي أن أبلغ الأمير أن كل شيء قد تم كما أراد."

انفجرت القاعة في حالة من الهياج. وكما تتدفق الصخور المنصهرة والحمم البركانية من بركان، كذلك انطلقت كل مشاعر الكراهية والضغينة والظلم ضد ألكسندر إلى رحابة قاعة عرش الأسد المليئة بالدخان. لقد أهان الناس، وسخر منهم، واستهزأ بشرف وتقاليد ديرزي. لقد أهان الأمير زوجات الرجال وبناتهم، واستهان بواجباته الجليلة. ألف اتهام آخر، تافهة وأخرى لا. لكن الدليل الوحيد الذي اهتم به إيفان كان عند أسفل الدرجات. أسكت الإمبراطور الثرثرة بموجة من سيفه ودوي غضبه.

"تُعلّق طقوس الاحتفال هذه لثلاثة أيام، لنُكرم خير تكريمٍ أعظم محاربٍ سار تحت نار آثوس. ولمدة عامٍ كاملٍ ابتداءً من هذا اليوم، ستحزن كل أسرةٍ على فقده، رافعةً راياتٍ حمراء على أبوابها، وسنروي قصصه وأغانيه، حتى يعلم آثوس أن يضعه في يمينه. هناك سيدافع عن عالم الليل والنهار ضد وحوش العالم السفلي."

كان الإمبراطور في غاية الكفاءة في حسم أمره. بحركة واحدة سلسة من سيفه، قطع رأس فاني، ثم ركله على الدرجات المغطاة بالسجاد الأبيض، حيث سقط عند قدمي ديمتري، محدقًا بنظرة اتهام أخيرة نحو الأمير. وفي دوامة من الرداء الأزرق، خرج إيفان من القاعة، ولم يتذكر سوى نصف الشهود المذهولين الانحناء.

جلس ألكسندر بلا حراك على كرسيه. لم يجرؤ أحد على النظر إليه وسط حركتهم الدؤوبة. عندما حمل حراس الإمبراطور الكفن وحملوا جثة ديمتري الملفوفة بعيدًا، لم يتحرك رأس ألكسندر، وكأن المشهد المروع لا يزال عالقًا في المكان الذي ظهر فيه. انتزع فيندولار زيت المسح من الصبي ذي البدلة الذهبية الذي كان يقف مذهولًا أمام الرأس المشوه والجثة الملطخة بالدماء. قام رجل آخر بتوضيب أوعية وأدوات الاحتفال، بينما كانت امرأتان تحتاران بشأن ما تفعلانه بقطعة السجادة البيضاء الملطخة بالدماء بشكل لا رجعة فيه.

تفرق الحشد سريعًا. تخيلتُ أنهم يبحثون عن مكانٍ يتحدثون فيه بحرية، بعيدًا عن خوف غضب إيفان. لم يبقَ سوى مجموعة صغيرة من الضيوف على جانبٍ من القاعة: رجلان وامرأة ذات شعرٍ أحمر ترتدي ثوبًا أزرق داكنًا. إنها السيدة ليديا. كانت تقف تراقب ألكسندر. حاول رفاقها إدخالها من الباب الجانبي، لكنها انتزعت ذراعها من قبضتهم، ثم غادرت الغرفة بمحض إرادتها.

تدلّت اللافتات الزاهية بلا حراك. وتناثرت الكراسي الفارغة مقلوبة. وتناثرت الأزهار الذابلة على الأرض. وتسللت أشعة الشمس من حواف

النوافذ المغطاة بالستائر، لتتباطأ وتنعكس بفعل دخان الشموع المطفأة.

لم أستطع الحركة أيضاً، كما لو أن أطرافي كانت مرتبطة بإرادة سيدي. ولم تكن لديه إرادة. كان طوقه المرصع بالألماس يتلألأ في سخرية صارخة من خراب ذلك اليوم.

وكما توقعت، سار عبدٌ مترددًا عبر المنصة وجثا أمام الأمير، واضعًا رأسه على السجادة الملطخة بالدماء بعيدًا عن متناول يده. لم يُعر ألكسندر العبد أي اهتمام، ولكن من الواضح أن الرسالة قد وصلت. نهض الأمير وسار ببطء على نفس الطريق الذي سلكه والده من القاعة.

الفصل 17

جريمة قتل. بالتأكيد لن يصدق إيفان ذلك بناءً على أدلة واهية كهذه، كشهادة لص مجهول وخائن حاقد. كان الحب بين ألكسندر وديمتري أعمق من ذلك. ومع ذلك، كم مرة أتيحت للإمبراطور فرصة ملاحظة حقيقة مشاعرهما؟ لقد سمع ديمتري يدين الأمير على غبائه المتهور، وسمع ألكسندر يوبخ عمه على كل محاولة لتأديبه. ربما لم تكن هذه المشاعر واضحة لي إلا لأنني عانيتُ أنا أيضًا من...

مرشدٌ كان يُثير جنوني، عندما كنت شاباً عنيداً ومُفعماً بحب الحياة.

أسرعتُ عبر الممرات المؤدية من القاعة الكبرى إلى حجرات الإمبراطور. كان رجال الحاشية المذهولون يتدفقون بلا هدف في الأروقة المزدحمة، وعيونهم تبحث بين الحشود عن وجهٍ جدير بالثقة. وعندما يحالفهم الحظ بالعثور على صديق، يتجمعون على جانب الممر كقطع القشدة في إناء الحليب، يتهامسون وينظرون من فوق أكتافهم للتأكد من عدم وجود من يسمعهم.

أبقيتُ نظري مُطأطئًا، متجاهلًا أي أمرٍ قد يُوجَّه إلى عبد. كنتُ أتوق بشدةٍ للعثور على ألكسندر، وأتوق بشدةٍ لفهم ما يجري. لم أُصدِّق قطُّ حدسي الهادئ بأنَّ الخليديين يُفكِّرون في إجبار الإمبراطور على تسمية

وريثٍ يختارونه. كانت هناك عقباتٌ كثيرةٌ من التقاليد الراسخة التي يجب تجاوزها. حتى مع إبعاد ألكسندر، فإنَّ الدرزيين سيُعلنون الحرب قبل أن يروا العرش ينتقل إلى شخصٍ آخر، والحرب هي تحديدًا ما لا يستطيع الخليديون التعامل معه. كنا نندفع بسرعةٍ في طريقٍ شديد الانحدار، ولم أكن أرى أين سينتهي بنا المطاف.

لم أستطع الاقتراب من الأمير، ولا حتى الحصول على معلومات عن مكانه. لم يره أحد يدخل حجرات الإمبراطور، مع أن الجميع افترضوا وجوده هناك. قالت خادمة منهكة إن الأمير قد اعتزل في شقته، لكن الغرف كانت باردة ومهجورة. عدتُ إلى جناح الإمبراطور، وتجولتُ من باب مظلم إلى آخر، محاولًا...

أسمع القيل والقال، وأحاول ألا أُلاحَظ، وأحاول أن أفهم كيف يمكنني، مهما حاولت، أن أصل إلى ما أريد أو أن أتعلم ما أحتاج إلى معرفته. يائس. عاجز.

خفق قلبي بشدة عندما أمسكت يد حديدية بكتفي. قال: "قلتُ لكَ ستأتي معي أيها العبد". كان رجلاً أصلع يرتدي سروالاً أزرق من الساتان وسترة بنية تكشف عن صدره المغطى بشعر رمادي خشن. لم أسمع حتى اقترابه.

"لكن يا سيدي، أنا—"

جذبني الرجل نحوه حتى كدتُ أعدّ المسام الواسعة عند طرف أنفه البيضاوي. قال: "يجب عليكِ الحضور. لن نسمح بحدوث أي فوضى هنا أمام كل هؤلاء الناس. أفضّل ألا يراني أحد مع عبدة، وخاصة أنتِ." ثم تركني، ونفض بعض الوبر الوهمي عن سترته المنتفخة، وسار بخطى وقار حول الزاوية. تبعته وأنا ألعن في سري إلى ممر قريب، هادئ وأنيق وخالٍ، وهو مكان الضيوف المفضلين، على مقربة من غرف الإمبراطور.

قادني عبر باب مفتوح إلى غرفة تفوح منها رائحة الزهور. باقة كبيرة من زهور الستنتيا الطويلة بلون الخوخ، وورود متفتحة ببراعة، كانت موضوعة على طاولة مستديرة مصقولة. عُلّقت في الغرفة ألواح حجرية رائعة نُقشت عليها صور مُنمّقة لحياة ديرزي الصحراوية، في تناقض صارخ مع الزهور، تمامًا كما كانت الثلوج المتبقية في الحديقة. أغلق الرجل ذو الرداء الأزرق الساتان الباب خلفي، ثم قال: "انتظري هنا"، واختفى من خلال باب داخلي. شبكت يديّ على صدري وأطرقت بنظري، محاولةً إجبار نفسي على العودة إلى عادتي المألوفة. كنتُ عبدة، خاضعة لأهواء أي ديرزي. لم يكن بوسعي نسيان ذلك.

لا تتساءل. لا تقلق. لا فائدة من ذلك. ما سيأتي سيأتي.

لكن كلماتي بدت جوفاء، صدى سلامٍ لم أعد أملكه. أشعلت الشياطين حربًا، وكان عليّ أن ألعب أي دورٍ بائسٍ أستطيع، حتى وأنا أصمٌ وأعمى وعاجز. كل دقيقةٍ كانت تنهش رباطة جأشي. أين ألكسندر؟ لم يكن لديّ وقتٌ لأهواء نبلاء ديرزي. كنت على وشك الفرار، عندما اندفعت السيدة ليديا إلى الغرفة، ووجنتاها الحادتان حمراوان كشعرها، وعيناها الخضراوان متوهجتان.

"هل فعلها؟" سألتني بحدة، دون أن تنتظر مني أن أنهض من انحنائي السريع. "أجبني بصدق."

"لا يا سيدتي، لم يفعل ذلك."

"هل تعرفه جيداً لدرجة أن تقسم بذلك؟"

"أراهن بحياتي على ذلك. إنه غير قادر على فعل مثل هذا."

"أنتِ تؤمنين بذلك حقًا. كيف يُعقل هذا؟" لم أستطع فهم غضبها. "ألا يُسمم لسانكِ قول هذا؟" أمسكت بالخاتم الحديدي حول معصمي وجذبت ذراعي أمام وجهي كما لو كنتُ دمية في مهرجان صيفي، ثم جرتني نحو مرآة وأدارتني لأرى آثار الدمار الذي لحق بظهري. "انظري ماذا فعل بكِ. أي جنونٍ منحرفٍ يجعلكِ تُحبين من يُعاملكِ بهذه القسوة؟"

"الأمير ألكسندر هو سيدي، سيدتي. له سلطة الحياة والموت عليّ، وقادر على كل ما بينهما من شرور. لن أتظاهر بمشاعر مستحيلة على عبد." قلتُ ذلك وأنا أدير ظهري، رافضةً النظر إلى الغريبة النحيلة ذات الندوب التي ادّعت أنها أنا. "لكن يجب أن أكون صادقة في إجاباتي. فرغم عيوبه، يتمتع الأمير بإخلاص عظيم. الشخص الوحيد الذي رأيته يمتلك هذا الإخلاص هو اللورد ديمتري."

طارت طاولة صغيرة فوق رأسي، وتناثرت شظاياها عند ارتطامها بالجدار بجانب المرآة. انحنيت والتفتُّ بسرعة لأرى السيدة تجلس على كرسي لتلحق بها. لو كان أي شخص آخر، لكنتُ انبطحتُ أرضًا وغطيتُ رأسي، لكنني وثقتُ بطريقة ما أن تصويبها دقيق. تنحيتُ جانبًا فحسب. لم تكن ترمي عليّ أشياء. في غضون ربع ساعة، كانت قد جمعت كومة كبيرة من العصي والمخمل والزجاج بجانب الجدار المثقوب، واستعادت شيئًا من رباطة جأشها.

بينما كنت أراقبها وهي تُفرغ غضبها، تساءلتُ عن سببه. تذكرتُ حديثنا السابق، وبدأ يساورني شكٌّ عميق. لم تكن تُجادل ألكسندر، أو تُنتقد عيوبه، أو تستهزئ بحماقاته لأنها تحتقره. بل على العكس تمامًا. كدتُ

أضحك من هذا الاكتشاف. اتكأتُ على الحائط وضغطتُ يدي على وجهي، مُحاولًا جاهدًا إخفاء أي أثرٍ لفهمي. لكنها لم تسمح لي بالاختباء.

"أوه، سيون، ألم أؤذيكِ؟ أنا سيئة مثل الأمير الحقير." سحبت يدي بأصابع ناعمة ونظرت إليّ بعينين خضراوين قلقتين.

"لا يا سيدتي. عليكِ فقط أن تخبريني إن كان رمي الأثاث يخفف من معاناتكِ."

"إنه شخص لا يُطاق."

"نعم يا سيدتي."

"قاسٍ، طائش، عنيد..."

"بالفعل."

"...متكبر وأحمق. مهين."

"لا أحد سيجادل في أي من هذه الأمور يا سيدتي."

"فلماذا لا أستطيع أن أطرده من قلبي؟"

"من الواضح أن العقل والمنطق لا علاقة لهما بمثل هذه الأمور."

أمسكت بكتفيّ وهزّتني قائلة: "أنتِ تحبينه، كما أحبه أنا".

«هذا مستحيل. أنا أخدمه. لا شيء أكثر من ذلك. السيف لا يحب اليد التي تصنعه، ولا اليد التي تحمله. لكن هناك ما هو أكثر مما نراه يا سيدتي. على الأقل يمكنكِ أن تطمئني إلى أنكِ لا تهتمين لرجل يقتل عمه».

جلست مترهلة على أريكة مخملية، خالية من الوسائد الآن. "لا. بل أحب رجلاً مجنوناً."

"إنه ليس مجنوناً يا سيدتي، مهما كان سلوكه الحالي غريباً."

عبست جبينها العريض الأملس وهزت رأسها قائلة: "أنت مخطئ في ذلك. لقد حكم عليه الإمبراطور بذلك، ولن يُبعد ألكسندر إلا إذا اقتنع. إيفان تشا دينيشكار يُحب ابنه حباً جماً، وهو ليس أحمق."

حكمت عليه بالجنون... ركعت عند قدميها. "سيدتي، سامحيني على أسئلتي، لكنكِ تحدثتِ معي بصراحة، ويجب أن أعرف ما حدث. ماذا تعنين بقولكِ إن الإمبراطور يطرده؟"

لم يقتنع الإمبراطور في البداية بأن ألكسندر مجنون. فأرسل رجالًا لحرق القرى حتى يُقبض على هؤلاء اللصوص. لكن ألكسندر رفض قيادتهم أو المشاركة في المطاردة. استدعاني الإمبراطور لإقناع ألكسندر بتوضيح موقفه... دون أن يعلم أن إقناعي يُناقض تمامًا أي حجة أتوسل بها للأمير. حاول الإمبراطور أن يجعل ألكسندر ينفي أي صلة له بالجريمة، لكن ألكسندر أصرّ على أنها خطأه، وأنه لم يقصد موت اللورد ديمتري، بل هو المذنب. ماذا كان على الإمبراطور أن يظن؟ سأل الإمبراطور إن كان ألكسندر يعرف مكان اختباء اللصوص وهويتهم، لكن الأمير أجاب بأن هويتهم لا تهم، فالجريمة جريمته. ثم جاء ذلك الحاجب البغيض...

"فيندولار".

"نعم. ثم تملق وتذلل وبدأ يروي سلوك ألكسندر الغريب في الآونة الأخيرة: هذه الأحداث المروعة مع فاني المسكين الغبي و

سيرج، حكايات غريبة من دار هيجد، إهانات للعائلات النافذة ونقابة السحرة، مخالطة المتسولين... والنساء الدنيئات... نوبات غضب وإساءة. قال إن ألكسندر لعن اللورد ديمتري وأقسم أن يجعل عبدًا حاجبًا له. أكد سوفاري تغيير ألكسندر لأوامره ليلة حفل الخليد، وكيف اختفى الأمير تلك الليلة، ليعود متسخًا ومُشعثًا، رافضًا الإفصاح عن مكانه. ثم تقدم رجال آخرون وأكدوا أكاذيب فندولار، وأضافوا المزيد من حكاياتهم الخاصة...

لكنها لم تكن أكاذيب. كل كلمة قيلت كانت حقيقة، لم يساورني أدنى شك. ربما كانت مبالغًا فيها. ربما أُخرجت من معناها الحقيقي. ربما رُتبت بطرق تُبرز الحقائق التي أرادها المحرضون. مُحكمة الصياغة. مُحكمة بشكل مُرعب.

"وألكسندر..."

نهضت ليديا وخطت بخطوات واسعة نحو الطاولة، ممسكةً بحافتها بقوةٍ كادت أن تنكسر بين يديها. "كأنه لم يسمع شيئًا مما قيل. جلس يحدق في الفراغ. أمره الإمبراطور أن يقسم أنه لم يؤذِ ديمتري. وضع سيفه أمام الأمير وقال إن كل ما على ألكسندر فعله هو وضع يده على السيف والقسم. لن يُقال شيءٌ آخر عن الأمر. سيُمسح ملگا هذه الليلة."

السيف. وديمتري يعيش ويموت في رأسه ليُحفّز تحوّله. كانت الخطة مُحكمة. قلتُ: "لن يلمسه".

توسّل إليه والده، لكن ألكسندر ابتعد وقال إنه لن يستطيع حمل سيفٍ مرةً أخرى، لأنه لن يستطيع التخلص من ذنبه تجاه اللورد ديمتري. رفعت مزهرية الورود، ثم وضعتها بثبات وبدأت تجوب الغرفة جيئةً وذهابًا. كان الإمبراطور في حالةٍ من الهياج. طالب باستدعاء طبيب، لكن أحدهم قال إن هناك حلاً أفضل.

ها قد وصلنا إلى ذلك. "دعني أخمن. لقد كان الخليد هو من قال ذلك."

توقفت السيدة عن خطواتها وعقدت حاجبيها عابسةً وقالت: "كان ذلك صحيحاً. كيف عرفت؟"

"تفضلي يا سيدتي." أجبرت كلماتي على الهدوء، حتى مع شعوري بالخوف الشديد الذي كان ينخر في أحشائي.

"اللورد كاستافان رجلٌ طيبٌ وحكيم، ومقربٌ كبيرٌ من الإمبراطور. قال إن شعبه بارعون جدًا في علاج أمراض..."

العقل. عرض أن يتولى رعاية ألكسندر وأن يفعل كل ما في وسعه لعلاج هذا المرض.

قلت: "نجوم الليل". "ألم يوافق الإمبراطور؟"

"لكنه فعل ذلك بالطبع. أي أمل آخر؟ كاد أن يعانق اللورد كاستافان امتنانًا. سيُعلن الإمبراطور للإمبراطورية أن ألكسندر مُفجعٌ بموت اللورد ديمتري، وقد أقسم ألا يُنصّب ملكًا حتى ينتقم لمقتله. يغادر المبعوث كوريلي إلى بارنيفور مع ألكسندر عند الفجر. ومن هناك سيأخذونه إلى خيليدار."

كما انفجرت النيران في غابةٍ مُنهكةٍ بالجفاف، كذلك انجلت لي الحقيقة. لقد أمسكوا به. آلهة النور والظلام، عرفتُ ما يُخططون له. ولن يرى ألكسندر ذلك. كان من المستحيل تقريبًا أن أُبقي صوتي هادئًا. "وماذا قال الأمير عن هذا؟"

أغمضت السيدة عينيها وضغطت بأصابعها على فمها للحظة. ولم تتكلم إلا بعد أن سيطرت على نفسها. في البداية لم يسمع شيئًا. لم يسمعه إلا عندما حاول اللورد كوريلي إبعاده. حينها دفعه ألكسندر جانبًا وسأله بغضب: "ماذا تفعل بحق الآلهة؟". أخبره الإمبراطور مجددًا أنه ذاهب إلى خيليدار، لكنه سيُحتجز هناك حتى يُشفى من مرضه. ثار ألكسندر غضبًا. حاول قتل كوريلي، وهو يصرخ متهمًا إياه بالسحر والشياطين والوحوش. استغاث طالبًا سيفًا، لكنهم كانوا قد سلبوه سلاحه، فحاول خنق الخيليدار بيديه. احتاج الأمر إلى خمسة رجال لإخضاعه. قيّده سوفاري... وهو يبكي، لأن ألكسندر ذكّره بقسمه على حماية أميره بروحه. ثم أجبر كوريلي ألكسندر على شرب شيء قال

إنه سيهدئه حتى لا يؤذي نفسه. لم أرَ الإمبراطور قط في مثل هذا الاضطراب. لم تستطع الإمبراطورة أن تشاهد ذلك.

"أين وضعوه يا سيدتي؟ لا يمكننا السماح للخليد بأخذه." أردت أن أهز الكلمات من يدها، ليس بسبب أي خطأ في قولها، ولكن بسبب الإلحاح الذي استبد بي.

"إنه مجنون يا سيون. لا يمكنكِ الشك في ذلك لو رأيتِ وسمعتِ كل هذا. إذا كان بإمكان الخليد مساعدته..."

كنتُ لأفعل الكثير لأُبعد تلك السيدة عن الأمر، لكنني كنتُ بحاجة للمساعدة. كان خطر ألكسندر يتجاوز بكثير خطر الموت. كان الخليد سيُجبرونه على استضافة شيطان - إن لم أكن مخطئًا، فهو غاي كيالت نفسه، الأكثر خطورة.

أقوى من نوعه، من يستطيع إخضاع الآخرين لإرادته. سيمزق ذلك كيان ألكسندر... سيدمر ليس فقط الولاء، بل كل ذرة عقل وشرف وكرامة. سيحاول المقاومة، وهذا سيزيد الأمر سوءًا. في النهاية سيستسلم ويصبح ما يريدونه، وإذا تُوِّج إمبراطورًا، فإن أسوأ ما في إمبراطورية ديرزي سيكون قصةً جميلةً بالمقارنة. لم يكن بوسعي حماية أحدٍ إن أردتُ إنقاذه. "سيدتي، ما الذي تعرفينه عن راي-كيرا؟"

تجولتُ جيئةً وذهاباً في الغرفة المعطرة بالزهور لمدة ساعة. أحضر فيديك، حارس ليديا الشخصي، الرجل ذو المظهر المستاء الذي يرتدي سروالاً أزرق، اللحم والخبز والفواكه ووضعها على المائدة لي، كما أمرته سيدته. مع أن الطعام كان فاخراً بالنسبة لعبدة، إلا أنني بالكاد استطعت تذوقه خوفاً. لم أكن معتادة على الانتظار بينما تذهب النساء لاستطلاع ساحة المعركة من أجلي.

قالت لي السيدة: "لا يمكنك الذهاب. لقد سمعوا اسمك كثيراً اليوم. سأكتشف ما نحتاج إلى معرفته، حتى لو اضطررت إلى اصطحاب الإمبراطور إلى الفراش لمعرفة ذلك."

كنت أثق ثقةً مطلقةً بحكمتها السياسية والاجتماعية، لكن لم يكن أيٌّ من ذلك ليُهيئها لمكائد الشياطين. كانت ليديا امرأةً طيبةً وكريمة، ولم أكن لأسمح بأن يُصيبها مكروه. لذا، شعرتُ براحةٍ كبيرةٍ من الشعور بالذنب عندما رأيتها تعود من الباب الخارجي أخيرًا.

"إنه محتجز في البرج الغربي. وقد أخبر الخليديون الإمبراطور أنه يجب عليهم حبسه حتى رحيلهم، مع حراسة مشددة خشية أن يحاول الانتحار."

"وليس لديهم أي شكوك..."

أخبرتني الإمبراطورة بذلك. أقنعتُ مرافقاتها بضرورة مواساتها... كابنة... وأن أتلقى مواساة والدتها في المقابل. لقد دللت السيدة جينيا ألكسندر تدليلاً مخزياً، وهي في حالة حزن شديد لسقوطه، لكنها ليست من سيدات البلاط المتملقات. عندما أشرتُ إلى أن القائمين على رعاية ألكسندر قد لا يكونون معتادين على منح أمير ديرزي حقه من المواساة، أصرت على رؤيته. لم يُسمح لي بالذهاب، ولم أرَ من الحكمة الإلحاح، لكنها أخبرتني بما يكفي عند عودتها. قالت إن كوريلي رافقها في زيارتها، وأن الساحرين الخليديين يحرسان الدرج. اللورد كاستافان مع الإمبراطور، يُعدّ إعلانه.

أخبرتني بكل هذا وهي بالكاد تتنفس. كانت وجنتاها متوردتين، وعيناها تلمعان. كان ذقنها المدبب حازماً، كما كان منذ أن أخبرتها عن الخليد والشياطين. لم تكن ليديا سيدة بلاط متصنعة، أيضاً.

الآن الأمر متروك لي. كان عليّ فقط أن أجد طريقة لإخراج ألكسندر من البرج المحصّن جيدًا وإيصاله إلى البستان خلف المغسلة، حيث - لو أن دورجان قد وفى بوعده - كان هناك حصان ينتظره ليحمل الأمير إلى بر الأمان. "لقد أحسنتِ صنعًا يا سيدتي. سأفعل كل ما بوسعي من أجله." ثم نهضتُ لأغادرها.

لكن انتظروا، لم أخبركم بكل شيء. لقد انزعجت الإمبراطورة بشدة مما رأت. لم يكن هناك وسائد، بل ملاءات خشنة فقط في المكان الذي كان ينام فيه الأمير. ورغم أن خدم الإمبراطور قد أخذوا مجوهراته لحفظها، إلا أن ألكسندر كان لا يزال يرتدي ملابسه التقليدية. عرضتُ أن أحمل رسالة إلى حجرة ألكسندر... وأن أحضر عبدًا ليأخذ ملابس سفر وأغطية لراحته. كانت الإمبراطورة ممتنة جدًا.

قلتُ مبتسماً: "سيدتي، لم أقابل قط متآمرة أكثر براعة منكِ. أنتِ تُخجلين جواسيس ديرزي الأسطوريين." انحنيتُ لها واستدرتُ لأذهب.

قالت وهي تسرع خلفي حتى توقفت عند بابها: "يجب أن أذهب معك. قد تحتاج إلى حليف، إلى حامية."

لقد فعلتَ أكثر من اللازم. من هذه اللحظة، لا يجوز أن تُرى معي أبداً. لا يجوز أن يُذكر اسمك في نفس السياق مع اسمي. انسَ أمر لقائنا. إذا سأل أحد، فقل له إنك أرسلتَ خادماً إلى حجرات الأمير، ولذلك لا تعرف أي عبدٍ أُرسل.

وافقت على مضض. "اذهبي بدعاء آثوس يا سيون. عليكِ أن تُخبريني بسلامة الأمير... وسلامتكِ أنتِ أيضًا. لن أهدأ حتى أسمع الخبر. إذا

احتجتِ أي شيء - أي شيء على الإطلاق - فأرسلي رسالة إلى هازير في منزلي في أفينخار. قولي إنها "من صديقة السيدة الأجنبية"، وسيوصلها إليّ."

"أود أن أصدق أن الأمير جدير بلطفك يا سيدتي."

"أنقذيه يا سيون، وسنكتشف الأمر."

الفصل 18

كنتُ مُحمّلةً بكميةٍ هائلةٍ من الوسائد وأغطية السرير الحريرية والمناشف الناعمة والملابس الملكية لدرجة أن وجهي كان محجوبًا تمامًا، لذا شعرتُ بالامتنان لعدم تعثّري وكسر رقبتي على درج البرج الحادّ والمتعرج. حتى أنني التقطتُ رسالةً كانت مُوجّهةً إلى ألكسندر، للتأكد من أنني...

كانت هذه حجة كافية لرؤيته. ظننتُ أنه لن يُسمح لأي زائر نبيل أو مرافق بالدخول إلى الغرفة دون مرافق، لكن لا أحد يخشى عبدًا. وبالفعل، لم يُلقِ الساحران الخليديان نظرة فاحصة على ما أحمله، خاصةً بعد أن حاولتُ تسليمهما إياه ليأخذاه إلى الغرفة بأنفسهما.

قلتُ: "سمعتُ أن الأمير مجنون"، وحرصتُ على أن يرتجف صوتي من الرعب، وهو خداعٌ سهلٌ ومُقلق. "إنه يضربني بما فيه الكفاية في

الأوقات العادية. ألا يمكنك أن تأخذ أغراضه إليه؟ هناك ملابس ليلبسها في رحلته، ووسائد لراحته—"

ضحك الخليد، وصدى موسيقاهم الملتوية يمزق روحي. لم أستطع النظر إليهم. "لسنا هنا من أجل عمل العبيد. إذا أردتَ أن ينعم بالراحة، فعليك أن تبذل جهدًا في ذلك. لكنني متأكد من أنه يستطيع الاستغناء عنها هذه الليلة، إن كنتَ شديد الحساسية."

"لا يا سيدي. لقد أمرت الإمبراطورة بذلك، لذا يجب تنفيذه. إذن هناك شخص ما بالداخل؟ لحمايتي؟ لقد قالت الإمبراطورة ذلك."

"سيتعين عليك أن تغامر بمفردك مع الأمير المجنون. لقد خلد اللورد كوريلي إلى النوم."

رأيت خليد ذو العينين الشاحبتين يغادر، وشعرت بالارتياح عندما علمت أنه لا يُتوقع عودته.

"ألن تحبسني هناك مع رجل مجنون؟"

"لقد أُمرنا بإبقاء الغرفة مغلقة. إذا انشغلنا بشيء آخر، فقد تضطرون للبقاء معه حتى يستيقظ."

"لا يا سادتي. الأمير يكرهني. لا أجرؤ على التواجد في الداخل عندما يستيقظ... وعلى لمس جسده، وأنا لست خادمه... مستعد..."

كما تعلم، حتى لا أكون رجلاً حقاً. إن لمسه يستحق حياتي." كان من السهل بشكل مثير للقلق أن أتظاهر بشخصية جبان حقير.

فتح الرجلان المسكونان بالأرواح الشريرة الباب، ثم ركلاني بقوةٍ هائلةٍ حتى تطايرت الوسائد والمناشف. قالا: "لكن حياتكِ لا تساوي عظمةً مقضومة، أليس كذلك؟ ربما علينا أن نعطي الأمير سكينًا ليُهيئكِ لتكوني عبدةً له". استمتعا بهذا الكلام كثيرًا. ظننتُ أنهما سيتركانني مع ألكسندر لفترةٍ طويلة. تمنيتُ أن تكون كافية.

كانت الغرفة الصغيرة مضاءة فقط بضوء القمر البارد المتسلل عبر نافذة صغيرة ذات قضبان. لم يكن من الممكن أن يمر رجل من خلالها. لقد ضاع أحد الخيارات. لم يكن هناك شيء داخل الجدران الحجرية العارية سوى طاولة صغيرة عليها إبريق نبيذ نحاسي وكوب، وسرير منخفض ضيق. كان ألكسندر، لا يزال يرتدي ثوبه الأبيض المطرز، ممددًا كجثة ملكية، ويداه ممدودتان إلى جانبيه. كانت عيناه الخاويتان مفتوحتين وثابتين، كما لو أن أحدًا لم يقم بإغلاقهما عند وفاته، وتوقفت للحظة لأتأكد من أن نبض الحياة لا يزال يسري في عروقه.

فقط عندما تُمعن النظر ترى الأحزمة الجلدية التي تربطه بالسرير عند معصميه وكاحليه وصدره ورقبته.

فتشتُ كومة البياضات ومزقتُ الوسادة التي كنتُ أخفي فيها سيف الأمير القصير. قطعتُ قيوده الجلدية، ثم ملأتُ القدح بالنبيذ وجثوتُ بجانب السرير.

"يا صاحب السمو، هل تسمعني؟ أنا سيون. لقد جئت لأخذك بعيداً."

لم يتحرك، ولم يرمش حتى. أغمضت جفنيه ثم وجهت حواسي لأفحص التعاويذ التي قيدته. كان الأمر كما توقعت. كانت الشياطين واثقة جدًا. عدت بسرعة لأُسكت موسيقى الشياطين.

"يا سيدي، لقد ألقوا عليك تعويذة بسيطة فقط، وأعطوك جرعة منومة لتجعلك تشعر بالنعاس. تشعر وكأنك مشلول، لكنك لست كذلك. يمكنك إقناع جسدك بالحركة، لكن ذلك سيتطلب منك جهدًا كبيرًا. يجب أن ترغب في فعل ذلك." سكبتُ بضع قطرات من النبيذ على شفتيه. "تذوق النبيذ الذي أعطيتك إياه للتو، واشعر به. ركز ذهنك عليه. تخيله وهو يغمرك، ويطهرك من هذا السحر الخبيث، ويخفف جرعة النوم حتى لا يكون لها أي تأثير عليك." توسلت إليه، وأعطيته المزيد من النبيذ، وحاولت استحضار كل صورة ممكنة، لكن مرت عشر دقائق دون أي علامة على الحركة. بدأتُ في تغيير ملابسه

وأضع ملاءات الحرير تحته، خشية أن يطلّ أحدٌ برأسه ليرى كيف أتقدم. لم تُجدِ توسلاتي ومساومتي نفعًا. سرعان ما أيقنتُ أن الأمر يتعلق بالإرادة - أو بالأحرى بانعدامها. كنتُ بحاجة إلى أسلوبٍ أشدّ قسوة.

يا سيدي، أنت لم تقتل عمك. بالطبع لست بريئًا تمامًا. لقد طردته وتلاعبت به. كنتَ مهملاً وأحمق، لا تفكر إلا في راحتك ومتعتك كما تفعل دائمًا. لن تستطيع التخلص من هذا العبء أبدًا، ولا ينبغي لك ذلك. لكن الشياطين هم من أرادوا موته، وليس أنت. الشياطين هم من حرضوا عليه قطاع الطرق. إنهم يستمتعون بالقتل بالبرد، لأنهم يعانون منه أيضًا. تركوه يموت يا سيدي، ينزف ببطء ويتجمد، وإذا كنت ترغب في تصحيح هذا الخطأ الفادح، فلا تدعهم يستفيدون منه. كان قتل اللورد ديمتري هو السبيل الوحيد لإقناع والدك بالسماح لهم بأخذك. نزعتُ عنه سترته المرصعة باللؤلؤ وألبسته قميصًا فضفاضًا بسيطًا من الكتان الناعم. بإمكانك الانتقال إن شئت. إن لم تفعل، سيأخذونك إلى خيليدار ويحولونك إلى شيطان. لن يكون جسدك ولا روحك ملكًا لك بعد الآن، وستضطر إلى الانزواء في زاوية مظلمة من عقلك ومشاهدة ما يحدث. ربما ترغب في ذلك، ظانًا أنه عقاب مناسب لذنوبك. لكن

ألا يمكنك تخمين ما يخطط له الشياطين لك؟ ستقتل والدك، وسيحكم الشيطان إمبراطوريتك ديرزي.

عجزت عن الكلام. إن لم يستطع أو لم يُرِد المشي، فسأضطر لحمله بطريقة ما. وبينما كنتُ أُلبسه سروال الركوب حتى خصره، كنتُ أُخطط لكيفية حصول دورجان على إحدى قوارير جيزيك الزرقاء لتنويم حراس الخليد. خفق قلبي بشدة عندما أمسكت يد باردة بذراعي.

"هذا كله خطأك، كما تعلم." بالكاد كان صوته الأجش أعلى من الهمس.

استدرتُ فجأةً لأرى عينيها العنبريتين المثقلتين مفتوحتين، رغم كآبتهما وخدرهما بفعل المخدرات والسحر والحزن. قلتُ: "لم أطلب منكِ أن تشتريني".

"لا. بالطبع لم تفعل." جلس منتصبًا وضغط بقبضتيه على جانبي رأسه. "يا إلهي، ما هذا الرعب الذي يملأ رأسي؟ إنه أشبه بكل موسيقيي العالم يعزفون معًا، وكلهم خارج النغم."

إنها موسيقى الشياطين... بصمة تعاويذهم. ستتلاشى... إذا أبعدناك عنهم. هناك اثنان منهم في الخارج

باب."

قدّمتُ له حذاء ركوب الخيل، فأدخل قدميه فيه. وما إن أغلقتُ الأبازيم حتى نهض من السرير، ممدداً أطرافه الطويلة. "تنحّوا جانباً. أستطيع مواجهة حارسين."

تحركت بسرعة لأقف بينه وبين الباب. "لا يا سيدي، لا يمكنك ذلك."

"لسانك يفلت منك." لا شيء يضاهي شرارة الغضب لحرق بقايا تعويذة النوم.

"فكر يا سيدي. إنهم سحرة، وليسوا من مشعوذين. لديهم سيطرة على عقلك قادرة على إرسالك فوراً إلى تحول مؤلم. لا تظن أنهم غير مستعدين لخروجك من هذه الغرفة."

إذن، كيف تتوقع مني أن أخرج؟ هل أتقلص إلى حجم خفاش وأطير من النافذة؟

أمسكتُ بالسيف الذي أحضرته، ومددته نحوه. "أعتقد أنه يجب عليك مفاجأتهم. لا يمكنهم التسبب في ما حدث بالفعل."

"أنت لا تمزح!"

«لا أرى سبيلاً آخر. سأسلمك هذه بكل سرور». أشرتُ إلى أساور معصمي والندبة على وجهي. «لكنك بالكاد تستطيع أن تُخفي هويتك الحقيقية. لا يمكنني تهريبك في وسادة. لقد كان من الصعب بما فيه الكفاية معرفة مكانك، لذا فقد شارفت نوبة الحراسة الخامسة على الانتهاء. ليس لدينا وقت لمؤامرات معقدة، ولا نجرؤ على إشراك أي شخص آخر. إنهم يخططون لأخذك عند الفجر».

"والدي لن يسمح بذلك."

"لقد أصدر حكمه بذلك. إنه يعلن جنونك، لأنه لا يستطيع أن يتقبلك كقاتل لأقاربك. ولن يوقف ذلك."

اتجه ألكسندر نحو النافذة ومرر أصابعه على القضبان. كان وجهه جامدًا كالحديد الذي لمسه. "إذن، سأنتظر حتى يخرجوني من هنا. سأفاجئهم في الطريق. يمكنكِ اللحاق بنا والمساعدة—"

لم يكن هناك وقت للمجادلة معه. قال: "إن قُبض عليّ وأنا أغادر هذا القصر، فسأُضرب ضربًا مبرحًا حتى يُسحق رأسي، وستُقطع قدمي بفأس. وإن تحديت الخليد، فسيجعلونك زنزانة ويحملونك في قفص حتى تصل إلى الخليد. لا تستهن بهم. اختر يا سيدي، فليس لدينا إلا لحظات."

"لكن عندما أتغير... سيسمعون ذلك." كان الاشمئزاز والرعب يسيطران عليه بشدة.

"سيتعين عليك التزام الصمت. سأكون معك يا سيدي. يمكنك تحمل ذلك. يجب عليك ذلك."

"آثوس، أنقذنا." كان هذا أقرب شيء إلى دعاء سمعته منه على الإطلاق.

"إذا كان يهتم بإمبراطوريته، فسيفعل. وإذا كان يرغب في الانتقام للورد ديمتري كما ينبغي، فسيفعل."

مدّ ألكسندر يده نحو السيف. "سيأتي يوم تشرح فيه سبب مساعدتك لي. لم تُقدّم لي إجابة شافية قط."

قلتُ بينما كان يأخذ السيف من يدي ويحدق فيه كأنه شيطان: "لدينا متسع من الوقت لكل هذا. علينا أن نتحدث عن أمور أخرى الآن. عليك أن تتذكر الطريق عبر القصر. أنت في البرج الغربي. يجب أن تصل إلى حديقة المطبخ دون أن تقتل أحدًا في طريقك، فقد يكون شخصًا تندم على قتله. هل تستطيع فعلها؟ سينطلق الإنذار خلال دقائق. سيطاردك جنودك بكل ما أوتوا من سلاح. سيغلقون أبواب القصر، لذا

عليك ألا تفزع. سيُجبرك الوحش على الذعر، لكن عليك السيطرة عليه. أينما هربت منهم، عد إلى حديقة المطبخ. سأكون هناك بأسرع ما يمكن. وإن لم أستطع، فسيكون دورجان يراقبك، مستعدًا لمساعدتك."

في لحظة واحدة، سُحبت الدفء من الغرفة. ألقى ألكسندر السيف على كومة الوسائد، وجلس بثقل على السرير، وانحنى على ركبتيه، ولف ذراعيه حول خصره. "بنات الليل..."

هل يمكنك تذكر كل ذلك؟

"نعم... البرج الغربي... حديقة المطبخ... لا داعي للذعر"

انقلب على جنبه، يكتم أنينه في الفراش الرقيق. تصبب العرق من كل مسام جلده، يتساقط من وجهه وعنقه، ويبلل قميصه على الفور. حتى مع اشتداد برودة غرفة البرج، كان جسده يشع حرارة كما لو كان الشمس في عالمه الصغير. "كوني هناك يا سيون."

سأكون هناك يا سيدي.

وبينما بدأ جذعه يتمدد ويتشوش، لف ذراعيه حول الفراش وكافح ليمنع نفسه من الصراخ.

"أنت المتحكم يا أمير ألكسندر. عقلك لم يغب..."

بعد خمس عشرة دقيقة طويلة، وقف السنجار أمامي، يصدر من حلقه هدير منخفض غاضب أجش وهو يمد أطرافه البنية.

أحسنت. والآن ننطلق. لا تدع الخليد يستفيقون من دهشتهم يا سيدي. اتجه نحو حديقة المطبخ. لا داعي للذعر. سأصرخ بعد لحظات، ويجب ألا تفزع. ستجري عبر القصر دون أن تقتل أحدًا، وستخرج وتجد مكانًا آمنًا. هل أنت مستعد؟

كان من الغريب بلا شك التحدث إلى وحش قادر على قتلي بضربة واحدة. مع ذلك، عندما فكرت في الأمر، لم يكن الأمر مختلفًا كثيرًا عن التحدث إلى ألكسندر في أي وقت آخر.

بدأتُ أطرق الباب بخوفٍ شديد. "أغيثوني! أيها الحراس، أرجوكم ساعدوني! أتوسل إليكم." أطلقتُ صرخةً مدويةً أفزعت الموتى.

أطلق وحش ألكسندر صرخة غضبٍ مدوية، كأنها صرخات امرأة تحتضر. لم يكن الأمر تمثيلاً محضاً حين طرقتُ على الخشب السميك. عندما فُتح الباب، قفزتُ جانباً، فانطلق القط البري إلى الخارج عبر المدخل. أُتيحت لأحد خليد لحظةٌ ليصرخ قبل أن يُقذف

على جدار البرج المنحني. أما الآخر، فقد ضُرب حتى فقد وعيه بمخالبه الضخمة. واختفى وميضٌ ذهبيٌّ أسفل الدرج المنحني.

انتزعتُ السيف وألقيتُ به من نافذة البرج. لا سبيلَ أضمنَ لقتلي وأنا خارجٌ من أن يراني أحدٌ أحملُ سلاحًا. مع أنني كنتُ على الأرجح سأموتُ قريبًا. لن يطول بهم الوقت ليعرفوا أيّ عبدٍ جاءَ لنجدةِ ألكسندر. ربما كان عليّ الاحتفاظُ بالسيف، فكّرتُ وأنا أتسلّلُ خارجًا من الباب. سيكونُ ذلك أسرعَ وأقلَّ إيلامًا في المجمل.

لم يقتل الأمير أيًا من الخليديين. وهذا أمر جيد. لكانت شياطينهم الكامنة قد انطلقت واستقرت في شخص آخر. شخص لا نعرفه.

انزلقتُ بسرعةٍ على درج البرج. دوّى الإنذار في أرجاء القصر، كالنار المشتعلة على أثر زيت المصباح المسكوب. همستُ وأنا أركض كالفأر عبر متاهة الممرات الخلفية في أرجاء القصر الصيفي الشاسع: "اركض يا ألكسندر". عندما وصلتُ إلى فناء المطبخ، كانت المشاعل تشتعل في جميع أنحاء القصر. دوّت صيحات الرعب والدهشة من كل حدبٍ وصوب.

"ما كان ذلك؟"

سمعتُ أنه جاء من الجناح الغربي.

"كيف دخل إلى الداخل؟ هل كان هناك أي نوع من الترفيه مُخطط له؟"

"هناك ثلاثة حراس ساقطين. ظن دراك أنه حصل على فرصة، لكن الأمور لم تهدأ."

"الوحش يتجه نحو المتنزه الشمالي. توخوا الحذر في تلك الغابة."

تسللتُ على أطراف فناء المطبخ، خلف صناديق القمامة، وبين أكوام الحطب وبراميل الرماد، مختبئًا في الزوايا والشقوق كلما سمعتُ صوت خطوة. ركضت مجموعتان من الرجال المسلحين عبر الفناء وهم يلوحون بسيوفهم وأقواسهم، لكن سرعان ما خيّم الصمت على المكان المظلم. عندما وصلتُ إلى الزقاق المؤدي من الفناء مرورًا بورشة النجار، وورشة البناء، وورش القصر الأخرى ومخازنه باتجاه حديقة المطبخ، كنتُ متأكدًا من أن الطريق آمن. ولكن ما إن خرجتُ من خلف عربة ذات عجلات مكسورة، حتى شعرتُ بسوطٍ يمزق اللحم على كتفي، وذيله اللاذع يشقّ خدي الأيمن. تعثرتُ على حجارة الزقاق المكسورة وسقطتُ على ركبتي.

سأل بوريش: "إلى أين أنت ذاهب بهذه السرعة أيها العبد؟"

هممتُ بالنهوض، لكن السوط ارتطم بالرصيف المبلل، متسبباً في تناثر شظايا صخرية تناثرت على جنبي ودخلت في عيني. بقيتُ جاثياً على ركبتي، منحنياً إلى الأمام.

"حسنًا، حسنًا، إنه إزاريان المتسلل الذي لا يعرف حدوده." أمسك كبير الخدم القصير بخصلة من شعري القصير وجذب رأسي للخلف. "حان الوقت لتتعلم. لن يكون للأمير المجنون أي رأي في مستقبلك، لذا عليك أن تتخلى عن طموحاتك... بدءًا من الآن." بصق في وجهي، وغرز مقبض سوطه في بطني، ودفعني للأمام. "وجهك للأسفل، أيها الحقير."

أجبرت نفسي على الاستسلام. لم يحن الوقت بعد لاتخاذ الخطوة التي لا رجعة فيها. ضغط بحذائه على مؤخرة عنقي، فارتطم وجهي بحصى الرصيف الباردة الرطبة، واستعددت للضرب. أريد أن أنتهي من هذا. لكنني شعرت بحركة خفيفة في ظهري وسمعت زفيرًا مكتومًا، تمامًا عندما رُفع الثقل عن عنقي. تدحرجت بسرعة إلى الجانب، في الوقت المناسب تمامًا لأرى دورجان يسحب سكينه من ظهر بوريش. وهكذا، اتُخذت الخطوة نيابةً عني.

"اذهب بعيدًا." مسح النصل على سروال مساعد رئيس الخدم. "سأتولى أمر هذه الحثالة."

نهضتُ على قدميّ، ومسحتُ الوحل القذر عن وجهي، وانحنيتُ. "شكرًا لك يا سيد دورجان." ثم بدأتُ السير في الممر مرة أخرى.

"إزاريان!"

توقفتُ ونظرتُ، وفي الوقت المناسب تمامًا التقطتُ قطعة قماش. كان رداء بوريش. انحنيتُ مرة أخرى، هذه المرة انحناءة أعمق، وركضتُ نحو الحدائق.

كانت حديقة المطبخ المظلمة صامتة كالمقبرة بعد الطاعون. لم أستطع تحديد أين ذهب الصيادون. كان نصف القصر مضاءً، وسمعتُ صرخاتٍ وصيحاتٍ من أماكنَ أكثر بكثيرٍ مما يمكن أن يكون ألكسندر موجودًا فيها. بدا الأمر كما لو أنه خرج إلى الخارج، على الأقل.

لم أستطع اللحاق به. لو كان أكثر اتزانًا، لأتى. وإلا، لم أكن أرغب في الاقتراب منه على أي حال. لكن الانتظار كان صعبًا للغاية. سمعت مرتين وقع أقدام تجري وصيحات قريبة، فانحنيت في زاوية الحديقة وسحبت كومة من الشباك البالية فوقي. مرت ساعة أخرى. إن لم يأتِ قريبًا ويغير ملابسه مجددًا، فلن يجد غطاء الليل ليهرب. كانت "نوباته"

تستمر ما بين ساعتين وأربع ساعات في كل مرة. لو طالت المدة، لوصلنا إلى الفجر.

مرّت ساعة أخرى حتى سمعتُ هديرًا خافتًا ينذر بالسوء من الجانب الآخر من الحديقة، فأخبرني بوصول ألكسندر. أطللتُ من مخبئي فرأيتُ ذلك الشكل المظلم يتسلل عبر الحديقة المضاءة بالنجوم، ويتوقف بين الحين والآخر ليستنشق عبير الريح. خرجتُ وناديتُ بهدوء: "سيدي".

انطلقت القطة ذات العيون العنبرية عبر الأرض الميتة ودارت حولي، كما لو كانت تتأكد من هويتي.

"هل أنت بخير؟" سألتُ وأنا أجلس في قاع عربة يدوية محطمة. تسلل نحوي واستقر على الأرض. "لقد أحدثتَ ضجة كبيرة." قلتُ كلامًا فارغًا، وأنا أخشى أن يبدأ ظلام منتصف الليل بالانحسار. ولكن لم يمضِ نصف ساعة حتى بدأ يتحول. حتى وهو يتحول من وحش إلى إنسان، كان صامتًا هذه المرة، يكتم أنينه في حلقه حتى لا يسمعه أي حارس قلق في ساحة القصر. "هيا،" قلتُ وأنا أُلف عباءة بوريش حوله حالما اكتمل التحول. ساعدته على الوقوف وقُدته، وهو يرتجف بائسًا كما كان من قبل، نحو البستان خلف المغسلة. كنتُ أثق أن دورجان قد أنجز ما طلبته. "حان الوقت لتغادر كافارنا لبعض الوقت."

قال وهو يهز رأسه ويكافح لينطق بكلمات وسط ارتعاش أسنانه وبقايا الحيرة والذهول: "لن أهرب. سأذهب إلى والدي..."

"وما الذي سيجعله يستمع إليك؟ لقد أخبرته أنك قتلت أخاه - وهي كذبة يصدقها. لقد أخبرته أن الخليديين شياطين وأنهم حولوك إلى وحش - وهي حقيقة ينكرها. فلماذا سيصدقك الآن؟"

"سأكون هادئاً هذه المرة. سأشرح له أمر ديمتري. سأريه. سألمس سيفاً وأتركه يشاهد."

"وإذا كان اللورد كاستافان موجودًا، فلن أستطيع مساعدتك؛ سيرى على الفور ما أفعله. إذا لم تستطع السيطرة على الوحش - ومع وجود شيطان يراقب، سيكون ذلك مرجحًا جدًا - فقد ينتهي بك الأمر بقتل والدك. هل هذا ما تريده؟"

ظننتُ أن وجهه لا يمكن أن يزداد شحوباً. "لا أستطيع الهرب. أنا محارب ديرزي. أنا وريث الإمبراطورية."

"لن يسمحوا لك بالتتويج حتى تصبح ملكًا لهم. يجب أن تتخلص من هذا السحر وإلا ستصبح إمبراطورًا شيطانيًا."

لم يكن لديه جواب.

تسللنا إلى البستان الصغير الكثيف، وهو عبارة عن مجموعة صغيرة من أشجار الألدر الجرداء التي نمت حيث كانت المياه المتسخة من المغسلة تتدفق إلى أسفل التل وتتجمع في منخفض ضحل. هناك، كان يقف موسى، حصان الأمير، يلتهم كومة من التبن بشهية. ثلاث حقائب ظهر ممتلئة معلقة على ظهره، وحقيبة قماشية كبيرة معلقة على غصن سميك. أنزلت الحقيبة وساعدت الأمير على ارتداء ملابسه الجافة: قميص سميك، وسروال متين، وعباءة ثقيلة جيدة بدلاً من عباءة بوريش الرقيقة.

حان الوقت. شددتُ العزم وتمنيتُ لو كنتُ أؤمن بإلهٍ أستغفره على الخيانة التي كنتُ على وشك ارتكابها. "يا صاحب السمو، المقابل الوحيد الذي أطلبه منك مقابل ما فعلته هذه الليلة هو ألا تُسيء استخدام ما سأخبرك به. هناك من يستطيع مساعدتك... لكنهم من أولئك الذين يُلزمهم قانون ديرزي بالأسر. يجب أن أحصل على وعدك بأنك لن تفعل ذلك."

"هل يجب أن تأخذ كلمتي؟ كيف تجرؤ على المساومة معي؟" حتى بعد كل شيء، استاء من جرأتي.

"سيدي، لن أقول شيئاً آخر حتى أحصل على كلمتك. يمكنك أن تفعل بي ما تشاء - كما هو الحال دائماً." مددت ذراعي بشكل مستقيم إلى الجانبين، ولم أحوّل نظري.

هذه المرة كان ألكسندر هو من خفض عينيه. "بالطبع هذا وعد مني."

«في السوق المركزي لكافارنا يوجد تمثال برونزي لمحارب يحتضر بعد أن قتل للتو وحشًا أسطوريًا - وحشًا مجنحًا». أغمضت عينيّ وحاولت جاهدًا تجاهل النغمة المتكررة لموت لير. «هل تعرفه؟»

"أفعل."

اذهب إلى هناك. صفِّ ذهنك من كل ما يشتت انتباهك، والمس الوحش. سيظهر الطريق في ذهنك، كخريطة. اتبع الاتجاه الذي يرشدك إليه، وستجد من يقابلك ويأخذك إلى وجهتك. لن يعجبهم أمرك. لن يعجبهم أنك - أيها الدرزي - قد عرفت الطريق. لكن عليك أن تخبرهم أنك مسحور بالفيدشار، وأنك أتيت تطلب مساعدتهم. إنهم بحاجة لمعرفة كل شيء عن الشياطين، عن الخليد. وأخبرهم أنك قد أُخبرت أنك تحمل الفيدناخ. لن يرفضوك.

"لا أستطيع تذكر كل ذلك. يمكنكِ إخبارهم بكلماتكِ السحرية بنفسكِ."

"لن أكون هناك."

"لكن بالطبع ستفعل. إن لم يكن إلى قومك، فأين... يا إلهي، ألا تفكر بالبقاء هنا؟ أنت ملطخ بالدماء بالفعل - أراهن على ذلك، ثمن مغامرة هذه الليلة. ستموت بعد ساعة من رحيلي. هذا إن كنت محظوظًا."

تباً لعنة قلبه العنيد. قلتُ: "سأُعرّضك لخطرٍ أكبر. سيُدخل اختفاء عبدٍ من إزاريا نقابة السحرة في البحث. على الرغم من ضآلة مهاراتهم، إلا أن عددهم كبير، وهم صيادون ماهرون. لن يستطيع والدك والخليد إثارة ضجة كبيرة للبحث عنك. كيف سيبررون ذلك؟ أما أنا..."

هدّأ ألكسندر موسى المضطرب بيده الرقيقة، وحدّق بي حتى خفت صوتي. قال أخيرًا: "ربما تكون أسوأ كاذب قابلته في حياتي. لا داعي حتى للمحاولة. عيناك لا تهدأان. جلدك يصفر كأنك أكلت سمًا. جفونك ترتجف. الآن ابدأ من جديد وقل لي الحقيقة وإلا فلن أتحرك خطوة واحدة من هذا القصر، فلتذهب الشياطين إلى الجحيم. لماذا لا تأخذني إلى قومك؟"

لففت يديّ حول ذراعيّ العاريتين المتعرقتين، وحدّقت في الأرض. "لا أستطيع. أو بالأحرى، أستطيع، لكن ذلك لن يفيدنا بشيء. سيتجاهلونني وكأنني غير موجود. لن يسمعوا كلمةً مما أنطق به، وإن خرجت كلماتي من فمك، فلن يسمعوك أنت أيضًا. بإمكاني ضرب أحدهم، ولن يرف له جفن. منذ اليوم الذي أُخذت فيه."

أسيراً، لقد كنت ميتاً بالنسبة لهم - فاسداً بشكل لا يمكن إصلاحه، فاسداً بشكل لا يوصف. لا يمكنني العودة أبداً.

لعلّ لحظة نطقي بتلك الكلمات كانت أحلك لحظات حياتي. مهما كررتها في ذهني، لم أنطقها بصوت عالٍ قط. جعلها النطق حقيقةً واقعة، كما يُجسّد شاهد القبر حقيقةً يائسةً لا تستطيع الأجساد الهامدة، التي لا تزال تحمل ملامح الحياة، تأكيدها.

"فاسدون؟ أنتم؟ هل هؤلاء الأوغاد عميان وصم أم أنكم جميعاً مصابون بمرض التزمت؟"

"هذا قانوننا. وهناك أسباب وجيهة."

وضع ألكسندر يده تحت ذقني وأجبرني على النظر إليه. حتى في الظلام، كانت عيناه تشتعلان. "هل لديكِ أدنى فكرة عما فعلتِ بي يا سيون؟ لا أستطيع حتى قضاء حاجتي دون أن تراقبيني، تجبريني على النظر من خلال عينيكِ إلى ما أفعله، تحكمين على غضبي السخيف، وتتحدينني أن أكون أفضل مما أنا عليه. خمسون مرة كدتُ أطعنكِ بسكين، لأنني لم أستطع أن أجعلكِ لا تحسدينني ولا تخافي مني، ولم

أستطع فهم ذلك. كنتِ مجرد عبدة. والآن ستسمحين لأبي أن يشق بطنكِ ويعلقكِ من أحشائكِ لأن بعض الحمقى يقولون إنكِ لستِ جيدة بما يكفي للتحدث معهم؟"

"يا سيدي—"

«لا يمكن للفساد أن يُجبر المرء على سلوك دروبٍ لا يرغب بها، أو أن يجعله يرى في نفسه، مهما صغر حجمه، جوانبَ جديرةً بالشرف الحقيقي - لا هذا التباهي والثرثرة التي نُطلقها على اسم الشرف. إن كنتَ أنتَ الفساد، فأنا إذًا واحدٌ من هؤلاء الأوغاد الذين يلتهمون الأرواح، والأفضل لي أن أبقى هنا وأشاهد موتك». وضع إحدى قدميه في ركاب موسى، ورفع ساقه فوق السرج، ومدّ يده. «لكن لا أحد منا كما يدّعي الآخرون. إن لم أستطع أن أخشى خوض حربي، فسأبقى شيطانًا زانيًا إلى الأبد قبل أن أدعك تختبئ من حربك هذه».

لقد تصالحتُ مع القدر، واستسلمتُ لحياةٍ وحيدةٍ في الأسر حتى تُكمل الطبيعة ما بدأه الدرزي. والآن، يطلب مني ألكسندر أن أخوض المعركة من جديد... وما يصاحبها من حزنٍ وألمٍ عظيمين. على الأرجح لن نصل حتى إلى الوحش، ناهيك عن نقطة اللقاء. على الأرجح سأكون ميتًا، وسيرحل ألكسندر إلى خيليدار قبل أن أرى أي إزاري يبتعد عني. قبل أن أراها.

حولت حواسي فوجدت أن الغضب لا يزال مشتعلاً بداخله؛ ثم تنهدت، وانتزعت عباءة بوريش من الأرض، وأمسكت بيد الأمير.

الفصل التاسع عشر

صرخ ألكسندر: "رسالة عاجلة للسيد جوباي!"، ولم يُبطئ من سرعة موسى ولو للحظة، بينما كنا نركض عبر الفناء الأخير نحو بوابات القصر المغلقة بإحكام. أخفيتُ

عيناي مثبتتان على ظهره، وقررتُ أنني أفضل ألا أعرف في أي لحظة سيُسحق رجلان يمتطيان حصان حرب من سلالة ديرزي على عوارض البلوط العتيقة التي يبلغ عمرها مئتي عام. لكن الاصطدام لم يحدث، ورائحة الزيت المحترق ولمحة ضوء الشعلة من وراء عباءة الأمير

أخبرتني أننا انتهينا. ضحك ألكسندر وصاح من فوق كتفه بينما كنا نندفع في الممر، "لا تردد. ديمتري علمني ذلك."

لم أُجب. كنتُ أحاول استعادة توازني قبل أن أُدرك المسافة الشاسعة التي تفصلني عن الأرض. لم يُخفف احتمالُ إصابةٍ بسهمٍ في ظهري أو اصطدامي ببواباتٍ مُغلقة من صعوبة البقاء على صهوة الجواد الجامح. كنتُ فارسًا ماهرًا في شبابي، لكن على خيولٍ أصغر حجمًا وأقل شراسة. لم يكن لديّ مكانٌ أضع فيه قدميّ، وكثرت مخاوفي بشأن الإمساك بألكسندر بإحكامٍ كما أُريد، بالإضافة إلى مشكلةٍ مُريعةٍ تتمثل في أنني كنتُ أرتدي ملابس غير مُناسبةٍ للركوب. لم يكن العبيد يُعطون ملابس داخلية. لم يكن لديّ سوى بضع طياتٍ خشنةٍ من عباءة بوريش عالقةٍ بين جلدي العاري والسرج، وقد بدأتُ أشعرُ بالحكة بعد خمس دقائق فقط من الركوب. لم أستطع الإمساك بالحصان بإحكام، وشعرتُ أن أي رجةٍ ستُطيّرني أرضًا.

انطلقنا مسرعين عبر الجسر إلى المدينة، نتفادى العربات المهجورة وأكشاك السوق المغلقة، ونركض بسرعة محفوفة بالمخاطر عبر الأزقة الضيقة وحول المنعطفات الحادة حتى وصلنا إلى سوق كفرنا الكبير. كانت رايات الاحتفال تتدلى بلا حراك في الهواء البارد الرطب، وكانت المساحة الواسعة من الرصيف مليئة ببقايا وليمة الدكرة التي أقامها أهل البلدة، والتي قُطعت قبل أن تبدأ فعليًا. عُلقت ستائر الحداد المخيطة على عجل فوق كل مدخل، بينما كانت شخصيات غامضة تتجول باحثة عن بقايا الطعام أو القماش، أو

سحب طاولات وأكواخ الألواح الخشبية المنهارة لإحراقها من أجل تدفئة الليل.

كبح ألكسندر جماح جواده بجانب النصب البرونزي الشاهق الذي يجسد نصرًا ممزوجًا بالحزن والفرح. سقط المحارب البرونزي هامدًا بجانب الوحش الأسطوري الذي قتله، وسيفه على وشك الانزلاق من يده الرشيقة. كان وجه المحارب صورةً نموذجيةً لديرزي. كان بإمكان ألكسندر أن يجلس أمامه.

قال الأمير وهو يمد يده: "هيا بنا؟". تمكنت من النزول دون مساعدة، لكن ارتعاش ركبتي عند الهبوط وما تبعه من تعابير وجهي وأنا أمدد منطقة أسفل ظهري جعله يتوقف للحظة. قال: "كنت أظن أن العبد سيكتسب جلدًا أكثر سمكًا".

اهتزت الأرض تحت قدميّ بشكلٍ ينذر بالسوء، وتوهجت السماء ليلاً من جهة القصر كما لو كان قمرٌ ثانٍ يكتمل نموه في الشمال. "ليس لدينا

سوى لحظات يا صاحب السمو. يجب أن نغادر من هنا قبل أن يرى أحدٌ ما نحن بصدده."

"حسنًا، اذهب وافعل ذلك إذًا."

«سيكون من الأفضل أن تفعل ذلك يا سيدي. أنت تعرف هذه الأرض جيدًا، وستفهم الخريطة». لم أجرؤ على استخدام التعويذة معًا، فلم يكن لديّ أي فكرة عن حدودها أو تعاويذها. وبالطبع، إذا حدث لي مكروه، كان على ألكسندر أن يعرف إلى أين يذهب. لم أكن مقتنعًا بعدُ باحتمالية دخولي مستوطنة إزارية، وإلا لما استطعت المواصلة. «فقط صفِّ ذهنك، المس الوحش، وقل "درين هافر". تعني "أرني الطريق".»

استطعت سماع صيحات الباحثين وأصوات الخيول الآن، لا مجرد الشعور بها. كان ألكسندر يسمعها أيضاً، لأنه لم يجادل. ركض نحو التمثال، وتسلق بسرعة الكتلة الحجرية التي كان يستند عليها، ووضع يده على ذيل الوحش.

قال: "لا أرى شيئاً، ولا أشعر به، ولا أعرفه، ولا أي شيء آخر يُفترض بي أن أفعله".

كان لا بدّ أن يكون هناك. أراد لير أن أعرف كيف أجد الإزاريين. عندما أراد الإزاريون إخفاء مكان ما، كانوا يُضمّنون الاتجاه في تعويذة خريطة. على الأرجح، لم يكن يعرف الطريق إلى ملجئهم سوى عدد قليل من شعبهم. كان الطريق مُقنّعًا، مخفيًا تحت طبقات من التعاويذ، حتى لا يتمكن من يُرسلون إلى العالم من إرشاد الآخرين إلى البقية.

قال لير إن الوحش المتحول سيقود الطريق. كان هذا هو الوحش المتحول الوحيد الذي أعرفه خارج المخطوطات والقصص، مع أنني رأيت أشياءً في عالم الشياطين...

...هطل المطر الخفيف كدموع الحزن، يغسل دم الوحش الأرجواني الذي قتلته. تصاعدت خيوط البخار من السكين الفضية التي انتزعتها من عنقه الجلدي. خطوت على ظهره ونظرت إلى الأعلى، تاركًا المطر يبرد وجهي، يغسل عرق الوحش ودمه وبصاقه الكريه. وبينما كنت أراقب، انقشعت الغيوم، كاشفةً عن نجوم ساطعة في نمط لا مثيل له في عوالم البشر. شعرت بنسيم عليل، وتذوقت شكله وقوته، وقدرته. سيحملني إلى البوابة بسهولة. كنت متعبًا، لكن الأمور سارت على ما يرام، وقريبًا سأكون بين ذراعيها...

يا إلهي، لماذا لم أستطع إبقاء الأمر مدفونًا؟ كان ألكسندر واقفًا على الحجر، ينتظر. كان الصبي يحتضر. ماذا لو أسأت فهمه؟ قلتُ له

بقسوة: "صفِّ ذهنك وانطق بالكلمات. 'درين هافر'. دع الصورة تتجلى. لا تحاول السيطرة عليها. لم يكونوا ليتركوها بهذه البساطة."

انحنى ألكسندر نحو الوحش مجدداً وصمت للحظة. لحظة بدت كأنها دهر. لم يكن مطاردونا إلا على بُعد شارع واحد. أما اللصوص فقد فروا بالفعل إلى الأزقة المظلمة.

"يا لقرون دروبا!" رفع ألكسندر يده في الهواء كما لو أن الوحش البرونزي قد لدغه. قهقه بصوت عالٍ، ثم قفز من الكتلة الحجرية مباشرة إلى سرج موسى. شعرتُ بألم في مؤخرتي وأنا أشاهده، لكن ليس بقدر ما شعرتُ به عندما سحبني خلفه مرة أخرى وركل الحصان المطيع ليعيد إليه الحياة.

"رائع!" صاح بينما استدرنا وانطلقنا خارج البوابة الجنوبية للسوق، بالتزامن مع دخول المطاردة المضاءة بالمشاعل من الشمال. كدت أسمع صرير دروعهم الجلدية. ركضنا بجنون عبر الأزقة الهادئة. لم أستطع تخيل كيف استطاع ألكسندر رؤية وجهتنا، فالمباني بدت ضبابية أمامه. ربما لم يرَ. ربما كان السبب هو الحصان. لكن في كل مرة ظننت فيها أننا خرجنا من المدينة إلى الريف، كان ألكسندر ينعطف منعطفًا آخر، فنجد أنفسنا في عمق المدينة القديمة. كنت متأكدًا أننا تائهون.

ظننت أن مخاوفي قد تأكدت عندما أوقف الأمير موسى في زقاق مظلم وضيق بالقرب من النهر. كانت تفوح منه رائحة الخنازير والأسماك الميتة والملفوف المتعفن.

انسكب ضوء أصفر باهت في الممر عبر نوافذ حانة متسخة بالدخان.

لقد أخطأ. لن تقودنا تعويذة الخريطة إلى الإزاريين أنفسهم، بل إلى مكان اجتماع حيث سنصطحب دليلًا. لكن الإزاريين لن يستخدموا أبدًا وكرًا كهذا من القذارة والإسراف والنجاسة. علاوة على ذلك، كان يقع في قلب المدينة. مكان مكشوف للغاية. كان عليّ أن أتخيل الخريطة بنفسي من تعويذة الوحش. "يا سيدي، لا يمكن أن يكون هذا هو المكان—"

"ليس كذلك، لكننا بحاجة للتوقف هنا على أي حال. هيا بنا."

خرج رجل مترنحًا من الباب وتبوّل في الزقاق، ثم سقط في بركة بوله. تخطى ألكسندر الرجل ودفع باب الحانة. تضايقتُ من عناد ديرزي، فتبعته في حيرة، متسائلًا إن كان قد قرر أنه لا يستطيع الاستمرار دون شراب أو امرأة.

كان الهواء داخل الكوخ المظلم مليئًا بالدخان، تفوح منه رائحة الشحم المحروق والجعة الحامضة. كان الرجال الثمانية أو العشرة الرثّون والنساء المهملات يجلسون مترهلين على المقاعد في أرجاء الغرفة، يحدقون بنا بفضول. لم يكن هذا المكان من النوع الذي يرتاده محارب من قبيلة ديرزي. كان صاحب المكان، الذي تميز عن الآخرين بيده الممسكة ببرميل الجعة الوحيد، لا يملك سوى سنّ واحد مصفرّ في فمه المفتوح، وكانت شفته مشقوقة منذ الولادة حتى أنفه. أومأ برأسه نحو مقعد فارغ لألكسندر، ثم سخر من قدميّ العاريتين والأربطة الفولاذية حول كاحليّ. لم يكن العبيد يرتادون الحانات عادةً.

لم يجلس ألكسندر، بل طاف في الغرفة، متفحصًا كل رجل بدقة حتى توقف خلف رجل نحيل طويل القامة كان وجهه مدفونًا في صدرية امرأة ممتلئة القوام ويده تحت تنورتها. قال: "هذا"، ثم لف ذراعه اليسرى حول عنق الرجل وسحبه خارج الباب. انهارت المرأة الرثة التي كانت تجلس على ركبة الرجل على الأرض وهي تطلق شتائم بذيئة، وبرز أحد ثدييها من صدرية ملابسها وتجمعت تنورتها حول خصرها.

صرخ ألكسندر في وجه رواد الحانة الفضوليين الذين احتشدوا عند الباب لمعرفة ما يجري: "لا يعجبني شكله!". لم يجرؤ أحد على الخروج والتدخل. شققت طريقي بينهم، وأنا في حيرة مثلهم. تُرى ما الذي يدور في ذهن ألكسندر؟ دوّت أصوات حوافر الخيول والصيحات في الشوارع المجاورة.

دفع الأمير ضحيته المفتونة إلى الحائط. "اخلع ملابسك، حتى حذائك." حدّق الرجل في ذهولٍ ودهشةٍ حتى أمسك ألكسندر أذنه وجذب وجهه المفتوح إلى مستوى وجهه. "قلتُ لك، اخلع ملابسك. أميرك بحاجة إليها. وأسرع في ذلك. إذا استغرقت أكثر من نصف دقيقة، فسأفقأ عينك اليسرى من رأسك كما أفقأ نواة الكرز." حرّك إبهامه وسبّابته أمام وجه الرجل. قبل أن يمرّ نصف دقيقة، ألقى ألكسندر عليّ كومة من الملابس والأحذية تفوح منها رائحة القطران والنبيذ والبول، وكان الرجل يركض عارياً في الشارع وهو يصرخ كأنّ جلاداً من ديرزي يطارده.

حسنًا، ارتديهما. لم أتكبد كل هذا العناء لأجعلك تحدق بي هكذا. ما لم تكن قد اكتسبت شجاعةً فائقة، فستكون سعيدًا بهما ولن تهتم بأنني لم أكن مهذبًا في شرائي لهما. ليس لدينا وقت لزيارة خياطي.

رفض ارتداء الملابس لن يعيدها إلى الرجل الذي تنتمي إليه. والحقيقة أن المطاردة الأخيرة لم تُشجعني على التفكير بتسامح. سيُدلل الأمير

ويُقتاد إلى حراسه الشياطين. أما أنا، فسأفقد إحدى قدميّ ونصف وجهي... إن حالفني الحظ.

في غضون دقيقة واحدة، كنت أرتدي أول حذاء وسروال قصير أرتديهما منذ ستة عشر عامًا، وكنا نندفع عبر الشوارع مرة أخرى، وتتطاير الشرر من حذاء موسى بينما كنا نتجه نحو البوابات الغربية.

يُقدّر الدرزي الحصان الأصيل فوق كل ممتلكاته، وقد صدقت توقعاتي بأن ألكسندر لن يقبل إلا بالأفضل. لم يقترب منا أي مطارد تلك الليلة. انطلقنا خارج المدينة وعبرنا قاع الوادي المفتوح باتجاه الجبال المكسوة بالغابات الكثيفة غربًا. حتى وهو يحملنا معًا، لم يتردد موسى لحظة. وعندما بدأ الظلام يخفّ حتى أصبح لونه كلون الحليب المخفف، ضاق الطريق ودخل بين الأشجار، فأبطأ الأمير من سرعة جواده حتى أصبح يمشي. جعلتني مشيته المتثاقلة أشعر بالنعاس...

...استمروا في القدوم، موجة تلو الأخرى. محارب ديرزي يقود إخوته الأربعة من الكادر، وخلفهم فرقة من جنود مانغانار المشاة ومرتزقة ثريد على الخيول، تتدلى تعاويذ عاجية فوق دروعهم المزخرفة. صرخة من خلفي. سقط فيروين، صديق والدي، وقد اخترق رمح ثريد بطنه. كانت ذراعي المنهكتين مغطاة بالدماء. ومع ذلك...

جاءت موجاتٌ لا تنتهي من الدماء والموت... كان عليّ الصمود حتى ينجو الآخرون. كنتُ حارسًا، أقسمتُ على حمايتهم...

"بنات الليل!" أيقظتني صيحة ألكسندر المفاجئة حين توقفنا فجأة. كان الأمير منحنياً إلى الأمام، يضغط رأسه بين يديه الممسكتين بعرف موسى. سرى قشعريرة في عمودي الفقري، أكثر مما يمكن تفسيره بقطرات الماء المتجمدة المتساقطة على رقبتي من الأغصان الكثيفة فوق رأسي.

قلتُ: "هل هو التغيير يا سيدي؟" وكنتُ على استعداد للنزول من على الحصان بدلاً من مشاركته مع شخصٍ أحمق.

"لا." استقام ألكسندر مرة أخرى وحث الحصان على المشي.

ما إن استقر موسى حتى استقررت أنا أيضاً. ثقل رأسي على ظهر ألكسندر. لم أستطع كبح جماح أحلامي...

...صبغ غروب الشمس السماء بلون أحمر قانٍ، وكأن الأرض لا تتسع لكل هذا الدم. استدرتُ بسرعة، وركلتُ السكين من يد شاب من ديرزي، وضربتُ مانغانار المبتسم، الذي كان يتسلل من جانبي، وكانت آخر أفكاره الدهشة من معرفتي بوجوده. على يساري، كان الأخوان جيارد وفين - وهما باحثان تم استدعاؤهما من دورياتهما - يقاتلان

ثمانية محاربين على الأقل. على يميني، كان الصمت يخيم على المكان - وبينما كنتُ أرمي الشاب الهامد على كومة الجثث خلفي وأهرع لمساعدة جيارد، كنتُ أُصغي باهتمام لسماع صوت التعزيزات. كان عشرة أو اثنا عشر من الإزاربين الآخرين يخوضون معركة مماثلة، وكان المزيد من ديرزي قادمين من الوادي الضيق... موجة أخرى... كيف عثروا علينا؟ كنا متأكدين من أن لا أحد يعرف هذا الطريق. كنا نأمل في مباغتة الجزء الأكبر من قواتهم قبل أن يتمكنوا من ذبح جناحنا الأيسر، ولكن قبل أن نتمكن من الخروج من الوادي الضحل، وقعنا في الفخ. شهق فين دهشةً عندما سقطت الذراع التي قتلت خمسين محاربًا من كتفه، مقطوعةً بفأس مانغانار. وعندما حرر السيف أحشاءه من بطنه، سقط ببطء على ذراعه كما لو كان يستعيدها. زأرتُ بجنون ورفعتُ سيفي مجددًا...

"...في الوقت الحالي، لكنهم سيحضرون جانكي بمجرد أن يتمكنوا من جعله يفيق من سكره."

لم أكن أعرف إلى أين وصل الجزء الأول من المحادثة. "جانكي؟" كان لساني ثقيلاً من النوم.

"أفضل متتبع في كافارنا. كما قلت، لهذا السبب اتجهت غربًا بينما كان من المفترض أن نتجه شمالًا. سيجد صعوبة أكبر في تتبعنا هنا. لقد تركت له ستة مسارات مضللة. سيقضي على كلابه في وجبة الإفطار."

كلاب صيد. متتبعون. ما الذي كنت أفكر فيه لأقود الديرزي إلى فلول شعبي المدمر؟ "يا سيدي، لا يمكننا—"

كان يعلم تماماً ما يدور في ذهني. "أنا أعرف ما أفعله. لن يتمكنوا من اللحاق بنا. حتى جانكي. عد إلى النوم."

"لم أكن—"

"هل تجادلني؟ لمجرد أنني أعطيتك حذاءً، تظن أنه يمكنك قول ما يحلو لك؟"

"لا. بالطبع لا." واصلنا الركوب وفقدت إحساسي باليوم مرة أخرى.

كانت الظلال متجهة في اتجاه مختلف تمامًا عندما توقفنا وسقطتُ عن الحصان. حسنًا، لم أسقط تمامًا. لقد سحبني ألكسندر. لكنه كان نفس الشعور المؤلم، وكنتُ... كنتُ غارقًا في ذلك العالم الآخر.

"هو، سيون. كل شيء على ما يرام." أمسك بيدٍ متأرجحة بقبضته الثابتة، لكنني انتزعتها منه، واستدرت بسرعة، وصوّبتُ نحو رقبته

بجانب يدي الأخرى، ونحو بطنه بركبتي. لولا ردود فعله المذهلة وقلة خبرتي لما تمكنت من كسر رقبته.

"ما هذا بحق أثوس...؟" كانت عيناه واسعتين، وعندما هدأ الرعد في دمي بما يكفي لأدرك ما فعلته - وما كدت أفعله - شعرت بالرعب.

"سامحني يا سيدي. كنت أحلم..." بالكاد استطعت الكلام لأن الظلال التي تزاحمت فوق بعضها البعض حاولت الهروب من رأسي قبل أن أتمكن من الإمساك بها وتذكر الرؤية الباهتة.

"أحلم؟ لم أرَ ثلاثة رجال يمكنهم التحرك بهذه السرعة وبهذه... الخطورة... وهم مستيقظون تمامًا." نظر إلى يديّ اللتين كانتا متشابكتين في يديه، ثم أطلقهما وحوّل نظره إلى وجهي.

قلتُ وأنا أشدّ عباءتي حولي لأتقي برد الريح الذي لم يكن باردًا كبرودة روحي: "لحسن الحظ، كنتَ أنتَ أحدهم. لقد سمعتُ أن الناس يستطيعون فعل أشياء مذهلة أثناء نومهم لا يمكنهم فعلها في الواقع..."

رفع ألكسندر يده وأغمض عينيه. "لا تفعل. لقد أخبرتك، لن أسمع المزيد من أكاذيبك البائسة. أفضل ألا تقول شيئًا على الإطلاق."

"كما تشاء يا سيدي." توقفنا في فسحة صغيرة بعيدة عن الطريق. تسلقتُ كومة من الصخور بجانب الممر، ونظرتُ إلى وادٍ جبلي شاهق لا يزال يكتنفه برد الشتاء القارس. حطم الصقيع غصنًا في مكان ما بين الأشجار، وشقّ صراخ صقر يصطاد الهواء البارد.

"ما أتمناه هو أن أعرف من أنتِ يا سيون. عبدةٌ مُحتجزةٌ منذ ستة عشر عامًا تتحرك كالمحارب الليدوني... هل كنتِ في خدمة أحدهم، أم شخصًا درس طقوسهم؟ لقد راقبتِهم، أليس كذلك؟ سمح لكِ أحدهم بالرؤية، أو تجسستِ عليه وتعلمتِ منه."

"لا يا سيدي. لا أحد مسؤول عن تعليم عبدٍ ما هو محظور." كانت جماعة ليدوني طائفة سرية من ديرزي مزجت الدين بفن القتال اليدوي.

"لقد أفلتّ مني قبضتك كما لو كنت طفلة في الخامسة من عمرها. سأعرف كيف تعلمت ذلك. إذا كنت تعرف هذا من قبل... كيف بحق آثوس تم أسرك؟"

كان طعم الموت يملأ فمي. كان كل شيء قريبًا جدًا. "أرجوك يا سيدي، ليس الآن. سأخبرك يومًا ما إن أصررت، ولكن ليس الآن." حاولتُ إخفاء اضطراب اللحظة عن صوتي، ذلك الرعب الغامض الذي كان

يخنقني ويجعل قلبي يخفق بشدة في أحلامي. لقد خسرتُ تلك المعركة منذ زمن. لا يوجد سبب لعودتها إلى الحياة لمجرد أنني سأرى الإزاريين. الموتى أموات. الأحياء... نجوا. "هل هذا هو المكان الذي أُريتَ إليه؟"

قال الأمير، وقد اشتعلت وجنتاه وعيناه: "تباً لك، ما أشد عنادك! أنت تستنزف صبري، وهو قليلٌ أصلاً. لو لم أكن نائماً على قدميّ، لكانت بيننا مشادة كلامية الآن. بعد ما رأيته..."

"لم ترَ سوى بقايا حلم يا سيدي. أرجوك أخبرني إن كان هذا هو المكان."

"لا، ليس بعد." وضع يديه على سرج موسى واتكأ عليه بتعب. "وهذا أفضل. لن أكون مستيقظًا لأستقبل أحدًا."

قلتُ وأنا أنفضُ عني الظلال المتبقية: "نحتاج إلى نار". كانت الشمس تميل نحو الغروب فوق الجبال. لا بد أن أسابيع قد مرت منذ أن نمتُ أكثر من ثلاث ساعات في ليلة غروب الشمس. كان الأمير لا يزال يحدق في السرج، وخطر لي أن هناك أمورًا كثيرة لم يضطر إلى القيام بها بنفسه قط. "يمكنني الاعتناء بالحصان، حتى تتمكن من النوم".

شخر ألكسندر بضيق وهو ينهض ويبدأ بفكّ أحزمة السرج. "لا داعي للخوف. لم يسمح لي ديمتري بوجود خدم عندما كنت أتدرب. أستطيع رعاية موسى، وارتداء حذائي بنفسي، بل وحتى طهي أرنب شهي إن وُجد في مثل هذا البرد القارس."

قلت: "يجب أن يكون هناك ما يكفي من المؤن في حقائب السرج لبضعة أيام".

"حسنًا. لا أستطيع القول إنني أرغب بالذهاب للصيد الآن. في الواقع، ربما من الأفضل أن تقوم أنت بهذا الجزء نيابةً عني." أومأ برأسه نحو الغمد الجلدي الطويل المربوط بسرجِه. أزلتُ السيف والحقائب الثلاث، ووضع ألكسندر السرج على الأرض. أخذ قطعة القماش ومسح بها الحصان البني الجميل، متحدثًا إليه بنبرة أخوية لم أسمعه من قبل يخاطب بها أي إنسان.

بينما كان يعتني بالحصان، جمعتُ الحطب، وكوّمته خلف نتوء صخري يحميني، وحاولتُ إقناع أصابعي الباردة بضرب الصوان. كنتُ أتمنى لو أشعلتُ نارًا. كانت الرياح قارسة، وشعرتُ بامتنانٍ مُذنبٍ لارتدائي قميصًا صوفيًا، وسروالًا سميكًا، وحذاءً عمليًا. كانت جميعها مناسبة تمامًا. لولا نزوة ألكسندر، لكنتُ الآن أواجه قضمة الصقيع، وتسمم الدم، وبترًا.

انحنى ألكسندر بجانب لهيبي الصغير وضغط بكفيه على عينيه. كان صامتًا، وانشغلتُ بأموري في رعاية خيوط النار المتلألئة. عندما نظرتُ إليه ثانيةً، كان يرتجف، وظننتُ أن قبضته المشدودة قد تضغط على عينيه حتى تكاد تغرز في جمجمته.

"ما الأمر يا صاحب السمو؟"

"نجِس... ملعون... حقيقي لدرجة أنني أستطيع تذوقه. أستطيع شم رائحة الدم. وعندما أحاول التفكير في شيء آخر" - أخذ نفسًا عميقًا - "أظن أن رأسي سينفجر ويتناثر ما تبقى لدي من عقل تافه." ارتجف. "حقير."

شدّ فكيه، وأزاح الشعر المبلل الذي انفكّ من ضفيرته والتصق بجبهته، ثم بدأ يفتش في حقيبة السرج، فأخرج كوبًا معدنيًا، وعلبة لحم مجفف، وأخرى من التمر، وثالثة، من تنهده المريح، لا بد أنها لحاء وأوراق نبات التانين المستخدمة في صنع النزرهيل. قال وهو يرمي إليّ العلبة: "أيقظني عندما أستطيع فعل شيء بهذا"، ثم لفّ نفسه بعباءته وبطانيته، وبدأ يشخر قبل أن ينطق بكلمته الأخيرة.

قلتُ تلقائيًا: "كما تأمر". ترددت الكلمات على لساني، ثم هبطت في ذهني كالحجارة في بركة هادئة. حدقتُ في الوادي المهجور حيث تجمعت ضبابات الجليد في المنخفضات مع خفوت الضوء. كانت الحجارة ذهبية حادة الحواف، كل نتوء وزاوية وشق.

شكّلتها العوارض ذات الزوايا الحادة. حرّكت الرياح شعري بلمسة باردة. نادراً ما مررت بلحظة كهذه من الصفاء التام.

كان بإمكاني الرحيل. كان لديّ حصان، وملابس، ومؤن، والرجل الوحيد الذي كان بإمكانه منعي كان شبه مجنونٍ برؤى شيطانية - أجل، أستطيع تخمين الأهوال المغرية التي كانوا يستخدمونها لتعذيبه. والآن هو غارقٌ في نوم عميق لدرجة أنني أستطيع ذبحه إن شئت. أستطيع أن أكون حرة. كان التفكير في الأمر مُرهقًا. كنت أعرف مُسبقًا أنني لن أتركه - قسمي يمنعني من ذلك - ولكن لساعة، بينما كنت أُغذي النيران الوليدة وأُنميها حتى تُصبح شيئًا قادرًا على إذابة عظامي وغلي كوب من الماء، انغمست في نفسي، وأطلقت العنان لخيالي لأتخيل كيف سيكون الأمر.

كان الأمر محبطًا للغاية. لم أستطع التفكير في المكان الذي سأذهب إليه، أو ما سأفعله، أو حتى ما سأقوله لأول شخص يسألني عن العلامة على وجهي. لقد منعت هذه الأفكار لفترة طويلة، ولم أعد أستطيع

استحضارها. كل ما كنت أعرفه هو كيف أكون عبدًا. ربما لم أعد قادرًا على التفكير أو التصرف دون إرادة.

عندما قطعت النجوم ربع مسارها الليلي، غليت الماء في الكوب ونقعت لحاء التانين فيه، وتركت الكوب قرب النار ليظل دافئًا. بعد ساعة أخرى، أضفت الأوراق، وغليت المزيج مرة أخرى، وعندما فاحت رائحة الخليط الأخضر الداكن الكريهة، أيقظت الأمير. واجبٌ يليق بعبد.

قال وهو يرتشف ببطء، مستمتعًا بالمشروب المرّ: "أحسنتِ صنعًا يا سيون. إذا أردتِ النوم، فسأراقبكِ قليلًا. لقد اكتفيتُ من الأحلام لثلاثة أعمار. يكفي أنها تأتي وأنا مستيقظ. النوم يعني دعوةً للمزيد."

قلتُ: "نمتُ طوال اليوم، سأُكملُ العملَ". ابتعدتُ عن النار لأقضي حاجتي. وبينما كنتُ أُحاولُ عبثًا، على غير عادتي، فكّ ملابسي المُكدسة، وجدتُ الورقةَ عالقةً في جيبِ سترةِ العبدِ التي كنتُ ما زلتُ أرتديها تحتَ قميصي. كانت الرسالةَ التي أخذتُها من غرفةِ ألكسندر في طريقي إلى سجنِه في البرج. عندما عدتُ إلى النار، أعطيتُها للأميرِ ورويتُ له قصتها.

"إنها من كيريل." ثم لوّح بها بين أصابعه. "هل تعلم لماذا نستخدم الشمع الأحمر دائمًا؟"

قلت: "أظن أن الأمر له علاقة بالدم".

ضحك. "تخمين جيد. عندما كنا صبيانًا، أقسمنا يمينًا بالدم أن نكون أقرب من الإخوة. أن نقتل أعداء بعضنا البعض. جرحنا أكفنا."

ووضعناهما معًا كما يفعل الصبية. عندما أرسلنا ديمتري إلى طرفي نقيض من الإمبراطورية، بدأنا نخلط الدم بالشمع لنتذكر أنفسنا بوعدنا. قبل بضع سنوات اتفقنا على أن الشمع الأحمر يكفي. هل تعتقد أن هذا يعني شيئًا؟ أن حماسنا أقل صدقًا؟" أشعل النار، وأشار إليّ بالاقتراب، ثم رمى إليّ الرسالة. "اقرأها."

كسرت الشمع الأحمر وبدأت.

زاندر،

إذا كنتُ مُصيباً في تقديري، فستتلقى هذا عشية مسحك بالزيت المقدس. آمل أن تكون قد استمتعت بالاحتفال ولم تجد الطقوس مُملة للغاية.

أنت ستصبح إمبراطورًا. ليس قريبًا، إن شاءت الأقدار، لكنك ستكون التالي. لطالما تحدثنا عن الأمر باستخفاف، لكن أحداثًا معينة وقعت

مؤخرًا دفعتني للتفكير فيه بجدية أكبر، وأتمنى أن تكون قد وجدت وقتًا للتفكير فيه بجدية وسط الخمر والموسيقى والنساء والولائم.

أرسل لي ديمتري خبر خلافكما. زاندر، عليك إصلاح الأمور. أنت تمزح بشأن كوني ابنه المفضل، والحقيقة أنه لم يكن قاسياً معي كما كان معك. مع وفاة والدي منذ زمن طويل، وأنت لديك الكثير من الأبوة - على الأقل اسمياً - ربما كانت هذه طريقته في تحقيق التوازن بين مصيرينا. لكن الأمر لم يقتصر على ذلك. فقط في الأسابيع الأخيرة أدركت أن صرامته معك لم تكن نابعة من قلة حنان، بل على العكس تماماً. ستصبح إمبراطوراً يا زاندر، وهو يتمنى لك، قبل كل شيء، أن تكون قوياً بما يكفي لتتحمل المسؤولية وشريفاً بما يكفي لتكون بارعاً فيها. لطالما قلت إنني لن أستبدل نسبي بك، ورغم أن هذا يعني أنني سأبقى إمبراطوراً مبتدئاً إلى الأبد، إلا أنني أكررها. هناك مشكلة قادمة. ديمتري يدرك ذلك ويخشى أنك لم تدركه. حتى هنا في منصبي النائي، أشعر بقلق بالغ.

أخبرتكم بمهمتي لإيجاد مسكن لكيدون، مندوب الخليد هنا في بارنيفور، وبطلباته الاستثنائية لتجهيزاته. وجدتُ مكانًا مناسبًا، وأسكنته فيه، والآن وأنا أنظر إليه، أتساءل ماذا فعلتُ بحق آثوس. القلعة هي الحدود القديمة.

تحصينات في سفوح جبال خيب رش. هذا الخليدي يتربص الآن على حدود الإمبراطورية.

منذ اليوم الذي انتقل فيه كايدون، تضاعف وجود الخليديين في بارنيفور بسرعة. لا أفهم كيف يُعقل هذا. يقول المندوب إنهم مجرد موظفيه، الذين تفرقوا في أنحاء المدينة ريثما يحصل على مسكن لائق. لكنني لا أصدق أنهم كانوا هنا طوال الوقت. هل أنا مخطئ يا زاندر؟ لقد رأيت عمال كايدون ينقلون الحجارة والأخشاب إلى قلعته الجديدة. يقول لي إنها للترميم، لكن عندما سألت العمال، قالوا إنهم ينحتون غرفًا جديدة في أعماق القلعة، وأنه بمجرد الانتهاء من أعمال البناء الحجرية الأولية، لا يسمح الخليديون لأحد بالدخول. يقولون إن عدد الخليديين في القلعة يفوق حتى ما نراه هنا في المدينة. وجميعهم مُسلحون تسليحًا ثقيلًا.

يرغب كيدون الآن في بناء معبد لآلهته على الجبل المقدس في وسط بارنيفور. وينص مرسوم الإمبراطور صراحةً على أن أبذل قصارى جهدي لتوفير الراحة لكيدون. وقد أرسلتُ إلى الإمبراطور لأستفسر عما إذا كان هذا المشروع يندرج ضمن نطاق المرسوم، لكن كيدون يُحذر بالفعل التجار وأصحاب المنازل المجاورين من أن الإمبراطور

سيأمرهم قريبًا بالابتعاد عن قاعدة الجبل لبناء سور حول هذا المعبد. سيكون حصنًا في قلب المدينة.

لا أدري ما أقول أو كيف أتصرف حيال هذا الأمر سوى أن أضع مخاوفي بين يديك. لقد أطلت الحديث. تحياتي الحارة لعمنا. واستمع إليه.

أسأل الله أن يباركك يا ابن عمي. أنا خادمك المخلص والقريب لك.

كيريل

قفز الأمير واقفًا على قدميه. "اللعنة! كان عليّ أن أرسل رسالة إلى كيريل فور علمي بالأمر. والآن سيسمعها من شخص آخر، وأنني... يا إلهي! سيخبرونه أنني قتلت ديمتري. سيسعى للانتقام مني." راح يذرع النار جيئة وذهابًا، يركل حقيبة سرجه، والحطب، والصخور، وأشواك العشب الميت، وأي شيء آخر يقع تحت قدمه إلا أنا. "لن أقاتل كيريل. لن أفعل. لم يكن يومًا شخصًا جيدًا."

لن يجبروني على فعل ذلك. لعنة أبدية على هؤلاء الشياطين. ستُريني كيف أنتقم منهم يا سيون.

لم أرَ جدوى من شرح أنه لا وجود لما يُسمى بالانتقام من الشياطين. فالشياطين لا تُبالي بنتائج الأمور. إنها تتغذى على الألم والرعب، وإذا ما فُقد مصدر غذائها، فإنها تذهب إلى مكان آخر... إلا إذا هُزمت بالسحر.

أما الخليد، من ناحية أخرى... فسيتعين علينا التفكير ملياً في الخليد.

لم أكن أملك أدنى فكرة عن علاقتهم بـ"غاي كيالت". سيد الشياطين... كل ما عُرف عن هذا الكائن كان غامضًا بفعل ألف عام من التكهنات. هل يُعقل أن يُسيطر على أمثاله ويقودهم نحو هدف مشترك؟ كانت الفكرة مرعبة، حتى بعد تجاهل تفاصيل نبوءة إزاريان. إذا وقع الأمير ضحيةً لهذا السحر، فلن يكون هناك ساحة معركة واحدة لأي محارب أسطوري - ستحترق الإمبراطورية بأكملها. ستكون معركة ألكسندر هي التي ستُحدد مصير العالم. لكن معركته مع سحر سيد الشياطين لم تكن سوى جزء من الأمر؛ كانت هناك أيضًا معركته مع طبيعته - اليد التي ضربتني حتى فقدت وعيي واليد التي رفعتني. جزآه... اثنان... روحان...

"نجوم الليل..." قفزتُ من موقعي وبدأتُ أذرع المكان جيئةً وذهابًا، غير مصدقٍ تلك الفكرة التي تسللت إلى ذهني كجروٍ جائع. لم أعتبر النبوءة يومًا حقيقةً مطلقة، بل مجرد وسيلةٍ لنقل الحكمة المتراكمة. لم تكن نبوءات الهلاك ضمانات، بل مجرد احتمالات، إن لم يُعرها المرء اهتمامًا، إن لم يكن واعيًا وحذرًا. أما نبوءات المجد والنصر فكانت

حافزًا للقوة والشرف والعمل الجاد. كانت النبوءات عزاءً في أوقات الحاجة، ووخزات ألم في أوقات الرخاء. كان بإمكان الناس دائمًا تكييف الظروف مع التنبؤ. ومع ذلك، لم يُظهر رجلٌ قط روحين كما فعل ألكسندر الأزهاكستاني.

وبينما كنت أعود إلى مكاني الصخري، ضحكت على المشهد الغريب الذي تخيلته. كيف يُعقل أن يخبر أحدٌ الإزاريين أن البطل المحارب الذي سيخوض المعركة الثانية من نبوءة إيدا قد يكون من الدرزي؟

حاول ألكسندر العودة إلى النوم، ولكن بعد المرة الثالثة التي سمعته فيها يلعن بهدوء تحت أنفاسه، عرفت أنه لم يكن أسهل حالاً مني.

انطلقنا على الطريق قبل شروق الشمس.

سافرنا ثلاثة أيام باتجاه الشمال الغربي، في أعماق الجبال، متجنبين القرى، مختبئين بين الأشجار كلما مرّ مسافر نادر. لم يستطع ألكسندر تحديد وجهتنا النهائية، فالخريطة التي كانت محفورة في ذهنه كانت تتغير وتتبدل مع تقدمنا. كنتُ أحرس في ساعات الليل التي خيّمنا فيها. في وضح النهار، كنتُ أتشبث بظهر الأمير وأنام. سألني كيف يُمكنني النوم على ظهر حصان، فأجبته أنني أستطيع النوم في أي مكان؛ المشكلة كانت في الأحلام. في اليوم الثالث، لم أستطع التخلص منها، ويبدو أن أحلام ألكسندر كانت تزداد سوءًا مع مرور الوقت. وهكذا، كنا مستيقظين ومضطربين عند شروق القمر في الليلة الرابعة من رحلتنا من كفرنا، حين خرج من الظلال شخص غامض وقال: "من أنتما اللذان سلكتما طريق الوحش؟"

سحبتُ غطاء عباءتي بسرعةٍ لأغطي وجهي. هكذا جاء الأمر – أسرع مما توقعت. فرحٌ ويأسٌ وذكرياتٌ طاغيةٌ في آنٍ واحد. أول إزاري قابلته، ولم أكن أعرفه فحسب، بل كان مرتبطًا بي بروابط الدم والمودة والحزن. كان اسمه هوفيد. صهري.

كانت أختي الكبرى إيلين تعشق ذلك العالم الهادئ، وانتشلته من براثن الفشل حين وافقت على الزواج منه. حاول أن يصبح مُعزّيًا، قادرًا على لمس ضحية شيطان والسماح لـ"الحياة" بالعمل من خلاله حتى من مسافة بعيدة، لكنه كان يفتقر إلى "الميليدا" وكان خجولًا جدًا ليُرسل إلى العالم. بعد أن وجد سعادته مع إيلين، اكتشف شغفه في موهبته في صياغة التعاويذ والطلاسم، وهو مسعى علمي قيّم.

قاتل هوفيد إلى جانب والدي وإيلين في ذلك اليوم الأخير، محاولًا الحفاظ على طريق هروب لملكتنا. رفضت أختي الكبرى الشجاعة والجميلة المغادرة مع النساء الأخريات عندما كان ملجأنا الأخير على

وشك السقوط. كانت إيلين، بوشاح أحمر يزين شعرها الداكن، تلوح لي مبتسمة وهي تدير رمحًا... رمحًا بدائيًا بائسًا... نحو مرتزق ثريد مدرع قطع رأسها دون أن يبطئ من خطواته. سقط والدي بعد عشر ثوانٍ. استخدمتُ السيف والخنجر وكل ما أملك من مهارات، معتقدةً أنني أستطيع بطريقة ما أن أغير مجرى الدماء الذي كان يغرقنا. قاتلتُ لعشرين ساعة متواصلة في ذلك اليوم، لا أفهم كيف عثر علينا الدرزي بهذه السرعة، يائسةً لأن كل من كان في مرمى بصري كان يموت، ولم يكن لدينا مكان آخر نلجأ إليه.

يجري...

حتى وأنا أغلق أبواب تلك الذكرى من جديد، وأهدئ الغثيان الذي كان يرافقها دائمًا، شكرت ألكسندر لأنه جعلني أعود. لقد رأيت والدي وأختي يموتان، ولكن إن كان هوفيد لا يزال حيًا، فربما يكون آخرون ممن أحبهم قد ماتوا أيضًا. حتى لو كنت ميتًا بالنسبة لهم جميعًا، حتى لو نظروا إليّ كما لو كنتُ لوح زجاج لا يستحق أن يُغلق عليه النظر، فإن احتمال أن أرى أصدقاء أحياء رغم كل التوقعات قد ملأ قلبي فرحًا. لقد شعرتُ بفيض من الأمل لا يشعر به إلا من عاش عمرًا بلا أمل.

قلتُ وأنا أُطأطئ رأسي: "اسمي بيتور. لقد دلّ عبدٌ ربّ عملي على الطريق بعد أن أشفق عليه. قال الصبيّ إنّ من يقابله في هذا المكان يستطيع أن يُزيل عنه سحرًا شيطانيًا."

"ومن هو صاحب عملك؟"

قال الأمير وهو يخطو نحو ضوء القمر: "اسمي زاندر". أضاءت أشعة القمر الفضية قامته الطويلة حتى بدا وكأنّ الشرّ يتسرّب من جلده. "أنا محارب من قبيلة ديرزي، وبالتالي عدوّك، لكنني جئت بسلام. قيل لي إن بإمكانك إزالة هذا الشرّ."

الفصل 20

"أديرزي!" بصق هوفيد عند قدمي ألكسندر. "ما الذي يجعلك تظن أنني سأقربك خطوة واحدة من شعبي؟ هل عذبت العبد لتكتشف الطريق؟"

استعددتُ للقفز بينهما، لكن قبضة ألكسندر المشدودة لم تفارقه. قال الأمير: "لقد مُنحتُها طواعيةً، مقابل وعدي بعدم إنزال قانون الإمبراطورية عليكم".

"كلمة قاتل من ديرزي".

"كان عليّ أن أقطع لسانك بسبب هذا." أدار ألكسندر ظهره لهوفيد ولوّح لي قائلاً: "جهّزوا خيولنا."

"أرجوك يا سيدي، أنا متأكد من أن الرجل لم يكن ينوي التشكيك في شرفك. لقد أقسم الصبي أن هؤلاء الناس يمكنهم مساعدتك في التخلص من هذه اللعنة."

"حتى أعداؤنا يعلمون أن كلمتنا هي ماء الحياة بالنسبة لنا."

"أرجوك يا سيدي."

«لن أجادل في الأمر، ولن أتوسل. فقط أخبرني إن كان مُخبري مُخطئًا. هل يُعالج الإزاريون تعاويذ الشياطين أم لا؟» كان الأمير كالفولاذ المُتجمد. مع أنني كنت أتفهم مشاعر هوفيد، إلا أنني أردتُ ركله على كلامه المُتهور.

نقرتُ النار فاشتعلت، مُضيئةً وجه هوفيد المستدير الغاضب كقمرٍ ثانٍ. مع أنه لم يتجاوز الخامسة والأربعين، فقد شاب شعره بالكامل، وكان يضع رقعةً على إحدى عينيه. لا بد أن هذا يُشكّل له محنةٍ قاسية. فقد كان قارئًا نهمًا، إذ كان ينتزع كل كتابٍ يصل إلى إزاريا في غضون أسبوعٍ من وصوله. احمرّت وجنتاه، وارتجف ذقنه غضبًا. "أي سحرٍ شيطانيٍّ يُمكن أن يُؤذي ديرزي؟"

لم يتقدموا في أي شيء. تحرك ألكسندر نحو حصانه مجددًا، لكنني أمسكت بذراعه، وأنا أشعر بالخجل من جرأتي. قلت: "يا سيدي، ألم يخبرك العبد بكلمة أخرى لتقولها؟ لتقنعهم بحاجتك؟" همست بها بصوت خافت، كما لو أن ألكسندر قد يتذكرها من همساتي الصامتة.

"فيد... شيء من هذا القبيل. لا أتذكر كلامه غير المفهوم. قال إنني مصاب به إلى جانب السحر. بدا الأمر وكأنه مرض. قال إنه سيجعل هؤلاء الناس يستمعون."

"فيد..." استغرق هوفيد لحظةً ليستوعب الأمر. أردتُ أن أهزّه حتى ينطق الكلمة. "ليس الفيدناخ؟ بالتأكيد لا."

"نعم، هذا هو الأمر، أليس كذلك يا بيتور؟"

"أجل يا سيدي. هذا ما قاله. قال إنك تحمل هذا الفيدناخ في داخلك، وبسببه لا يستطيع الإزاريون رفض مساعدتك."

ترهلت وجنتا هوفيد. "أخبرك أحدهم أنك - أيها الدرزي - تحمل الفدناخ؟ من كان؟ وما اسمه؟"

نظر إليّ ألكسندر بنظرة مترددة.

قلت: "لقد كان شاباً تم أسره في كفرنا قبل بضعة أسابيع. لم يرغب في ذكر اسمه".

أغمض الإزاري عينيه للحظة - حداد صامت على لير، كما خمنت - قبل أن يتابع بصوت أكثر هدوءًا: "ديرزي يحمل الفيدناخ؟ مستحيل." ردد هوفيد صدى عدم تصديقي. "لم يكن الصبي ماهرًا بما يكفي. من يدري ما تخيله؟ ربما ظن أنه سينقذه."

ربما كان صهري محقًا - مع أن لير كان لديه مرشد من حراس السحر، فمن شبه المؤكد أن الصبي لم يكن قد بلغ بعدُ المهارة الكافية لرؤية ما رأيته. لكن مجرد التلميح إلى ذلك يكفي. لم يكن هوفيد ماهرًا بما يكفي أيضًا. كان باحثًا يرى أنماطًا في السحر والأشياء الطبيعية. وحدهم من تدربوا على ذلك يستطيعون رؤية ما في الروح. سيُحكم على ذلك شخص آخر.

اتخذ قراره أسرع مما كنت أتمنى. "سآخذك معي."

وقال ألكسندر: "وسيرافقنا خادمي".

"هل هو مفتون أيضاً؟"

"لا. لكنني لن أتركه هنا ليتجمد. ليس لديه حصان."

"إذا اكتشفنا أنك خدعتنا..."

«لو لم أكن أتوق بشدة للتخلص من هذا البلاء، لما ركبتُ إلى جبل جليدي موحش كهذا لأجد جيشًا كاملًا من الإزاريين. إذا استطعتَ شفائي، فقد أبدأ في تصديق أن لوجودك معنى ما». ألكسندر في أوج دبلوماسيته.

عبّر هوفيد عن رأيه بإيجاز أكبر: "إذا تحملتَ الـfeadnach، فأنا جرو ابن آوى".

قلت: "هل عليّ أن أحمل أغراضنا يا سيدي؟"

قال هوفيد: "من الأفضل أن نفعل ذلك بسرعة. سنغادر الآن. دعونا ننهي هذه الحماقة حتى نتمكن من إعادتك من حيث أتيت."

استغرقت رحلتنا ثلاثة أيام طويلة وغريبة حتى وصلنا إلى مخبأ إزاريان. ثلاثة أيام من مسارات بدت وكأنها لا تؤدي إلى أي مكان، ثم تعود أدراجها. منحدرات شديدة الانحدار لدرجة أننا اضطررنا إلى قيادة الخيول، مما جعلنا نلهث لالتقاط أنفاسنا رغم أننا كنا نظن أننا نسير في منحدر طوال الوقت. منعطفات والتواءات وأنفاق وقمم، كلها محجوبة بالضباب والضباب الذهني، حتى أننا في نهاية اليوم لم نكن نتذكر أين كنا.

انتهت الرحلة في منتصف صباح اليوم الرابع، حين أشرقت الشمس بما يكفي لتدفئة عباءتي الداكنة. كنا نجلس على قمة تلٍّ يُطل على وادٍ واسع مُغطى بالغابات، مُغطى بالثلوج. ينساب نهر صغير عبر الريف المتموج، متجمدًا، ويتلألأ تحت أشعة الشمس. تتجمع خمسة أو ستة بيوت حجرية في العراء بجانب ضفة النهر، مع عدد قليل آخر متناثر على طول مجرى النهر شمالًا عبر الوادي. أخبرتني خيوط رقيقة من الدخان الرمادي على خلفية زرقة السماء الصافية أن معظم المنازل مُحاطة بالأشجار، تمامًا كما كانت في غابات البلوط والصنوبر القديمة حيث وُلدت. كان هذا مكانًا جميلًا، مُحاطًا بقمم الجبال المُغطاة بالثلوج، لكنه لم يكن خضرة إزاريا الوارفة. كان الأمر كما لو أن عملاقًا جليديًا من حكاية أطفال قد نفخ أنفاسه القاسية على منزلي، تاركًا إياه مُتجمدًا وجرداء. لا يُمكن أن يكون هناك أي أثر للحياة مُقيدًا في تلك الأشجار المُتجمدة، أو تلك الأرض المُغطاة بالجليد.

قادنا هوفيد عبر ممر شديد الانحدار وعلى طول الطريق المتعرج الذي أوصلنا إلى المستوطنة الواقعة على ضفاف النهر. وكما توقعت، أوصلنا إلى نُزُل: كوخ حجري صغير وأنيق في نهاية المستوطنة الأبعد عن الأشجار.

لم نمرّ إلا ببضعة أشخاص في طريقنا. امرأة تحمل سلة من الكتان إلى منزل. رجل يدفع عربة يدوية محملة بأكياس صغيرة من الحبوب أو الدقيق على الطريق باتجاه الغابة. وطفلان يركضان - صبي وفتاة - مرّا بنا مسرعين نحو أحد المنازل على ضفاف النهر. غمرتني سعادة لا توصف لرؤيتهم. لم أكن أعرف أيًا منهم، لكنهم كانوا بالتأكيد من الإزاريين. أحياء أحرار.

قال هوفيد وهو يدفع باب الكوخ: "نرجو منكم البقاء هنا حتى يأتي أحد ليأخذكم. لا يُسمح لكم بالمشي".

"لا تتحدث عن القرية أو مع أي شخص دون إذننا."

"غير مسموح؟ كيف تجرؤ؟"

"متى سيأتي أحد لإنقاذنا؟" قاطعت ألكسندر قبل أن ينفجر غضباً. "سحر سيدي شديد."

قال هوفيد: "إذا كان مسكوناً بالأرواح الشريرة كما تدعي، فستود منا أن نأخذ وقتنا ونفعل ما هو الأفضل له. التسرع قد يزيد الأمر سوءاً".

خلع الأمير عباءته وتفحص أثاث الكوخ البسيط. ركل السرير الضيق كما لو كان يختبر متانته، ومرر إصبعه على سطح الطاولة المصنوع من خشب الصنوبر الأملس. "أحضروا أحداً إلى هنا. لديّ أمور مهمة عليّ القيام بها."

قال هوفيد وهو يجز على أسنانه: "سيأتي إليك أحدهم خلال ساعة". كنت أعرف هذا الشعور جيدًا. أشار إلى الرفوف بجانب الموقد وقال: "هناك علف هنا. خذه معك. وإن كان لديك علف خاص بك، فنرجو ألا تترك أي بقايا أو نفايات، بل خذه معك عند المغادرة. يوجد مرحاض خلف المنزل. ماء الغسيل في الخزان بالخارج. ماء الشرب في البرميل بجانب الباب، وسيتم تجديده كل صباح. هذه هي عاداتنا. هل ستلتزم بها يا ديرزي، أم سأعيدك من حيث أتينا؟"

كان ألكسندر على وشك الانفجار. أشك في أنه قد تلقى محاضرة بهذه الصراحة من أي شخص باستثناء والده أو ديمتري. وبالتأكيد ليس من شخص عادي يبدو كبائع متجر مشبوه بعض الشيء. حدق بي، ثم تمكن بصعوبة من نطق كلمة "سأفعل" بصعوبة.

وماذا عن خادمك؟

قلت: "بكل سرور. نشكركم على كرم ضيافتكم".

"لن أرحب بكم. سيستغرق الأمر بضع سنوات قبل أن نرحب بأي ديرزي، سواء كان سيدًا أو خادمًا." وبدون أي محاولة أخرى للمجاملة، أغلق هوفيد الباب بقوة.

استلقى ألكسندر على السرير، واثقاً على ما يبدو من متانته، وإن لم يكن من فخامته. "ليست هذه ترحيباً حاراً على الإطلاق،" تمتم. "متسول وقح."

كنتُ متوترًا وقلقًا، ولم أكن في مزاج يسمح لي بتحمّل تجاهله المتعمد. قال: "ماذا كنت تتوقع؟ إنهم بضع مئات من الأرواح، يختبئون هنا في البرية. قبل أن يقرر الدرزي أنهم بحاجة إلى بضعة هكتارات أخرى من الأرض، كان عدد الإزاريين بالآلاف، وقد عاشوا في سلام لأكثر من ثمانمائة عام."

"لا عجب أن الأمر استغرق منا ثلاثة أيام فقط."

"لم نكن نشكل أي تهديد لكم! لم تكونوا بحاجة إلى أرضنا. لقد استوليتم عليها فقط لأنكم قادرون على ذلك، وقتلتم آلاف الأبرياء في سبيل ذلك. هل يجب علينا أن نحبكم على هذا النحو؟"

"أنت تنسى نفسك أيها العبد. لن أجادلك في التاريخ. ما حدث قد حدث."

بالتأكيد. الكلمات لن تغير شيئاً. العاطفة، الرغبات، الحزن - لا شيء منها كان مهماً. كان عليّ أن أكتفي بالنعم القليلة التي مُنحت لي.

أشعلتُ نارًا في الموقد، ثم لم أعد أحتمل، ففتحتُ الباب الأمامي قليلًا وأطللتُ. كان أول كوخ بعد بيت الضيافة منزل النساجة، دائمًا خارج حدود الغابة، دائمًا في مكانة مرموقة في القرية المفتوحة، فاصلًا بين العالم الخارجي وبقية القرية. كانت الأوشحة الصوفية معلقة في نافذتها، وأواني صبغ نحاسية مهترئة ورفوف تجفيف خشبية مكدسة على جانب المنزل. سلسلة من الشرائط المعدنية المتدلية من حافة السقف تُصدر رنينًا موسيقيًا في النسيم.

ركض الصبي والفتاة إلى المنزل الأوسط في الصف الأقرب إلى النهر. ربما كان هذا هو المدرسة. وبما أنه الصباح، فسيتلقون دروسهم هناك: القراءة والكتابة، والخرائط والجغرافيا تحسبًا لانضمامهم إلى فريق الباحثين، والرياضيات للانضباط والمنطق، والأعشاب للشفاء وصنع التعاويذ، والفلسفة لصحة العقل. أما التوجيه لمن يمتلكون موهبة "ميليدا" فسيُجرى في بيوت الغابة طوال فترة ما بعد الظهر وحتى المساء. بالنسبة للبعض، سيستغرق هذا التعليم وقتًا أطول تدريجيًا، حتى يصبح المرء في الثانية عشرة من عمره منغمسًا فيه كل دقيقة من

كل يوم، يمارس ويتعلم ويدرس، ويتقن المهارات التي سيحتاجها لأي دور اختارته له الآلهة، حتى يصبح جاهزًا لأخذ مكانه في الحرب السرية التي شنها الإزاريون لألف عام. حرب الشياطين.

أما المنزل الثالث فلم أستطع معرفته، إذ لم أرَ أحدًا يدخله أو يخرج منه، لكنني خمنت أنه دار السجلات. هناك كان أحد أمناء سجلات الملكة يُجمّع تقارير فرق البحث، وكان بإمكان العائلات أن تأتي لتستفسر عما إذا كان قد ورد أي خبر عن أولئك الذين أُرسلوا إلى العالم للبحث عن الأرواح التي تلبستها الشياطين.

سيأتي المحقق من الغابة. لطالما عاش أصحاب ميليدا في الغابة، ليستمدوا القوة من قوى الطبيعة في مكان غني بالحياة. لم أستطع الاستقرار، فالتفتُّ إلى ألكسندر الذي كان يفحص نسيجًا على الجدار بجانب السرير.

صوّرت حلقة من الأعمدة الحجرية البيضاء تقع في وسط غابة، وأزواج من الرجال والنساء يسيرون فيها، بينما كان القمر يضيء من السماء.

قلتُ: "ستسألكِ المرأة التي ستأتي عن السحر. ستفحصكِ - كما أفعل أنا، ولكن بقوة حقيقية - وسترى ذلك. أخبريها عن الخليد، بكل تفاصيل ما تستطيعين. كل ما فعلوه. كيف حاصروكِ بالوهم. كيف أثّروا على نومكِ. كيف يبدو أن كاستافان يُوجّه الآخرين. ويجب أن تكوني صادقة. ستعرف إن كذبتِ، لكنها قد لا تستطيع معرفة ما كذبتِ. أنتِ بحاجة إلى ثقتها."

قال ألكسندر مدافعاً عن نفسه: "لم أظن أنه من الحكمة أن أخبرهم من أنا. فهذا يعقد الأمور. لم أظن أن الأمر سيُحدث فرقاً".

"لا يهمّ الأمر كثيراً فيما يتعلق بالسحر. أما الأمر الآخر، المتعلق بالخليد والتهديد الذي يواجه الإمبراطور وولي عهده، فهو أكثر خطورة بكثير. إنه يقلب المعتقدات... والنبوءات... والرؤى التي اعتمدنا عليها لمئات السنين. يجب أن يصدقوك، حتى يتخذوا إجراءً."

خلع الأمير قفازيه وألقى بهما على الأرض. "هذا لا يُطاق. أن يُبرر لي الأمر وكأنني كاتبٌ سارقٌ يسعى للحصول على وظيفة في البلاط. لا أرى ما الذي يمكن أن يفعله بضعة سحرة هاربين حيال هذا الأمر على أي حال."

قلت: "ربما لا شيء. لم يعد لدي أي فكرة عما هم قادرون عليه. الأمر يعتمد على من نجا". ثم أدرت وجهي نحو هواء الظهيرة البارد.

"ومن كان مستعبداً؟"

"هذا أيضاً."

"هل ستظهر نفسك لهم؟" سألني، ثم جاء ليقف بجانبي عند الباب، وفتحه قليلاً حتى يتمكن هو أيضاً من النظر إلى القرية.

"ليس إن كان الأمر بيدي."

كان سيسألني عن الأمر، لكن فجأةً خرجت امرأة من بين الأشجار وسارت في الطريق نحو منزلنا. كانت ترتدي عباءة سميكة ووشاحًا منسوجًا بألوان زاهية. تركتُ مكاني وانسحبتُ إلى زاوية الغرفة، خشية أن يتقلب قلبي عندما تدخل من الباب المفتوح. خلعت وشاحها ونفضت شعرها الأسود الطويل. لم أكن أعرفها. ماذا كنتُ أتوقع؟ أن تكون هي الشخص الوحيد في الكون الذي سأضحي بروحي لأجل رؤيته؟

قالت الشابة: "تحية طيبة لك يا زاندر من ديرزي، تحية من القلب والوطن". وأضافت، وهي تميل برأسها جانبًا كما لو كانت تحاول رؤية وجهي من تحت غطائي: "وأنت أيضًا يا بيتور من... لم يكن دليلك يعرف قومك يا سيدي". كنت بحاجة إلى عذر مقنع للبقاء مختبئًا، لكنني لم أستطع في تلك اللحظة، فانحنيت وجلست على الأرض في الزاوية، متأكدًا من أن الصوف الداكن يغطي وجهي بالكامل.

كانت صغيرة الحجم، نحيلة، بالكاد تصل إلى كتفيّ. كان شعرها الأسود اللامع ينسدل حتى خصرها، مربوطًا بشريط أخضر من خلف رقبتها. احمرّت وجنتاها من برودة الهواء، ووجهها الصغير الجاد يشعّ ذكاءً. ربما كانت في منتصف العشرينيات من عمرها، صغيرة جدًا على التحقيق في تقرير عن سحر شيطاني و"فيدناخ"، ناهيك عن غرابة وجود متضرّع من ديرزي. لا بدّ أن قلةً قليلةً من الإزاريين قد نجوا. لكنني رفضتُ الحزن. كنتُ أراقب محققةً إزارية. شعبي ما زال حيًا، وما زال يواصل عمله. لقد حزنتُ على الموتى منذ سنواتٍ طويلة.

قال ألكسندر، محوّلاً انتباهها المزعج عني: "خادمتي ليست معنية بهذا الأمر. هل يمكننا المضي قدماً؟ أحتاج للتحدث إلى شخص يمكنه مساعدتي، لا إلى ابنة أحدهم التي تريد التحديق في ديرزي." تنهدتُ في داخلي.

قالت الشابة وهي تجلس على الكرسي الخشبي البسيط بجانب الموقد: "بالتأكيد. لا أريد أن أسمح لأحد بالتحديق في ضيفنا. هل يمكنك الجلوس هنا من فضلك؟ أريد أن أسألك بعض الأسئلة." وضعت يديها النحيلتين في حجرها، تنتظر بهدوء أن يجلس ألكسندر،

الذي بدا عليه الاستياء، على الكرسي المقابل لها. كانت المسافة بينهما خطوتين تقريبًا.

بدأت حديثها قائلة: "أرجو أن تخبرني لماذا أتيت إلى هنا يا سيدي".

قال ألكسندر، وقد احمر وجهه بشكل مثير للقلق: "كما أخبرت الرجل، إنه سحر. لعنة من شيطان يُدعى خيليد".

"وكم من الوقت عشت مع هذه اللعنة؟"

"أبدية." جلست بهدوء، تنتظر. جادة. هادئة. "لا... ستة... سبعة... اللعنة، هل يمكن أن تكون سبعة أيام فقط؟"

"ما الذي يجعلك تعتقد أنها مصيبة من صنع الشياطين؟"

كان ألكسندر قد نفد صبره بالفعل. قفز من كرسيه، وخشيتُ أن يضرب المرأة. "لأنني لستُ مجنونًا، وليس لديّ تفسير آخر لذلك. العبد... قيل لي إنه أمرٌ شيطاني، وليس لديّ وصفٌ آخر له."

"تفضل بالجلوس يا سيدي. سأستمع إلى كل ما تود إخباري به." كان وجهها جامدًا. لم تكن تُصدر أحكامًا، ولا تُدين، ولا تُقر. فقط كانت تُقيّم وتُراقب كما يقتضي واجبها. ستستمع إليه بانتباه، وبعد ذلك فقط ستنظر في داخله لترى إن كان صادقًا كما يقول. "والآن، أخبرني عن معاناتك."

ارتخى الأمير في كرسيه كطفلٍ عابسٍ أُمر بالجلوس في زاوية المدفأة، وأخبرها، وإن لم يُفصّل الأمر. قال إنه ابن رجلٍ ثري، دون أن يُشير إلى أن هذا الرجل هو إمبراطور ديرزي. أبقاني بعيدًا عن القصة، ولم يُفسّر كيف ألقى بهدية الخليد في النار أو كيف تمالك نفسه حين تحوّل إلى وحش. ظهرت عليها أولى علامات الدهشة حين وصف تحوّله.

سألته مقاطعةً حديثه: "هل رآك آخرون وأنت تُجري هذا التغيير؟"

"بالطبع رآه آخرون. لستُ مجنونًا. لم أرَ نفسي. شعرتُ به وفكرتُ فقط... لكنني كنتُ على طبيعتي بعد ذلك. خادمي هنا شهد عليه." ثم تابع قصة مقتل عمه، وكيف حرض الخليدي والده ضده، وكيف سُجن حتى أحضرتُ له سيفًا ليُغير رأيه بنفسه.

"هذه قصة استثنائية يا سيدي، وهي أمر يثير قلقنا البالغ كما توقعت. يجب عليّ الآن أن أطلب إذنك لفحصك، ولرؤية هذا السحر الذي يسبب لك كل هذا الألم."

"هل تستطيعين فعل ذلك؟ فتاة مثلك؟"

"بشكل كافٍ تمامًا. أفضل من معظم الرجال. وأظن أنني أكبر منك بعدة سنوات."

هممم. لا يبدو ذلك مرجحاً. ولم أكن أعلم أنك تحتاج إلى إذن. عبس ألكسندر في وجهي. "لكن أكمل ما بدأت."

"لأفعل ذلك، سأحتاج إلى معرفة اسمك الحقيقي."

"الأمر برمته؟"

أومأت برأسها، وعقدت حاجبيها عند سماع السؤال.

تنهد. "زاندر... ألكسندر، ألكسندر جينيازار إيفانيشي زها دينيشكار."

لم تفقد رباطة جأشها، رغم أنها تعرفت على الاسم بكل تأكيد. اتسعت عيناها قليلاً وأومأت برأسها بخفة. "هذا يوضح الكثير." وبكل هدوء، مررت...

ظهر يدها أمام عينيها. اتسعت حدقتاها حتى استطعت رؤيتهما من زاويتي على بُعد عشر خطوات. وعرفتُ لحظةَ إدراكها للفيدناخ. تصلبتا يداها اللتان كانتا تستريحان بهدوء على تنورتها الخضراء، وتشابكتا، وانحنت إلى الأمام في كرسيها. قالت بنبرة هادئة وحازمة: "من أخبرك عن الفيدناخ يا سيدي؟"

"عبد." نظر إليّ ألكسندر مجدداً. "صبي عبد تم أسره قبل بضعة أسابيع."

رفعت الشابة ذقنها الصغير وأمالت رأسها كأنها تستمع، ثم حولت نظرها إليّ. رفعت يديّ بسرعة بيننا وأخفضت عينيّ حتى سقط غطاء الرأس أكثر على وجهي. قلتُ بحدة: "أديري عينيكِ عني، لم أسمح لكِ بذلك".

قالت ببرود، وهي تلتفت إلى ألكسندر وتمرر يدها أمام عينيها مرة أخرى: "أعتذر. كنتُ فقط أتساءل عن أكاذيب صاحب عملك بشأن الصبي. ظننتُ أنك شاركتَ في الكذبة، ونسيتُ نفسي. لكن الأمر لا يهم كثيرًا." لكن نبرة الحزن في شرحها كانت تُشير إلى عكس ذلك. لم تسأل عن اسم لير أو ما إذا كان لا يزال على قيد الحياة. لقد كان ميتًا بالنسبة لهم، سواءً كان يتنفس أم لا.

أما بالنسبة لبقية الأمور... فأنت ملعونٌ حقًا يا سيدي، وأنت بالفعل كما ادعيت. إن نبأ الشياطين هذا مذهل ويجب عرضه على ملكتنا فورًا. نهضت المحققة من كرسيها. سأتحدث معها على الفور، وكذلك مع أولئك الذين قد يتمكنون من شفائك من هذا الشر.

«ربما يكون ذلك ممكناً...» قفز ألكسندر واقفاً. «هل تقول إنك قد لا تتمكن من علاجه؟»

"لا أستطيع أن أعدك بشيء. لقد تضاءل عددنا كثيراً... كما يجب أن تفهم أنت بالذات. لا بد أن من أرسلك إلى هنا قد حذرك."

قال الأمير بمرارة: "إذن، هذا بسبب هويتي. أتظن أنك تنتقم لما حدث لي وأنا في الحضانة بتركي أعيش هذا الرعب؟" ثم قبض على ظهر الكرسي بقبضةٍ خشنةٍ بلا دم. "لا أستطيع لمس سيف. هل تفهم ما يعنيه هذا؟ كأنني ميت."

لم يكن هناك خوف، ولا تردد، ولا اعتذار من جانبها. "سنُزيل هذا السحر إن أمكن. لقد أقسمنا على ذلك سواء كنت أميرًا أو متسولًا، ديرزي أو إزاريان. الذنب الذي تحمله تجاه من دمرتهم هو ذنبك، ولك أن تتعامل معه كما تشاء."

"أنا لا أتحمل أي ذنب."

"إذن، أنت ملعون حقًا، وربما يكون النور الذي رأيته فيك زائفًا. صباح الخير أيها السادة. سأعود إليكم بالأخبار حالما أتمكن." أومأت برأسها بأدب لنا، وارتدت عباءتها ووشاحها، وخرجت مسرعة من المنزل.

"يا لها من امرأة متدينة لا تطاق. إنها سيئة مثلك!" أغلق ألكسندر الباب خلفها بقوة.

لم أخلع غطاء رأسي إلا بعد أن أخفيت ابتسامتي. "هل سبق لامرأة أن تحدثت إليك بهذه الجرأة يا سيدي؟"

"فقط الساحرة الملعونة من أفينخار."

"السيدة ليديا؟"

"أجل. دوقة التنين نفسها. إنهما متشابهتان تمامًا. أشعر بالشفقة على رجال إزاريا إن كانت جميع نسائكم مثلهما." فتش ألكسندر بين الأواني والحزم على الرفوف، ثم رمى إليّ إناءً معدنيًا صغيرًا. "أحضر لي بعض الماء. أحتاج إلى شيء يُريح رأسي بعد كل هذا العمل الشاق."

ملأتُ الإبريق من البرميل الصغير المخصص للشرب خارج الباب الأمامي، وأعدتُ الغطاء بحرص حتى لا يسقط فيه شيءٌ يُفسده. ثم علّقتُ الإبريق فوق لهب الموقد، وبحثتُ عن شاي حقيقي في مخازن بيت الضيافة لأغليه بنفسي. قلتُ بعد برهة: "لقد أنقذت السيدة ليديا حياتك، كما تعلم. لولاها لكنتَ في طريقك إلى خيليدار برفقة شيطان."

"ماذا قالت؟" لقد كان من دواعي سروري حقاً أن أدهشت ألكسندر تماماً.

لم أخبره باعتراف السيدة بحبها، بل أخبرته فقط كيف أتاحت لي الفرصة لمساعدته. وبعد وقت طويل من غلينا ونقعنا وتسخيننا وتحريكنا لـ"نازرهيل" خاصته، استطاع أن يتكلم مجدداً. "إذن ما هذا الفيدناخ؟ هل هي لعنة أخرى تجعلني مديناً للعبيد والنساء المتسلطات؟"

"لا يا سيدي. إنه قلبك. على الرغم من صعوبة فهم ذلك، إلا أن هناك احتمالاً أن يكون لديك واحد."

الفصل 21

تغلّبنا على آلام الجوع الذي طال انتظاره بخبز مغطى بالأعشاب وزبدة جديدة من رفّ المنزل الريفي. بالنسبة لي، كان وليمة، أما بالنسبة لألكسندر، فكانت مجاعة تستحق ساعة من التذمّر. بعد أن انتهينا بقليل، وبعد أن نظّفتُ فتاتنا،

عادت المحققة. طرقت الباب ودخلت بناءً على كلمة ألكسندر.

"سآخذك إلى الملكة فوراً. ليس لديها سوى وقت قصير لتمنحه لك الآن، لكنها توافق على أن الأمر ذو أهمية كافية لسماع قصتك بنفسها."

ارتدى ألكسندر عباءته، لكنني بقيت جالساً بجانب النار. قال وهو يحدق بي: "تعال يا بيتور، يجب أن تبقى معي".

قالت المرأة: "لقد أحسن خادمك الحكم يا سيدي. الملكة ليست بحاجة لرؤيته. ستراك أنت وحدك."

"لكنني أصر!"

"إذن، لن تذهب إليها. هذا مملكتها يا سيدي، وليس مملكتك. نحن خارج حدود إمبراطوريتك" - أسكتت احتجاجه بيدها - "لأنك أقسمت ألا تستخدم معرفتك بهذا المكان لإيذائنا. أليس هذا صحيحًا؟"

"تحريف الكلمات".

أشارت له السيدة بالدخول من الباب.

قلتُ بعد رحيله: "قل الحقيقة يا ألكسندر. إذا سارت الأمور كما أظن، فستقرأك هذه الملكة كما يقرأ الطفل أول كتاب له." ثم انزويتُ في نوم عميق، واختبأتُ من أفكاري.

استغرقت المرأة ساعتين قبل أن تعيد ألكسندر إلى دار الضيافة. "سأصطحبك مع بزوغ الفجر غداً. إلى ذلك الحين—"

قال ألكسندر: "ماذا سنفعل حتى ذلك الحين؟ لن أبقى حبيساً في هذا الكوخ كالسجين. يجب عليّ على الأقل أن أعتني بحصاني."

قالت: "أتفهم أن هذا صعب. ربما..." ترددت للحظة. "ربما تفكر في المجيء إلى منزلي هذا

العشاء في المساء. بالتأكيد ليس هذا هو السكن الذي اعتدتم عليه، لكن ربما يكون أكثر راحة من دار الضيافة المتواضعة لدينا. لدينا عدد قليل جدًا من النزلاء هنا، وعاداتنا صارمة نوعًا ما، لكننا لا نرغب في تحويل المكان إلى سجن.

"هل تريدني أن أكون ضيفًا على مائدتك - عدوك الذي تستنكره بشدة؟"

تلونت قليلاً. "لقد تلفظت بغير حق هذا الصباح. لقد أثرت مشاعري على عملي، وهذا أمر لا يُغتفر. لذلك يجب عليّ أن أصلح الأمر. جميع من يأتون إلينا طالبين مساعدتنا متساوون في نظرنا. لا يجب علينا ولا ينبغي لنا أن نحكم على أحد."

قال الأمير: "حسناً، إذن أفترض أن خادمي مرحب به أيضاً".

نظرت إليّ بنظرةٍ غير مرتاحة. كنت قد رفعت غطاء رأسي مجدداً عندما عادت. "لم يكن لديّ أي سبب يدفعني للاعتقاد بأنه سيرغب في المجيء. ولكن إن كانت هذه رغبته، فهو مرحب به أيضاً. هل ستأتي يا بيتور؟"

هززت رأسي. "لا أستطيع—"

"بالتأكيد سيأتي،" قال ألكسندر فجأة. "إنه خير جليس مما قد يوحي به مظهره الخجول ولسانه الفظ. إذا كنا متساوين هنا، فسيجلس الخادم والسيد كضيفين لديك."

قالت: "سآتي لأخذك بعد غروب الشمس. وبالمناسبة، حصانك في أيدٍ أمينة. لا داعي للقلق إلا أن بعض رجالنا لن يرغبوا في تركه يذهب."

ما إن غادرت حتى احتججت قائلاً: "يا سيدي، لا أستطيع".

لن أجادل في ذلك. إذا ذهبت وحدي، سأرغب في مضاجعة تلك الفتاة؛ فهي جميلة وجذابة عندما تتحكم في لسانها. من المحتمل ألا تكون فكرة ذكية، وإذا كنت هناك، فستفقأ عينيّ بسببها، لذلك سأفقد الرغبة على الفور.

"أضاجعها؟" انتابني رعب شديد. "أرجوك أن تتخلى عن هذه الفكرة يا سيدي. ليس من شيمنا أن نكون بهذه الحرية في مثل هذه الأمور، وهي ستعيش هنا لفترة طويلة بعد رحيلك. من النادر جدًا أن تدعوك إلى منزلها دون مرافق. إنه لطف كبير منها، لذا يجب أن تكون..."

"حسنًا. حسنًا. اطمئني. لم أفكر في الأمر بجدية. على الأقل لن آخذها رغماً عنها." تمدد على السرير وأغمض عينيه، مبتسمًا لنفسه برضاٍ ساخر، وكأنني لا أرى ذلك. أردتُ أن أرمي عليه شيئًا. كان يعلم أنني لن أتركه يذهب وحده الآن. "دعيني أنام قليلًا. نسائكِ مُرهِقات."

"وماذا عن الملكة؟" انتقمت منه انتقاماً تافهاً بمنعه من النوم حتى يشبع فضولي الذي كان ينخر في أحشائي.

"لم يسبق لي أن خضعت لهذا القدر من التدقيق والفحص والتمحيص. لم أكن أعلم أن هناك كل هذه الأسئلة في الكون."

"لكن ماذا قالت؟"

"أنني كنت ملعونة، وكان عليها أن تفكر في الأمر. الكثير من الكلام الفارغ مقابل كل هذا الاستجواب. هذا ما يحدث عندما تقوم امرأة بذلك. كان زوجها معها. كان يستمع جيدًا. طرح بعض الأسئلة، لكنه ترك معظمها لها."

"لقد قررنا منذ مئات السنين أن النساء أفضل من الرجال في مثل هذه الأمور. وفي عملنا تحديداً، كان هذا هو الفرق بين النجاح والفشل، والفشل فيما يتعلق بالشياطين يكون أكثر تدميراً من معظم حالات الفشل الأخرى."

"إذن، يطارد الإزاريون الشياطين. كيف تورطتم في ذلك؟"

ضحكتُ على سؤاله. كان متوقعًا أن يتوصل ألكسندر إلى اللغز الوحيد الذي يرغب الإزاريون أنفسهم في تفسيره. "في الحقيقة، لسنا متأكدين. لقد فقدنا الكثير من المعلومات من الماضي. لكن لدينا القدرة، القدرة المطلقة، على فعل ذلك، وقد طورنا المهارات على مر السنين، وإذا لم نفعل..." هززت كتفيّ. لم يكن من الممكن حقًا شرح الدمار الذي سيحل بالعالم إذا فشلنا في مهمتنا. القسوة، العنف، الرعب... كان هناك الكثير منه بالفعل لدرجة أنه كان من الصعب أحيانًا الشعور بأننا أحدثنا فرقًا. كان عليك أن تنظر إلى كل انتصار على حدة:

الزوجة التي لم تعد تُضرب حتى الموت، والطفل الذي لم يعد يُجوع، والعبد الذي تُرك دون تشويه، والرجل الذي لم يعد يبكي من الرعب الذي أحدثته يداه، والمرأة التي لم تعد تخدش عينيها للتخلص من الرؤى التي لا تنتهي. "... لا يوجد أحد آخر. هناك أهوال أسوأ من تلك التي نعيشها كل يوم."

"والنساء هنّ المسؤولات عن ذلك. يبدو هذا في حد ذاته أمراً شيطانياً."

قلتُ: "لكلٍّ منهم دوره، وهو على نفس القدر من الأهمية. تمتلك النساء مواهب معينة - أو ما يُمكن تسميته بالسحر - تُمكّنهن من القيام بأمور مُحددة. تتطلب مهام أخرى مهارات بدنية ومهارات سحرية، وهي مهارات تمتلكها النساء."

أقل احتمالاً—"

"قتال. أنت في الواقع تقاتلهم، أليس كذلك؟"

هكذا نُخرجهم - ليس بمحاربة الشخص المُستحوذ عليه، بل بالشيطان نفسه. في عالمٍ مُتشابكٍ من السحر والروح البشرية، لم يكن هناك تفسيرٌ بسيطٌ لسحر الآيف - البوابة والأرض التي تقع وراءها. "لو كان من يقومون بهذه الأمور هم أنفسهم من يتولون مهام الحكم أو الفحص، لكان ذلك سيُقيّد الكثير من المعرفة لدى الشخص الأكثر عُرضةً للخطر."

"كأنك ترسل كبير استراتيجييك إلى الطليعة؟"

تمنيت لو أنه يكف عن أسئلته. لم أكن أريد إخباره. لم أكن أريد حتى التفكير في الأمر. "هذا بالضبط."

"محاربون. محاربون يحاربون الشياطين. وكنتَ واحداً منهم، أليس كذلك؟ من قبل. ما رأيته لم يكن حلماً."

"أرجوك يا سيدي..."

صمت للحظة، مع أنني شعرت بنظراته تلاحقني.

"...أخبرني..." هل أردت أن أعرف أم لا؟ "من فضلك يا سيدي، أخبرني عن الملكة."

"جميلةٌ للغاية." استدار على السرير وخلع حذاءه. "باردةٌ كإلهةٍ من حجر، لكنّ عينيها وروحها متقدتان نارًا. عندما وصلتُ كانت تعزف على نوعٍ من القيثارة. ظننتُ أن حذائي قد يتصاعد منه الدخان. هل يتزوجون من غير الإزاريين؟"

"مستحيل. انسَ الأمر." تمنيتُ لو أستطيع نسيانها. كان سؤالي خطأً. موسيقى. لم يكن هذا صحيحًا. لم تعزف قط. إن لم تكن هي... تسلّل الظلام إلى كياني. رعب.

كان ألكسندر لا يزال يهذي. "قد يكون من الجيد لأهل إزاريا أن أكون فرداً من عائلتهم، كما تعلم. قرينها عيناه كعيون الضفدع..." ثم لفت انتباهي مجدداً. "ليس قبيحاً، لكن عينيه لا تبدوان غائرتين، بل مسطحتين على وجهه. مع ذلك، بنيته تشبه بنية المانغنار. لو كان مقاتلاً، لكان التخلص منه مهمة سهلة."

"أوه، إنه يجيد القتال حقًا." بإمكانه أن يلف اثنين من الثريد في عقدة وأن يسحق رقبة ديرزي بيده الأخرى.

"أنت تعرفه إذن؟"

"والملكة، إنها طويلة القامة، وشعرها أفتح من شعر معظم الإزاريين..." خصلات من ضوء الشمس الأحمر الذهبي تتخلل خصلات شعرها الكستنائي الداكن - مختلفة تمامًا عن الشعر الأسود الأملس الذي كان لدينا جميعًا. "... مع شق في ذقنها؟"

"يمكنني أن أقضي يوماً كاملاً أستكشف ذلك الشق. ويوماً آخر أستكشف ما تحت تنورتها، ويوماً آخر—"

"كفى!" قفزتُ من على الأرض. "يا إلهي، هل ستترك الأمر؟"

بالطبع، كانت يسان ملكة. لماذا شككت في ذلك للحظة؟ لقد تم إعدادها لذلك منذ الصغر. قوتها، وإدراكها، ومهاراتها صُقلت يوميًا. حتى القدر، في صورة غزو ديرزي، لم يكن ليمنعها.

اقترب مني ألكسندر وأنزل غطاء رأسي، وأمال رأسه جانبًا. "إنها ليست مجرد معارف، أليس كذلك؟ ليست مجرد ملكة؟ ربما قريبة؟ قيل لي إنك ابن غير شرعي من العائلة المالكة. لا يمكن أن تكون والدتك إلا إذا كان سحر إزاريا أقوى مما أتخيل. أم أنها كانت عشيقتك؟ ستكون تلك قصة تستحق أن تُروى. كيف—"

"لقد كانت زوجتي."

"خصيتي آثوس". من الغريب كيف يمكن التعبير عن التعاطف الصادق بهذه الفظاظة.

لم نكن قد تزوجنا رسميًا بعد، لكن الفرق كان دقيقًا جدًا بالنسبة لديرزي. لقد ارتبطت أنا ويسان عندما كنا في الخامسة عشرة من عمرنا، وخضنا معركتنا الأولى معًا في السابعة عشرة بعد أن اجتزت اختباراتي وأصبحت حارسًا. كنا أصغر ثنائي على الإطلاق ينجح في

طرد شيطان. لقد أصبحنا نفكر كشخص واحد، ودمجنا مواهبنا حتى أتمكن من التنقل بسهولة عبر بواباتها من العالم الذي نعيش فيه إلى الواقع، ساحة المعركة، التي خلقتها لي. هناك كنت سأبحث عن الشيطان لأطرده أو أدمره. كانت يسان قادرة على استشعار شكوكي ومخاوفي قبل أن أعرفها بنفسي، وترسل لي قوتها وسلطانها وعنايتها للتغلب عليها. لم يكن هناك حارس وفتاة من آيفي متناغمين مع بعضهما البعض كما كنا. لقد كنا مقدرين لبعضنا البعض، كما قلنا، وقد تعاهدنا من خلال مئة معركة وثلاث سنوات من تلك الألفة التي لا يعرفها الأزواج والزوجات. كنت أعرف أنها ستتزوج إذا عاشت. لقد مت. كانت ستصبح ملكة.

"وماذا عن الزوجة ذات العيون السمكية؟"

كانت تلك هي المفاجأة الحقيقية. "صديق". أعز أصدقائي منذ أن كنا قادرين على المشي. "في يوم سقوط إزاريا... عندما اشتدّت الأمور، أرسلته لجلب التعزيزات، سحرة قادرين على إحداث تشتيت، يسمحون لنا بإعادة التجمع، أي شيء يمنحنا خمس دقائق للتفكير، لإخراج الناس. قال إن الطريقة الوحيدة لفشله هي موته. لم يأتِ أبدًا، لذلك افترضت... طوال هذه السنوات، ظننت أنه مات."

"وبدلاً من ذلك، هرب مع زوجتك. يبدو الأمر وكأنه من عائلة ديرزي!"

أخيرًا، أخرجتني كلماته من شرودي. "بالطبع لا. لقد حدث شيء ما. لم يستطع العودة. وأصبحت حرة في الزواج."

منذ لحظة أسري. أنا فقط مندهشة من أنهما معًا، هذا كل ما في الأمر. لقد تشاجرا... وأثارا غضب بعضهما البعض، لذلك لم أستطع أبدًا أن أكون معهما معًا في وقت واحد. لم أكن لأظن أنهما سيتناسبان.

عاد ألكسندر إلى السرير، وقدماه الكبيرتان المرتديتان الجوارب تتدليان من طرفه. "من الواضح أنكِ لم تنظري. أنتِ ساذجة يا سيون. أظن أنكِ الوحيدة التي لم تلاحظ ذلك."

حاولتُ التخلص من اضطرابي. كان عليّ أن أفرح لأن اثنين أحببتهما بشدة ما زالا على قيد الحياة ووجدا الحب معًا. حبٌّ كافٍ لاستخراج الموسيقى من امرأة لم تؤمن يومًا بقدرتها على خلق الجمال، بل فقط مناظر طبيعية غريبة. بالطبع فرحتُ. لم يكن الإزاريون مثل الدرزي. كانت يسان بحاجة إلى شريك لتستغل مهارتها، وحبيب ليحتضن نارها. كان ريس رجلاً طيبًا وشريفًا. لم تكن هناك خيانة. لم يكن ألكسندر يعرف شيئًا عن الإزاريين. لا شيء.

الفصل 22

جلستُ على عتبة الكوخ طوال فترة ما بعد الظهر، متكئةً على عضادة الباب، أستمع إلى أنين ألكسندر وهمهمته في نومه، وأراقب الحركة الهادئة لمستوطنة إزاريا، وقد نجحتُ تمامًا في إبعاد كل أفكاري عن يسان وريس. وكما تتحرك الشمس في مسارها نحو القمم الغربية، خرج الرجل الذي يحمل العربة الفارغة من الغابة، مارًا بالكوخ، ليختفي خلف التلة التالية في الطريق. كانت امرأة عجوز تقود قطيعًا صغيرًا من الأغنام عبر حقل قريب بمساعدة جرو راقص. الإثارة الوحيدة كانت عندما انطلق شابان على ظهور الخيل في الطريق، ثم توقفا فجأة في منتصف الطريق، يضحكان بحماس ويتناثران بالثلج الذائب تحت أشعة الشمس. خرجت امرأة من دار السجلات ووبختهما، فبدآ في إعادة الخيول إلى الغابة. ابتسمتُ عندما، في اللحظة التي عادت فيها إلى المبنى، صاحا وانطلقا مجددًا. بعض الأشياء لا تتغير أبدًا.

بعد ساعة من الهدوء، اندفع الأطفال - ما بين خمسة عشر وعشرين طفلاً - من باب المدرسة وركضوا في كل اتجاه، بعضهم نحو النهر، وبعضهم نحو الغابة. توجهت فتاتان مباشرة إلى كوخ النساجة. ربما ستكون إحداهما النساجة التالية، تلك التي كانت قلب مجتمع إزاريا. كانت أمي هي النساجة في مستوطنتنا قبل أن تموت بالحمى عندما

كنت في الثانية عشرة من عمري. جلست فتاتان وفتى، أطفال أكبر سناً، على الصخور خارج المدرسة يتحدثون بجدية، يرسمون في الهواء بأيديهم، تاركين آثاراً فضية تتلألأ في ضوء الشمس. تأملات في الكون، كما خمنت، متذكراً مئات المحادثات المماثلة. محاولين فهم لماذا، من بين جميع شعوب العالم، كُلِّف الإزاريون بحماية الأرواح البشرية من الشياطين. مؤمنين بأنهم سيتحملون مسؤولياتهم يوماً ما، وأن آلاف الغرباء الذين يعيشون في العالم، دون أن يعرفوا أو يفهموا ما فُعل من أجلهم، سيصبحون جديرين بجماله. كنت أتوق للحظة إلى مشاركة براءتهم وجهلهم.

وصلت المرأة بعد غروب الشمس بقليل كما وعدت. كان الطريق خاليًا في ذلك الوقت، ولذا كانت في منتصف الطريق إلى كوخنا قبل أن ألمح عباءتها الخضراء وسط الأشجار التي بدأت تظلم. كان غريبًا أن تدعونا إلى منزلها. غرباء. متضرعون. كان قومي صادقين في ترحيبهم بكل من يحتاج إلى المساعدة، وكريمين إلى أبعد الحدود في التضحيات التي يقدمونها لصدّ قوى الشياطين. لكن منازلهم كانت ملاذاتهم الخاصة - ملاذات دافئة ومريحة لمن يعيشون في جوار الرعب والجنون. همس صوت ساخر في أعماق نفسي أن المحققة ليست سوى شابة أخرى مفتونة برجولة ألكسندر الفائقة ومكانته المرموقة في الحياة. لكنني نبذت هذه الفكرة سريعًا، وأقنعت نفسي بأن الأرجح هو ما قالته بالضبط. لطف. وربما رغبة في التحدث مع شخص جديد.

كانت إزاريا معزولة عن العالم. كان ذلك ضروريًا. لم نجرؤ على كشف نوايانا لأحد، خشية أن تجذبنا الشياطين، أو أن يتدخل باقي البشر في عملنا. لكن في تلك الأيام، كان السفر بين مستوطناتنا كثيرًا، وكان لدينا مئة فريق أو أكثر من فرق البحث تجوب العالم، تأتي وتذهب باستمرار حاملةً الأخبار والمعلومات والكتب. ومع قلة عدد الإزاريين المتبقين، واختبائهم جميعًا، لم يكن بالإمكان سوى وجود عدد قليل من الفرق في الخارج، والتواصل مع الغرباء في أضيق الحدود.

وقفتُ عندما أتت، وانحنيت، وفتحت الباب.

قالت وهي تخفض غطاء عباءتها: "مساء الخير"، لكنها حرصت بشدة على إبقاء عينيها بعيدتين عني.

قلتُ: "مساء الخير سيدتي"، وأنا أكتم الاعتذار الذي كان على وشك أن ينطق به لساني. لم يكن بوسعي تحمل اهتمامها أو صداقتها. كان عليّ أن أبقى بعيدًا عنها حتى تعترف بي على الأقل كإنسان، مهما كان تصرفي فظًا.

كان ألكسندر جالسًا على الطاولة، ورأسه منحني فوق كوب من النازريل الساخن. عندما أيقظته عند غروب الشمس، كاد يكسر ذراعي قبل أن يتخلص من أحلامه المضطربة. اشتكى من أنه لم ينم سوى ساعة واحدة، وبالفعل كانت هناك هالات سوداء حول عينيه، وبشرة وجهه مشدودة. لكنه استعاد نشاطه سريعًا عندما أتت المرأة. انتزع عباءته من الخطاف على الحائط، ولوّح بها حوله بحركة مسرحية وهو يثبتها على كتفيه.

"أخيراً! لقد بدأت أفقد الأمل في كرم ضيافة إزاريا. خذيني بعيداً، سيدتي الكريمة. إلى أي مكان."

كانت ابتسامة خفيفة تتلألأ تحت طبقات من الوقار والجدية والرسمية الرقيقة - عبء أدوار ثقيل على شابة هادئة ورشيقة. قالت: "لا بد أننا نبدو قرية مملة للغاية لشخص قادم من حياة مختلفة تمامًا. لا أملك إلا نزهة ممتعة، وإن كانت باردة، في الغابة، ووجبة بسيطة، وربما بعض الحديث. ليس هذا ما يُسمى أمسية في بلاط زاغاد."

قال ألكسندر وهو يمد ذراعه: "سيدتي، الرفقة هي التي تُضفي على الأمسية رونقها". فأومأت المرأة برأسها وأخذت ذراعه. وبينما كانا يخرجان من الباب، نظر الأمير من فوق كتفه وابتسم ابتسامة خبيثة، ونادى: "هيا بنا... يا بيتر. لا تريدني أن أستمتع وحدي".

كنت أسير في المؤخرة، ألعن أمراء ديرزي ومسارات الحظ، كما أصبحت عادتي غير اللائقة في الآونة الأخيرة.

أثارت مرشدتنا دهشة ألكسندر عندما أضاءت بيدها ضوءًا فضيًا يُحاكي ضوء القمر، مُرشدةً إيانا على طول الطريق. كل بضع خطوات، كان يتفرع مسار أصغر، مُتشعبًا في ظلام الغابة، حيث يُمكن رؤية أضواء فوانيس منزلية تومض من خلال حركة الأشجار.

أثقل فسادي كاهلي منذ اللحظة الأولى التي دخلنا فيها مستوطنة إزاريان، وبينما كنا نمر تحت ظلال الغابة، خلف حواجز السحر التي نسجتها المرأة بصوفها المعلق في نافذتها، أصبح عبء روحي النجسة لا يُطاق تقريبًا. عندما كنت أستنشق الهواء النقي، عادت كل انتهاكات جسدي وعقلي لتطاردني: كل لمسة غير لائقة، كل ليلة من الجماع القسري مع نساء أو رجال لا أعرفهم، كل قطرة ماء نجس، الطعام الذي لم يكن نظيفًا أبدًا، بل نصف متعفن أو مأخوذ من حيوانات نجسة أو حقول مروية بالروث، دمي مكشوفًا للمس الغرباء، يداي مغمورتان في قذارتهم، جسدي الذي كان يومًا ما مكرسًا لخدمة الشرف والحقيقة، مشوهًا ومشوّهًا ومجبرًا على التذلل أمام من يعتبرون أنفسهم آلهة. كنت أعلم أن لا شيء من ذلك كان خطأي. لم أفعل شيئًا لأستحق ما

حدث لي، على عكس ما قد يفترضه الكثير من قومي. لكنّ المنطق – كلّ الحجج والفلسفات التي استخدمتها مع لير – لم تُؤثّر في مشاعري. وبينما كنت أسير خلف ألكسندر والمرأة الإزارية، تمنّيتُ لو أستطيع الهرب من ذلك المكان إلى الأبد.

قالت المرأة: "هنا"، وهي تقودنا إلى اليسار على طول أحد المسارات الضيقة وعبر جسر خشبي للمشاة يمتد فوق جدول متدفق. أشرق ضوء الشموع الأصفر المبهج من نوافذ كوخ واسع، موحيًا بالراحة والرفقة والألفة. لكي يكون المرء حارسًا، عليه أن يكون قادرًا على عزل نفسه عن الآخرين، وألا يعتمد على أحد سوى شريكه الذي يحمل البوابة. عليه أن يتقبل العزلة والاكتفاء الذاتي. كانت هذه مهارات وعادات حافظت على حياتي وعقلي خلال سنوات عبوديتي، لكنها لم تكن بلا ثمن. لم أشعر قط في حياتي بمثل هذه الوحدة.

"تفضل بالدخول واستدفئ." دفعت الباب ودخلت. تبعها ألكسندر. وصلتُ إلى المدخل ووقفتُ أتأمل الماضي في ذهول.

كانت الغرفة واسعة، أرضيتها الخشبية مغطاة بسجاد منسوج بلون بني محمر وأخضر غابي، وكراسيها وطاولتها من خشب الصنوبر الداكن الأملس، مُزينة بوسائد وأقمشة مخيطة بألوان الخريف. كانت الغرفة مُرتبة بشكل جميل، مُزينة بالكتب والأوراق وسلال التطريز وأقماع الصنوبر والمكسرات. كان أحد طرفي الطاولة الطويلة مُجهزًا لثلاثة أشخاص، بينما كان الطرف الآخر مُجهزًا بمدقة وهاون ومجموعة من الأكياس الصغيرة المخيطة. بدا وكأنها كانت تُغلف أعشابًا مُجففة من الموسم السابق، إذ كانت حزم الأعشاب مُعلقة من العوارض الخشبية فوق الطاولة، وبعضها الآخر مُلقى بجانب الأدوات. كانت رائحة الغرفة تفوح بالزعتر وإكليل الجبل ورائحة اللحم المشوي على سيخ فوق نار الموقد. كانت الجدران مُزينة بمنسوجات جميلة غنية الألوان، بعضها بنقوش بسيطة، وبعضها الآخر برسومات مُفصلة تُصور حياة الإزاريين.

خلعت السيدة عباءتها وعلقتها على وتد خشبي داخل الباب. وقالت: "تفضل بالدخول. يأتي الربيع متأخراً هنا، والليالي باردة دائماً".

"لا أستطيع،" تلعثمتُ بغباء. "سأنتظر في الخارج... أو أعود. لا أنتمي إلى هنا... أتناول الطعام... مع الأمير." انطلقت الكلمات غير المفهومة من فمي لأنني لم أستطع تحمل المغادرة، ومع ذلك لم أستطع تقبّل عواقب الدخول. كيف لي أن أبقى مرتديةً عباءتي وغطاء رأسي في تلك الغرفة؟

قال ألكسندر بلطف: "تفضلي بالدخول". ثم قال للمرأة: "خادمي متأثر بالبرد بشدة. هل يُعدّ ذلك مخالفة لعاداتكم إذا أبقى عباءته عليه لفترة... حتى يشعر بالراحة؟"

قالت المرأة: "له أن يفعل ما يشاء". ثم قالت لي: "تعال إلى النار لتتدفأ". "لقد استغرقني الأمر ثلاثة فصول شتاء هنا لأعتاد على ذلك."

البرد. هل أنت من المناطق الجنوبية؟

قلتُ بصوتٍ خافت: "نعم"، ودخلتُ إلى الداخل.

أغلقت الباب وأخذت عباءة ألكسندر، ثم استأذنت واختفت من خلال مدخل على اليسار.

قال ألكسندر بهدوء: "عليك أن تفعل ذلك في وقت ما. إنها ليست شخصًا تعرفه، لذا قد يكون الأمر أسهل معها. ربما يكونون قد غيروا أساليبهم."

"ربما أصبح الدرزيون صانعي سلام."

"أنت رجل. أخبرهم أنهم مخطئون بشأنك. لقد أقنعتني بعدد من الأشياء التي لم أكن أرغب في تصديقها."

"لقد قلتها بنفسك يا سيدي. أنا عبد، لست رجلاً. لن يسمعوني عندما أتكلم."

لم يُجب. عادت السيدة وبدأت بوضع الطعام على المائدة. وضعت خبزًا ساخنًا، وبطاطا مشوية على جمر النار، ووعاءً من الفواكه المجففة، وطبقًا من اللحم مقطعًا إلى شرائح رقيقة من القطعة التي كانت على سيخ الشواء. وبينما كانت تصب ثلاثة كؤوس من النبيذ، دعتنا للاستعداد.

همّ ألكسندر بالتوجه نحو الطاولة، لكنني أمسكت بذراعه وأشرت برأسي إلى إناء الفخار المزخرف والإبريق الموضوعين على طاولة صغيرة بجانب الموقد. بدا عليه الحيرة، لكنني سحبته معي وأريته كيف يغسل يديه بالماء والمنشفة الكتانية الصغيرة الموضوعة بجانبه. أعجبت السيدة بذلك.

قالت وهي تقدم طبق اللحم لألكسندر الذي تحرك بانزعاج في كرسيه: "لا داعي للحديث أثناء تناولنا الطعام". كان معتادًا على الاسترخاء على الطاولة، ولم يكن يعرف ماذا يفعل بالطبق المقدم.

قلت بهدوء: "هل لي أن أخدمك يا سيدي؟" وأخذت الطبق من المرأة والتقطت الشوكة التي كانت موضوعة عليه.

قال: "مهما كان ما يتم فعله".

ملأت طبقه وطبقي. بدت المرأة وكأنها لم تلاحظ ذلك. أي أنها كانت بارعة في تجاهل السلوك المحرج.

قالت لألكسندر بعد أن تم تقديم كل شيء وبدأنا بتناول الطعام: "أخبرني يا سيدي، ما هو أكثر شيء تستمتع به في حياتك؟"

كان سؤالاً بسيطاً، طُرح بجدية. لم يكن سؤالاً تافهاً. أرادت حقاً أن تعرف الإجابة وأن تُوازنها مع كل ما تعلمته. أدرك ألكسندر الأمر نفسه، فأخذه بعين الاعتبار بجدية، بدلاً من أن يتفوه بشيء أحمق كما كان ليفعل في كفرنا.

قال أخيرًا: "الخيول"، ثم ضحك من أعماق قلبه على نفسه. "أمرٌ مذهل، أليس كذلك؟ لم أفكر في الأمر بهذه البساطة من قبل. لقد مُنحت كل ما قد يتمناه المرء في الحياة، لكن أكثر ما أعتز به هو قدرتي على ركوب أفضل الخيول في العالم."

"الخيول مخلوقات جميلة حقاً"، قالت، وعيناها الداكنتان مثبتتان عليه باهتمام جاد لدرجة قد تدفع الرجل إلى بذل كل ما في وسعه.

"أذكياء. هذا ما يعجبني فيهم. عنيدون. لا يمكنك ترويضهم، ليس دون أن تجعلهم أقل مما هم عليه. للحصول على أفضل ما لديهم، يجب أن تقنعهم بجدارتك بأن تكون فارسهم."

استقطبته إلى حوارٍ دام ساعةً كاملة، وهو أمرٌ مُدهشٌ لفتاةٍ شابةٍ مُدللةٍ تتحدث مع أميرٍ مُحنّكٍ في شؤون الدنيا. تحدثا عن الخيول وسباقاتها، ثم انتقل الحديث إلى الصحراء وعشق ألكسندر لأراضي مولده الحارة والجافة. وتحدثت عن الأعشاب واستخداماتها المتعددة، وعن الطقس والكتابة والأشجار. حاولت مرارًا إشراكي في حديثها المُطوّل، لكنني كنت أكتفي بإجابةٍ مُقتضبة، رافضًا مُجاراتها.

بعد فترة، وجدتُ نفسي قد نسيتُ تناول الطعام بينما كنتُ أراقبها. كانت تحمرّ خجلاً بسحرٍ خاص عندما ينغمس ألكسندر في قصةٍ ما لدرجة أنه يتفوّه بكلماتٍ بذيئة - ثم يخنقها - أو عندما يتجاهل بوضوحٍ تامٍّ الجزء الذي يتحدث فيه عن كيف اصطحب فتاة مانغانار النارية، التي كانت تركب الخيل ببراعةٍ فائقة، إلى فراشه. كانت تتفاعل مع هذا الحوار كزهرةٍ مسحورة، تتفتح وتزهر في غضون ساعةٍ واحدة.

قالت: "أنتَ راوي قصص بارع يا سيدي". ثم حوّلت انتباهها إليّ مجدداً. "أما أنتَ... فنادراً ما أجد صعوبةً في جعل ضيوفي يشعرون بالراحة. أنتَ تختبر كل مهاراتي. ربما لا تستمتع بالحديث".

قلت: "أحياناً تكون أعظم متعة هي الاستماع إلى أولئك الذين يجيدون ذلك".

لقد فوجئت حقاً بإجابتي.

"لا يجد صعوبة في الحديث عندما يخبرني بكل الأشياء التي أفعلها بشكل خاطئ"، تمتم ألكسندر وكأنه يخاطب نفسه.

"حقاً؟" قالت وهي توسع عينيها باهتمام. "لا بد أنك خادم مفضل حتى تحظى بمثل هذه الثقة من الأمير. أنت أقرب إلى الصديق منه إلى الخادم."

احمر وجه ألكسندر بشدة بلون أحمر فاقع.

بالطبع، لم تكن لديّ رغبة في إجراء مثل هذا الحوار. "هل لي أن أساعدكِ في تنظيف الطاولة يا سيدتي؟ بعد هذه الوجبة الشهية، لا ينبغي أن تتحمل المضيفة وحدها عبء التنظيف."

قالت وهي تنهض من كرسيها: "سيكون ذلك لطفاً كبيراً". ثم أرشدتني إلى مكان وضع الأطباق، وسألتني إن كنت سأحضر الماء لغسلها.

أخذتُ دلوها وخرجتُ من الباب، مُرحِّبةً بالبرد. كنتُ أشعر بحرارةٍ شديدةٍ في عباءتي، فقد كانت تُبقي النار مُشتعلةً جيدًا لراحتي. وجدتُ البئر بجانب المنزل وغمستُ الدلو. ربما كان سحر الغابة أو حاجتي لتخفيف ألم قلبي بلمسةٍ من النعمة المنسية، لكنني نطقتُ بكلمات مباركة الماء وأنا أرفع الدلو: "Sych var de navor, caine anwyr". هبة الأرض والسماء، طهِّري أيدينا. بدا من الصواب قولها في تلك الليلة.

عندما نهضتُ لأعود إلى المنزل، كانت المرأة تقف خلفي مباشرةً. كانت تحدق في يدي التي تحمل الدلو، وجسدها متصلب كما لو أن الدلو مليء بالأفاعي. نظرتُ إلى أسفل لأرى ما الذي يزعجها. كنتُ قد رفعتُ كمّي لأبقيه بعيدًا عن الماء، تاركًا السوار الحديدي حول معصمي مكشوفًا.

"أنت عبده، لا خادمه."

"نعم."

"هل يمنعك من إظهار وجهك؟"

أردتُ أن أقول لها نعم، لعلّ ذلك يُلهيها عنّي. لكنها ستكتشف الكذبة، وكان الغضب واضحًا في صوتها. كان ألكسندر بحاجة لمساعدتها.

"لا، هذا خياري." بعد فوات الأوان، سحبتُ كمّي لأسفل لأخفي ما يكشف الأمر. "يجب أن ندخل. أنتِ لا ترتدين عباءة."

"لقد خرجت لأريك من أين تحصل على ماء الغسيل، ولكن من الواضح أنك كنت تعرف أين تبحث."

"أخبرنا هوفيد عن عاداتكم وأرانا الخزان في بيت الضيافة. افترضت أن الأمر نفسه هنا." كنت مرتبكًا وتلعثمت في الكلام.

صعدت الدرج ببطء نحو المنزل وتوقفت قبل أن تفتح الباب. "وهل أخبرك أيضاً باسمه، وبالدعاء الذي نقوله عندما نستقي الماء؟"

لم تنتظر إجابتي، بل دخلت وواجهت ألكسندر، وكانت وجنتاها وعيناها تشتعلان بأكثر من مجرد النار. "أنا من أحضرتك إلى هنا."

الليلة لأتعرف أكثر على من يحمل الفيدناخ. لم أستطع أن أتقبل أميرًا من الديرزي موسومًا بنور القدر. أخبرتنا أنك أُرسلت إلى هنا بواسطة عبد، وتركتنا نعتقد أنه شاب، ضائع منا، ظننا أنه عاجز عن اكتشاف مثل هذا. كذبت عليّ، لكن بدا لي الأمر تافهًا مقارنةً بحقيقة ما تحمله وسحرك الشيطاني. لكنني لم أتقبل الأمر بسهولة. ضمت شفتيها وهزت رأسها. "لذا قررت أن تتحدث إلى شخص آخر، شخص أكثر حكمة مني، قد يكشف الكذبة. لكنني الآن كشفت كذبة أخرى، وقبل أن نمضي قدمًا، يجب أن أعرف إلى أي مدى خُدعت."

واجهت ألكسندر أولاً، وأغمضت عينيها، وضغطت بقبضتها على صدرها، وقالت: "اليس نا كاترين". ثم فعلت الشيء نفسه معي. ثم انتظرت، وعيناها مغمضتان. تستمع.

همس ألكسندر: "ماذا تريد؟"

تنهدتُ وتقبلتُ ما كان حتميًا. تكلمتُ بصوتٍ عالٍ: "لقد منحتك يا سيدي هبةً عظيمة، هبة اسمها، والثقة والقرابة التي تحملها هذه الهبة بين أهل إزار. أنت ضيفها، وإذا أردتَ أن تردّ الجميل، فعليك أن تفعل المثل."

"لكنني أخبرتها باسمي بالفعل. لا داعي للمزيد من ذلك."

"كررها مرة أخرى، مع قسمك الضمني بأنك لن تستخدم اسمها لخيانة مشاعرها. افعل ذلك هنا، بهذه الطريقة، وستعرف أنك صادق في كلامك. بمجرد أن تفعل ذلك، لن تكذب عليها."

سأل بعينيه ويديه إن كان عليه أن يقوم بنفس الإيماءات التي قامت بها، فأومأت برأسي. ثم قبض قبضته أمام صدره، وأغمض عينيه، وقال: "اسمي ألكسندر جينيازار إيفانيسكي تشا دينيشكار".

ثم جاء دوري. لم تكن قد تحركت بعد. أنزلت غطاء رأسي، وأغمضت عيني، وقبضت يدي بقوة حتى ظننت أن الدم قد يسيل منها. قلت: "سامحيني يا سيون".

لم يكن هناك داعٍ لسرد الذنوب التي أستحق عليها المغفرة. لقد جلبتُ فسادي إلى منزلِها، وأكلتُ طعامها، ولمستُ أغراضها، وكذبتُ عليها. لكن لم يكن ليُجدي نفعًا لو سردتُ عيوبي. لن تُصغي. عندما فتحتُ عينيّ، كان ألكسندر يُراقبني بفضول. كان ظهر السيدة يختفي من خلال الباب الداخلي، وقلبي كالحجر.

قلت: "يجب أن أذهب قبل أن تعود".

قال الأمير: "لقد كنت مخطئاً. لقد رأتك بوضوحٍ شديد. ولم يكن ذلك بكراهية أو اشمئزاز أو أي شيء كنت تتوقعه."

"لقد كانت صدمة. مفاجأة. لن تنزلق مرة أخرى. آمل فقط ألا أكون قد أضررت بفرصكم في الحصول على مساعدتهم. عليّ أن أغادر."

هز ألكسندر رأسه. "لم تكن صدمة من هذا النوع. أعتقد أنه يجب عليك البقاء."

كانت هناك درجات خلف المدخل، وكنتُ أتوق بشدة للمغادرة. "أرجوك يا سيدي، لا أستطيع البقاء هنا."

"وإلى أين تظن نفسك ذاهباً، يا فتى مثلك، غير كفؤ، جاهل، غير مدرك، وغير مناسب لأعظم مواهبك... آه، يا فيردون ارحم... أعظم مواهبك؟"

كان يقف عند المدخل، متكئاً على ذراع كاترين، رجلٌ عجوز. خصلةٌ من الشعر الأبيض الجامح منتصبةٌ فوق وجهٍ مربعٍ يحده فكٌّ عنيدٌ للغاية. كان يرتدي رداءً أحمر داكناً، وظهرت عليه علامات الشيخوخة، لكن عينيه الداكنتين كانتا تنبضان بالحياة.

همستُ باسم "المعلم غالادون"، ثم رفعتُ يديّ بيننا، وبسطتُ راحتيّ على اتساعهما كما لو كنتُ أستطيع الاختباء خلفهما. لم أكن أطيق أن يرى معلمي الحبيب ما صرتُ إليه.

"هل أنت يا فتى؟ تعال إلى هنا." أجلسه كاترين على الكرسي بجانب النار.

قلتُ وأنا أحوّل نظري: "Gaenad zi".

"أنت بالتأكيد عاصٍ، لكنني وحدي سأحكم ما إذا كنت نجساً أم لا. الآن، تعال إلى هنا."

نظرتُ إلى المرأة طلبًا للمساعدة، لكن عينيها، اللتين تلمعان حبًا ودموعًا، كانتا مثبتتين على الرجل العجوز. كاترين. حفيدة غالادون، الجنية ذات العينين الداكنتين التي راقبت كل خطوة مؤلمة من تدريبي، والتي كانت تحضر لي الماء والحلوى عندما كنت منهكة، والتي كانت تخبرني أنني قوية ورائعة عندما كنت أمضي ثلاثة أيام دون أن أفعل شيئًا صحيحًا. كانت في الحادية عشرة من عمرها فقط عندما أُخذت. كيف يمكن أن تكون هذه الشابة المتألقة هي كاترين؟

أشار غالادون إلى السجادة التي أمامه. "هذا سيكون مكاناً جيداً."

ركعتُ على السجادة أمامه، ووضعتُ يديّ، باطن الكفين للخارج، أمام وجهي. "يا سيدي، إن رؤيتك نعمةٌ عظيمةٌ في حياتي، ولكن عليّ الرحيل. لا أنتمي إلى هنا."

كان وجهه مُجعدًا من آثار الزمن والحزن، لكن عينيه كانتا أصغر من عمري بكثير، تُشعّان بدفءٍ بهيجٍ يُذيب روحي المتجمدة. بحزنٍ رقيق، مرّر يده برفق على الندبة في وجهي، ولمس خواتم العبودية على معصميّ، ثم أمسك بيديّ بين يديه الدافئتين المُتجعدتين. "تينوخ هافيد، سيون. فاسيد ديسين." تحية قلبي، سيون. أهلًا بعودتك إلى ديارك.

الفصل 23

لم يكن هناك الكثير ليُقال بيني وبين غالادون. لم أُفصح له عن الفساد الذي عشته، ولم يكن هو بحاجةٍ لإخباري بأحزانٍ كشفها لي الزمن والمنطق: وفاة والدي وأختي، وهجر إزاريا وإعادة بنائها هنا في البرية، وزواج خطيبتي من صديقي المُقرب. سألته سؤالاً مُتردداً عن حال يساني، لكنه رفض الحديث عنها.

في الحقيقة، لم تكن الكلمات لتُضاهي بركات تحيته. احتفظتُ بها في أذني وقلبي، رافضًا أن يُطغى عليها شيءٌ مني، لكنني خشيتُ أن يُسيطر الصمت على حزنه وكبر سنه. قلتُ بهدوء، وأنا أُبعد يديّ عنه: "يا سيدي، عليّ أن أغادر قبل أن يراني أحد. سامحني على قدومي."

رفع وجهي لأنظر إليه، فرأيت دموعًا لم يكن ليصدق أي طالب أنه قادر على ذرفها. "لم ترتكب أي ذنب يا ابن قلبي، سوى تأخرك في العودة إلينا."

قلت: "لم يتغير القانون"، مع علمي بأنه لن يعارضني، حتى مع أنني كنت أتمنى أن يفعل ذلك.

"ما قيمة أي قانون إذا كان يدين—؟"

"أرجوك يا سيد غالادون، إن كنت ستسدي لي خدمة واحدة تخليداً لما كان، فأرجوك أن تستمع إلى قصة الأمير وتحذر الآخرين مما تعنيه. هل أخبرتكِ يا كاترين، هل أخبرتكِ عن الخليد؟"

استند الرجل العجوز إلى كرسيه وعقد حاجبيه. "هل يُعقل أن أصدق قصة ديرزي هذه؟ حامل شيطان حقير يظن أنه يستطيع امتلاك إنسان آخر؟ شخص فعل بك هذه الأشياء الشنيعة؟" نظر إلى ألكسندر باشمئزاز، ولم يستطع إخفاء استيائه عندما عاد بنظره إليّ.

قلتُ: "أنا لستُ مهمًا. أجل، عليكَ أن تُصدّقه. لقد كنا مُخطئين يا غالادون. طوال هذه السنوات اعتقدنا أنهم الديرزي الذين حذّرت منهم نبوءة إيدا. ظننا أن لدينا متسعًا من الوقت قبل أن يندمجوا مع الشياطين. لكنني مُقتنع بأن الغزاة القادمين من الشمال هم الخليد، وليس الديرزي. لقد رأيتُ غاي كيالت وشاهدتُه يُشرك شياطين أخرى في مؤامراته. وهذا الأمير..." في لحظة كلامي، تحوّلت نظرياتي الناشئة إلى قناعة. "... يا سيدي، قد يكون هو مُحارب الروحين."

"مستحيل!" لم يُفلح التقدم في السن في إسكات هدير غالادون.

أخذت كاترين ألكسندر عبر الغرفة وأرته المنسوجات المعلقة على الجدران. كان الأمير يستمع إليها باهتمام، ويداه متشابكتان خلف ظهره. لم يكترث أي منهما لثورة غالادون.

قلتُ بصوتٍ خفيض: "انظر إلى داخله يا سيدي. حتى بدون أي قوة، كدتُ أُعمى بنظراته. حتى وأنا أعيش في ظل ما هو عليه، رأيتُ بصيص الأمل لما يمكن أن يكون عليه. أعلم أنه من الصعب تصديق ذلك، لكنه واضحٌ لي تمامًا. إن كان هناك رجلٌ ذو روحين، فهو ألكسندر."

لكن غالادون لم يهدأ، ولم تتزعزع قناعاته الراسخة. قال: "أنتِ محاربة النبوءات يا سيون. عرفتُ ذلك منذ طفولتكِ وأنتِ تتسلقين الأشجار، وتتنفسين الميليدا قبل أن تفهمي معناها. نزل الديرزي من الشمال كما تنبأ العرافون، وخسرنا المعركة الأولى. أعلم أن المعركة الثانية قادمة - حين تظهر الشياطين في أوج شرها - وعليكِ أن تكوني مستعدة. علينا جميعًا أن نكون مستعدين. لقد كنا نستعد، وننتظر، ونأمل... لهذا السبب عرفتُ أنكِ لستِ ميتة كما ادعى البعض منا. طوال هذه السنوات، وثقتُ في فيردون المقدسة أن تعيدكِ إلينا. لن تتركنا بدون

المحاربة. لقد جعلني هذا أعيد التفكير في كل شيء: القانون، والنبوءات، وأفكارنا عن السلطة والفساد."

"يا سيدي، لقد اجتزت الطقوس. ليس لدي شيء—"

لكنه لم يُعرني اهتمامًا أكثر مما يُعر الجبل اهتمامًا للبعوضة. "خطتي جاهزة، والأساسات مُمهدة، والأسرار محفوظة ومُصانة، في انتظار عودتك وسيرك في الدرب الذي رُسم لك منذ فجر التاريخ. أنت تعتقد أن قوتك قد ضاعت، لكني أؤمن أن معاناتك قد صقلت شخصيتك من جديد، وستجد أن الماضي لم يكن سوى ظلٍ لمجدك."

"آه، يا سيدي..." كنت لأضحي بعيني لأصدقه، لكنني عشت طويلاً مع الحقيقة. "افحص الأمير وأخبرني بما ترى."

ضحك ألكسندر في تلك اللحظة، وضحكت كاترين، وعيناها الداكنتان تتألقان في ضوء المصباح، معه، فكانت أصواتهما الشابة مزيجاً متناغماً من الحياة والجمال.

قال غالادون: "يا فيردون، كن رحيماً. أنت تهتم لأمره. كيف يكون ذلك ممكناً؟"

"افحصه يا سيدي."

حدق بي الرجل العجوز بغضب كما لو أنني وضعت أرنباً مسلوخاً في حجره. "كاتيا، أحضري لي المتضرع."

لو كنتُ طالبًا مرة أخرى، لكانت حدة نبرة غالادون الحادة قد دفعتني للفرار. لم يكن ألكسندر يعرف شيئًا عن الليكايس.

"إذن، ما الذي كنتما تتجادلان بشأنه؟ ظننت أنكما ستجعلانني أبكي مثل جدة سوزيني بلقائكما العذب، ثم بعد أن قلبني النسر العجوز رأساً على عقب وتركني أشعر وكأنني بركة من اللعاب، بدأتما بالصراخ على بعضكما البعض."

"لم أكن أصرخ."

"حسنًا، لقد كان يصرخ بما يكفي لكليكما، وكان يقصدك أنت."

كنتُ أنا وألكسندر نُسرع على درب الغابة المُغطى بالثلوج، عائدين إلى القرية. كانت كاترين تُخطط لمرافقتنا، لكن جدها كان مُنهكًا ويحتاج إلى رعايتها. لا يُمكن أن يكون عمر غالادون أقل من ثمانين عامًا، ورغم أن عناده رفض الاعتراف بذلك، إلا أن جسده كان يُدرك ذلك بوضوح. كان القمر بدرًا مُكتملًا. لن نضل الطريق.

كنتُ أتوق للعودة إلى بيت الضيافة، حيث أستطيع الجلوس في الظلام والتفكير. كنتُ بحاجة إلى تصفية ذهني من الفوضى التي أحدثها غالادون. ومما زاد الطين بلة أنه بدأ يُجبرني على ترديد أشياء له كما لو كنتُ في العاشرة من عمري: قصيدة عن السفن، كلمات أغنية، تعويذة إنضاج الفاكهة، النبوءة الثانية لميدرين، وخمسمائة معلومة أخرى. استخرجتُها جميعًا من رأسي، متعثرًا في الكلمات والنبرات، محاولًا ألا أرفض له شيئًا، وهو الذي حاول أن يُعطيني كل شيء. استمر الأمر طويلًا، حتى أنني لم أستطع استيعاب كل شيء. لم يُعطني أبدًا وقتًا لالتقاط أنفاسي... أو لطرح جميع الأسئلة التي كنتُ أتوق إلى إجاباتها. كانت خطته جاهزة، ولم يرَ ضرورة لإطلاعي على تفاصيلها.

"إذن، ما كان موضوع الخلاف؟"

قلتُ: "الأمر برمّته مرتبط بنبوءة"، مُحاولًا تجنّب إلحاح الأمير عليّ بمزيد من الأسئلة. "لطالما تنبأ عرافونا، على مرّ القرون، بأنّ سلالة من المحاربين من الشمال ستُدمّر العالم. ستكون هناك معركتان. الأولى ستُخلّف الناس في رعبٍ شديد، والعالم مُلطّخًا برائحة الدماء والدمار. أما المعركة الثانية فستكون أشدّ وطأة، لأنّ محاربي الشمال سيتحالفون مع الشياطين. الأمل الوحيد سيكون في محارب آخر - محارب الروحين - مُقدّر له أن يُعيد شعبه إلى عظمته. هذا الشخص سيُنازع غاي كياليت، سيد الشياطين، وفي نزالٍ فردي سيُحدّدان مصير العالم."

"وهل تصدق هذا الهراء؟"

"لقد رأينا سلالة المحاربين قادمة من الشمال. ولم يكن بالإمكان إنكار الدماء أو العويل."

توقف الأمير في منتصف الطريق المضاء بضوء القمر. "أتظنون أن أنبياءكم تنبأوا بقدومنا - قدوم الدرزي؟"

"هكذا يعتقد قومي"، قلتُ بتعبٍ وأنا أواصل السير، متلهفًا للنار والبطانيات التي تنتظرنا في دار الضيافة. من بيوتٍ متناثرةٍ بين الأشجار، لمحتُ ضوء نارٍ خافتًا. أصواتٌ خافتةٌ وضحكاتٌ تداعب النسيم البارد. كانت الأنوار كثيرةً جدًا، حتى خطر لي أن عدد الإزاريين هنا يفوق ما أخبرني به لير.

لحق بي الأمير وأوقفني مجدداً، هذه المرة ممسكاً بذراعي. "لكنكِ تعتقدين شيئاً آخر." كيف له أن يكون مثابراً إلى هذا الحد بعد الأيام المرهقة الماضية؟

«لا تغضب يا سيدي، لكنني أعتقد أن الديرزي كانوا مجرد صدفة. سواء كانت نبوءة أم لا، فإن الخليد هم الخطر الحقيقي. إنهم الغزاة القادمون من الشمال بلا أرواح. يجب أن نواجههم، وقد تضاءلت صفوف الإزاريين بالفعل.» قال غالادون إنه لم يتبق سوى ثلاثة حراس. ثلاثة فقط. اثنان منهم طلاب لم يسبق لهم خوض غمار التدريب، والثالث هو ريس. صديقي، الذي كافح خلال تدريبه وكاد أن ينهيه خمس مرات، اجتاز اختباره أخيرًا. كنتُ واحدًا من عشرة حراس ذوي خبرة. كيف استطاع ريس تحمل هذا العبء؟ «كنا نظن أن لدينا متسعًا من الوقت قبل أن يندمج الديرزي مع الشياطين. وأننا سنحصل على تحذير كافٍ. لكن الخليد قد اندمجوا معهم بالفعل. إذا كان هناك كائن يُدعى المحارب ذو الروحين، فمن الأفضل أن نجده.»

"يبدو الأمر فوضى محيرة - روحان. لا يبدو أنني أستطيع التعامل مع إحداهما بشكل صحيح، على حد قولك. فماذا عن غالادون هذا؟ هل يستطيع أن يخلصني من لعنتي؟ لم يُجب عندما سألته."

قال لي: "سيكون الأمر صعبًا للغاية". أخبرني غالادون أنه مستحيل، وأن الضرر الذي لحق بنا جسيم للغاية. إن محاولة إزالة السحر ستدمر ألكسندر، وقد تجذب انتباه الشياطين في وقتٍ نحن في أمسّ الحاجة إليه. ادّعى غالادون أن خططه - بما في ذلك خططي - لا يمكن المخاطرة بها. لم يكن هذا سوى أحد خلافاتنا. "لكن أحدهم سيتولى الأمر. ستُشفى. إنه أمر ضروري. بالغ الأهمية. سيرون ذلك."

"تباً. ألا تفكر في إقناعهم بأنني محاربك ذو الروحين؟ هل هذا هو هراء الفيدناخ هذا؟"

"لا أعرف ماذا أفكر. لا أستطيع التفكير. لست متأكدًا إن كنت أريد التفكير أصلًا." دفعت يده بعيدًا وكأنها ليست يدًا قادرة على إنهاء حياتي في أي لحظة. "غالادون لديه أفكار مختلفة تمامًا عن أفكاري." وبدا إقناع هذا الرجل العجوز العنيد أمرًا مستحيلًا.

حسنًا، مهما كان ما تفكر فيه يا عزاريان، لا تُقحمني في الأمر. لستُ هنا لأتبختر وأتظاهر بتصديق أي نبوءات بربرية. قد لا أصدق حتى المحارب الذي رأيته على المنسوجات التي أرتني إياها المرأة للتو - محارب بأجنحة يقاتل وحشًا بسكين ومرآة فقط. سأتعامل مع الخليد حالما أستطيع حمل سيف مرة أخرى.

«يبدو هذا سخيفًا، أليس كذلك؟» حاولتُ تجاهل الأمر برمته. «مهما يكن، أرجوكِ لا تذكري شيئًا من هذا للملكة صباحًا. لا شيء عن غالادون أو كاترين. إذا علم أحدٌ بوجودي هنا وتحدثوا معي، فستكون حياتهم صعبة للغاية. إنه انتهاك لقانونهم.»

هزّ ألكسندر رأسه. "وتصفون الدرزي بالقسوة! لا أفهم هذا النوع من العقاب. الاختفاء. ألا يكفي الضرب المبرح أو الشنق؟"

"تبادل الأماكن معي ليوم واحد يا سيدي، وأخبرني أي ضربة جيدة وأي شنق لطيف."

"أنا أؤكد وجهة نظري."

يجب أن تفهموا. يقضي الإزاريون حياتهم في محاربة الشياطين. عليهم التأكد من عدم وجود أي منفذ يمكن أن يصل من خلاله شيطان إليهم. لا شر. لا دنس. يخبرنا تاريخنا عن أهوال قد تحدث عندما يسلك شيطان طريق الفساد عائدًا إلى

أولئك الذين يحاربونه. أظن أننا بالغنا في ذلك. ربما انقلبت محاولتنا لحماية أنفسنا على نفسها والتهمتنا. لم أعد أعرف.

مشينا في صمت حتى وصلنا إلى حافة الأشجار. ورغم أن الوادي كان متجمداً وساكناً تحت ضوء القمر، إلا أن الربيع كان يفوح في الأجواء، برائحة ترابية رطبة تتجاوز برد الليل، تُريح النفس بوعد الدفء والنماء. استنشقتُ بعمق.

"من هذا الرجل العجوز يا سيون؟ لم أكن لأظن أن أحداً يستطيع أن يجعلك في صراع مع نفسك إلى هذا الحد."

ضحكت. "ألم تخمن ذلك؟ لقد كان ليكاي خاصتي."

في اللحظة التي نطقت فيها بتلك الكلمة، انزلق حذاء ألكسندر عبر بركة جليدية. انزلق وارتطمت ركبته بصخرة حادة. قال: "اللعنة!"، وجلس بقوة وضغط بيده المغطاة بقفاز على ركبته النازفة.

سواء كان ذلك بسبب الإصابة المفاجئة، أو التفكير في ديمتري، أو مزيج من الاثنين، شعرت في لحظة واحدة مؤلمة للغاية وكأن كل ذرة من الدفء قد سُحبت من جسدي.

قال ألكسندر وهو يضغط بقبضتيه على صدغيه: "يا إلهي، آثوس المباركة، ليس مرة أخرى". ثم نهض بصعوبة وأخذ نفساً عميقاً.

أمسكتُ بذراعه وجذبته. "أسرع. عد إلى الأشجار." ربما كنتُ أتمسك ببعض الأمل الخافت في أن التعاويذ المنسوجة حول حافة الغابة قد تمنع تحوّله إلى شيطان، ولكن بينما كنتُ أساعد ألكسندر العرج على عبور الحاجز، بدا أنني زدت الأمر سوءًا. انتفض جسده في تشنجات مؤلمة، وصرخ. أجبرتني الحرارة الحارقة المنبعثة منه على ترك ذراعه والسقوط إلى الوراء. انحنى على ركبتيه وهو يئن في عذاب مميت،

وتمدد جذعه في أشكال مستحيلة، بينما تذبذب مظهره البشري وتلاشى بسرعة مؤلمة.

قلتُ: "يا سيدي، أنتَ المُتحكّم"، لكنّ شعاع ضوء القمر الخافت الذي أضاء عينيه المُفعمتين بالرعب أخبرني بغير ذلك. لم يمضِ أكثر من ثلاث دقائق، حتى وقفتُ أمام شينغار هائج، فكّيه مفتوحان على مصراعيهما وهو يزأر غضبًا وألمًا. كانت إحدى قوائمه مُلطّخة بالدماء، وبدأ الوحش الأعرج يدور حولي. استدرتُ معه بهدوء وبطء. "يا سيدي، تمسّك بصوتي. أبقِ الباب مفتوحًا. سيخفّ ألمك."

صرخت القطة الضخمة مرة أخرى بصراخ قاسٍ ومُقشعر للعظام، كصراخ امرأة معذبة، وهو صراخ أكثر رعبًا بكثير من زئير القطط الأكبر حجمًا.

وحوش. وقفتُ بلا حراك، تاركًا الوحش الهائج يتفحصني. واصلتُ الكلام، لكن الكلمات بدت وكأنها تزيد غضبه، فصمتُّ، وهمستُ بتعويذتي بصوتٍ خافت: "اهدأ يا ألكسندر. أنت أقوى من الوحش. إنه الألم فحسب. المفاجأة. تداخل سحرٍ دنيء مع نسيج النور. كان عليَّ أن أعرف. أنا آسف."

لم يهاجم. بل بعد برهة، انطلق مسرعًا نحو الغابة المظلمة. اتكأتُ بلا حراك على جذع شجرة صنوبر شاهقة، أدعو ألا يكون هناك إزاريون يتجولون في الغابة تلك الليلة. حركت ريح متغيرة الأشجار، وكادت أشعة القمر المكتمل تعمي بصري. ضحكات بعيدة تطفو على النسيم مع دخان الحطب... يا لروعة فيردون... بالطبع كان هناك إزاريون في الخارج. كان أول قمر مكتمل في الربيع - ميلاد فصل جديد. الليلة التي أشعلت فيها عائلات الإزاريين النيران في الخارج وروت القصص حتى الفجر. ليلة من المرح والإثارة للأطفال الذين سُمح لهم بالسهر. ليلة من الدهشة والرفقة. أمسكتُ بغصن سميك مكسور من شجرة التنوب، وانطلقتُ خلف ألكسندر، متسائلًا عما إذا كانت ساقاي، بعد ستة عشر عامًا، لا تزالان تتذكران كيف تركضان.

سمعتُ صوته وهو يشق طريقه عبر الأحراش أمامي. قفزتُ فوق الأشجار المتساقطة، وانحنيتُ تحت الأغصان، ولم أُعر اهتمامًا للشجيرات والفروع التي مزقت ملابسي. بين الحين والآخر، كنتُ ألمحُ ذلك الطيفَ الداكن وهو يقفز بسهولة فوق العوائق التي كان عليّ تسلقها. ولكن سرعان ما شممتُ رائحة دخان الخشب، ولم أعد أسمعُ مروره. ربما كان ذلك مجرد رعبٍ مني، لكنني ظننتُ أنني سمعتُ هديرًا خافتًا يُنذر بترقبٍ شرير وهو يقترب من النار المشتعلة أمامي. استدرتُ

على نطاق واسع وركضتُ نحو النار. صرختُ: "يا قط بري! شينغار! خذ الأطفال وادخل!"

لم أتوقف لأشرح للخمسة أو الستة بالغين الصارخين الذين قفزوا من الأرض وخطفوا الأطفال الباكين. غمسْتُ غصني في نارهم، ودعوتُ الله أن تشتعل سريعًا، وأصغيتُ بانتباه إلى هدير الغضب على يساري. كان يتحرك. ألقيتُ بعصاي التي لم تُشعل بعد، والتقطتُ عصا أخرى تركها الإزاريون يقلبون بها الجمر في النار. كانت رقيقة جدًا وستحترق بسرعة وأنا أركض، لكنني لم أستطع الانتظار. كان ألكسندر يركض. وبينما كنتُ ألحق به، سمعتُ صوتًا مصدومًا من خلفي: "رحمة فردون. سيون؟"

وجد السنجار مسارًا للصيد. طريقًا أوضح، أسهل للجري. لكن هذا يعني أنه كان أسرع. لم يكن السنجار مثل الكايبيت في الصحراء، الذين كانوا أسرع الوحوش المعروفة في العالم، وأسرع من الكثبان الرملية الرشيقة.

كان العدائين وغزلان الرمال فريستهم. لكن ألكسندر كان سريعًا بما يكفي لأشعر بألم حاد في جنبي، وأسمع صدى إهانات غالادون من صغري: "هل أنت ملتصق بالطريق؟ كيف لك أن تسبق شيطانًا وأنتَ ذو قدمين من حجر؟"

صفّيتُ ذهني وأمرتُ الدم أن يتدفق إلى ساقيّ وجنبي ورئتيّ، وسرعان ما استطعتُ رؤيته مجدداً... وثلاثة نيران على الأقل في الأشجار. صرختُ بكل ما أوتيت من قوة: "اسمعوا يا أهل إزاريا!"، وكأنهم جميعاً يسمعون رغبتي. "شينغار! احتموا!" ركضتُ إلى كل نار وتأكدتُ من أنهم يسمعون، ثم عدتُ إلى درب الصيد. أي طريق أسلك؟ كان عليّ أن أتوقف وأكتم أنفاسي لأتمكن من السمع، متمنياً بشدة تلك الحدة البصرية التي منحتني إياها ميليدا ذات مرة. يا للسذاجة! لم أكن عاجزاً. ما زالت لديّ حواسٌ ستكون مفيدة. مررتُ بسرعة ظهر يدي أمام عينيّ وانتقلتُ إلى عالم حواسي الخارقة. كل ما أحتاجه هو أن أرى السحر.

عندما نظرتُ ثانيةً، كانت أشجار تلك الغابة مُتشابكة بخيوط فضية، كما لو أن إلهة المستنقعات قد ألقت شباكها لاصطياد الطيور السحرية التي قد تعشش هناك. كنت قد نسيتُ كم كانت تلك المنسوجات جميلة، ولم يستطع بصري المُنهك إلا أن يرى لمحةً خافتةً منها، كما لو كنت أنظر إلى قوس قزح من خلال زجاج مُدخّن. لكن لم يكن لديّ وقتٌ لأستمتع بها. أمامي، كان قبح السحر الشيطاني الأرجواني والأخضر المُتلاطم يختفي خلف تلة، فانطلقتُ عبر الأشجار، مُحاولًا منع شعلتي المُشتعلة من إشعال أي حرائق أخرى.

سمعتُ صراخًا، فركضتُ أسرع، وسرعان ما وصلتُ إلى مغارة صخرية حيثُ التصق رجلان وثلاث نساء بجدرانها الحجرية، وضغطوا على خمسة أو ستة أطفال خلفهم. كان الشنجار منحنيًا، يصرخ في وجوههم عبر الساحة، متجنبًا النار التي كانت تشتعل بهدوء على يمينه. لكن النار لم تكن كبيرة بما يكفي، وبدأ يزحف حولها للوصول إلى الناس المذعورين. قلتُ: "هنا!"، ووقفتُ بين الشنجار والناس، ممسكًا بمصباحي البائس بحيثُ سدّ ناران طريقه. "لا تفعل هذا. استمع إلى صوتي. اترك هؤلاء الناس الطيبين وشأنهم." صرخ في وجهي كاشفًا عن أنيابه وعضلاته متوترة، مستعدًا للانقضاض، وصرخ الأطفال خلفي في رعبٍ حاد. قلتُ من فوق كتفي: "اجعلهم هادئين وساكنين". لوّحتُ بغصني المشتعل، فتراجع القط قليلًا. "فكّر يا زاندر. لا تفعل هذا." خطرت الفكرة لأحد الرجال، فتوجه إلى نار المخيم ليأخذ عصا. صرخ ألكسندر في وجه الرجل بشدة، وشعرت بالخوف.

كان ينوي القفز فوق النار الصغيرة والقبض على الرجل قبل أن يتمكن من إشعال غصنه جيدًا. قلتُ، وأنا ألوّح بالشعلة نحو ألكسندر مجددًا: "ابتعد من هنا. حافظ على هدوئك."

تراجعت القطة قليلاً، فتقدمتُ نحوها، ولوّحتُ بالغصن حتى انزلقت بين الأشجار واختفت. انحنيتُ لأخفف تشنجات ساقيّ، فرأيتُ الرجل واقفاً فوق النار. "غارين!" صرختُ. كان ابن الطحان من قريتي، صديقاً عزيزاً كان يفوز دائماً في أي منافسة قوة. بعد عام قضاه في العالم كباحث، عاد إلى دياره ليتولى إدارة الطاحونة بعد وفاة والده... قبل يومين تقريباً من غزو ديرزي.

حدّق بعينين ضيقتين عبر النار. "شكرًا—" اتسعت عيناه وتشوشت. "هيا،" قال وهو يلوّح للآخرين، "لنُدخل الأطفال إلى الداخل." اختفيتُ عن ناظريه كما لو أن جسدي أصبح شفافًا. استدرتُ وركضتُ خلف القطة بثقل الرصاص في أحشائي.

أشعلت المجموعة التالية من رواة القصص حلقة من النار حول أنفسهم، ثم تلتها المجموعة التي تليها، وسرعان ما بدأت أجد النيران مهجورة. ربما انتشر الخبر. في الوقت الذي قررت فيه أنني لا أستطيع الركض خطوة أخرى، سمعت صرخة انتصار تصعد تلة صغيرة أمامي مباشرة. انطلقت قدماي للأمام من تلقاء نفسي، واضطررت إلى التشبث بشجرة لأمنع نفسي من الركض مباشرة إلى مكان لا أرغب في التواجد فيه. وجد ألكسندر غزالًا صغيرًا، وكان يرقد في الوادي المضاء بضوء القمر وهو يقضم بطنه بسعادة. كان فمه والثلج ملطخين بالدماء.

انهرتُ عند الشجرة. كان صدري يحترق. تشنجت ساقاي بشدة حتى كدتُ أصرخ. لو قرر الشنغار أن عبدًا بائسًا وجبة أفضل من الغزال الساقط، لما استطعتُ أن أتحرك قيد أنملة لأمنعه. بدا يقين غالادون بأنني سأستعيد قوتي ولياقتي البدنية ببضعة أسابيع فقط من الطعام الجيد والتدريب البدني أقل سخرية بقليل من يقينه بأن الخضوع لاختبارات الحارس لخمسة أيام سيعيد لي قوتي.

لففتُ عباءتي الممزقة حولي وأطفأتُ غصن الشجرة المشتعل بالثلج. وبينما كنتُ أراقب الشنغار وهو يُشبع جوعه، أسندتُ رأسي على الشجرة وحاولتُ أن أرسم في ذهني المسار الذي سلكناه. كان ذلك مستحيلاً. كيف لنا أن نجد طريق العودة إلى المستوطنة؟

أيقظتني صيحاتٌ من الطريق الذي جئنا منه من غفوتي. كان الشنغار لا يزال يقضم عظم الفخذ، دون أن يُبدي أي علامة على عودته إلى هيئته الحقيقية كأمير. قريبًا، إن سارت الأمور كما كانت. انتصبت أذناه عند سماع أصوات الاقتراب. رفعتُ غطاء رأسي ووقفتُ، أُخفف من تقلصات عضلاتي وأتحرك خلف الشجرة.

"من هنا! انظر إلى المسارات!"

أسقط السنجار العظمة، وصدر من صدره هدير خافت يدل على اضطرابه. لم يكن من الحكمة مقاطعة السنجار أثناء تناوله الطعام. تسللتُ مسافة قصيرة أسفل التل ظنًا مني أنني سأعترض طريق الصيادين، لكنني لم أتوقع أنهم كانوا يمتطون خيولهم. مرّ ثلاثة فرسان مسرعين، وزأر السنجار.

صرخت إحدى الراكبات: "ها هي!"، امرأة. "خذيها."

"ابتعدوا للخلف حتى لا يتمكن من الركض"، هكذا صاح رجل.

صرختُ وأنا ألحق بهم: "انتظروا!"، لكنّ الذعر أفقدني الإحساس، فلم ألحظ الارتجاف الذي أحدثته الأصوات في جسدي. "لا تفعلوا!" وصلتُ إلى قمة التل في اللحظة المناسبة لأرى أحد الصيادين يرمي رمحًا. سقط الرمح قبل أن يصل إلى القطة الغاضبة الملطخة بالدماء. صرختُ بصوت أجشّ، خائفًا من ألا يسمعوني بسبب دويّ الدم في أذنيّ: "إنه بشري!". أمسكتُ بركاب أقرب فارس. "لا تؤذوه. إنه مسحور."

"بشرية؟" كانت المرأة. "يا إلهي، فالديس، هذه هي المتضرعة!"

"لقد أمسكت به!" صرخ الصياد من الجهة الأخرى من الغابة، بينما كانت القطة تصرخ من الألم. "اقضِ عليه بسيفك يا دافيد."

ركضتُ نحو الشنغار، الذي كان ملقىً في بركة من الدماء ورمحٌ مغروسٌ في جانبه. لم أستطع التمييز بين دم القطة ودم الغزال.

"يا سيدي، هل تسمعني؟" ضغطتُ بأصابعي على صدر الوحش، فزمجر بضعف محاولًا عضّها، مُخبرًا إياي بما أردتُ معرفته. قلتُ: "سنعتني بك. لم يُقبض على أي محارب من محاربي ديرزي برمح واحد. أليس هذا صحيحًا؟"

ترجل الفرسان واقتربوا من خلفي.

سألت المرأة: "هل هو على قيد الحياة؟"

قلت: "نعم، لكنه مصاب بجروح بالغة. ينزف بشدة. هل يوجد معالج يمكنه مساعدته؟"

"لا أحد ممن يعرفون السنجار."

«سيتغير... قريبًا». هبّت نسمة هواء حارة عبر الوادي، وهدر الشنغار... ثم أنَّ... وتذبذبت الصورة. وبينما كانت الصورتان تتصارعان على السيادة، صرخ ألكسندر ألمًا، وشهق الناس خلفي في ذهول مرعب. لم يكن لديّ أي اهتمام لأمنحه لهم.

قلتُ: "قريبًا، قريبًا يا سيدي"، وتراجعتُ قليلًا حتى لا ألمسه أثناء تحوّله. "انتظر لحظة. سنساعدك حالما ينتهي التحوّل."

للحظة ظننتُ أنه مات، كان يرقد هامداً بارداً على الثلج الملطخ بالدماء. نزعتُ عباءتي وقميصي، ثم، على أمل ألا أزيد الأمر سوءاً، سحبتُ الرمح برفق، وضغطتُ بقميصي المحشو على الجرح النازف في بطن ألكسندر. استخدمتُ حزامه الجلدي لتثبيت القميص، ثم لففته بعباءتي، مستخدماً طرفها لمسح الدم عن وجهه. قلتُ: "إنه بحاجة إلى معالج. لو أمكنك أن تأخذه على خيولك..."

لكنهم لم يُجيبوا، وفي لحظة، أدركتُ ما فعلت. كنتُ أرتدي سترة عبيد فقط مع سروالي، والدائرة المتقاطعة على كتفي ستكون واضحةً لهم. سيرون أنني إزاري وسيعرفون من أنا، وربما، مثل غارين، سيعرفون اسمي.

قلتُ: "كل ما أطلبه هو أن تعتنوا به كما اعتنى أهل إزاريا دائمًا بمن يأتون إليهم متضرعين"، على أمل أن يصغوا إليّ حتى وإن لم يُقرّوا بسماعهم. ثمّ بادرتُ بالهجوم في معركتي الخاصة، ورفعتُ بصري... إلى وجهي زوجتي، ملكة إزاريا، وزوجها الذي كان يومًا أعزّ أصدقائي.

الفصل 24

كان القمر يغيب نحو الأفق، تاركًا الغابة مظلمة وموحشة بينما كنت أشق طريقي نزولًا من التل. كان يسان وريس ورفيقهما دافيد، رجل غريب عني، قد صنعوا محفة لألكسندر وأخذوه بعيدًا. حاولتُ المساعدة، وتخفيف ألم ألكسندر، وتسريع رحيلهم، لكن ربما لم أكن سوى ظل القمر بالنسبة لهم. حتى في تلك اللحظة الأولى من الكشف، لم تفصح أعينهم عن شيء، كما لو أن الأرض تحت قدمي هي كل ما يمكنهم رؤيته.

انظر. كنت أعرف كيف يتم ذلك. رحم الله، لقد فعلت ذلك في الماضي، ولم أفهم أبدًا الرعب الذي كان عليه الأمر بالنسبة للشخص غير المرئي، والوحشة المطلقة للروح عندما قيل لها صراحةً أنها غير موجودة، وأن اللحم والدم لا يكفيان، وأنه لا يوجد علاج لذلك.

على الأقل كانت آثارهم ترشدني. لم أجِد عن الدرب المفعم برائحة الخيل إلا مرة واحدة، لأشعل غصنًا في جمر نار مهجورة أشعلتها في ضوء القمر. ساعدني المصباح الصغير على رؤية الآثار والفضلات، وحافظ على دفء يديّ ووجهي. كانت تلك أول ملابس حقيقية أرتديها منذ زمن طويل، وقد فقدت نصفها بالفعل. ضحكت بصوت عالٍ وأنا أسير. سيظن ألكسندر أنها مزحة طريفة. تردد صدى ضحكتي في صمت الأشجار.

لقد أضفت السنون على يسان روعةً آسرة. حتى في ضوء المصباح، استطعت أن أرى كيف نحت الزمن ببراعةٍ رقة طفولتها إلى جمالٍ حقيقي. تمنيتُ لو أنظر في عينيها لأرى إن كانت حديقة روحها لا تزال تزدهر خلف جدار سكونها. قليلون هم من سُمح لهم برؤيتها. جلالتها الهادئة... حديد طفولتها الهشّ الذي صقلته الآن السنون والمحن. لقد وُلدت لتكون

ملكة.

كانت عائلتها تسكن قرية تبعد حوالي عشرين فرسخًا عن قريتي. أُخذت يسان إلى قصر الملكة تاريا للتدريب عندما كانت في الخامسة من عمرها، واكتُشف أنها تتمتع بمستوى مذهل من الموهبة. كانت صغيرة جدًا على أن تكون بعيدة جدًا عن منزلها، وأن تعيش في قصر ضخم مع خمسين من رجال الحاشية وامرأة مشغولة.

كانت يسان أكبر من جدتها. كانت الملكة تاريًا متمسكة بعاداتها، وأجبرت يسان على التدرب تمامًا كما فعلت هي قبل خمسين عامًا، ولم تسمح لذكاء الفتاة أن يُسرّع من تقدمها أو يُسرّع من خطواتها، بل جعلتها تُعيد كل خطوة مرتين. لم تسمح لها تاريًا حتى بإظهار التنوع الرائع لموهبتها التي اكتشفتها مع نموها. ولأن والديها المُعجبين لم يُعارضا الملكة، لم يكن أمام يسان خيار. لعشر سنوات، كتمت يسان وحدتها وغضبها، مُصممة على عدم الاستسلام، مُتيقنة أن العجوز تُحاول إجبارها على الاستسلام أو تحطيم روحها. ولكن في عيد ميلاد يسان الخامس عشر، ابتسمت الملكة تاريًا وعانقتها وأخبرتها أنها أقوى أيفي وُلدت في إزاريا، وأن راي-كيرا لن تنتصر طالما أن موهبتها تتغذى على النار التي بداخلها.

سألت يسان في حيرة: "إذن، لماذا لم تسمح لي باستخدامه قط؟ لماذا دفنتني بالطرق القديمة طوال هذه السنوات؟"

سخرت الملكة منها وقالت إن موهبتها لا تحتاج إلى الكثير من التدريب. أما صبرها... فكان أمراً مختلفاً. لا يمكن لأي فتاة أن تتحلى بنفاد الصبر.

لم تخبرني يسان بذلك اليوم إلا بعد أن عرفتها لفترة طويلة. لم تكن من النوع الذي يعترف بأن أحداً قد وجد فيها عيباً.

أن تكون "آيف"، صانع البوابات، كان أصعب مهام الإزاريين. فدمج كيان المرء في روح آخر تمامًا، لتشكيل واقع مادي، كان أمرًا شاقًا حتى عندما يكون الشخص سليمًا معافى العقل. أما فعل ذلك مع كائن يسكنه شيطان - شخص ربما مجنون، ربما شرير، ربما عنيف - فكان عملًا معقدًا وخطيرًا. كان الحراس أكثر شهرة، كما هو حال المحاربين غالبًا، لكن لم يكن بإمكان أي حارس أن يخطو خطوة واحدة في معركة، فضلًا عن أن يمتلك الثقة والحرية لفعل ما هو ضروري، دون ثقة مطلقة لا تتزعزع في "آيف" خاصته. فإذا أُغلقت البوابة خلفه، سيُحاصر إلى الأبد في روح شخص آخر، وبدون متانة تشكيل "آيف"، سيسقط في هاوية من الجنون حيث لا يمكن لأي منقذ أن يعثر عليه.

كان لدى مرشدين مثل غالادون شبكة من الزملاء في جميع أنحاء إزاريا، وكانوا جميعًا يبحثون عن الشريك المناسب لطلابهم. الحارس وآيف، والباحث والمعزي، والعالم وصانع التعاويذ، جميع مهاراتنا صُقلت للعمل في أزواج، باستثناء النساج بالطبع، الذي كان يعمل دائمًا بمفرده. مهارة الباحث في اكتشاف الشياطين الكامنة في

لم يكن لقلب الجنون أو القسوة قيمة تُذكر دون مُعزٍّ يُحيط الضحية بسحره. ولم تكن لمسة المُعزّي، التي تُعيد خيوط القوة إلى الحياة، آمنةً دون مهارات الباحث الجسدية لحمايته. مع أن الجميع كانوا يعملون لتحقيق الهدف نفسه، إلا أن مواهبنا كانت بحاجة إلى التوازن، كالأدوار في رقصة معقدة، حيث قد تعتمد حياتك وعقلك على حركة شريكك وهي تمتزج بحركاتك. كان الإعلان عن اقتران جديد بمثابة ميلاد أو موت أو زواج. هذا لا يعني أن كل ثنائي كان يتزوج، بل كان عدم الزواج أكثر شيوعًا. لكن العلاقة الحميمة بين الحارس والحياة كانت استثنائية. كان من الصعب تخيّل الزواج من امرأة بينما تسير الأرواح مع أخرى.

كنت محظوظًا لأن غالادون كان يعيش في قريتي، ولم أضطر لمغادرة المنزل كما فعل العديد من طلاب إزاريا. مع أن تحضيري كان شاقًا ومُرهقًا، إلا أن والديّ وأختي وفروا لي بيئة دافئة وحنونة. ولأنني عشت وتدربت في قرية صغيرة واحدة، شعرت بالرهبة عندما أخبرني غالادون أنه وجد لي شريكة من حامية الملكة تاريا. فتاة مشهورة بمهاراتها الاستثنائية. فتاة يُشاع عنها أنها باردة وعنيدة. فتاة مُقدّر لها أن تصبح ملكة. فتاة جميلة لدرجة أن رغباتي الشبابية، التي كبتتها الدراسة المتواصلة، انفجرت بقوة وكادت تُفجّرني إلى أشلاء في اللحظة التي وقعت عيناي عليها.

عالجت غالادون تلك المشكلة بسرعة، بالطبع، بإخضاعي لدورة تدريبية جعلت كل ما سبق يبدو وكأنه تدليل أطفال. في بعض الأيام، كنت أراها للحظات وجيزة فقط، عندما ينعكس ضوء الشموع في المعبد على وجهها وهي تركز على صنع بوابتها. كنت أقف في حيرة وأتساءل كيف سيكون ملمس الشق الصغير في خط ذقنها الأملس لو مررت إصبعي على عدم انتظامه المثير، أو كيف سيكون ملمس إزالة تلك التجاعيد الصغيرة الحادة بين حاجبيها، حتى تقول غالادون: "ابدأ الآن، أيها الأحمق! الشياطين لا تنتظر الغربان الفاغرة." وكنت أغمض عيني وأتنهد عند تذكر جمالها كما لو أن غالادون لا تراني أفعل ذلك، ثم أنطق بالكلمات وأغير الواقع الذي سيأخذني إلى عالمها.

في تلك البوابة تعرفت عليها. هناك استطعت سماع صوت عقلها دون أن يشتت انتباهي منظر جسدها. تجادلنا.

في البداية، كانت واثقة من نفسها إلى الأبد. كانت واثقة جدًا من نفسها، ورغم أنني كنت فتاة خجولة وخرقاء في الخامسة عشرة من عمري في أمور النساء والحياة، لم تكن لديّ أي شكوك حول قدراتي في عالمي السحر والقتال. عشر سنوات قضيتها مع غالادون كانت كافية لذلك. كما هو الحال مع تاريا، إما أن تؤمن بنفسك أو تتخلى عنها. ادعى غالادون أن السنتين اللتين تدربنا فيهما معًا جعلتاه يبدو أكبر من عمره بخمسين عامًا، لكننا كنا نعرف الحقيقة. كان يتباهى بكمالنا وقوتنا وانتصارنا. عندما عدنا منتصرين من معركتنا الأولى - بعد أن أجبرنا امرأة سوزينية على طرد الشيطان من على وشك قتل أطفالها - هنأنا غالادون وقال إنه لم يكن هناك ثنائي يضاهينا. بالكاد سمعناه، لأنه عندما فتحنا أعيننا ورأينا بعضنا البعض وجهًا لوجه بينما كانت دماءنا لا تزال تتدفق بالسحر والخطر والنصر، لم يكن هناك متسع لأي شيء آخر في الكون.

في ذلك الوقت، كنت قد اكتشفتُ الجوهرَ الناريَّ الكامنَ في إلهة المرمر، ذلك الشغف الرقيق الذي يُمكنه أن يُحييَ رجلاً ميتاً، والذكاء الهادئ الذي يُمكنه أن يُصقلَ حافةَ الماس، والإخلاص الذي انتظرَ طوالَ حياتها يداً مُحبةً لتأخذه. كانت روحُها فصلاً خامساً، بلونٍ أغنى من الخريف، مُفعماً بالحياة أكثر من الربيع، مُختبئاً، مُستعداً لتغيير العالم بمجدٍ لم يشهده من قبل. لقد سمحت لي بإلقاء نظرة خاطفة عليه... ووعدتني بأنني سأقضي حياتي في استكشافه.

ارتجفتُ في ظلام ما قبل الفجر وأنا أسير خارج الغابة وأسلك الطريق المؤدي إلى القرية. لقد كان كل ذلك منذ زمن بعيد.

كانت هناك أضواء في نوافذ بيت الضيافة، وتجمعٌ من الناس خارج الباب. ترددتُ في العودة إلى الغابة حتى يرحلوا، لكنني قررتُ أن الأمر

لا يهم. لا داعي للبقاء في البرد القارس وقد حدث الأسوأ. لم أمت. لم أكن أنزف. سأنجو.

لم يتفرق الخمسة عشر أو العشرين شخصًا عندما اقتربت، ولكن بطريقة ما، من خلال حركاتهم - انحنى رجل نحو صديقه ليتحدث، وسحب رجل آخر عباءة حوله، وجمعت امرأة طفلين بالقرب منها لتقيهما من البرد - تركت لي طريقًا لأمر دون أن ألمس أيًا منهم. وعندما دخلت من الباب، لم يلتفت المعالج حتى ليرى من أتى.

بدا ألكسندر في حالة يرثى لها، بشرته شبه شفافة، شفتاه شاحبتان، ووجنتاه وعيناه غائرتان. لقد قامت المرأة بتنظيفه و

ضمّدت جرحه، ومن الأدوات الموضوعة على الطاولة - إبر، وخيط حريري، وحزم من الأعشاب، وموقد صغير، ومجموعة من الأحجار الصغيرة وقطع معدنية - استنتجتُ أنها خاطت الجرح واستخدمت تعويذة لعلاج مثل هذه الحالات. تجاهلتُ المعالجة التي كانت تغسل يديها وتجمع الأدوات والخرق الملطخة بالدماء في سلة لتنظيفها وتطهيرها، وجلستُ بجانب السرير.

"نومًا هنيئًا يا سيدي. لا تحلم أحلامًا مزعجة الليلة." لم يتحرك بالطبع، فمن غير المرجح أنه سمعني. "سأستيقظ كل بضع ساعات لأقدم لك الماء وأتفقد ضماداتك." أشعلت المعالجة النار، ثم أخذت بعض الأشياء من الطاولة بجانب السرير، تاركةً علبة أعشاب وقطعة قماش مبللة. أغلق الباب بهدوء خلفها.

ملأتُ حوضًا صغيرًا بماء الغسيل، ونظفتُ يديّ وسترة العبد بعناية من الدم الجاف. بعد أن تخلصتُ من ماء الغسيل وعلقتُ السترة في العوارض الخشبية لتجف، لففتُ نفسي ببطانية على الأرض بجانب النار، وأنا أفكر في أمر قميص أو عباءة. من المؤكد أن الإزاريين لن يزودوني بأي منهما. ولكن في وقت ما خلال اليوم الطويل التالي، بينما كنتُ أغفو وأستيقظ، ظهر القميص والعباءة اللذان لففتُ بهما ألكسندر على الطاولة، نظيفين وجافين ومطويين. ربما ظنوا أنهما لألكسندر. ألبستُهما، وأعطيتُ ألكسندر بعض الشاي المصنوع من الأعشاب التي تركها المعالج، وعدتُ إلى النوم.

كانت المعالجة تأتي باستمرار لتطمئن على الأمير، الذي كان يتأرجح بين هذيان شديد وسكون أشبه بالموت. كنت أراقب ما تفعله المرأة لتهدئته، وأقوم بالعلاج في الساعات التي لا تكون فيها موجودة. في المساء، كنت أُعدّ لنفسي شيئًا لأتناوله، ثم أعود إلى النوم. كنت ما زلت أجيد النوم. لم يكن هناك الكثير مما يمكن فعله.

في وقت متأخر من تلك الليلة، والقمر معلق ضخمًا ومنخفضًا فوق القمم الغربية، سمعتُ وقع أقدام خارج بيت الضيافة. كنتُ على وشك النوم مجددًا، لكنني أجلتُ ذلك قليلًا لأرى إن كانت المعالجة قد لاحظت أي تحسن في حالة المريض. استغربتُ مجيئها في هذا الوقت المتأخر. لكن ذلك الشخص الغامض لم يكن يحمل مصباحًا ولم يُشعل أي مصباح، وبدلًا من أن يذهب إلى ألكسندر، وقف فوقي. كنتُ على وشك التدحرج جانبًا، عندما انحنى الشخص ولمس كتفي.

"سيون". كانت همسة رجل.

قلت: "إنه غير موجود".

إذن، كيف لي أن أفسر الرؤية التي رأيتها في الغابة؟ هل كان ذلك ربما بسبب الإفراط في شرب بيرة الشتاء؟

جلست منتصبًا مندهشًا ومبتسمًا. "ألم تتعلم بعد عن بيرة الشتاء يا ريس-نا-فارين؟ أم أن عقلك أصبح مساميًا مع تقدم العمر والراحة، وتسربت منه كل دروسك الصعبة؟"

انحنى وأمسك بيديّ في الظلام، وقبض عليهما بقوة بقبضتيه القويتين... حتى لامست أصابعه الغليظة حلقات العبودية. ثم سحبها للخلف كما لو كانت الحلقات لا تزال ساخنة من نار الحداد.

قلتُ: "غايناد زي". لن يُحرمني أحد من تدريبي، مهما تمنيت ذلك. كان عليّ أن أحذره من أنني غير طاهر.

قال بنبرة هادئة غاضبة: "تباً للقانون! لا يمكنني الاستمرار في هذا الجنون وأنتِ تدخلين دايل إزار حية. رأيتكِ تسقطين يا سيون. كنتِ محاصرة. ثمانية من الدرزي أو أكثر. رأيت السيف يخترق جسدكِ والدماء على قميصكِ. لم أستطع المخاطرة بالقليلين—"

"لم يكن هناك ما يمكن فعله. لقد خسرنا. أنا سعيد لأنك نجوت. سعيد حقًا." كنت آمل أن ينتقل إلى موضوع آخر.

أعلم أنني أقسمت أن أحضر المساعدة أو أموت... وقد عدت بالفعل. يمكن أن يخبرك دافيد بذلك. كان ضمن المجموعة التي تحرس الملكة تاري، لكنني أجبرتهم على تركها ليأتوا ويصنعوا التعاويذ كما أردت. ليقبضوا عليك. لكنني رأيتك تسقط...

"لم يكن لينفعك الموت أيضاً."

"ما زلت أحلم بذلك اليوم."

"يجب أن أعلمك كيف لا تحلم. لقد تعلمت ذلك مبكراً."

"آه، تباً لكل هذا يا سيون. ماذا كنا نفكر في تلك الأيام - أننا نستطيع محاربة إمبراطورية بمفردنا؟"

"لم نرَ أي بديل. لم يكن بوسعنا الاستسلام."

"لقد كنا حمقى. هناك دائماً حل."

جلس على الأرض بجانبي. مع أنني استطعت رؤية ملامح جسده المألوف، إلا أنني لم أستطع تمييز وجهه. لكن عندما مددت يدي لأتناول عصا التحريك لأشعل النار، أمسك بيدي. "دعي الأمر كما هو". كانت كلماته بمثابة رجاء للتفهم. فالتحدث في الظلام لا يعني رؤيتي.

قلتُ: "أنا سعيدٌ بقدومك. لن تعرف أبدًا مدى سعادتي. أخبرني... أخبرني أي شيء. عن هذا المكان - دايل إزار - "نيو إزاريا". كيف وجدته؟ أخبرني من نجا، من يحمي، أي شيء." كان الشوق في داخلي هائلاً، لكنني لم أكن أعرف إن كان جوعًا يجب إشباعه أم ألمًا يجب تسكينه بكلماتٍ مُلطفة.

"أولاً، عليّ أن أخبرك..."

"بخصوص يسان وأنتِ. لقد سمعتُ ذلك بالفعل. عندما أخبرني الأمير عن القرينة ذات العيون السمكية، عرفتُ أنه لا يمكن أن تكون أي شخص آخر. أنا سعيدة بذلك."

"لم يتبق سوى عدد قليل جدًا... لم نكن نستطيع ترك قوتها تذهب سدى... وكنا نعرف بعضنا البعض منذ فترة طويلة... بمجرد أن تم جمعنا معًا."

"لا بأس. لقد دعوتُ الله أن تعيش... ولو عاشت، لعلمتُ أنها ستتزوج. كنتُ آمل أن يكون زوجها شخصًا جديرًا بها." شخصًا يُهديها الموسيقى، كما لم أفعل أنا. "ومن أفضل منك؟ شخص أقرب إليك من أخيك؟ لا تتحدث عنها إن كان ذلك يُزعجك."

"يا له من شيطان ناري، سيون، كنا نظن أنك مت. ولم يكن الأمر كذلك على الفور. لقد أقنعت غالادون أخيرًا باجتيازي للاختبار. هل تعلمين أن التنين العجوز ما زال ينفث النار؟"

"سمعتُ ذلك من الفتى لير." صمتَ للحظة. "افترضنا أن لير هو من أخبركم كيف تجدوننا. ماذا قال أيضاً؟"

"لا شيء آخر. لقد كان حذراً - ولم يكن لدينا وقت."

"عبدٌ للديرزي... طوال هذه السنوات. كيف تتحمل ذلك؟"

"لم تكن هذه هي الطريقة التي خططت بها لقضاء حياتي." كان هناك الكثير مما أردت سماعه منه، لكنني كنت أعلم أن وقتنا قصير. لذا تجاهلت رغبتي وتطرقت إلى الموضوع الأكثر أهمية. "ما رأي يسان في قصة ألكسندر؟"

"أنت تعلم أنه لا يوجد أحد يستطيع أن يعبر عن رأيها."

"لكنها ترى الخطر؟ كيف أسأنا فهم النبوءات؟ هؤلاء الخليديون... ريس، استطعتُ رؤية غاي كيالت في هذا الخليدي كاستافان. لا أملك أي قوة - ولا حتى ذرة - لكنني استطعتُ رؤيتها. لم أرَ قط، في مئة مواجهة، شيطانًا بهذه القوة. لطالما شككنا في وجود سيد شياطين، وكل غرائزي تخبرني أنني رأيتُ مثل هذا الكائن. أنا مقتنع بأن هذا الكاستافان يخطط للتخلي عن جسده والعيش في وريث الإمبراطورية."

"مستحيل. كيف لك أن تعرف؟ أنت تقول إن الشيطان هو من يوجه هؤلاء الخليديين."

لم أفكر في الأمر بهذه الطريقة. "إنه الحل الوحيد لما يفعلونه بالأمير." ورأيت عينيه. أن ندع محاربين مسكونين بالشياطين يسيطرون على الإمبراطورية... لا يمكننا السماح بذلك. مع كل موارد الإمبراطورية، ومع كل الأهوال التي سيتمكنون من ابتكارها، سيكونون أقوياء لدرجة أن خمسين حارسًا لن يتمكنوا أبدًا من القضاء عليهم. عليك أن تأخذ

أقنعهم الآن قبل أن يترسخوا. أعتقد أنه يمكنك استخدام أسلوب ألكسندر —"

"انتظري. ليس الأمر كذلك... لديكِ..." كان ريس يتلعثم ويلوح بيديه في الظلام، وشعرتُ به يبتعد قليلاً. "هل أنتِ متأكدة من أنكِ لا تملكين أي قوة يا سيون؟ لا شيء على الإطلاق؟"

"الطقوس دقيقة للغاية. صدقني. لقد جربت كل شيء."

"عليكِ الابتعاد عن هذا ديرزي يا سيون. لقد تضرر بشدة لدرجة لا يمكن إصلاحها. تقول يسان أن الراي-كيرا قد اتخذوا منه عشًا مناسبًا. يجب ألا تكوني قريبة عندما يأخذونه. سنعطيكِ حصانًا. يمكنكِ الانطلاق قبل أن..."

"أهرب؟" فوجئت تمامًا. كنت أتوقع من ريس، من بين كل الناس، أن يبادر بالتحرك، وأن يرى الخطر وينطلق لحلّه بطريقته المتهورة المعتادة. ظننت أنني سأضطر لإقناعه بالحذر. وأن يظن أنني سأهرب... أو أستطيع... الهرب. "ريس، هل تفهم ما أنا عليه؟ هذه العلامة على كتفي تُعلن أنني ملك، وهذه على وجهي تُعلن أن بيت

ديرزي الملكي هو من يملكني كما تملك أنت حذاءك. لا يوجد مكان في الإمبراطورية لا تُعرف فيه هذه العلامات. ولكن بعيدًا عن هذه المسألة البسيطة... لماذا عليّ أن أخشى أن يأخذ شيطان ألكسندر في وسط مستوطنة إزارية؟ حتى لو لم تستطع علاجه على الفور، يمكنك حمايته."

"الأمور لم تعد كما كانت يا سيون. أنتِ لا تعلمين ما مررنا به. مع قلة عددنا، اضطررنا للتغيير." كان متوتراً. غير متأكد.

"ماذا تقصد؟"

"أولاً... لم نعد نبحث." انتابتني الدهشة. كأنه أخبرني للتو أنهم قرروا جعل الشمس تشرق ليلاً والقمر نهاراً. "لا تبحثون؟ إذن كيف تجدون الضحايا؟" والأدهى من ذلك، كيف يمكن للأيف أن يصنعوا بوابةً إن لم يكن هناك مُعزٍّ للتواصل الجسدي مع الضحية؟

"نحن لا نقاتل بنفس الطريقة. لا نستطيع تحمل تكلفة إرسال فرق البحث. سينتهي بهم المطاف... مثلك. ولدينا عدد قليل جدًا من الحراس، فماذا سنفعل بكل الضحايا الذين سنجدهم؟ كيف سنختار؟"

إذن، ماذا تفعل؟ هل تجلس هنا وتتركهم يتعفنون؟ هل تدع امرأة تُصاب بالجنون وتقتل أطفالها؟ هل تدع رجلاً يصلب عبيده لإطعام المخلوق الذي سكن روحه؟ ماذا تقول لكبار السن؟

رجال يبكون بسبب الكوابيس التي تملأ رؤوسهم؟ يا ريس، يا ابن فيردون، ماذا تفعل أنت بدلاً من ذلك؟

قالها بنبرة حادة لدرجة أنني ظننت أن الأرض ستهتز: "نفعل ما بوسعنا. لقد أبرمنا صفقة."

"صفقة. صفقة مع الشياطين؟" شعرتُ بالرعب. لم يكن من الغريب التفاوض مع الشياطين عندما يكون النصر وشيكًا في المعركة. كانت الفكرة هي إجبارهم على الخروج من أجسادهم، لا إبادتهم. الشياطين جزء من الطبيعة، ليسوا أكثر شرًا في حد ذاتهم من إعصار أو بركان. لم يكن هدفنا أبدًا إبادتهم، خشية أن نُخلّ بتوازنٍ مجهول في الكون. كنا نمنعهم فقط من إيجاد مكانٍ للتغذي في روح الإنسان. لذا، إذا استطعنا إجبارهم على الخضوع، كنا نعرض عليهم الاستمرار في الوجود مقابل أجسادهم. كانوا سيهجرون الروح ويتراجعون إلى البراري المتجمدة في الشمال ليتجددوا. فقط إذا رفضوا كنا نقاتل حتى الموت. لكن التفاوض خارج هذا الظرف... "ماذا تبادلتم؟ ومع من؟ لقد أقسمتم على مواجهتهم في قتالٍ جسدي. كيف ستفي بقسمكم؟"

"أنت محقٌّ بشأن شيطان واحد يتحدث باسمهم جميعًا الآن. وأنت محقٌّ أيضًا بشأن الخليد باعتبارهم الخطر. كان ثنائينا في شمال شرق الإمبراطورية - كيفيرا ودوراش - يُصادفان باستمرار خليدًا مسكونين بالشياطين، وكدتُ أفقد صوابي بسببهم. يصعب شرح الأمر بالتفصيل، لكنني فهمتُ ما كان يحدث، وتوصلتُ إلى هذه الفكرة. نخوض معركة واحدة في كل دورة قمرية. تتولى كيفيرا ودوراش مهمة التواصل مع الضحية. إذا حددنا أنفسنا بهذه الطريقة، فلن تأخذ الشياطين أرواحًا جديدة رغماً عنها، ولن تطارد شعبنا أو تتحدى وجوده. نقاتل من أجل روح واحدة في كل لقاء. إنها معركة شرسة... وهذا متوقع عندما يعلمون بقدومنا. لقد قتلتُ بعض الشياطين، ونفيتُ الآخرين، وفقدتُ الكثير من الدم في الطريق، وكدتُ أفقد ذراعي في إحداها. لكن هذا يمنحني الوقت للمساعدة في تدريب حراس جدد. كما ترى، لا يمكننا حماية هذا الدرزهي... فهو في حكم واحد منهم بالفعل."

"وهل توافق يسان على هذا؟ روح واحدة مع كل قمر يدور."

"بالطبع، هي توافق. لا أحد منا يُحب ذلك. ليس لدينا خيار آخر." لا بد أنه شعر بصدمتي وذهولي. "إنها فترة مؤقتة فقط حتى نصبح أقوى. حتى يصبح عدد الحراس أكثر مني. كان هذا أفضل ما بوسعنا فعله. استغرقنا عامين للوصول إلى هنا - كل يوم كنا نختبئ، متفرقين، بلا أي إمكانية للعمل. كان كل شيء فوضى عارمة. لقد تم أسرك. مورين وهافاش ماتا، وجميع الحراس من البساتين الغربية. كان علينا الإسراع.

تدريبنا. عندما حاولنا استئنافه، فقدنا داين وسيمنينغ في غضون أسبوع. لم يبقَ أحد سواي. كان علينا إيجاد طريقة أخرى. يومًا ما...

"بطريقة أخرى..." كان ذلك مستحيلاً. لا عجب أن غالادون كان مصمماً على أن أسعى وراء خطته العبثية. ربما كان حارس عاجز أفضل مما لديهم. "لقد سمحت لهم بالبقاء... ولكن كلما ازددت قوة، ازدادوا قوة أيضاً. هل تعتقد أنك ستتمكن من إخراجهم في هذا "اليوم"؟

"كان عليّ أن أحذركِ يا سيون. لا شيء يُبقيكِ هنا. هذا الشرير ديرزي لا يستطيع أن يفعل بكِ شيئًا الآن، لذا اتركيه. كوني حرة. سأقطع هذه القيود عنكِ بنفسي." رفع معصميّ وهزّهما، والغضب بادٍ من خلال إصراره كلوحة بيضاء خلف ألوان فنان. لم يكن لكلامه أي معنى.

سحبت يديّ بعيدًا. "ليس خواتم العبودية هي ما سأفقده لو هربت يا ريس. أنت تريدني أن أتخلى عن الشيء الوحيد الذي ما زلت أملكه في هذا العالم. لقد أقسمت يمينًا، كما فعلت أنت أيضًا—"

"يجب أن أذهب. فكر فيما قلته. سأعطيك حصانًا، ومؤنًا، وملابس، وكل ما تحتاجه. ربما أستطيع أن أصنع تعويذة لإخفاء العلامات."

لم أجد ما أقوله له. كيف لم يدرك ما فعله؟ "كن حذرًا يا ريس. كن متأكدًا. الشيطان لا يتنازل عما لم يفقده أصلًا. ولا يتنازل إلا عندما يظن أنه وجد طريقة أخرى لتحقيق مبتغاه."

"إنه رجل ميت يا سيون. ابتعدي عنه." أمسك بكتفي للحظة ثم غادر.

نقرتُ النار مرةً، ثم مرةً أخرى، ثم رميتُ الغصن على الجمر في نوبة غضب. تطايرت الشرر ورقصت في طريقها إلى أعلى المدخنة. ضلت إحداها طريقها واستقرت على بطانيتي، متوهجةً بلون برتقالي ساطع قبل أن تخبو سريعًا.

"لقد خانكِ." كدتُ أفقد صوابي حين سمعتُ همسةً أجشّةً من الظلام في الجانب الآخر من الغرفة. انتزعتُ شمعةً من الرف فوق الموقد وأشعلتها من الجمر.

قلتُ وأنا أضع الشمعة على الطاولة بجانب سرير ألكسندر: "لا يجب أن تتكلم". كانت عيناه مغمضتين، وخصلات شعره الحمراء الرطبة ملتصقة بجبهته وخده. أخذتُ منشفة صغيرة نظيفة ومسحتُ العرق عن وجهه. "لقد فقدتَ من الدم ما يكفي لإشباع ديرزي هيغيد لمدة شهر".

"ألم تسمع ذلك؟ لقد قالها بنفسه. لقد كشفها."

رفعت رأس الأمير وأسقيته رشفة ماء، ففتح عينيه ببطء. كان جلده دافئًا ورطبًا. قلت: "لم يكن هناك ما يمكن كشفه".

"كان يعلم أنك على قيد الحياة. لكنه اختار ألا يساعدك."

«ربما يفعل ديرزي مثل هذا، لكن ليس ريس. كنتُ محاصرًا. أُصبتُ بسيف ديرزي. سقطتُ.» مع أن سقوطي كان على ركبتيّ فقط، إذ قيّدوا يديّ وربطوا حزامًا جلديًا حول عنقي بإحكام شديد حتى كدتُ أختنق... قطعتُ تلك الفكرة. لم أكن مستعدًا لتلك الذكريات. «كان سيموت عبثًا.»

"عندما كان يتحدث عن الآخرين، قالها صراحةً: 'كان كل شيء فوضى. لقد تم أسركم'. أسرتم، وليس موتكم. كان الأمر واضحاً جداً. كان الشعور بالذنب يتسرب منه."

قلت: "يجب أن تستريح".

"عليك أن تحذر."

الفصل 25

لم يكن انخفاض حرارة ألكسندر إلا مؤقتًا. ورغم أنني لم أشك كثيرًا في أن صحته القوية ستعود، إلا أن الجرح الملوث كان عميقًا في بطنه. اعتنى به المعالج طوال صباح اليوم التالي لزيارة ريس في منتصف الليل، لذا لم يكن عليّ سوى المراقبة.

أغلي غضباً وأتساءل ماذا أفعل بحق فيردون. كنت أتوق للتحدث إلى غالادون مجدداً، لكنني لم أجرؤ على الاقتراب منه الآن بعد أن علم الآخرون بوجودي هناك.

بعد ساعات طويلة من الفراغ، كنتُ قلقًا ومضطربًا للغاية، حتى أنني فكرتُ في اقتلاع الرفوف من الجدران أو رمي الأشياء. مع أنه لم يكن

ليسمعني، جلستُ بجانب سرير الأمير وأخبرته أنني سأخرج قليلًا، وأنني بحاجة لتصفية ذهني. "المعالجة الإزارية هنا معك يا سيدي. سأعود قبل مغادرتها عند غروب الشمس. لن أتخلى عنك."

بدأتُ أسير، مارًّا بعدة أناس لم يروني. حتى الأطفال كانوا قد حُذِّروا. لم ينزلق أيٌّ منهم، حتى عندما كاد اثنان منهم أن يدوساني حين اندفعا خارجين من باب المدرسة. كأنني مصنوع من ضوء الشمس. بعد أربع أو خمس مرات من هذا القبيل، رفعتُ يدي إلى وجهي لأتأكد من أنه ما زال هناك. كم مرة تمنيتُ الاختفاء منذ أن كنتُ عبدًا؟ كانت تجربة الاختفاء مختلفة تمامًا عما تخيلته.

حاولتُ ترتيب أفكاري، لكن منذ حديثي مع ريس، عجزتُ عن ربط أيٍّ منها بترتيب منطقي. كلما حاولتُ التفكير في ريس ويسان ومعنى صفقتهما مع الشياطين، تشتت أفكاري إلى أمور تافهة. عمَّ تحدثا؟ كان ريس يستمتع بالحفلات والضحك، بينما فضّلت يسان الألفة والملذات الهادئة. ما نوع النبيذ الذي شاركه معها في حفل زفافهما؟ كانت يسان تعشق النبيذ الحلو الداكن، بينما كان ريس يزدري هذه "المشروبات النتنة التي تُشبه مشروبات الأطفال". لم يكن يشرب إلا النبيذ الأبيض الخفيف والحامض. يا للسخافة! لماذا أهتم؟

انتابني شعورٌ بالضيق لعجزي عن التفكير، فبدأتُ أهرول، وبحلول الوقت الذي دخلتُ فيه بين الأشجار، كنتُ أركض، أسرع فأسرع، أولاً على طول الطريق الرئيسي ثم انحرفتُ نحو مسار الحيوانات البرية الذي اتبعناه أنا وألكسندر في الليلة التي أُصيب فيها. كلما ركضتُ بقوة، كلما استقرّ ذهني أكثر تماسكاً.

كان من المذهل حقًا معرفة أن الشياطين تتعاون فيما بينها، وأنها تفعل ذلك منذ سنوات طويلة، لدرجة أن شيطانًا واحدًا يستطيع التفاوض نيابةً عنهم جميعًا. ولكن بعيدًا عن هذا التغيير في نظام العالم، ما الذي دفع ريس، يا ترى، إلى عقد صفقة معهم؟ لطالما كان متهورًا. وقد أعاق ذلك تدريبه باستمرار، حتى أن غالادون يئس من جعله يفكر قبل أن يهاجم. لكن لا شك أن الزمن قد علّمه الحكمة، وبوجود يساني، الشريكة القوية والحاسمة وذات الخبرة، لم يكن ليُقدم على مثل هذا الاتفاق دون تفكير. وبينما كانت قدماي تدقان على التراب المتماسك، بدأت أستحضر رؤى. ليس بالسحر بالطبع، بل مجرد ذكريات محظورة منذ زمن طويل. ريس...

كنت أغبط ريس على طوله. في العاشرة من عمره، كان أطول مني برأس، وكتفاه أعرض بمرتين من جسدي النحيل. لو أصبحنا حارسين، لكانت أي ميزة في الطول أو القوة ستجعله متقدمًا عليّ. لم يكن من

العدل أن أُهزم دون ذنب مني. لكن في اليوم الذي قررنا فيه استكشاف الكهوف المنحوتة تحت كاينيلون بفعل ينابيع فالديس، لم يكن للطول والضخامة أي فائدة. كنا قد سمعنا عن سلسلة من الغرف المبطنة بالبلورات خلف "كهف الغرغول" يمكن للجميع الوصول إليها. لكن للوصول إليها، كان على المرء أن يزحف نصف فرسخ عبر نفق منخفض، ثم يلتصق بجدار ويمر عبر شق قصير ضيق. انزلقتُ عبر الشق بسهولة ورفعتُ مصباحًا، وناديتُ ريس ليُسرع، إذ لم أرَ قط مثل هذا الجمال الذي رأيته في الكهف المتلألئ.

"سيون، انتظري!"

قلت: "هيا بنا، هناك المزيد في الداخل. إنه مثل الماس هنا."

"لا أستطيع الدخول. عد."

لم أرغب في العودة. كنت في منتصف الطريق إلى الكهف التالي، وأنا أحدق في الجدران والسقف والشقوق والنتوءات المصنوعة من الجمشت.

"سيون، أنقذني!" أعادني ذعر صديقي المتزايد إلى الواقع. كان في الظلام، مرعوبًا من فكرة البقاء عالقًا تحت الأرض إلى الأبد، لدرجة أنه نسي كلمات إشعال الضوء - أول تعويذة يتعلمها أي طفل من إزاريا. انحنى إلى

أدخل رأسه بصعوبة، ثم علق نفسه بإحكام، ممسكًا بيده من الأمام والأخرى من الخلف، وعلق شيء ما بالصخور المتدلية خلفه. كان يلهث بشدة وقال إن الصخور كانت ضيقة جدًا على صدره لدرجة أنه لم يستطع التنفس بشكل صحيح. بعد عشر دقائق من الفحص الدقيق، بما في ذلك إخراج رأسي من خلال الشق أسفله، استنتجت أن حقيبة ظهره الجلدية - التي كانت تحمل الضروريات مثل الجبن والخبز والتفاح والمكسرات والحبال والحلويات - هي التي علقت به.

قلت بجدية وأنا أسحب سكيني: "سأضطر إلى قطع خصيتيك لأجعلك لائقاً".

كانت عينا ريس، وقد برزتا بالفعل من الخوف، تُصغّران الكهف. "يا فالديس الرحيم!" همس.

قطعتُ أحزمة كتفه، وعندما انفكّت حقيبة الظهر، اندفع خوفه المكبوت عبر الشقّ كحجرٍ من مقلاع. صدمَني أرضًا، فأطاح بسكيني وتناثرت مؤننا الثمينة، تاركًا تفاحتين تتدحرجان ببطء على أرضية الحجر. قلتُ: "خصيتيك!"، وانفجرنا ضحكًا. لساعةٍ كاملة، استلقينا نختنق من شدة الضحك في كهف الألماس، نُلقي أضواءنا السحرية

على البلورات ونُعجب بعظمة الحياة. أقسم في ذلك اليوم أنه عندما نكبر لنُحارب الشياطين، لن يخذلني أبدًا - حتى لو اضطر إلى قطع خصيتي لإنقاذي.

ركضتُ أسرع، مدفوعةً بالقلق والحيرة ومرض القلب. ستة عشر عامًا من الحبس... من الألم والوحدة... من منع نفسي من التذكر. حتى عندما شعرتُ وكأن رمح دافيد قد اخترق جنبي، وتشنجت ساقاي، وخرجت أنفاسي متقطعةً كالحرقان، لم أستطع التوقف.

ماذا كان عليّ أن أفعل بشأن ألكسندر؟ رأت يساني أنه مُحطّمٌ للغاية بحيث لا يُمكن إنقاذه. وكذلك فعل غالادون. لكن هل تأثرت أحكامهم بهوية الأمير، كما افترض ألكسندر؟ هل كانوا سيقولون الشيء نفسه لو لم يكن ديرزي؟ إذا كان قد تغيّر الكثير بين شعبي في ستة عشر عامًا، فهل كنتُ ساذجًا لأصدق أن كرمهم النزيه ما زال قائمًا؟

دون أن أدرك، بدأتُ أتحكم في تنفسي ودقات قلبي المتسارعة، فأبطئها، وأُصدر الأوامر لعضلاتي بالاسترخاء والتمدد، والعمل بسلاسة. كانت أفكاري تعود دائمًا إلى ريس. ماذا فعل؟

فتحت عينيّ فجأةً لأرى غيومًا. أو ضبابًا. أو نوعًا آخر من الرمادية المبهمة. تكثّفت الرطوبة على بشرتي المحمومة وتساقطت على ظهري العاري... وصدري... على كل شيء عارٍ. أين ملابسي؟ كنتُ مرتبكًا، مشوشًا، وبدأت أشعر بالغثيان، لأنني لم أكن أعرف إن كنتُ في وضعي الطبيعي أم مقلوبًا. لم أشعر بشيء تحت قدميّ، وبدأتُ ألوّح بذراعيّ في حالة من الذعر.

أين كنت؟ أين كنت آخر مرة عرفت فيها مكاني؟

التدريب، بالطبع. متى فعلت أي شيء آخر؟

"آيف؟" لم أجرؤ على نطق اسم يسان. سيُعاقبني غالادون بأسبوع كامل على مثل هذا التهاون. أسبوع... لم يكن تدريبًا، بل اختبارًا. كنتُ أخوض الاختبار الأخير بعد خمسة أيام شاقة. لقد خطوتُ الخطوة الأخيرة. عبر ستار من نار... يا إلهي، هل متُّ؟

"آيف! سيدي!" صرختُ وأنا ألوّح بيدي وأتلوى، وشعرتُ بقبضة ناعمة تُمسك بذراعيّ. شياطين؟ أرواح من العالم الآخر؟ سحبتُ ذراعيّ بعيدًا، لكنهم ظلوا مُتشبثين بي... ويضحكون. بهدوء في البداية، كما لو كانوا من مسافة بعيدة، ثم اقتربوا أكثر وبصخب. "يا إلهي!" قلتُ بتحدٍّ. "خذني إلى النور إن أردتُ العيش معك."

"خذوه إلى النور!"

"إنه يريد النور!"

"حسنًا. فقط تذكر أنها كانت فكرتك."

"يستحق ذلك!"

أمام عيني مباشرةً، أشعلت شرارةٌ مبهرةٌ شعلةً، وتشكّلت يدٌ من بين الضباب - يدٌ قويةٌ ذات أصابع سميكة تحمل كأسًا من القصدير يفيض بنبيذ ذهبي. وسرعان ما تبعها زوجٌ من الحواجب الكثيفة المتشابكة تعلو عينين لامعتين تشبهان عيني سمكة. قال صاحب العينين، وهو يدفع الكأس في يدي: "قد ترغب في هذا. أرسله فيردون وقال: ربما لاحقًا. أما الآن، فأنت محكومٌ عليك بالبقاء معنا."

وبالطبع، تبدد ضباب السحر البهيج، ووجدت نفسي لا يحيط بي سوى دخان الخشب، واقفًا بجانب نارٍ مشتعلةٍ مبهجة، بينما يضحك عليّ ريس وهوفيد وأختي إيلين وغارين... ويسان، التي جلست بهدوء على صخرة، عابسةً بتركيز وهي تفحصني. ارتشفت رشفةً طويلةً من كأسها المصنوع من القصدير بينما وقفتُ مشلولًا من الإحراج. "لطالما تخيلتُ أن الحارس سيكون أكثر إثارةً للإعجاب عاريًا، لكن غالادون يُقسم أنه اجتاز اختباره، لذا أعتقد أننا سنضطر إلى الاكتفاء به."

بينما كنت أحاول عبثًا أن أتقلص حتى أختفي، انفجر ريس وغارين وإيلين في نوبة من الضحك الصاخب، وألقى ريس إليّ عباءة الحارس الزرقاء الداكنة. قال: "حاولنا أن نُلبسك إياها مع إبقائك مُختبئًا في الضباب، لكنني خشيتُ أن تُحطم جماجمنا". رفع كأسه وقال: "تهانينا يا صديقي. أنت أصغر من اجتاز اختبار الحارس على الإطلاق. أتمنى لك النصر دائمًا، وأن تعود من كل معركة سالمًا معافى".

"هيا، هيا!" صاح الآخرون رافعين أكوابهم. انفرجت ابتسامة يسان النادرة كفراشة تخرج من شرنقتها. لسنوات طويلة، كانت مخنوقة بعشرة من رجال الحاشية الذين عينتهم الملكة تاريبا لحراستها وحمايتها كل ساعة من كل يوم. لم تلتحق قط بمدرسة قروية أو تغامر مع أقرانها، لذا بدأت للتو تشعر بالراحة مع أصدقائي. لقد ذُهلوا لاكتشاف حسّها الفكاهي اللاذع. كنت لأراهن أن هذا "الكشف" كان فكرتها.

بعد أن تبدد الحرج والارتباك وحلّت محلهما البهجة والفرح المشترك، عادت يسان إلى دراستها، وانطلق الآخرون بحثًا عن الطعام. لم يبقَ سوى أنا وريس بجانب نارنا في منتصف الليل. جلسنا في صمتٍ وديٍّ لبعض الوقت، تاركين أصداء أصدقائنا تتلاشى في أصوات ليلة هادئة. ثم كسر ريس الصمت قائلًا: "لقد تركتني وراءكِ يا سيون. لا أستطيع

مشاركتكِ دربكِ أو معاركِكِ الآن. لكنني سأفعل. حالما أستطيع، سأتبعكِ. اتركي لي بعض الشياطين لأقاتلها." تشابكت أيدينا وأقسمنا لبعضنا يمين حارسنا، واعتقدنا أننا قد لمحنا المعنى الحقيقي للكون.

مددتُ خطواتي وزدتُ سرعتي. بدت الأشجار على جانبي الطريق ضبابية.

"ماذا قلت لها؟ ظننتُ أنها قد تُسقط الجرف عليك." جلس ريس على العشب بجانب المقعد الخشبي الذي كانت إيسان قد تركته للتو. ما زلتُ أشعر بألم كلماتها الغاضبة.

"أخبرتها فقط أنني بحاجة للعودة إلى كولدياث لبضعة أيام لأريح بالي. هذا كل شيء."

"كيف يمكنك تحمل التواجد في ذلك المكان بمفردك؟ صخور، رياح، لا غصن ولا نصل عشب. هذا يثير في نفسي شعوراً بالضيق، حقاً."

قلت: "لقد كانت هذه المواجهات الأخيرة بغيضة. يستغرق الأمر مني بعض الوقت لاستعادة توازني بعد معارك كهذه، ولا أحب أن أثقل كاهل أي شخص بذلك."

"لكن لديك أجمل وأذكى وأروع امرأة في إيزاريا تذوب عشقاً لرؤيتك. لقد قضت وقتاً طويلاً حبيسة تاريا وغالادون، وهي على وشك الانفجار... وستكون أنت الرجل المحظوظ الذي سيلتقطها. أنت مجنون إن تركتها ولو للحظة."

لماذا لم يفهم أحد؟ "أحيانًا أحتاج فقط إلى أن أكون وحدي. لقد خضت ستين معركة في ستة أشهر. أحيانًا أشعر أنني لا أستطيع التنفس بعمق إلا إذا كنت بعيدًا عن الأشجار وعن... كل شيء. بضعة أيام تكفيني. ثم سأكون مستعدًا للانطلاق مجددًا."

تدحرج ريس نحوي وأسند رأسه على يده، بينما كان يمضغ عودًا طويلًا من العشب. "وهل أخبرتَ هذه المرأة فائقة الجمال أن عليك الابتعاد عنها لمدة أسبوع لتستريح قليلًا؟ وأنك تقضي معها وقتًا طويلًا جدًا؟ ولم يمضِ سوى ثلاثة أسابيع منذ آخر مرة فعلتَ فيها هذا؟ أنت مجنون تمامًا."

"الأمر ليس كذلك."

"لكن هذا ما قلته، وهذا ما سمعته. إذا قرر غالادون يومًا ما أن بعضنا، نحن ذوي المواهب العادية، قد يكون جديرًا بأن يُسمى حارسًا، فسأجعلك تفتح بوابة إلى روحك للعثور على الشيطان. وإن لم يكن ذلك، فماذا إذًا؟"

«هناك ما هو أكثر من ذلك. ثمة شيء غريب يحدث لي. تغيير. قوي... كما لو أنني على وشك فتح باب إلى مكان آخر في داخلي. إنه قريب جدًا، لكنني لا أستطيع إدراكه تمامًا، وعندما أكون مع يسان... لا أستطيع التفكير في أي شيء سواها. أغرق فيها يا ريس. وبينما أفعل ذلك، أشعر وكأنني مجنون. لكن مهما كان هذا، سأصاب بالجنون إن لم أستطع فهمه. لذا عليّ أن أكون وحدي.»

"وهل أخبرتها بذلك؟"

"لا أستطيع. ستقلق." ولم يكن الأمر مجرد قلقها... بل كانت ستسألني وتستفسر وتحاول مساعدتي، وتجبرني على إخبارها بأن لديّ قناعة جنونية متنامية بأنني أستطيع القفز من جرف دون أن أموت. لم أخبر أحدًا بذلك... ولا بالألم الحارق الذي ظهر في كتفيّ والذي كان يجعلني على وشك الصراخ كلما رفعت سيفًا. سيعتقدون أنني مجنون أو مصاب، وسيمنعونني من القتال. لم أكن لأسمح بذلك. "هذا شيء يجب أن أحلّه بنفسي."

"يبدو أنك سترغب في إشراك شريكك في شيء من هذا القبيل."

"بالتأكيد أريد ذلك. أريد أن أكون معها في كل دقيقة من كل يوم. أريد أن ألمسها... جسدًا وعقلًا. أريد أن أكون عينيها وأذنيها، لأن العالم بأسره يكون أجمل عندما أشاركه معها. لكن عندما أخطو

عبر البوابة، عليّ أن أتركها خلفي. ماذا لو أخذتُ معها الكثير منها وكشفتُه للشيطان؟ ماذا لو تشتت انتباهي بالتفكير فيها أو القلق عليها؟ عليّ العمل وحدي، لذا أحيانًا أحتاج فقط إلى أن أكون وحيدًا. لا أعرف كيف أخبرها بذلك دون أن أغضبها. لا أجد الكلمات المناسبة. لقد استغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى تفتح قلبها. كنتُ مرعوبًا من فقدانها، أو من فقدان مفتاحي للوصول إلى أعماقها، وهو أمرٌ سيان.

نهض ريس وهزّ ركبتي كما لو كان يوقظني. "ماذا لو تحدثتُ معها؟ عليّ الذهاب جنوبًا لبضعة أيام لرؤية جدتي. سأطلب من يسان أن ترافقني بينما أنتِ في عشّكِ. سأخبرها أن كاسيدا تُظهر موهبة في البحث وتحتاج إلى يسان لاختبارها."

أردتُ الموافقة. كان ريس أكثر بلاغةً مني بكثير. لكن ذلك كان خيار الجبناء. "لا، عليّ إخبارها بنفسي. ثم إنها لا تزال لا تُحبّك."

نهض ريس فجأةً متجاهلاً احتجاجي الضعيف. "لا تقلق. اذهب واهتم بأمرها. سأعتني بها نيابةً عنك. سأخبرها أنك شخصٌ مستقلٌّ لا يسمح لأحدٍ بمساعدته في أي شيء، لذا من الأفضل لها أن تعتاد على ذلك. وسأكون كريماً معها للغاية. ستتعلم أن تحبني."

عندما انحدر الطريق صعودًا، لم أُبطئ، بل قفزت بسلاسة فوق الجداول والأشجار المتساقطة التي حاولت عرقلة طريقي. صفاء. ذاكرة. الألم الذي طردته، أعمق وأشدّ وطأةً من القيود والجلد. كان كياني كله مُنغمسًا في ركضي، وتهاوت حواجزي التي طالما بنيتها في فيض الفهم.

كانت ذراعاي تحترقان. من الداخل والخارج. من الداخل، من احتراق عضلاتٍ أرهقتها الإجهاد والتعب، ولم تعد تعمل إلا بإرادةٍ وحاجة. ومن الخارج، من خمسين جرحًا من السيوف والسكاكين والرماح، بعضها عميق، تاركًا جداول دموية تتساقط على معصميّ. كان رأس سهم مغروسًا في فخذي، يُهدد بانهيار ساقي اليمنى. كانت رائحة الموت تفوح في كل مكان، حيث تقيأ الرجال من الألم والخوف، وحيث تقيأ المحاربون عند رؤية جثث أصدقائهم وأحبائهم، إخوتهم وآباءهم، مُشوّهة.

لو لم يأتِ ريس في غضون ثوانٍ، لكنتُ سأصبح جثة هامدة مع البقية. كم مضى من الوقت منذ أن ذهب لطلب المساعدة؟ استدرتُ وركلتُ السكين من يد ديرزي المذهول ذي الوجه المسطح، فاستدعى اثنين من الثريد كانا قد قطعا للتو أيدي اثنين من أصدقائي الموتى.

طعنتُ بسيفي مانغانارًا هائجًا، وتظاهرتُ بتوجيه خنجري نحو آخر، بينما كنتُ أُصوّبه نحو قلب ديرزي ثانٍ ظنّ أنني لم أره. كانت ساقي المحورية هي التي بها السهم، وارتكبتُ خطأً فادحًا حين لامستُ المقبض المكسور بساقي المتأرجحة. أمرتُ الساق ألا تنثني، وأطلقتُ زئيرًا مدويًا حين احتكّ طرف الفولاذ بالعظم. لا جدوى من كتم الصرخة حين قد تُفاجئ أحد الوجوه العدائية المتزايدة حولي. لا مكان للكبرياء حين تكون في أمسّ الحاجة لأي ميزة. راقب أعينهم.

تحركت عينا ديرزي ذي الوجه المسطح، مما أخبرني أن آخر قد اقترب مني من الخلف. استدرت بسرعة وضربت مرة أخرى، هذه المرة متأكدًا من ترك مساحة لسهم القوس عندما وضعت قدمي مجددًا.

المانغنار قلقون. حسنًا، ولكن لماذا؟ ليس بسبب حارس منهك يقاتل بآخر ما تبقى لديه من مهارة وقدرة على التحمل. استدرتُ مجددًا، أمسح الدائرة، وأبقيتهم على مسافة كافية لأرى. هناك... على قمة التل، ظلالٌ على خلفية برتقالية غامقة لغروب الشمس. حتى عندما عادت عيناي إلى السيف المنحني الذي يهدد قفصي الصدري، واصلتُ ترسيخ الصورة في ذهني. أكتاف عريضة مربعة. وبجانبها، سحابة من الشعر الداكن، تلامسها لمسات ذهبية. ريس ويسان قادمان لإنقاذي. خمسة أو ستة آخرون معهم. كفى.

بآخر موجة من الأمل، أمسكت بالديرزي على يساري وتفاديت ضربة السيف التي كانت ستقطع رقبتي.

دقيقة واحدة... بضع ثوانٍ ليجهزوا تعويذة... تشتيت سريع حتى أتمكن من التسلل بين المحاربين الستة... والآن سبعة.

"اركع أيها البربري." أوقفني طعنٌ حادٌّ في موضع ضعفي أسفل أضلاعي اليسرى. سال الدم ببطء على جنبي من الطعنة السطحية، وأي حركة ستدفع النصل أعمق. وبالطبع، في لحظة ترددي، وُضِعَ سكينٌ على رقبتي، وجذب شعري بقوةٍ جارفة، ثم غُرِسَ رأس رمحٍ في فخذي. "ألقِ بألعابك الصغيرة اللعينة. من العار قتل مقاتلٍ مثلك. سيكون من الأفضل لك أن تمسح مؤخراتنا بأصابعك الإزارية النظيفة."

الآن! افعلها الآن يا ريس! صرختُ في صمت، بينما أجبرني ديرزي ذو الوجه المسطح على الاستسلام بضغطه على طرف السيف المغروس في جنبي. أسقطتُ أسلحتي وحاولتُ استحضار تعويذة من عندي. أي شيء. لكن عشرين ساعة من القتال، وثلاثة أيام بلا نوم، وحزن لا يُطاق

وضعوا أصابعهم الثقيلة على عقلي وجسدي. لم أستطع استحضار أي أمل. كان أملي الوحيد معلقاً على قمة التل.

لم يكن هناك سوى هؤلاء القلة، هكذا فكرت. أما غالبية العدو فكانت على بعد خمس دقائق، وهي تُنهي مذبحة جناحنا الأيسر.

لكن بينما كانت النسور المحلقة تصرخ بالنصر وتنقض على الموتى، والأصفاد تُكبّل معصميّ، انحنى الدرزي جانبًا ليأخذ سوط صديقه. ثم رأيت. في لحظة، كانت الأكتاف العريضة والشعر الذهبيّ ظاهرًا على قمة التل، وفي اللحظة التالية، مع أول ضربة سوط تمزق لحم كتفيّ، أداروا ظهورهم واختفوا عن ناظري.

صعودًا وهبوطًا. ضاق المسار ليصبح ممرًا صخريًا زلقًا كالجليد، أشبه بمسار الماعز. في تلك اللحظة، لم أكن أفكر، بل كنت أركض فقط. وعندما وصلت إلى حافة الجرف في الأعلى، ولم أعد أستطيع الركض، ركعت تحت أشعة الشمس الباردة على حافة العالم المتجمد، وبكيت.

الفصل 26

وهكذا وصلتُ إلى الحقيقة أخيرًا. "كشف" كنتُ أعرفه تمامًا طوال نصف عمري. سيرضى ألكسندر بأنه استنتج الحقيقة بسهولة، بينما حاولتُ إعادة اختلاقها، وإعادة تفسيرها، وإعادة تخيّل ذكرى خيانة صديقي... و

كانت إيسان هناك معه. لقد شاهدته. لقد فعلت

لا شئ.

جلست على حافة الجرف، وأدليت ساقي فوق الفراغ الشاسع للوادي المضاء بأشعة الشمس.

ماذا كان عليّ أن أفعل الآن؟ لقد أحضرت ألكسندر إلى الإزاريين على أمل أن نجد المساعدة التي يحتاجها بشدة. هل كنت مخطئًا في اعتقادي أن هذه الخيانة قد أدت إلى فساد حقيقي، وأنها قد أضعفت الإزاريين، كما كنا نخشى دائمًا؟

"هل أنت مستعد لهذا الاختبار بالذات بهذه السرعة؟" لحسن الحظ، كنت متمسكًا جيدًا بالحافة الصخرية للهاوية، وإلا لكان هذا التدخل المفاجئ قد دفعني إلى حافة الهاوية.

"كاترين! كيف وجدتني؟"

قال الأمير—

"الأمير؟"

أيقظته نيفيا وأطعمته مرق اللحم قبل ساعتين. إنه ضعيف للغاية. قال إنكِ كنتِ تعملين على تجاوز موقف مزعج مع صديق قديم. أمالت رأسها جانبًا، فداعبت الرياح شعرها الطويل، مُحيطةً وجهها الصغير بهالة داكنة. "لطالما لجأتِ إلى أماكن مرتفعة عندما كنتِ في ضيق."

هززت رأسي وضحكت وأنا أنظر إلى بريق الظهيرة. "ألم تفعل شيئًا وأنت طفل سوى التجسس عليّ؟"

حدّقت كاترين في الاتساع الهائل أسفلنا، ثم جلست بجانبي، مبتعدةً مسافةً كافيةً عن الحافة. "لقد أنجزتُ بعض الأمور الأخرى على طول الطريق. ولا أعتقد أنكِ كنتِ تعتبرين ذلك تجسسًا دائمًا. لم ترفضي أبدًا كعكات اللوز التي أحضرتها لكِ ولا كلماتي."

أتذكر أنك كنت دائمًا مصدر تشجيع لي. كنت دائمًا جادًا وفخورًا في تواضعك، لكنك لم ترفض أبدًا الاستماع إلى إعجابي. ولم تعارضني أبدًا، كما أتذكر.

كنتُ آمل أن يكون جدّك قد أرسلكِ لي ليخبرني أنه كان مخطئًا، وأنني لم أكن الطالبة الأقل كفاءة التي حظي بشرف إرشادها. وإن لم يكن ذلك... كنتُ آمل أن تكوني قد ورثتِ منه دقة ملاحظته، وأنكِ رأيتِ فيّ ما لم يره هو. ابتسمتُ لها وقلت: "وأنتِ كذلك؟ أنا في أمسّ الحاجة إلى الحكمة والتشجيع في هذه اللحظة."

"هل فكرت ملياً فيما اقترحه؟"

"بالطبع فكرت في الأمر. أتمنى لو أستطيع أن أصدق أنني ما زلت أعاني من مرض ميليدا، أو أن خمسة أيام من الجهد يمكن أن تعيده إليّ."

"سيستغرق الأمر منك عدة أسابيع للاستعداد. ستحتاج إلى العمل في—"

لا جدوى من تركها تُعيد سرد حجج غالادون مرة أخرى. لم تستطع فهمها. "هل تعلمين ما يفعلونه بكِ في طقوس بالثار يا كاترين؟"

"سيون—"

يبدأون بوضعك في صندوق حجري - تابوت بالكاد يكفيك فيه الهواء للتنفس - ثم يدفنونك تحت الأرض. تستلقي هناك في قذارتك، ويزيدك الرعب سوءًا، عاجزًا عن الحركة. تظن أنهم لن يتركوك هناك طويلًا. إنهم يريدون عبدًا. إنهم يحاولون فقط تخويفك. لكن بعد حين... ساعات... يوم... يبدأ العطش ينهش روحك، وتشعر وكأن الجدران تضيق عليك. تستخدم قوتك لكبح جماح خوفك: لتشعل ضوءًا، ولتخفف التشنجات والعطش، ولتمنع كسر أصابعك وأنت تحاول شق طريقك للخروج. بعد حين، لا تستطيع الصمود أكثر، وبينما تستلقي هناك في الظلام تشعر بالجنون يزحف نحوك، يبدأون في تضليل عقلك بالأوهام...

وضعت إصبعها على فمي، فهدأت الغضب والرعب اللذين اجتاحاني مع الذكرى. زوجتي المخطوبة وصديقي المقرب هما من وضعاني في ذلك التابوت. كنت أعلم ذلك، واستخدمت كل ما أملك من قوة لأنسى، ولم أترك شيئًا لأتجنب رعب الدفن حيًا. لثلاثة أيام دعوت الله أن أموت، لكن خاطفيّ لم يسمحوا لي بذلك. لم يمت سوى قلبي وقوتي.

قالت كاترين: "نحن نعرف ما يفعلونه. إنهم يعتقدون - وأنتِ تعتقدين - أنهم يجوعونكِ حتى ينفد ما لديكِ. يجبرونكِ على استهلاكه، ويستخدمون الرعب والألم لمنعكِ من لمسه حتى يذبل."

بعيدًا. لكن جدي يعتقد أنهم لا يدمرون روحك، بل الإيمان الذي يربط حواسك بقوتك. القوة لا تزال موجودة. عقلك وجسدك وإرادتك لا تزال موجودة. ما عليك سوى إعادة ربطها. وما أفضل من استكشاف الطريق نفسه الذي سلكته من قبل، عندما فتحت قلبك بالإيمان، مخاطرًا بكل شيء لتثبت أنك قادر على الوقوف في وجه الشياطين؟

هززت رأسي. كانت تؤمن بما تقوله بصدق، ولكن ما الذي تعرفه فتاة صغيرة مدللة عن اليأس؟ كرهت أن أخيب أملها، كما كنت سأكره رفض

هداياها من الحلوى عندما كانت في السابعة من عمرها، ولكن لم يكن هناك خيار آخر. "ليس لدي إيمان. لا أعرف أين أجده بعد الآن."

"يمكنك أن تبدأ بجدي. لم يخذلك أبداً."

«لكنه لا يقول الحقيقة كاملةً». كان غالادون يعلم ما فعله ريس ويسان. كان يعلم أن ألكسندر سيُرفض. ولهذا السبب كان مصمماً على أن أحاول استعادة سلطتي. لكنه لم يخبرني بأي شيء من ذلك.

توقفت للحظة قبل أن تجيب. "كونه جديراً بثقتك لا يُلزمه بالكشف عن كل ما يعرفه. لم يكن الأمر كذلك قط. إنه يتصرف كما يراه مناسباً."

"هذا يجعل الإيمان أكثر صعوبة، خاصة عندما تصبح الأمور صعبة."

"من الغريب أننا نعتقد أنك قد وجدت بالفعل شيئًا من الإيمان في هذا الدرزي. ومع مرور الوقت، ستجده حيثما تكون في أمس الحاجة إليه. ولكن ذلك سيكون في يوم آخر."

"يبدو أنك متأكد تماماً من أنني سأفعل هذا."

"إذا كنت ستجعل من ديرزي محارب الروحين، فمن الأفضل ألا تضيع وقتك."

"جدك يصدقني؟"

"لا. لكنه لا يستطيع تجاهلك أيضاً، وهذا ما يزعجه كثيراً. والوقت ضيق جداً. ستصدر الملكة حكمها حالما يستيقظ الأمير مجدداً. ستطرده."

"كيف لي أن أبدأ بمثل هذا الأمر وأنا عاجز عن استحضار روح الله لإشعال شمعة؟" قلتُ، وما زلتُ غارقًا في ذكريات الماضي الكئيبة. "سيضيع وقتك ووقتي. من الأفضل أن أقفز من هذه الهاوية وأرى إلى أي مدى سيقودني إيماني."

اختفى اللون من وجهها الجامد، واتسعت عيناها السوداوان في رعب، وانتقلتا مني إلى الفراغ الشاسع خلفي. "حلوة"

فيردون، لا! لا يمكنكِ—"

"لا، لا. لم أقصد ذلك. لم أكن لأفعل ذلك أبدًا... أنا آسف." ماذا كنت أفكر؟ كانت شابة بريئة وكريمة... وليست عبدة ساخرة لا تجد الفكاهة إلا في الأمور المُرعبة. أمسكتُ بيديها الباردتين. "أجلس هنا غارقًا في شفقة الذات بينما تُقدّمين لي هدية كل ما أشتهيه. أتمنى بشدة لو أستطيع أن أؤمن مثلكِ. لكن لا يجب أن تفكري... لديّ أمور كثيرة

لأفعلها قبل أن أموت. يجب أن أجد من يستمع إليّ بشأن الخليد، ويجب أن أجد طريقة لأتخلص من هذا الدرزي المُزعج من ضميري."

شدّت كاترين فكّها وسحبت يديها من يدي، وللحظةٍ لمحْتُ نظرةً مُقلقةً لجدها في وجهها الصغير. "إياك أن تُعاملني كطفلة. حتى بعد كل هذه السنوات، ما زلتَ تظنّ أنك تعرف كل شيء. ما زلتَ ذلك الفتى المُغرور ذو السبعة عشر عامًا الذي كان يُربّت على رأسي ويقول لي إنني لن أفهم مشاكله حتى أكبر. حسنًا، لقد كبرتُ. ربما أستطيع أن أُنير لك بعض الأمور. أخبرني، أيها الفتى المُغرور، هل تتذكر كيف شكّك جدّي في ذاكرتك في الليلة التي كنتَ فيها في منزلنا؟ لقد جعلكَ تُردّد كل تعويذةٍ تعلّمتها أو صنعتها."

أخمدت نوبة غضبها ندمي بشكل فعال للغاية. "لم يغير العمر من عاداته المزعجة أكثر مما غيرت التجربة من عاداتي. هل هذا ما تقوله؟"

لم تُبدِ أي علامات على تقديرها لمحاولتي المضحكة. كان وجهها أحمرًا فاقعًا. "عندما كنتَ في السابعة من عمرك، نحتّ سفينةً كنتَ تُبحر بها في الهواء. كنتَ تُسمّيها سفينة السحاب. هل تتذكر ذلك أيضًا؟"

شعرتُ بقشعريرة تسري في جسدي كما لو أنني استيقظت من نوم عميق. "بالطبع أتذكر."

مدّت يدها إلى جيب عباءتها القرمزية وأخرجت سفينة شراعية بدائية الصنع بحجم كفّها تقريبًا. "لم تحلق طوال هذه السنوات، لأنك الوحيد الذي استطاع تحريكها." ألقتها من فوق حافة الجرف، فدارت نحو الأسفل، وقطع من القماش الأحمر الباهت ترفرف بشجاعة من أعمدتها الخشبية الرقيقة... حتى لامست نسمة هواء خفيفة قمة الجبل، فعادت السفينة إلى الظهور، تدور في دائرة واسعة حول رؤوسنا.

"قبل ثلاث ليالٍ، جعلك تنطق بالكلمات. لم يتطلب الأمر إيماناً، فقد خُلق سحره فيك قبل أن تعرف الشك. سحر طفل."

أيقظتني ميليدا خاصتكِ يا سيون. خاصتكِ وحدكِ.

كان بإمكاني الإجابة عليها بعشر طرق مختلفة. طرق ساخرة، لا تصدق. لكن بينما كنت أراقب قطعة الصنوبر وهي تتمايل مع تيارات الريح، اخترت الصمت وأعيش للحظة في روعة سحري الأول. بعد برهة، التقطتها من الهواء ومررت أصابعي على سطحها المخدوش والمتضرر: الصواري التي اضطررت لاستبدالها خمسين مرة، وقطع نسيج أمي، وعجلة السفينة التي أراني إياها أبي في كتاب، وحروف اسمي

المنقوشة بفخر على هيكل السفينة. أمسكتها على راحة يدي... بجانب الندبة حيث سمّر أحد أساتذتي يدي على الباب لمدة أسبوع لعدم تمكني من فتحه بالسرعة الكافية.

أعدت اللعبة إلى كاترين. "كما قلتِ، إنها تعويذة أطفال."

أعادت السفينة إلى جيبها وضمّت ذراعيها. مرة أخرى، بدا الشبه العابر بجالادون واضحًا في ملامح وجهها ونظراتها الحادة. "إذن، أخبريني كيف أنه في الليلة التي جاب فيها الشنجار غابتنا، تم تحذير ثلاث وستين عائلة من الخطر في اللحظة نفسها تمامًا من قِبَل رجل ذي ندبة على وجهه. رجل يرتدي عباءة رمادية ويحمل عصًا مشتعلة. رجل اختفى بمجرد أن أخبرهم بالاحتماء. اشرحي لي ذلك. هل كانت هذه تعويذة طفل أم أنها مهارة من مهارات عبيد ديرزي؟"

"ركضت من واحد إلى الآخر."

"ليس ثلاثة وستين."

"لقد تم تضخيم الرقم."

لقد تحدثتُ إليهم بنفسي. أنا محقق، ولي الحق في ذلك. لقد حذرتَ خمس عائلات شخصيًا. وأنقذتَ مجموعتين إضافيتين بالوقوف بينهما وبين الوحش. أما الثلاثة والستون الآخرون فقد تم تحذيرهم بالسحر - والقدرة على إطلاق مثل هذا السحر لا يمتلكها إلا حارس. لا يوجد خمسة من الإزاريين الأحياء حتى الآن قادرين على فعل ذلك. ولم يفعله أي منهم. لقد تحدثتُ إليهم جميعًا.

"هذا مستحيل."

"وماذا لو لم يكن الأمر كذلك؟ ماذا لو كنت أنت المخطئ؟"

"لا أعرف..."

"بالضبط. وقسمك يقتضي أن تعلم." نهضت ولفت عباءتها الخضراء حولها. "سآتي إليك الليلة، فور إضاءة مصباح النساج. أنصحك أن تنام قليلاً قبل ذلك الوقت. جدك سيكون بانتظارك." استدارت وسارت نزولاً من التل.

لقد تركتني عاجزاً عن الكلام ومذهولاً. الكلمات الوحيدة التي خطرت ببالي كانت: "نعم، يا سيد غالادون".

لم أبقَ طويلًا بعد رحيلها. كانت الحياة مُربكةً للغاية بحيث لا يُمكنني التفكير فيها. احتجتُ للركض مجددًا، ففعلت. وحينها لاحظتُ أنني لا أشعر بألم، وأنني أستطيع التنفس، وأن خطواتي كانت سلسةً وطويلة،

أشقّ طريقي على طول الطريق حتى عدتُ إلى بيت الضيافة في غضون ساعةٍ واحدة. تمنيتُ أن يكون ألكسندر مستيقظًا. كنتُ بحاجةٍ للتحدث إلى شخصٍ لا يجعلني أشعر وكأنني مُقيدةٌ بعقدة أرملةٍ من قِبل فتياتٍ صغيراتٍ يلعبن بالخيوط. لقد بدأتُ أُقدّر موهبة ألكسندر في فهم الناس. لو أنه فقط تعلّم كيف يُوظّف هذه البصيرة بشكلٍ صحيحٍ بعد أن يمتلكها، لربما أصبح إنسانًا لائقًا.

كانت القرية هادئة ومهجورة، لذا فوجئت تمامًا عندما فتحت باب بيت الضيافة ورأيت ملكة إزاريا جالسة بجانب سرير ألكسندر. كان المعالج يقف بجانب النار مع ريس، ورجلان من إزاريا، مسلحان بالرماح، يقفان عند المدخل. لم يتحرك أي منهم عندما دخلت. تساءلت عما سيفعلونه لو حاولت إيذاء ملكتهم.

انحنيتُ، لكن إيساني لم تُعرني أي اهتمام. كان ألكسندر، المُتكئ على وسادته ويبدو عليه المرض الشديد، هو من أشار إليّ بالصعود. كان من غير اللائق أن أبقى. لا آداب الإزاريين ولا انضباط العبيد في ديرزي يسمحان بذلك. لكنني قررتُ أن حاجتي لسماع ما يُقال تفوق بكثير فظاظتي وقلة أدبي. فجلستُ على الأرض بجانب سرير ألكسندر، وراقبتُ وجه إيساني وهي تتحدث. لم تُحِد عيناها السوداوان عن ألكسندر، ولم يتردد صوتها الواضح.

"...معذرةً. بما أننا تسببنا لك بهذه الإصابة الخطيرة، يمكنك البقاء حتى تتعافى. ولكن بمجرد أن تقول نيفيا إنك قادر على السفر، سنطلب منك المغادرة."

قال ريس: "ظننتُ أننا سنُرسله بعيدًا على الفور". كان ظهره مُوجَّهًا إلينا جميعًا، يُحدِّق في النار، ويطرق بقبضته على الرفّ الخشبيّ المتين فوق الموقد. "قد يُؤخذ في أيّ لحظة. قلتَ إنه في حالةٍ مُتردّية لدرجة أنه سيقبل الموت طواعيةً، لذا فإنّ كلّ لحظةٍ يقضيها هنا تُشكِّل خطرًا. أعرف كم تكره ذلك، لكن..."

"نحن المسؤولون عن هذا المرض. سنقدم له العلاج لجسده فقط، لا شيء آخر."

"لقد فهمت أن الإزاريين لا يرفضون علاج أي شخص من تعاويذ الشياطين، حتى ديرزي." كان صوت ألكسندر متوترًا، يتقطع مع أنفاس سريعة، كما لو كان يؤلمه تحريك حتى جزء صغير من نفسه.

قالت يساني: "لا نكنّ أي ودٍّ لديرزي، ولن أقول إنني سأوافق على شفائكِ تحت أي ظرف. لكن هذا لا يغير شيئاً. سحركِ يفوق قدرتنا. لا نستطيع حمايتكِ من عواقبه، لذا علينا حماية أنفسنا."

أطفأ الصقيع نار يسان. لم تكن كلماتها قاسية، بل كان تعاطفها صادقًا. مع ذلك، فإن المرأة التي أتذكرها ما كانت لتُرسل ألكسندر بعيدًا دون محاولة إنقاذه. لقد كان يحمل الولاء... كيف لها ألا تُحاول؟ ثم ضحكت على نفسي ضحكة خالية من الفرح. المرأة التي أتذكرها لم تكن موجودة قط. ما كانت لتتخلى عن أحد وتتركه في العبودية.

كانت خصلات الضوء في شعرها الداكن ذهبية باهتة أكثر مما أتذكر. هل كانت خصلات فضية هي التي خففت من بريقها، كضوء القمر الممزوج الذي يبرد لهيب الشمس؟ لم يكن هناك سوى خصلة واحدة منسدلة بجانب وجهها، تسقط على زرقة عباءتها العميقة. كان جسدي متشنجًا وأنا أستمع، أنتظر تلك النغمات الرقيقة التي لطالما أثارها صوتها العذب في داخلي. كنا كأوتار قيثارة تعزف معًا، ومهما كانت الخيانة، توقعت أن سماعها مجددًا سيمزقني إربًا. لكنني لم أشعر بشيء. جلست منتصبة على كرسيها بجانب ألكسندر، وعيناها مثبتتان عليه، ووجدت نفسي أرغب في مد يدي وهزها، في إغضابها، في لعني، أي شيء لأثبت أنني ما زلت حيًا. لقد عشت في عقلها. لقد خلقت لي عوالم أسير فيها، مستخدمة كل ما تعرفه عني لتجعلها مألوفة قدر الإمكان... لتحافظ على سلامتي. كانت علاقتنا - نحن الاثنان، والعمل الذي كنا نقوم به - كل حياتي، وكنت أعتقد أنها كانت حياتها أيضاً. كيف خانتني؟ كيف لم أشعر بشيء؟

أيقظتني شهقة مفاجئة وأنين مكتوم من ألكسندر من غفلتي، وأجبرت يسان على النهوض من كرسيها. كان أحد جانبي جسد الأمير قد التفّ على شكل الشنغار، بينما بقي النصف الآخر على هيئة رجل. لم يدم ذلك سوى لحظة واحدة مؤلمة، لكنها تركت وجه ألكسندر الشاحب متصلبًا من الألم، والحارسين يطعنان قلبه برماحهما.

قلتُ وأنا أمسك بالرماح وألوّيها من أيدي الحراس، عاجزًا عن كبح جماح غضبي: "يا فيردون العزيز، ألم تفعل ما يكفي؟"

غضبٌ لم يكن له علاقة تُذكر بردّة فعلهم العمياء. لم يكونوا متأكدين مما يفعلونه بي، مما سهّل الأمر عليّ. استخدمتُ الطرف غير الحادّ لرماحهم لدفع الرجال بعيدًا، ثمّ قلبتُ الرماح، وثبّتُ الرجلين على الحائط من ملابسهما. ركعتُ بجانب الأمير. "يا سيدي، هل تسمعني؟"

قال وهو يلهث لالتقاط أنفاسه: "ابقوا في الخلف. أخبروهم أن يبقوا في الخلف".

قلت: "سيبتعدون. ما الذي يحدث؟"

قاطعتني يسان وكأنني لم أتكلم. "هذا هو سحرك؟ أهكذا يبدأ؟" وقف ريس خلفها، ويداه العريضتان على كتفيها، يحدق برعب في ألكسندر.

قال الأمير وهو يضغط بكفيه على عينيه: "مختلفة... هذه الأيام القليلة. عقلي يتأرجح ذهابًا وإيابًا... يتغير... لذا أرى... كما يرى الوحش. روائح... رغبات... أجزاء مني تتغير. ثم يختفي كل شيء."

قلت: "لا يوجد زر تشغيل؟ لا شيء يُشغّله كما كان من قبل."

"لا زناد. لا سيف... لا ديمتري..."

قالت يسان ببرود: "إذا كنت ترغب في أن يُستمع إليك يا أمير ألكسندر، فعليك أن توجه كلامك إليّ. ما الذي تقوله؟"

قال الأمير وهو يحاول عبثاً ترطيب شفتيه: "بالكاد أستطيع إجراء محادثة واحدة، ولا أستطيع إجراء محادثتين".

سكبتُ النبيذ من الإبريق الموضوع على الطاولة بجانب السرير، ثم رفعتُ رأسه لأُسقيه رشفة. قال: "طعمه كريه للغاية"، ثم ضحك ضحكة خافتة. "مناسب، أليس كذلك؟"

أمرت يسان وهي ترتدي عباءتها بغضب: "دافيد، ستبقى لحماية نيفيا. ريس، أخبر النساج أن يضع حاجزًا حول هذا المنزل."

"لا! يا إيسان، لا يمكنكِ! لقد كان الأمر أسوأ—" توقفتُ عن الكلام، وأنا ألعن في سري. لن تفعل شيئًا بناءً على كلامي.

"يا سيدي، أرجو أن تخبر الملكة كيف كان الوضع عندما أخذتك إلى ما وراء حدود الغابة أثناء التغيير."

أخبرها بكلماتٍ مختلفةٍ عن كلماتي بما يكفي لتتمكن من التصرف بناءً عليها، فتراجعت يسان عن أمرها. "أنا آسفة لأننا لا نستطيع مساعدتك يا أمير ألكسندر. كان بيننا في السابق من هم قادرون على كشف مثل هذه الأمور، لكنهم جميعًا ماتوا الآن. ماتوا على يد الديرزي. علينا أن ندخر مواردنا بحكمة. ستغادر من هنا حالما تستطيع الركوب." ثم خرجت من الغرفة برفقة ريس، وتبعها أحدهم.

من بين حراسها ذوي الوجوه المحمرة الذين فكوا قبضتهم عن الجدار. تساءلت كيف سيبرر التمزقات في سترته.

قال ألكسندر وهو ينظر إلى وسادته، بينما كانت قطرات العرق تتلألأ على ذراعيه العاريتين: "ليس ودوداً للغاية".

"ملكتنا هي من ترعى العالم. لا تستطيع فعل كل ما تشتهيه"، قالت المعالجة وهي تُعدّل الوسادة والأغطية ليُصبح أكثر راحة. "لكنها

أحضرت لك علاجاتها الخاصة لتقويتك وتخفيف ألمك. إنها أعلم منا جميعًا بهذه الأمور". سحقت المرأة رزمة من الأعشاب مع بضع قطرات من الزيت من زجاجة، ووضعت المزيج على جرح ألكسندر. راقبتها عن كثب، متمنيةً لو أستطيع قراءة مكونات المزيج. مع ذلك، لم أستطع تصديق أن يسان قد تُؤذي أحدًا عمدًا. يا للسذاجة! كم من الخيانات ستُجبر على ذلك؟ ربما كان الأمر مجرد ثقة مني بالمعالجة وقدرتها على تمييز أي شيء غير طبيعي. كانت نيفيا امرأة لطيفة وكفؤة. بدا الأمير أكثر ارتياحًا بعد وضع الدواء ولفّ المعالجة ضمادات نظيفة حوله. "سيون".

"نعم يا سيدي."

"أخبرها أنني أحتاج إلى شيء يُبقيني نائماً. حتى لا أتغير. أرجوكِ. إذا تكرر الأمر... فلن أعود."

"لقد أخبرتها يا سيدي. هذا ما يجب أن نفعله. وإذا حدث ذلك، فستبقى مسيطراً على نفسك وتعود إلى طبيعتك كما كنت من قبل. سأكون معك."

قام المعالج بخلط الأعشاب في الماء الساخن ووضع بضع ملاعق في فم ألكسندر.

قالت: "هذا سيساعدك على النوم"، ثم جمعت أغراضها وتسللت خارج الباب، تاركة إياي وحدي مع الأمير.

"شعبك قاسٍ يا سيون." جلست على الأرض بجانب سريره.

"لا، من حقهم أن يكونوا حذرين. لكن في بعض الأحيان يبحثون عن الفساد في الاتجاه الخاطئ. بإمكانهم الاستفادة من خبرتك لكشف نوايا الرجال الكامنة وراء أفعالهم."

فتح ألكسندر جفنيه المترهلين بصعوبة. "هل كنت محقاً بشأن القرينة؟"

أومأت برأسي وعضضت على لساني لأمنع نفسي من طرح السؤال التالي. لكنه سمعه على أي حال.

قال: "إنها ترتدي قناعاً. إذا كانت مذنبة، فستخفيه. لكن القناع لا يتحكم في تصرفاتها. والدي يفعل الشيء نفسه. لطالما تمنيت ذلك."

لأتعلم كيف يفعل ذلك. ظننت أنني سأحتاج إلى ذلك.

للحظة، لمعت عيناه العنبريتان ببريق جنون وحشي، ثم سرى ارتعاش في جسده الطويل، وقبض على الوسادة بمفاصل أصابعه الخالية من الدماء. "ساعديني يا سيون."

قلتُ: "سنجد حلاً. حتى لو اضطررتُ للبدء من الصفر والقيام بذلك بنفسي، فسوف نخلصك من هذا البلاء. لن ينتصر الشيطان."

تمتم ألكسندر بنعاس: "روحي الحامية. كنت مستلقيًا هنا أفكر، أتذكر ذلك المحارب على نسيج المرأة - المحارب ذو الأجنحة الذي يقاتل الوحش. لا أستطيع إخراجه من رأسي. كان الوجه مألوفًا جدًا، لكنني لم أستطع تذكره. الآن عرفت. إنه أنت، أليس كذلك؟"

لم أكن متأكدًا مما إذا كان مستيقظًا ليسمع إجابتي. "أجل يا سيدي، لقد كان كذلك."

الفصل 27

كانت الحائكة حامية لمستوطنة إزارية. امرأة ذات مهارة لا مثيل لها في صنع التعاويذ، كانت مسؤولة عن حواجز الغابة التي من شأنها أن تحافظ على سلامتها.

كانت تُطلق تحذيرًا عند دخول دخيلين، وخاصة الشياطين الخفية، إلى الأشجار. لطالما عاشت الحائكة خارج الغابة لتتمكن من مراقبة تعاويذها، لكن هذا يعني أنها لم تكن محمية أو مكفولة؛ وبالتالي كانت عرضة لمخاطر لا يتعرض لها الآخرون. ولذا، عُلِّق مصباح في زاوية منزلها، تُضيئه كل مساء حالما تنتهي من جولاتها وتتأكد من سلامة كل شيء. وكان أحد سكان المستوطنة سيُرسل تحذيرًا.

يأتي إلى حافة الغابة للتأكد من أن مصباح النساج مضاء، وإذا لم يكن كذلك، فإنه يركض لإطلاق الإنذار.

خلال العامين اللذين كانت فيهما أمي هي الحائكة ولم تستطع العيش في منزلنا بالغابة، كنتُ أنا العداء. كان شرفًا عظيمًا لها أن تُلقّب بهذا الاسم، وقد استمتعتُ بالاحترام الذي نالته من أصدقائي، لكنني افتقدتها بشدة، وشعرتُ بفراغٍ كبير في منزلنا. عندما أخبرها أبي بحزني، احتضنتني وقالت إنها نسجت اسمي في التعويذة لإضاءة مصباحها. كلما رأيته مضاءً، سأعلم أن قلبها معي طوال الليل. منذ ذلك الحين، كان مصباح الحائكة يُدفئني دائمًا حتى خارج حدود أمان المستوطنة. في إحدى الليالي الباردة، عندما كنتُ في الثانية عشرة من عمري ولم أرَ مصباحًا مضاءً، وجدناها ميتةً إثر إصابتها بحمى مفاجئة.

كان ألكسندر غارقًا في نوم عميق بفعل المخدر، وكنتُ جالسةً عند مدخل بيت الضيافة المفتوح حين أضاء مصباح النساج من شرارةٍ واحدة إلى وهجٍ أصفر ثابت عبر الممر المظلم. لم أستطع إلا أن أفكر في أمي... وكذلك أبي. اشتقتُ إليهما كليهما. كانت أمي تتمتع بقوةٍ هائلة، وكانت معلمتي الأولى في فنون السحر. لقد أنارت خيالي بقصصها وعلمتني أن أستكشف عوالم حواسي بالكامل، وأن أكون مُلاحظةً ومنتبهةً حتى لأبسط الأشياء. كما حرصت على أن أعرف كيف أصغي إلى الصمت أيضًا.

كما أسمع وأرى الأشياء الغائبة والحاضرة على حد سواء. وفي انقلاب غريب، علمتني أن أرى وأشعر بالأشياء التي أسمعها، وأن أسمع وأتذوق اللون والملمس والشكل.

لكنني كنت أعتقد أنني تعلمت أكثر من والدي، الذي لم يكن مصابًا بالميليدا على الإطلاق. كان رجلاً طويل القامة، قوي البنية، محبًا

للكتب. كان بإمكانه أن يقضي حياته سعيدًا كعالم أو معلم، مستكشفًا عوالم الفكر. لكنه كان إزاريًا، ولم يكن مصابًا بالميليدا، لذا لم يكن لديه هذا الترف. كان يقضي أيامه في العمل في الحقول المدرجة خلف الغابة، يزرع الطعام لإعالة أولئك الذين يواصلون حرب الشياطين. قبل أن أبدأ الدراسة، كنت أرافقه في رحلته اليومية، راكبًا على كتفيه في الصباح الندي، أحفر في التراب بسعادة، وأقتلع الأعشاب الضارة، أو أغفو في بستان التفاح حتى يحملني إلى المنزل في المساء. كانت تلك أيامًا ثمينة. بعد العشاء، كان يجلس في مكتبه ويفتح كتابه، لكنه كان ينام على كرسيه فورًا، متعبًا جدًا من القراءة. مرت سنوات عديدة حتى فهمت الحزن الصامت الكامن وراء ابتسامته عندما تم فحصي وتبين أنني مصاب بالميليدا. أدرك، على عكسي، أن ذلك يعني أن وقتنا معًا سيتقلص سريعًا ويتلاشى. كان من حسن حظي أن تدريبي لم يبعدني عن المنزل، فقد تعلمت كل شيء عن الشرف والواجب والتضحية، ليس من الباحثين أو الحراس أو المرشدين، ولا من أمي التي تركت منزلنا لتصبح النساجة، بل من أبي الذي كانت موهبته هي التخلي عن كل ما يُقدّره.

ابتسمتُ وأنا أجلس أراقب مصباح النساج من مدخل بيت الضيافة. طوال هذه السنوات، ظننتُ أنني حجبتُ والدي عن ذاكرتي، لكن في الحقيقة، كان معي في كل شيء. كان صوته صوت القبول والسلام الذي ساعدني على النجاة. ما يأتي يأتي. مع أنه لم يكن لديه ميليدا، في اليوم الذي حلّ فيه الرعب، عندما رُصد فيلق ديرزي قبالة حدودنا، كان والدي أول من حمل رمحه وقوسه وسألني، أنا ابنه المحارب، أين يقف.

عندما خرجت كاترين، ذلك الظل الذي كان يختبئ بين الأشجار، من بين الأشجار وصعدت في زقاق القرية لتأخذني، كنتُ قد نهضتُ بالفعل. قلتُ: "يجب أن أعود قبل أن يستيقظ ألكسندر. لقد وعدتُه أن أكون معه. عدا ذلك، فأنا رهن إشارتك. فقط أخبرني أين أقف."

لم تبتسم. لم تتكلم. فقط استدارت وسارت عائدة نحو الأشجار.

كانت بداية موفقة. لم يتحدث أحد مع المرشح إلا عند الضرورة في الأيام التي سبقت الاختبار. كان من المفترض أن يركز كليًا على استعداده: مهاراته البدنية، وصفاء ذهنه، وإدراكه الحسي، ونقاء قلبه، وكم هائل من المعرفة المتخصصة. تنهدتُ وأنا أتبع كاترين بخطى ثابتة. بدا السؤال الوحيد هو في أي مجال كنتُ أقل استعدادًا. لكنني كنتُ معتادًا على ضبط النفس، على الأقل، لذا منعتُ نفسي من التفكير في الاحتمالات. لن أفكر لا في الإيمان ولا في الفشل. ما سيأتي سيأتي.

لم تأخذني كاترين إلى منزل غالادون، بل إلى أعماق الأشجار، إلى فسحة صخرية مضاءة بثلاثة مصابيح بيضاء معلقة على أغصان الصنوبر. تصاعدت أعمدة من البخار من بركة داكنة، والتفت حول غالادون ذي الشعر الأبيض، الواقف على صخور الضفة المقابلة لي ولكاترين. كان الرجل العجوز يرتدي رداء الحارس الأزرق الداكن الذي كان عليه في السابق، وكان متكئًا على عصاه التي كان يستخدمها لتركيز طاقته الروحية أثناء التدريس. توقفتُ على حافة الفسحة وانحنيتُ له كما يليق بتلميذٍ أمام معلمه. رفع عصاه وأشار إلى البركة. لم تكن هناك حاجة للكلمات. كنتُ أعرف ما يريده.

ألقيتُ نظرةً خاطفةً على كاترين بينما كنتُ أخلع عباءتي، وأعلقها على غصن، ثم جلستُ لأخلع حذائي. كانت منشغلةً بحقيبةٍ موضوعةٍ تحت أحد الفوانيس المعلقة، وظهرها لي. تمنيتُ لو أنها تبقى على هذا الحال أو تغادر الجياد تمامًا. لم يكن غالادون ينوي أن أُلوِّث البركة بملابسي، وحتى ستة عشر عامًا قضيتها مع ديرزي غير المحتشمة لم تُهيئني للوقوف عاريًا أمام امرأةٍ إزاريةٍ بالكاد أعرفها. وهناك أشياء أخرى... أشرطةٌ فولاذية، ندوب... أغلقتُ رأسي وخلعتُ قميصي، وعلقته بجانب عباءتي. فكِّر في الكلمات. اشعر بما تفعله... هذا فقط. أن تكون نظيفًا. كم مضى من الوقت؟ خلعتُ سترة العبيد وسروالي، وأنا أرتجف بينما تُداعب نسمةٌ الأشجار وتُثير أبخرة البركة. بدت المياه ساخنةً جدًا. أردتُ أن أغمس يدي أو قدمي في البركة لأختبرها، لكن الإيمان لا بد أن يبدأ من مكان ما. لن يُحمّلني غلادون فوق طاقتي.

لذا مشيت بحذر عبر الثلج المتناثر والصخور الرطبة على حافة الماء، ثم قفزت... وكدت أغرق. كان الماء يغمرني ويحرقني. تخبطت في حالة من الذعر، مستنشقًا كمية كبيرة من الماء المغلي قبل أن أكافح للوصول إلى السطح وأسحب نفسي إلى الصخور الباردة المؤلمة. بقيت مستلقيًا أختنق وأسعل، عاجزًا عن الصراخ.

شعرتُ ببرودة الهواء القارسة على بشرتي المتقرحة. شعرتُ بكل ضربةٍ وُضعت على ظهري. ندوب الحروق على كتفي ووجهي كانت تنبض من شدة الألم. انهمرت دموعي بغزارة لأخفف من ألمها، وزحفتُ مذعورًا إلى حافة الصخور لأغمر يديّ في الثلج لأبرد المعدن المحيط بمعصميّ. بدأتُ أرتجف، وبين نوبات السعال حاولتُ التلفظ بكلمات: "أنا آسف يا سيدي... غبي جدًا... غبي جدًا". عندما أستطيع الحركة مجددًا، سأرتدي ملابسي وأعود إلى ألكسندر. ماذا كنتُ أفكر؟

"مرة أخرى."

خشيتُ أن يكون الماء المغلي قد أضرّ بسمعي. بالكاد أستطيع السيطرة على أطرافي المرتجفة، ركعتُ على ركبتيّ ونظرتُ إلى الرجل ذي الشعر الأبيض الذي كان يقف فوقي. كان فكّه قاسياً، وعيناه لا تعرفان الرحمة ولا الشفقة. رفع عصاه وأشار إلى البركة خلفي قائلاً: "مرة أخرى".

كان من حسن حظي أنني لم أستطع الكلام. ماذا عساي أن أقول لرجل مجنون؟ أو ربما ظن أنني مجنونة. كيف له أن يصدق أنني سأعود إلى الماء؟ غلي جلدي لن يشفي ندوبي. بعيون دامعة، بحثت في الوادي عن كاترين. كانت جالسة على الصخور المقابلة للبركة، على الصخور التي نزلت منها. تراقب. تنتظر. بلا أي تعبير. وبالتأكيد لا حركة تُعارض جدها خشية أن يُعذب تلميذته المُسنة حتى الموت.

لم يظنوا أنني سأموت لو عدت. ضغطتُ بكفّيّ على عينيّ، محاولاً كبح جماح دموعي المتدفقة لأتمكن من الرؤية. كان البخار يتصاعد من البركة في هواء الليل.

الإيمان. لم يُرد غالادون موتي. الانضباط. لا مجال للشك. الشك، لا الخوف، هو عدو الحارس. الخوف يجعلك حذرًا. الشك يجعلك ضعيفًا. الانضباط. تخلص من كل هذه الأفكار.

نهضتُ، وما زلتُ أرتجف، وانحنيتُ لغالادون. ثم أخذتُ نفسًا عميقًا، وأفرغتُ رأسي من أفكاري، ودخلتُ البركة... واعتقدتُ أنني سأموت لا محالة. شعرتُ بالدم يغلي في عروقي. على الأقل هذه المرة كنتُ حذرًا ودخلتُ بالقرب من الضفة، حتى أنني في لحظةٍ واحدةٍ مؤلمةٍ عدتُ إلى الصخور الباردة. شعرتُ كإحدى نساء مانغانار اللواتي يسلقن الشراشف في أوانٍ نحاسية، ثم يضربنها بالحجارة.

قلتُ وأنا ألهث: "سيدي، لا أستطيع".

"مرة أخرى."

لم أكلف نفسي عناء النظر. أخبرتني الكلمة بكل شيء. سيشير الموظفون إلى المسبح. كم مرة سمعتُ تلك الكلمة نفسها بتلك النبرة المُلحّة في حياتي؟ كل مرة سمعتها عادت إلى ذاكرتي وأنا مُستلقٍ على الصخور، أشعر بالبرد والنار في آنٍ واحد. انهالت عليّ الكلمات كحبات البرد، تُحطّمني حتى أُعاد تشكيلي إلى شيء أفضل وأقوى. كان ذلك يعني أنني أنسى شيئًا ما: كلمة، حركة، بصيرة، خطوة. كنتُ عاجزًا عن رؤية ما أحتاج إلى رؤيته. "مجددًا". هذه المرة، افعلها بشكل صحيح. هذه المرة، لا تنسَ. عندما تسير في عوالم جنون الشياطين، لا يمكنك تحمل النسيان، أو الانزلاق، أو الفشل.

إذن، ما الذي كنت أنساه؟ ما الذي جربته؟ التنفس، المشتتات، الثقة... ركعت على أربع، منهكًا أضحك في عجزٍ مُنهك. ماذا سيقول ألكسندر عن هذا؟ تدريب المحارب... ليس لشق البطون أو ركوب الخيل، بل للاستحمام. لتنظيف النفس. لاستعادة الطهارة.

ألكسندر. مع التفكير في الأمير، الذي ساقني لمواجهة هذا الاختبار والذي اقتضت حاجته أن أنتهي منه، اتضحت لي الإجابة. لم تكن مشكلتي نقصًا في المعرفة. فالمعرفة كامنة في داخلي وستعود بالممارسة. وقد تخلصتُ من المشتتات بشكل صحيح، لكنني لم أستبدلها بهدفي. من المستحيل خوض أي معركة دون هدف. إنه مرساتك. تركيزك. المكان الذي يمكنك فيه تثبيت كل ما عليك تذكره.

نهضتُ بصعوبة وانحنيتُ مجدداً للشخصية ذات الرداء الأزرق. هذه المرة، بدلاً من تصفية ذهني، ملأته بالنور - إرادة ألكسندر، بريق الأمل الفضي، مرساتي. ما إن فعلتُ ذلك، حتى استقر كل شيء في مكانه. كان هذا اختباراً بسيطاً. تعمقتُ في شذرات المعرفة التي تطفو في رأسي واستعددتُ. تنفستُ بعمق لأملأ دمي بالصبر. سيطر على حواسي. خفف من خفقان أعصابي المتوترة. برد بشرتي. أغرق عيني بدموع كثيفة لحمايتهما مع السماح لي برؤية ما يجب رؤيته. أبطئ نبضات قلبي. تحكم... ثبات... تركيز... ثم عدتُ إلى البركة البخارية.

انزلقتُ بسلاسة وبطء في الماء الساخن، وكأن الزمن لم يمرّ. وصلتُ إلى القاع هذه المرة، ولم أشعر إلا بلمسة الطحالب الناعمة المتطايرة والدفء المريح الذي يتغلغل في مساماتي. في الأعلى، كان ضوء الفانوس الأبيض يطفو على السطح، فسبحتُ نحوه بكسل، وشعرتُ بالماء ينساب على بشرتي، يزيل سنوات من القذارة والرعب والألم. في لحظة، عكستُ اتجاهي وعدتُ إلى القاع، وأخذتُ حفنة من الرمل وفركتُ بها بشرتي وشعري.

ثم انطلقت نحو السطح وخرجت منه، ضاحكاً على نفسي وأنا أزحف إلى الصخور وأستلقي عارياً في ليلة باردة، أشعر وكأنني سحقت فيلقاً من الديرزي.

كان انتصارًا صغيرًا جدًا. لم يتطلب انتصاري أي سحر على الإطلاق. ولا أي شعوذة. بالكاد بدأتُ ما عليّ فعله. لكنه كان كافيًا. لقد بدأت.

كل ليلة على مدى سبع ليالٍ، كانت كاترين تأتي إليّ وتأخذني إلى غالادون. كان يُدرّبني ثماني ساعات أو أكثر على عناصر تدريبي. كان يُدرّبني ساعتين على الكلمات والتعاويذ، والاستراتيجيات والتكتيكات، ثم يُكلّفني بالجري أو ممارسة فنون القتال لصقل ردود أفعالي وتهدئة ذهني. وفي ساعات أخرى، كان يُعطيني مسائل - ألغازًا أو سيناريوهات

معارك - ويُطلب مني حلّها ذهنيًا، دون أن يسمح لي أبدًا بكتابتها على التراب أو على صخرة. سمعت كلمة "مجددًا" مرارًا وتكرارًا، حتى انطبعت في ذهني من جديد، ثم كان عليّ أن أُجهد ذهني لأكتشف ما نسيته. لم يتحدث إليّ غالادون أبدًا خارج نطاق العمل، ولم يُكلّفني أبدًا بأي مهمة تتطلب استخدام "ميليدا". لم أسمح لنفسي بالتفكير في ذلك. في الحقيقة، كنت دائمًا مُرهقًا جدًا لأعيش اللحظة.

كانت كاترين معنا طوال الوقت، وهو ما استغربته. كنت أنتظر منها أن تقدم لي كعكات اللوز أو أن تشجعني بكلمةٍ ما في سياقٍ فكاهي يربط بين ماضينا. لكن عينيها الداكنتين لم تبتسما قط. كانتا تراقبانني وتحكمان عليّ، وعندما كنت أفشل في مهمةٍ بسيطة، كانت تدير وجهها بانزعاج.

أُعيدتُ إلى دار الضيافة قبل ساعتين من الفجر، وأنا أتعثر نحو سريري، مع أنني لم أتذكر وصولي إليه قط. استيقظتُ في الصباح الباكر عندما جاءت نيفيا لتطمئن على ألكسندر. كان جرحه يلتئم جيدًا. انخفضت حرارته، ولم يبقَ سوى ألم طفيف في بطنه. لكنه، ولشدة استيائه، كان لا يزال ضعيفًا للغاية، بالكاد قادرًا على الوقوف، فضلًا عن ركوب الخيل. كانت يسان تأتي لتطمئن عليه كل صباح، تُذكره بأنه يجب أن ينطلق حالما يستطيع الركوب. هزت نيفيا رأسها وقالت إن إرساله عبر الجبال في حالته الضعيفة سيكون بمثابة حكم عليه بالموت.

قال ذات ظهيرة بعد أن أمرني بمساعدته على النهوض: "لن يهدأ العالم اللعين بأكمله". كان قد سار جيئة وذهاباً في الغرفة عشر مرات، ثم كاد يسقط على وجهه. "بين جرعات النوم اللعينة ورأسي الملعون، أشعر وكأنني راقص ديزريلا".

لم أفهم قط كيف يمكنهم الدوران لمدة ساعة كاملة والبقاء منتصبين. لقد جننتني مشاهدتهم.

تثاءبتُ وساعدته على النهوض من الكرسي، حيث جلس، والعودة إلى السرير. قلتُ: "استرح اليوم، وغدًا سآخذك إلى الخارج. الهواء النقي سيفيدك. لا نريد التسرع. قد يكون أسبوع آخر مفيدًا". بعد ليلةٍ فاشلةٍ تمامًا مع غالادون، ظننتُ أن عشرة أسابيع لا تكفي أبدًا. لم أخبر ألكسندر بما كنتُ أفعله، لكنني أشرتُ إلى أن التعافي البطيء قد يكون في صالحه.

أعطيته كوبًا من الحساء الذي تركته نيفيا. انتعشت شهيته بالتأكيد. لم أستطع إطعامه ما يكفي. ربما يطرده الإزاريون ليمنعوه من التهام مخزونهم من الطعام.

"إذن، ما هي خطتك؟" قال ألكسندر وهو يوقظني بقدمه. جلستُ على الأرض متكئًا على سريره. "أنتَ مملٌ بشكلٍ لا يُطاق هذه الأيام، دائمًا ما تغفو، مما يجعلني أتولى زمام الحديث بأكمله. لا شيء عن السحر أو الشياطين أو كم أنا مجنون لأتخيل أنك أخبرتني أن بإمكانك أن تنمو لك أجنحة. ما الذي يهمك في مناورات ديرزي العسكرية أو كيف علمني ديمتري حمل السيف؟ أعتقد أن الوقت قد حان لتخبرني ببعض الأشياء. عن هذا الحفل—"

قلتُ، مشيرًا إليه بالصمت: "أريد فقط أن نبتعد عن هنا. سنجد مكانًا نختبئ فيه حتى تتخلص من هذه اللعنة". لم تكن نيفيا في بيت الضيافة، لكنني لم أكن أثق في إمكانية التحدث دون أن يسمعنا أحد. كانت هناك طرق. طوال الليالي الثلاث الماضية، شعرتُ برعبٍ متزايد، وحكة باردة تسري في عمودي الفقري، إحساسٌ مألوفٌ جدًا من معارك الشياطين عندما يكون شيءٌ بغيضٌ على وشك الظهور من صخرة خلفي. في ذلك اليوم، كان الأمر أسوأ من أي وقت مضى.

"ربما يختفي هذا الشيء البائس. قد يفعل ذلك، أليس كذلك؟ لو فقدت الشياطين اهتمامها بي أو شيء من هذا القبيل؟ ظننت أنني ابتعدت عن طريقها؟ أعلم أن الأمور كانت أفضل في اليومين الماضيين." وبينما كان يقول ذلك، شحب وجهه. أغمض عينيه بشدة، ولكن ليس قبل أن أرى الذعر الشديد الذي أخبرني أنه ينظر إلى العالم مرة أخرى بعيون وحش.

أعطيته بعض الوقت ليمر الحدث المروع، ثم هززت رأسي. "لا أستطيع الجزم يا سيدي. لكنني أشك في ذلك. أتمنى لو كان بإمكاني إخبارك بخلاف ذلك."

سواء أكان ذلك بسبب إصابته أثناء وجوده في هيئة الشنجار، أو بسبب اصطحابي له عبر حدود النساج أثناء تغيير ملابسه، أو لسبب آخر،

بسبب تقلبات غامضة في عمل الشيطان، اتخذ سحره منحىً مشؤومًا. بدا الأمر وكأنه لا يتطلب أي محفز على الإطلاق. كان يعاني باستمرار من "انزلاق" عشوائي، حيث تتحول إحدى حواسه أو أحد أطرافه بينما يبقى باقي جسده على حاله. تساءلت إن كان قد تحرر حقًا من هذا السحر يومًا ما. لقد فحصته ذلك الصباح بحواسي التي بدأت تستعيد وعيها... وقد فزعت من هول ما رأيت. كانت روحه تلتهمها الظلمة، كما يلتهم الرطوبة الحديد، تاركةً حوافًا خشنة هشة قابلة للتفتت عند اللمس. لم أستطع تخيل عذابه... أو أي تغيير طفيف قد يتسبب في انهيار آخر دفاعاته. لقد بدأ الوقت ينفد.

لم أكن أعرف إن كان خوفي من انهيار ألكسندر أم شعور آخر هو ما جعلني في حالة قلق شديد ذلك اليوم. نهضتُ ونظرتُ من خلال النوافذ المفتوحة. كانت مجموعة من الأطفال الصغار يلعبون الغميضة في الحقل الموحل بجانب النهر، يقذفون بعضهم في الوحل بسعادة. خرجت ثلاث نساء من منزل النساج، يحملن لفائف من القماش الملون. كان صبي يقود قطيعًا صغيرًا من الأغنام فوق التلة في الطريق. لقد كان يومًا جميلًا، دافئًا وهادئًا، تغرّد الطيور معلنةً حلول الربيع أخيرًا على هذا المرج المرتفع. يومٌ هادئ.

لم أستطع البقاء ساكنًا. وجّهت حواسي فلم أجد أي تعويذات سوى التعويذات العادية التي كنت أتوقعها. للحفاظ على نظافة الماء. لمنع الحشرات من غزو منزل قليل الاستخدام. لجعله محكمًا ضد البرد.

"ما الأمر يا سيون؟ أنتِ متوترة كفارسٍ على أعتاب معركته الأولى."

"أتمنى لو كنت أعرف." انتقلت إلى الباب الخلفي وشاهدت صقراً ينقض على فأر تحدى الطقس أخيراً ليخرج من مخبئه الشتوي.

"يبدو غريباً أنه لا أحد يأتي إلى هنا. الرجل الذي يجلب الماء. والمرأة التي تحضر الطعام. هذا كل شيء. حتى المرأة المعالجة لم تعد تأتي كثيراً هذه الأيام."

"أبلغتهم الملكة بقرارها. ولن يفعلوا أي شيء لتشجيعكم على البقاء."

لم يُجب، وعندما ألقيت نظرة خاطفة من فوق كتفي لأرى إن كان قد غلبه النعاس، رأيت بدلاً من ذلك أن ذراعه اليسرى قد تحركت إلى الطرف الآخر

من الشنغار. كان ألكسندر يحدق في العضو البشع برعب واشمئزاز. "يا إلهي..."

"لا تفكر في الأمر يا سيدي. فكر في شيء آخر. أخبرني... أخبرني عن زاجاد. لم أرها قط، مع أنني سمعت أنها أجمل مدينة في العالم. وليس الدرزي وحده من يقول ذلك."

أغمض ألكسندر عينيه وهز رأسه. لم أكن متأكدًا مما إذا كان الألم شديدًا لدرجة تمنعه من الكلام مجددًا، أو أنه كان يخشى ألا يخرج منه سوى صرخة الشنغار.

"إذن، من الأفضل أن أخبرك بشيء يُبقيك مهتمًا." لم يكن التحوّل ينعكس بسرعة، كما هو معتاد. لم أكن متأكدًا مما إذا كنت أرغب في التفكير في الأمر أيضًا. "أظن أنه من الإنصاف أن أخبرك قليلًا عن تاريخ الحرب ضد الشياطين."

لم أجرؤ على إخباره بأي شيء ذي أهمية. كنت أثق بألكسندر، لكنني كنت أعرف مدى ضآلة أملنا في إنقاذه من الشياطين. مهما قلت خلاف ذلك، ومهما أخبرت يسان الأمير، لم يكن هناك سوى إزاري واحد على قيد الحياة يمتلك القوة الكافية للتعامل مع سحر عميق وخبيث مثل سحر ألكسندر. ولم أكن مستعدًا. ليس بعد.

الفصل 28

استغرق الأمر ساعتين حتى عادت ذراع ألكسندر إلى وضعها الطبيعي. لم يستطع تناول الطعام بعد ذلك. عندما عرضت عليه كوبًا من الشعير المطبوخ وبسكويتًا محشوًا بالعسل، قال إن رائحتهما كريهة.

مقزز.

قلت: "يا سيدي، يجب أن تستعيد قوتك".

"قلتُ لكِ، لن أقبل بهذا!" صرخ، ثم انتزع الكوب من يدي، فتناثر السائل الساخن عليّ. قفزتُ، وقبل أن أنتهي من تنظيف سروالي، كان الأمير قد انكمش على نفسه، وذراعاه ملتفتان فوق رأسه. "أريد النوم يا سيون. اضربي رأسي بحجر إن لم يُجدِ نفعًا أي شيء آخر."

ظننتُ أنني قد أضطر لفعل ذلك. استغرق الأمر ثلاثة أضعاف جرعة التخدير المعتادة لتهدئته. وبحلول الوقت الذي أُضيئ فيه مصباح النساج، كان يرقد في حالة أشبه بالموت. لم يكن بالإمكان استشعار أي حركة إلا بوضع اليد على صدره. كان عليّ إقناع غالادون بمساعدتي في فعل شيء ما، وإلا سنفقده.

وصلت كاترين في الموعد المحدد، وترددتُ في نفسي بشأن ترك الأمير. قلتُ: "لقد مرّ بأمسية عصيبة"، ولم أتوقع منها ردًا، إذ لم تُكلّمني بكلمة غير ضرورية طوال سبعة أيام. "يجب أن أبقى معه. ربما يكون من الأفضل أن نقضي وقتنا في التفكير في كيفية مساعدته."

"إن بقيتَ، ستضمن هلاكه." ترددت كلماتها كدوي رعد خافت يتردد فوق الجبال شرقًا. ومع ارتعاشات وردية وفضية، كان ذلك اليوم الرائع يُنذر بعاصفة.

حدقت في الشابة القصيرة النحيلة التي ترتدي اللون الأخضر الداكن.

"هل أنتِ عرافة يا كاترين؟" لم أكن قد فكرت في أنها قد تمتلك ميليدا تتجاوز الموهبة البسيطة للإدراك ورؤية العقول التي يحتاجها المحقق.

"لا." خرجت من المدخل إلى الطريق. "إذا كنت ستواصل ما بدأته، فيجب أن يكون ذلك الآن."

أضاء وميض برق ساطع وجهها، وقرأت في تلك النظرة الخاطفة مجموعة واسعة من المشاعر لدرجة جعلت صوتها الهادئ يبدو كذباً.

"ما الأمر يا كاترين؟ ممّ تخافين؟"

قالت: "تعال أو ابقَ"، ثم أسرعت في الليل باتجاه الغابة.

عدتُ إلى بيت الضيافة، وتأكدتُ من أن ألكسندر ما زال نائمًا، ووضعتُ جذعًا آخر على النار تحسبًا لعاصفة. ثم انطلقتُ خلف كاترين، ولحقتُ بها عند حافة الأشجار. قبل أن نتجاوز الحدود، وضعتُ يدي على ذراعها وسألتها: "هل جدكِ بخير؟" كنتُ غارقًا في مشاكلي الخاصة، ولم أُعر أي اهتمام للأثر السلبي الذي تُسببه أنشطتنا على غالادون.

قالت وهي تسحب ذراعها من قبضتي بحزم: "إنه ينتظر. إذا كنت تريد مساعدة الأمير، فعليك الاستمرار في العمل على ذلك. تعال أو ابقَ."

ذهبتُ، عازماً على أن أطلب من غالادون مساعدتي في تحديد ما قد يمنح ألكسندر مزيداً من الوقت. لكن لم تسنح لي الفرصة للتحدث إلى مرشدي قبل أن نبدأ. كان ينتظر بجانب البركة، وشعره الأبيض يتطاير مع هبوب الريح، وعصاه تشير بالفعل إلى الماء. كنا نبدأ كل مساء بالتطهير. خلال ساعات النهار، كنت أحاول جاهداً أن أبقي جزءاً من ذهني مركزاً على تدريبي، وأن أبقي ذلك الجزء مني خالياً من القلق أو الفضول. لكن لا مفر من أن أفقد تركيزي وأنا أشاهد ألكسندر يكافح مع سحره الغريب. بدا أن غالادون يدرك أن الطقوس ساعدتني على استعادة تركيزي.

في تلك الليلة، عندما خرجت، وجدت ملابس نظيفة تنتظرني على الصخور: سروال قصير بلون بني فاتح وحذاء برقبة تصل إلى منتصف الساق، وقميص أبيض بلا أكمام من الكتان، وعباءة من الصوف الرمادي. وبينما كنت أرتدي القميص، لاحظت أن كاترين لم تكن موجودة. كان الأمر غريبًا، ومثيرًا للقلق نوعًا ما. تساقطت قطرات المطر الأولى باردة على وجهي.

أشار إليّ غالادون لأتبعه، فأطلقت العنان لذهني وأنا أسير خلفه على الدرب. كان دربًا لم نسلكه من قبل، يؤدي إلى جزء أكثر كثافة من الغابة، حيث كانت أشجار التنوب المتشعبة كثيفة لدرجة أنها تحجب معظم المطر. كان الدرب الموحل يلتف صعودًا، وتلمع بقع صغيرة من الثلج القديم بلون أبيض باهت في الضوء الخافت المنبعث من يد غالادون. أضفى المطر عبير الأرض الذائبة وبساط إبر الصنوبر العتيق.

كان الليل أكثر اضطرابًا من العاصفة الوشيكة. كان الجوّ مليئًا بالسحر. حتى دون أن أتحرك، كنت أشعر به. تباطأ تنفسي كما لو أن سندانًا استقر على صدري؛ ارتجف جلدي كما لو أن حدود جسدي هي حدود الكون، وأن ما وراء تلك الحدود مختلف تمامًا عما كان عليه قبل تلك الليلة. لا تفكر. لا تخمن. كل هذا جزء من استعدادك. ما سيأتي، سيأتي.

تراقص ضوء النار بين الأشجار أمامنا، ولكن قبل أن أتمكن من رؤية المكان، توقف غالادون وأعطاني قطعة قماش لأغطي بها عيني. لم أعر الأمر اهتمامًا. لقد طلب مني فعل ذلك عدة مرات خلال الأيام الماضية للتأكد من قدرتي على العمل دون رؤية. لا أحد يعلم ما قد يحدث في معركة مع الشياطين. سأركز فقط على حواسي الأخرى.

لكن هذه المرة لم يضع لي أي لغز، بل استخدم عصاه فقط ليطلب مني أن أتبعه. أنصتُّ لخطواته. بطيئة وحذرة على الصخور والجذور البارزة من الأرض الرخوة. كان وركه الأيسر يؤلمه. استطعت سماع ذلك في خطواته غير المنتظمة وفي التلعثم الطفيف في تنفسه عندما كان يضع ثقله عليه. انعطف قليلاً إلى اليمين. لقد خرجنا من بين الأشجار. تساقط المطر على رأسي وكتفي، لكنه لم يكن كافياً لتبليل معطفي الصوفي الرمادي.

ثلاث درجات... وأرضية حجرية مستوية. تردد صدى خطوات غالادون الخفيفة، ولم يعد المطر يهطل على رأسي، فقد كان هناك سقف. وجدران أيضًا، لكنها لم تكن تحيط بنا تمامًا، إذ ما زلت أشعر بنسيم المطر. وكانت النار مشتعلة... أغصان صنوبر... وقد أُلقيت فيها بضع حبات من الياسمين، مما جعل الدخان حلوًا فلا يحرق العينين. كنا في معبد! شعرت على الفور بخمسة أزواج من الأعمدة الحجرية تحيط بي، والسقف المقبب البسيط فوق رأسي. لا بد أن الأرضية مرصعة بالفسيفساء التي تصور قرونًا من الصراع مع الشياطين. من المحتمل أن هذه الأرضية قد أُضيف إليها فصل جديد - عن غزو ديرزي والفرار من إزاريا.

كان هذا تنويعًا مثيرًا للاهتمام لتعليم غالادون. كان سيضع لي لغزًا آخر، بالطبع، وأراد أن يغمرني في الرؤية كما لو كانت معركة حقيقية. كنت أشاهد المشهد يتكشف أمامي أو ربما أحاول خوض القتال بنفسي، ثم كان يسحبني ويسألني عما رأيته: الحركات، والأخطاء، والمعاني الخفية، والألغاز التي يمكن أن تكون متضمنة في الأرض أو الطقس أو الهياكل أو

كان لكل شيء معنى في عالم الروح البشرية، بالنسبة للسكان.

"ردد إيوريث."

انحنيتُ وجلستُ على الأرض، وكفاي مفتوحتان، وأرخيتُ ركبتيّ. ثمّ رددتُ كلمات ترنيمة إيوريث، وهي جزء من استعدادات الحارس قبل خوض المعركة.

"مرة أخرى."

رددتها ثانيةً، هذه المرة محاولاً تجاوز الكلمات المحفوظة، لأتأقلم مع الإيقاع، وأدعها تأخذني إلى حالة من الانفصال عن العالم. وكأنما كان يعلم أنني قد وصلت إلى أقصى ما يمكنني الوصول إليه بدون ميليدا، أمسك غالادون بيدي ووضع فيها... يداً أخرى... نحيلة، ناعمة...

انفتحت البوابة على حرارة لافحة. كان الطريق ثابتًا تحت قدميّ، فدخلتُ على الفور، متلهفًا لمعرفة اللغز الذي وضعه غالادون لي. وقفتُ على جرف صخري تحت شمسين حمراوين، أنظر إلى منظرٍ موحشٍ من الموت. امتدت أرضٌ حمراء متشققة وجافة إلى ما لا نهاية. برزت قمم صخرية حادة من الأرض المتشققة كقطع لعبة بشعة. لطخت غيوم برتقالية الأفق، وانقض نسرٌ يصرخ في الهواء خلف... ماذا؟ حدقتُ في الوهج الحارق، لكنني لم أستطع رؤية الفريسة. سيوبخني غالادون بشدة لعدم رؤيتها. حاولتُ طرد هذه الأفكار والتركيز على الدرس.

ركّز. انظر ماذا يكمن هنا في هذه الحرارة القاتلة. ما معنى هذه التضاريس القاسية، الخالية من الحياة، والشجيرات المتناثرة المتشابكة التي لا يمكن أن تزهر في مثل هذا القفر؟ ما هي المخاطر الكامنة في الصخور أو الغيوم الملطخة؟ هل النسر هو العدو أم أن هناك شيئًا آخر يتربص، ينتظر المحارب القادم؟

اهتزت الأرض تحت قدميّ. في السهول المحروقة، انهارت عدة أعمدة صخرية شاهقة، مُثيرَةً سحباً من الغبار الأحمر، وانفتحت شقوق واسعة في الأرض. شعرتُ بتوترٍ شديدٍ في عمودي الفقري. كان غالادون بارعاً في ابتكار الخدع البصرية. لقد مُتُّ ألف مرة في خدعه، وكنتُ أُذهل عندما أجد نفسي ما زلتُ أتنفس حين يُنقذني. لكن هذه المرة... كيف يُعقل أن أتذوق آثار الكبريت الخفيفة في الريح الحارة وأشعر بحبيبات الرمل بين أسناني؟

كنتُ بحاجةٍ لرؤية ما يكمن أسفل المنحدرات التي أقف عليها، لكنني لم أستطع إقناع نفسي بالسير إلى الحافة والنظر إلى الأسفل. سأكون واضحًا جدًا، مُحدَّدًا بوضوح على خلفية السماء البرتقالية. يا للسذاجة! إنه مجرد وهم كباقي الأوهام. لا شيء أكثر. لقد أقنع أحد الأيف بالمساعدة فحسب.

ليجعل الأمر أكثر واقعية. ومع ذلك، سقطت على ركبتي وزحفت عبر الصخور الساخنة.

في أسفل الجرف، كانت هناك متاهة من الصخور، أبراج حادة وخطيرة تمتد لربع ارتفاع الجرف. كان من المستحيل اختراق الظلال الكثيفة بينها. تغير الضوء الخافت بشكل طفيف، وفي لحظة اختفت الظلال، وتمكنت من فحص الشقوق والفجوات العميقة. لم يتحرك شيء. ومع ذلك، كان هناك شيء ما...

انزلقت يدي على الصخرة المتخلخلة، فغرزت حافة الصخرة فيها، وجرحت الجلد، تاركةً خطًا رفيعًا من الدم يتسرب من الجرح. حدقتُ في الدم. لمسته. تذوقته. في رؤيا لم تكن تنزف - ليس دمًا يُمكن تذوقه. ماذا فعلتَ يا سيدي؟

قبل أن أستوعب حقيقة المكان الذي أقف فيه، انقشع غبارٌ كثيفٌ بعيدًا إلى يساري، كاشفًا عن مستطيلٍ متلألئ - بوابة. خرج منها شخصٌ صغير، بعيدًا جدًا عني لأرى وجهه، لكنني سمعت صوته الجهوري بوضوح. "أنا الحارس، أرسلتني آيف، سفاح الشياطين، لأتحداك على هذا الوعاء. هيساد! ارحل!"

هناك! تحركت إحدى أكوام الصخور في ظلال الجرف، لكن لم يكن هناك أي اهتزاز للأرض يُفسر ذلك. هل رآها الحارس؟ لمحة ضوء ثاقبة من يد المحارب... الخنجر. اشتاقت يدي اليمنى إلى الخنجر الفضي، ويدي اليسرى إلى مرآة لوثن البيضاوية الملساء بحجم كف اليد - تلك القطعة الأثرية من ماضينا القديم التي كانت قادرة على شلّ شيطان بمجرد أن تُظهر له انعكاس صورته.

تقدم المحارب ببطء، يصطاد، يتفحص المكان كما فعلتُ. هل سيرى الخطر الكامن؟ هل سيكتشف مصدر موسيقى الشيطان التي تُزعج الروح كالفولاذ على الزجاج؟ هل كان المحارب حقيقيًا أيضًا، أم أنه مجرد شخصية بارعة من صنع معلمي؟

إن كان حقيقياً، فكيف يُعقل هذا؟ بوابتان في نفس الروح. كان عبء الحارس... أن يكون وحيداً في مملكة الشر. وكيف لي أن أصل إلى مثل هذا المكان غير مستعد، دون أن أشارك في نسيج الحياة الذي جعل العبور ممكناً؟

«أرفض تحديك أيها الوغد». تردد الصوت من بين الصخور، فارتجفت معدتي من شدة الاشمئزاز. «أعتبر هذا الوعاء ملكي. طعامه شهيٌّ ويرضيني أكثر من أي طعام تذوقته من قبل».

اهتزت الأرض. انفتحت فتحاتٌ أخرى في السهل، تنفث دخانًا كريه الرائحة. وللحظة، أظلمت السماء. ومع دوي انفجار،

انشق الصخر الذي كنتُ ملقىً عليه. تدحرجتُ إلى اليمين، وعندما استقرت نظرتي على السهل مجددًا، كان المحارب والوحش قد انخرطا في القتال. كيف حدث كل هذا بهذه السرعة؟ في مكان ما، كان ضحية معذبة تصرخ من شدة الألم والرعب الذي يعتصر قلبها.

انفصل الوحش عن الصخور التي كانت تخفيه. كان أحمر اللون، متكتلًا، يشبه في شكله يرقة ضخمة، لكن بأرجل سميكة كالأشجار ومخالب ضخمة في نهاية كل طرف. كانت عيناه غائرتين في تجاويف عظمية، وعنقه محاط بغضروف مسنن. سيكون جلده سميكًا ومتينًا؛ سيتطلب العثور على نقطة ضعفه اختبارًا طويلًا ودقيقًا. ومع ذلك، كان الحارس قد حوّل السكين الفضية إلى رمح. لماذا رمح؟ ما الذي رآه ولم أره؟ الرمح، بمجرد رميه، يصبح عديم الفائدة. عليك أن تكون متأكدًا. بالكاد بدآ معركتهما.

تفادى الحارس ضربةً من مخلب الوحش الضخم. برشاقةٍ، بالنسبة لرجلٍ بهذا الحجم. رجلٌ ضخمٌ للغاية، أدركتُ ذلك بالنظر إلى المسافة بيننا. عريض الكتفين. طويل القامة. تظاهر بالهجوم بالرمح. تبادلٌ للحركات والصدّات. ببطء. بدقة. كرقصةٍ تُعرف فيها جميع الخطوات وتُمارس. بعد بضع تبادلاتٍ فقط، نهض الوحش على مؤخرته، يلوّح بأرجله الستّ ويهدر بتحدٍّ يصمّ الآذان. تفادى الحارس ضربةً أخرى، ثمّ أطلق الرمح. استقرّ الرمح في أسفل بطن المخلوق. اندفع سائلٌ أخضر كريه من الجرح، مغطياً المحارب والتراب الأحمر.

ارتجفت الأرض حين سقط الوحش وسكن. الآن، فكرتُ، وجسدي المتوتر يحث الرجل على الإسراع، على إنهاء المهمة قبل فوات الأوان، حتى بينما كان عقلي يتساءل عن شكل المعركة. خذها الآن. يجب أن يكون الآن.

وكأنما استجاب لأمري، رفع المحارب يده اليسرى عالياً، وانطلقت منها شرارة فضية لامعة وهو يتحدث: "هيساد، راي-كيرا. ارحل أو مُت."

انتبه! انتفضتُ - لسببٍ ما ظننتُ أن الرجل في خطر، بينما كان من الواضح أنه يُسيطر على الموقف. بيده اليمنى، انتزع الحارس الرمح، وحوّله إلى سيفٍ عريض، وشقّ بطن الوحش من رقبته إلى مؤخرته، فتساقطت أحشاؤه التي جفّت وذبلت على الفور بفعل الحرارة.

ثم انطلقت صرخة غضب مدوية، جعلت صرخة الشنجار لا تعدو كونها أنين رضيع. كرهت الشياطين مرآة لوثن. هم

لم يستطيعوا مقاومة النظر إليه، رغم إدراكهم للعواقب. ففي اللحظة التي يموت فيها جسدهم المادي، يُمكن أسرهم به، لأنهم حينها فقط سيرون جانبهم الشيطاني بدلًا من كيانهم المادي. التوقيت هو كل شيء.

أخبرتني الصرخة أن المحارب قد نجح في أسر الشيطان، لكن شيئًا ما أزعجني في المشهد، بغض النظر عن سرعة حدوثه المذهلة. حتى عندما أعاد الرجل السيف إلى خنجر فضي، مستعدًا للقضاء على الشيطان إن اختار الموت، حاولتُ استعادة ما رأيته. ما الخطأ؟

كان بإمكان طالب في السنة الأولى أن يلاحظ ذلك. التوقيت! قضى المحارب على الوحش بعد أن رفع المرآة. لكن المرآة لم تكن فعالة إلا بعد موت الوحش المادي. ارتجفتُ لأن الوحش الشيطاني تحرك قبل أن يغرز السيف في أحشائه. سريع جدًا. سهل جدًا. لم يكن الحارس يسيطر على الشيطان. أردتُ أن أصرخ محذرًا، لكن صراخ الشيطان غطى على صوتي. ولأنه كان خارج شكله المادي، فقد تحدث بصوته المرعب، مستخدمًا لغة الشياطين، وهي لغة بغيضة لا تُدرس إلا في وضح النهار، خشية أن تمتلئ لياليك بكلمات الرعب. "لن أستسلم أبدًا لمثل هؤلاء الحثالة المتذمرة. خذني إن استطعت."

لمعت السكين، سكين الحارس الفضية التي يمكن تحويلها إلى أي سلاح مطلوب، والتي تستطيع أن تشق جسد شيطان غير مادي إذا استطعت تحديد مكانه بدقة. ترددت أنّة خافتة حزينة لشيطان يحتضر على النسيم العليل. بدأ النور يسطع. ركع المحارب وفتح ذراعيه على مصراعيهما ليحتضن النصر والسلام.

لكنني لم أنعم بالسلام. لم يُقبض على أي شيطان، لذا لم يمت أي شيطان. وبما أنني كنت موجودًا في ذلك المكان، لكنت شعرت بذلك. كان موت كل شيطان بمثابة تغيير ملموس في طبيعة الكون. ولهذا كنا حذرين للغاية من قتلهم جميعًا. كان التغيير سيكون هائلًا، وكنا نعتقد أن الطبيعة لن تتحمله. من الأفضل الاستمرار في القتال بدلًا من تدمير الشيء الذي نسعى لحمايته. لكن هذا الشيطان... لقد رحل، لكنه لا يزال حيًا. طليقًا. كان هذا المشهد برمته خاطئًا.

«أيها الحارس، أُشكك في هذا الادعاء بالنصر. هذه الخدعة. هذا الكذب الجبان.» نطق الصوت الهادر بما يدور في رأسي، لكن مصدره كان شخصًا أبيض الشعر يرتدي عباءة زرقاء، دخل ساحة المعركة دون أن أنتبه. غالادون.

فركت عينيّ وحاولت تحريك حواسي ذهابًا وإيابًا، لكنني مع ذلك رأيت ما كان مستحيلاً. كان من المذهل أنني كنت حاضرًا، قادرًا بطريقة ما

على مشاهدة معركة وراء بوابة حقيقية، لكن الآن جاء شخص آخر إلى هناك، وواجه رجلان بعضهما البعض في ساحة المعركة.

أُصيب المحارب بالدهشة أيضاً. "كيف أتيت إلى هنا بحق فيردون، أيها الرجل العجوز الشرير؟"

تباً للخيانة! كان الحارس هو ريس. لم يجرؤ أحدٌ غيرنا نحن الثلاثة - ريس، ويسان، وأنا - على مناداة غالادون بـ"الرجل العجوز الشرير".

"تظن أنك استكشفت عمق واتساع السلطة يا حارس، لكن هذا ليس سوى عمق واتساع الفساد. هناك جوانب عديدة للسلطة تتجاوز ما تعرفه."

أعلم أنه لا شأن لك بهذا المكان... ولا شأن لي به أيضاً. لقد انتهت هذه المعركة. لا مجال للخداع. فلنخرج، ثم ستشرح كيف يمكنك التواجد هنا.

تزعم أن مهمتك قد انتهت. ومع ذلك فقد سمحت لشيطان أن يغادر هذا الجسد طليقًا - نعم، لقد رأيته. تزعم النصر، ومع ذلك فهو يسير على الأرض مرة أخرى، حرًا في أن يأخذ آخر لمتاعه. أي استهزاء جعلته بقسمك؟

"أنت مجنون أيها العجوز. لقد قتلتُ الشيطان، كما قتلتُ كل واحد منهم طوال عشر سنوات. لهذا السبب يبتعدون عنا ويلتزمون باتفاقنا. لا عجب أنك حرّفتَ طرق العالم لتتبعني إلى هنا. أنت خائف من مواجهتي بهذا الاتهام على مستوى البشر حيث يمكن للجميع أن يروا كيف ضعفتَ مع تقدمك في السن."

"لا أخشى شيئاً سوى استمرار فسادكم دون رادع. ستجلبون الخراب لشعبنا، وللعالم أجمع."

"أنت لا تعرف ما تتحدث عنه. لولا وجودي، لكنا جميعًا أمواتًا." أدار ريس ظهره ومشى باتجاه البوابة.

نادى غالادون خلفه قائلاً: "لم تُجب على تحدّي يا فتى. أطالبك بالانتقام. هنا. الآن. قبل أن يتفاقم شرّك."

توقف ريس والتفت إلى الوراء. "لا يعقل هذا. ليس لدي أي ضغينة تجاهك... باستثناء ربما عمى الأبدية لديك."

"سيعلم الآخرون بهذا الانتهاك ما لم تسكتني اليوم." ماذا كان يفعل غالادون؟

تردد ريس، ثم عاد ببطء نحو مرشدنا. كان الرجل العجوز متكئًا على عصاه، والريح الحارة تداعب شعره الأبيض ورداءه الأزرق. كان الاثنان بعيدين جدًا، ومع ذلك استطعت سماعهما بوضوح، ومن خلال كلماتهما تخيلت العزيمة العنيدة على وجه غالادون والثقة المفرطة المتوترة على وجه ريس.

لكن لم يكن الغضب وحده ما انبعث من ريس، بل ألمٌ ومرارةٌ دفينة. "من سيصدقك؟ سيرون فقط المعلم العظيم وقد أثقلته السنون والحزن حين يواجه خراب تلميذه المفضل. أتظن أن صديقي القديم قادر على إنقاذنا باللعب في تدريبات الحارس؟ أجل، لقد شاهدت مبارياتك معه في الليالي الماضية. ستة عشر عامًا يا رجل. لا يستطيع حتى إشعال شمعة بعصاه. لقد كنت تخشى اختباره، لأنك تعلم الحقيقة. أنت ببساطة لا تستطيع التخلي عن الأمل. ربما حان الوقت لتفكر قليلًا فينا نحن الباقين."

"إنه المحارب. سيجد ما يحتاجه. سينقذنا جميعًا - إزاريان وديرزي وخليد. لقد وُلد من أجل ذلك."

«ما شأننا بالديرزي أو الخليد أو الإمبراطورية الملعونة التي يطمحون إليها؟ دعهم يُبيدون بعضهم بعضًا. سنتكفل نحن بما تبقى. أعد تلميذك الفاشل إلى أسياده العبيد، أيها العجوز. أنا من فعل ما يلزم لإنقاذنا، لأنك كنت مشغولًا جدًا بالحداد على رجل ميت.» كان ريس على بُعد خطوات قليلة من الشخص ذي الرداء الأزرق.

مدّ غالادون ذراعيه نحو ريس. "ليس عقلك هو من ينطق بهذه القسوة يا فتى. حتى الآن، لا يزال قلبك الحسود يتردد صدى رغبات راي-كيرا، كما فعل يوم تخليت عن أعز أصدقائك لتجار الرقيق ولوثت نفسك بالفساد. كما هو الحال منذ يوم خسرت معركتك الأولى وبعت روحك لتخفيها. هل ظننت أنني لن أكتشف ما حدث قبل كل تلك السنوات؟ هل ظننت أنك تستطيع عقد مثل هذه الصفقة دون أن تدفع الثمن أبدًا؟"

"أنت لا تعرف ما تتحدث عنه."

"لم يفت الأوان بعد. ضع ذلك جانباً يا بني. انظر إلى مواهبك ولا تشتهِ ما لم يُكتب لك. وإلا فأخبرني كم من الوقت سيمر قبل أن تنظر في مرآتك وترى عيون شيطان."

بزئيرٍ مدوٍّ، رفع ريس خنجره وحوّله إلى سيف. فعل غالادون الشيء نفسه بعصاه. مع أنه كان محاربًا شرسًا في شبابه، إلا أنه لم يكن ليُضاهي ريس أبدًا. بحثتُ بيأسٍ عن مخرجٍ من الهاوية. كان كل ما أراه

يمينًا ويسارًا هاويةً سحيقةً تُطلّ على صخورٍ حادةٍ كالشفرات في الأسفل. صحراءٌ شاسعةٌ تمتدّ خلفي.

لم يكن هناك وقت. مزّق سيف ريس كتف غالادون، فترنّح الرجل العجوز إلى الوراء. دوّت ضحكات بشعة في أذني. من أي مكان ذهب إليه، كان الشيطان يراقب ويتغذّى. بقي غالادون واقفًا، لكن سيفه تذبذب في الضوء البرتقالي. تظاهر ريس بالهجوم، مما جعل غالادون يترنّح إلى اليسار، لكن الرجل العجوز استعاد توازنه ووجّه ضربة قوية إلى ريس. في غضبٍ عارم، انهال ريس على غالادون ضربًا مبرحًا...

لم أستطع السماح بذلك. اجتاحتني عاصفة من الغضب والسخط، ففقدتُ القدرة على التفكير المنطقي أو الشك. كان غالادون سيموت على يد صديقي، وكان شيطانٌ يزداد قوةً في هذه اللحظة. لم أستطع الوقوف مكتوف الأيدي ومشاهدة ذلك.

أغمضت عينيّ وغصت في أعماق كياني، أُزيل طبقاتٍ من الخوف والرعب، والألم واليأس، وأُغلق الحزن، وأُهدئ الغضب، وأُركّز بصري الداخلي على الجوهر، على النواة التي شكلت الروح المسماة سيون. هناك أمسكت بالعقدة الباردة الصلبة التي كانت تسكن حيث عاشت ميليدا، ونفخت عليها، مُتمنيةً أن تحترق.

دون انتظار لمعرفة نتيجة عملي، فتحت عيني، وتقدمت خطوة للأمام، وقفزت من فوق الجرف الصخري.

الفصل 29

لم يكن لديّ وقتٌ للتفكير في الذعر في تلك السقطة المروعة من أعلى الجرف. كنت أحاول جاهدًا أن أتذكر ما يجب فعله بعد ذلك. الكلمات: Caedwyrrdin mesaffthyla. الحركات: يداي فوق رأسي مباشرةً، أطراف أصابعي متلاصقة، غير متشابكة خشية أن تكسرها الصدمة. ساقاي مستقيمتان ومتباعدتان لإبطاء سقوطي. ظهري مقوّس للأمام قليلًا لتحمّل الضغط. الحواس: أشعر بالهواء.

اقرأها بتأنٍّ، بكل تفاصيلها كما تقرأ الكلمات على الصفحة. أين هي الرياح الصاعدة؟ أين هي التيارات الهوائية الهابطة الخطيرة؟ كن مستعدًا. لا مجال للشك. فالشك يُضعفك، ولذلك، القوة هي كل شيء.

لم أستطع مشاهدة المعركة في السهول، بل صرختُ بوعدٍ سريع: "اصمد يا سيدي، سآتي إليك، سآتي". وحتى هذا الوعد تبدد حين بدأت النيران تلتهم كتفيّ. يا آلهة الأرض والسماء... لقد أتت، تموجت على ذراعيّ وظهري كلسعة البرق الحارقة. في تلك اللحظة العابرة، فكرتُ في ألكسندر وعذاب تحوّله. كم يختلف إدراك هذا العذاب! فحين انفرجت أجنحتي وكادت تقتلع كتفيّ من مكانهما، وبينما كنتُ أثني عظامي وأشدّ عضلاتي إلى أقصى حدودها لأسيطر عليها، صرختُ، لا من الألم، بل من نشوة هذا السحر التي تفجر القلب.

مدّد... اثنِ الأوردة السفلية لالتقاط المزيد من الهواء. استشعر كل عصب

الاتصال يتم فورًا لتتمكن من التحكم فيه على الفور - كأنك تتعلم المشي من جديد في عُشر ثانية تحت قدميك أرضية من الزجاج المكسور. كم استغرق الأمر؟ عندما سيطرت تمامًا على الوضع، وكنت أشبه بغطسة عالية بدلًا من سقوط حر، كنت قريبًا جدًا من الصخور الحادة. لم تكن الأغشية الرقيقة المنتشرة بجانبي وخلفي بمنأى عن

التمزقات. غطى غبار كثيف ساحة المعركة بينما كنت أسحب بقوة إلى اليمين، مستغلًا الرياح الصاعدة التي ستحملني نحو الشكلين الغامضين. أحدهما فضي - منتصب، سيفه مرفوع. والآخر أزرق. منحني. متراجع.

صرختُ: "انتظر يا حارس! هذا المكان ليس لك. هذه الحياة ليست ضائعة."

حدّق الشخص ذو الرداء الفضيّ بدهشةٍ وذهول. وبضربةٍ واحدةٍ من جناحي المضموم، أسقطته أرضًا على ركبتيه لحظةَ ملامسة قدميّ للأرض. كانت هذه الحركة من حركاتي المفضّلة، لكنّني كنتُ غير متمرّسٍ فيها، وأخرق، ممّا جعل هبوطي غير مستقرّ. استعاد ريس توازنه بسرعةٍ وقفز واقفًا. قال وهو يتراجع للخلف، وعيناه متسعتان، يحدّق في مدى تحوّلي: "إذن أنتِ لستِ ميتةً تمامًا؟"

"سيدي، هل أنت مصاب بجروح خطيرة؟" ناديت من فوق كتفي بينما كنت أمنع ريس من الاقتراب باستخدام ميليدا.

"كل شيء على ما يرام"، جاء الصوت القاسي من خلفي.

قال ريس: "لم أصدقك قط عندما أخبرتني عن الأجنحة. ظننت أنك تحاول إثبات أنك أفضل منا جميعًا". وبحركة خاطفة، حوّل سكينه إلى رمح، لكنني كنت أسرع منه، فأزحته جانبًا بأصابع قوتي. سقط الرمح على الأرض، ولم يعد سوى سكين. تراجع ريس خطوة إلى الوراء، متأهبًا، يراقب، مستعدًا لاستدعاء تعويذة ما إن تحركتُ مجددًا.

لكنني لم أتحرك، بل بقيتُ واقفًا بينه وبين غالادون. كنتُ بحاجةٍ إلى الفهم. سألته: "ما الذي حدث لك؟" أجاب: "كنا أصدقاء. إخوة. لم يكن يهمّ أبدًا من هو الأقوى أو الأسرع، أو من يملك أجنحة ومن لا يملكها."

قال بمرارة: "لم يكن الأمر يهمك قط. ولكن متى سألتني أنا أو إيسان؟ لقد انغمست كثيراً في مجدك، وأخذت إيسان كما لو كانت حقاً لك."

"هل هذا هو المقصود؟ هل كنت تريد يسان؟"

لم تعرفها قط. لثلاث سنوات قضت أيامها ولياليها معك، وقدّمت لك كل شيء، لكنك كنت تنزوي في صمتك الأبدي، تاركًا إياها وحيدة وكأنها مجرد مصدر إزعاج لعفتك. اسألها لماذا لم تستطع أن تكون معنا معًا - لأنها لم تستطع تحمل إيذائك. لطالما كنت أنت. لا أحد يضاهيك. لا أحد يستطيع مساعدتك. كان عليك أن تكون الأقوى وأن تفعل كل شيء بمفردك. لم يكن من الممكن أن يستمر الوضع هكذا. ثم جاءت الحرب... قبل أن تتمكن من إخبارك أنها أحبتني أنا.

لو كنتَ تكرهني لهذه الدرجة، لكان عليك قتلي فورًا. هل كان من الصعب عليك إخباري بالحقيقة حتى جعلتني عبدًا؟ هل أصف لك ما كان عليه الحال، وكيف لم أستطع الصمود أمام أهوالهم لأنني كنت مضطرًا لذلك؟

دفن ذكرى ما فعلت؟ يا إلهي، ريس. لقد أحببتكما كليكما. كنت سأفعل أي شيء من أجل أي منكما.

بصق عند قدميّ وغيّر وقفته، مقترباً من سلاحه الساقط وكأنني لم ألحظه. "ألم تسمع ما قلته؟ لم نكن نريدك أن تفعل أي شيء من أجلنا." في حركة سريعة وسلسة كدتُ أفوتها، انبطح ريس أرضاً، وتدحرج إلى اليمين، وأطلق سكينه الفضي نحو قلبي. لكنني أبطأتُ السكين، وأوقفته لبرهة كافية لأرتفع عالياً، مبتعداً عن طريقه. انطلق السلاح اللامع، وقد تحوّل إلى رمح، مسرعاً ليصيب الأرض.

قلتُ بغضب، وأنا أضع قدمي على الأرض: "إذن، من أخذ الشياطين أولاً، أنتِ أم يسان؟" ثم انتزعتُ سلاحه من مكان سقوطه، بينما كان يتراجع مسرعاً.

قال: "أنت لا تعلم شيئًا. سأتولى أمر الشياطين. سنصبح أقوى بفضل ما فعلت. ولن أسمح لك بالوقوف في طريقي". أومأ برأسه نحو شيء خلفي. "عليك أن تعتني بذلك الأحمق العجوز. حالته سيئة". ثم قفز واقفًا، وأدار ظهره، وانصرف.

ألقيتُ نظرةً خاطفةً من فوق كتفي. كان غالادون ملقىً على وجهه فوق الأرض الحمراء، بلا حراك. تركتُ ريس وانطلقتُ مسرعًا نحو الرجل العجوز، ألعن تأخري. قلتُ وأنا أُقلبه على ظهره: "سيدي، هل تسمعني؟"

كان الرجل العجوز يكافح من أجل التنفس. جرح غائر في صدره سلب منه الكثير من الدم. قال بحزم: "كنتُ على حق. قلها."

"كنت محقاً. بالطبع كنت كذلك. ألم تكن هناك طريقة أسهل لإقناعي؟"

قال وهو يرمش بعينيه المحمرتين ليطرد الدموع: "أرني الآن. لقد تمنيتُ أن أرى... منذ أن أخبرتني بذلك لأول مرة عندما كنتَ صبيًا. صغيرًا جدًا. صغيرًا جدًا لتملك مثل هذه القوة."

"أحتاج أن أحضرك—"

"أرني." استنفد كل ما في روحه من قوة في هذا الطلب. حتى الشيطان ما كان ليرفضه.

حركته قليلاً حتى استند إلى صخرة، ثم تراجعت خطوةً إلى الوراء ورفعت يديّ عالياً فوق رأسي، وهمست بتعويذة ريح حتى انبسطت أجنحتي تماماً وامتلأت بالهواء. سقط نمط تموجات خيوط العنكبوت الرقيقة على وجه غالادون المبتسم. "يا ابن قلبي." تنهد. "اقترب الآن."

ركعتُ بجانبه مجدداً، فجذب أذني نحو فمه، بالكاد ينطق بكلمات. "لا... تقسّي... قلبكِ. لا تُصدّقي كل ما..." عندما توقف عن الكلام، ابتعدتُ لأنظر. كان قد توقف عن التنفس.

لم يكن لديّ وقتٌ لأحزن على رحيله. تذبذب الضوء، فنظرتُ إلى الأعلى. تذبذبت الشمسان التوأمان في دوائر حول بعضهما، وتحرك التراب تحت قدميّ بقلق. البوابة... يسان. قوى الليل، كانوا يُغلقون البوابة. لم أصدق ذلك. مهما فعلوا... أن يُغلقوا بوابةً على رجلٍ حيّ...

حملتُ جسد غالادون الخفيف بين ذراعيّ، وخاطبتُ الريحَ ثانيةً: "الآن. هنا." هبّت عاصفةٌ عاتيةٌ رفعتنا، مُثيرَةً الغبارَ في عينيّ وأنا أُحاولُ جاهدًا، مُترددًا، مُتذكرًا، مُحسًّا، مُركّزًا. بدأت الشمسُ المُتذبذبةُ تخفت، وبذلتُ جهدًا كبيرًا لأرى البوابةَ من خلال الغبار والضوء الخافت. كادت عاصفةٌ هوجاءُ أن تُلقي بي على الأرض المُتداعية. تحطمت الصخورُ على السطح، مُتناثرةً إلى شظايا هشةٍ تناثرت في الهواء وهددت بتمزيق جناحيّ. كافحتُ لأصعدَ أعلى، خارجًا من بين الأنقاض، لأرى ما وراء الضباب المُظلم. كانت البوابةُ تومض. تتلاشى. كانت بعيدةً جدًا.

صرختُ: "آيف! لا تتركيني هنا! واجهيني. أخبريني بما فعلت. لكن ليس هذا..."

اختفى المستطيل الرمادي، وابتلعه ظلام منتصف الليل المتدفق من الأفق. تطايرت الصخور والشجيرات المتشابكة بعنف في الهواء. لم يعد هناك مكان ثابت للهبوط. عندما أُنهك لدرجة أنني لا أستطيع الطيران، سنسقط - أنا وجالادون الهامد - في الهاوية. عزفت موسيقى شيطانية وسط الفوضى بينما كنت أكافح لأحافظ على اتجاهي. ربما لا تزال البوابة موجودة، مختبئة في الظلام...

"هناك واحد آخر." كانت الكلمات الرقيقة كإصبع يخترق عقلي. "أسرعي. حلقي عالياً يا حبيبتي."

بوابة أخرى؟ بوابة أخرى؟ بالطبع هناك أخرى. تلك التي استخدمتها للدخول. بوابة الكابينة. لكن أين هي؟ لقد تغير كل شيء. كاد الذعر أن يمزقني إربًا كما التهمت الفوضى المشهد. اعكس المسار. لا تقع في

دوامة الرياح. الرياح خلفك الآن، لذا سيظهر المكان أسرع... على اليمين... كان ظهري وكتفاي يؤلماني من التعب. كانت ساقاي تجرّانني. غالادون، الذي كان خفيفًا جدًا عندما رفعت جسده، أصبح ثقيلًا كإحدى الصخور الحمراء، لكنني لن أتركه في ذلك المكان. انعطف يمينًا. ابحث عنها الآن. احذر من التيار الصاعد.

قال الصوت، بصوت خافت يكاد يكون غير مسموع، "من هنا"، ولكنه كان يقودني إلى أعلى ودائماً إلى اليمين. "أسرعي".

وميض رمادي. خط مستقيم في مكان لا شيء فيه مستقيم. عليك أن تهبط بدقة على الحافة، وإلا ستسقط للخلف. أسرع. مترددًا، متمايلًا، عند نهاية قوتي، انقضضتُ نحو المستطيل المتلألئ...

... وضربت رأسي على منصة حجرية، مما أدى إلى انقطاع أنفاسي لفترة وجيزة على الأرض الصلبة التي عدت إليها.

"سيون! عليكِ أن تستيقظي." هزت يد كتفي بقوة لدرجة أنها هزت أسناني.

استيقظت؟ هل كان ذلك مجرد وهم؟ كل تلك المشاعر التي اجتاحتني: ابتهاج... خيبة أمل... غضب... حزن... هل كانت مجرد أحلام؟ بدا الأمر عبثًا. "لا أعتقد أنني نائم."

أخبرتني حركتي التالية أن الأمر لم يكن مجرد حلم. اختفت الأجنحة، وسقطت كقميص قديم وأنا أمر عبر البوابة، لكن عضلات كتفي وظهري دلّت بوضوح على أنشطة تتجاوز بكثير أنشطة العبيد. وهكذا، يا غالادون...

فتحت عينيّ فجأة لأرى كاترين جاثمة فوقي. كان وجهها الصغير متعباً ومليئاً بالحزن والقلق؛ وكان ثوبها الأخضر ملطخاً بالدماء.

قلتُ: "أنا آسف"، وقد غمرتني أحداث تلك الليلة بأكملها. "لم أكن سريعاً بما فيه الكفاية".

"لم يكن يتوقع أن ينجو من ذلك." استقامت وابتعدت.

كنتُ ممددةً على الدرجة عند قاعدة منصة حجرية. كان غالادون يرقد بجانبي، أطرافه مستقيمة، وشعره الأشعث مُهذّب. لا بد أن كاترين هي من وضعته هناك من المكان الذي تركته فيه.

"لقد هرب ريس. والشيطان أيضاً."

بينما كنت أجلس، أشعر وكأنني خرجتُ للتو من تحت انهيار جليدي، عادت كاترين حاملةً وعاءً صغيرًا مليئًا بالماء. وبقطعة الكتان التي كانت

تغطي عيني، ربتت على جرح غائر في جبيني. "هل ستجلس هنا وتسرد إخفاقاتك، أم ستنهض وتستعد للمعركة الثانية؟ أعداؤك يعتقدون أنك ميت. لا يمكنك أن تدعهم يعرفون غير ذلك."

أعدائي. لم يخطر ببالي قط أن لدي أعداءً سوى الشياطين. حتى الدرزي لم يكن يكنّ لي أي ضغينة شخصية، ولم يهتموا بهويتي. كان العبد البربري كغيره. لكنني

لقد تم اختياري للتو لجريمة قتل من أبشع الأنواع. وبفضل الله وحده... أزحتُ يد كاترين جانبًا لأتمكن من رؤيتها. "لقد كنتِ تملكين البوابة الثانية. بطريقة ما، دمجتِ نسيجكِ مع نسيج يسان لتسمحي لنا بالدخول. ولم أكن مستعدة، ولم أستطع القيام بدوري. كيف بحق الجحيم تمكنتِ من فعل ذلك؟" بحثتُ في وجهها عن أي أثر للصوت الذي ناداني، لكنها كانت منشغلة بأمرها.

دفعت ذقني مرة أخرى لتكمل مسح الدم عن رأسي. في تلك اللحظة، شعرت بوخزة سحرية وشد لاذع في الجلد، مما يعني أنها أغلقت الجرح لوقف النزيف. كانت طريقة سريعة، لكنها ليست فعالة جدًا في الشفاء، وستترك ندبة، لكنني أفترض أنها ظنت أن ندبة أخرى لن تزعجني. عندها فقط أجابت: "أخبرتك أنني لم أكن عاطلة عن العمل. أستطيع فعل أكثر من مجرد خبز كعكات اللوز. الآن عليك أن..."

"هل يعلم أحدٌ آخر أنكِ فعلتِ هذا؟ أو أنكِ قادرة على ذلك؟ سيبحث ريس ويسان عن الفاعل. لقد قتلا بالفعل." كان التفكير في الأمر لا يُطاق. لقد تربت يسان في كنف أسرة حاضنة منذ صغرها، ولم تعرف الكثير عن والديها. لطالما اعتبرت غالادون والدها الحقيقي الوحيد. كيف لها أن تتركه يموت في روحٍ موبوءة؟

"جدي وحده كان يعلم ما أستطيع فعله. لكن من الضروري أن تبقى ميتًا لبعض الوقت. يجب أن تأتي معي وتفعل ما أقوله بالضبط." سحبتني من ذراعي، وربما كان انزعاجي من السحب أو من أفكاري المضطربة هو ما أشعل فيّ روح التمرد. لم تكن كاترين تبدو وكأنها تُخرج أفضل ما فيّ. لا بد أنني أسأت فهم كلماتها في خضم الفوضى التي تلت البوابة.

انتزعتُ ذراعي من قبضتها، مما آلمني أكثر مما آلمها، وأشرتُ بإصبع الاتهام إلى غالادون الذي ما زال يبتسم. "أظن أنني اكتفيتُ من الألغاز والمفاجآت لهذا اليوم. لن أخطو خطوة أخرى حتى تخبريني بكل الخطة التي تركها لنا هذا العجوز الخبيث."

لم ترغب في سماع ذلك. "علينا الذهاب. الآن. عندما يتوفر لدينا الوقت، سأخبرك بكل ما تحتاج إلى معرفته."

لكن دماء غالادون ما زالت تلطخ يديّ، ولم أستطع أن أفرح بالهبة التي منحني إياها حتى أعرف لماذا كان عليه أن يموت ليمنحها لي. جلست على المنصة بجانب معلمي القديم ورفضت التزحزح. "لن أصدق أن جدك مات لمجرد إقناعي بأنه كان على حق وأنا كنت مخطئة بشأن القوة والإيمان. يجب أن أعرف يا كاترين."

"يا لك من أحمق!" شدّت على فكّها، وغضبت، وقلبت عينيها، لكنها في النهاية جلست على المنصة الحجرية الأخرى، وكادت ركبتاها تلامسان ركبتيّ. "هذه آخر مرة أسمح لك فيها بالتشكيك في حكمي، سيون. لقد أوكل إليّ جدّي تدريبك. لا، لا تقاطعني. معظم ما فعلته حتى الآن كان من تخطيطي، وقد أحرزتَ تقدماً ملحوظاً. لكنك لستَ مستعداً بعد لما نعتقد أنه سيحدث."

تناثر المطر على السطح والدرج، وتمايلت قمم الأشجار خلف ملاذنا الصغير في رياح العاصفة. رقص الدخان المعطر برائحة الياسمين حولنا بينما كانت كاترين تخبرني شيئًا عن الماضي وشيئًا عن المستقبل. ليس كل شيء عن أي منهما، لأنها كانت من الأيف، التي لا تشارك إلا ما هو ضروري للحارس أن يعرفه. ولكن يكفي.

"كان جدي يشك لسنوات طويلة في أن الأمور لم تكن على ما يرام مع ريس. في معركته الثالثة بعد اجتيازه الاختبار، فقد شريكته. كانت حالة صعبة، وبالكاد نجا. أبقت فيدوين البوابة مفتوحة لفترة طويلة جدًا... مما لم يمنحه الوقت الكافي للخروج... ولم تتعافَ هي الأخرى من ذلك. مات عقلها، ولم يمضِ سوى أسابيع قليلة حتى استسلم جسدها وماتت هي الأخرى."

تذكرتُ فيدوين، الفتاة الخجولة المتواضعة ذات الموهبة الفذة، التي كانت تُشعر الجميع بعدم الارتياح بإصرارها الهادئ على الصواب. كانت تعشق ريس، لكنه أمضى نصف شبابه يتجنبها. يا لها من علاقة فاشلة كانت ستُكتب لها.

رفض ريس القتال مجددًا بعد ذلك، لكننا فقدنا آخر أربعة حراس لدينا في ذلك العام واحدًا تلو الآخر. لقد كان الأمر كارثيًا. لم يتبق لدينا سوى الطلاب. أطفال. لذلك عمل الجد مع ريس. أصر ريس على إعادة الاختبار، وقد حقق نتائج أفضل بكثير من المرة الأولى. كان تركيزه شديدًا. الملكة...

نظرت إليّ كاترين بنظرة مترددة، لكنني أشرت لها أن تكمل. قلت: "لقد حاولت قتلي الليلة. لن تقولي أي شيء يزيد الأمر سوءًا."

ترددت للحظة أخرى، ثم هزت رأسها.

كانت الملكة وريس يعيشان معًا لعدة سنوات، وباعتباره أكثر أعضاء فريق "آيف" مهارةً وخبرةً، فقد اتخذته شريكًا لها. لقد أسعدنا ذلك كثيرًا، لا سيما عندما عاد منتصرًا تلو الآخر. ولكن قبل عشر سنوات، بدأنا نخسر أعضاء فريقي "الباحثين" و"المعزين" بمعدل مروع، وفي النهاية استدعت الملكة جميع الأزواج باستثناء زوج واحد، قائلةً إنه

كان إخراجهم شديد الخطورة. كل حارس جديد تدرب سقط في غضون أشهر. عندما علم الجد بأمر صفقة الشياطين، خشي أن يكون ريس قد انكشف أمره، ولام نفسه لعدم إدراكه ذلك منذ البداية. وبالطبع، كان ذلك مؤشرًا لما اكتشفته أنت تحديدًا - أن الشياطين قد جُمعت لغرض مشترك من قبل مضيفيها. لكنه لم يجرؤ على مواجهة ريس حتى...

"...حتى أتيت."

كان عليه أن يُبقي حارسًا ليُكمل المهمة إن حدث له مكروه. كان طلابه إما أمواتًا أو غير مستعدين بعد، وكان إيمانه بعودتك راسخًا لا يتزعزع. لذا أمضى وقته في ابتكار طريقة لاستخدام البوابة الثانية. وبمجرد وصولك إلى هنا وتقدمك بشكل جيد، فكّر في استخدامها لاختبارك، ليرى إن كنت تستطيع اكتشاف لعبة ريس. هذا كل شيء. حتى هذه الليلة، لم يكن يُخطط لفعل ما فعله.

"إذن لماذا فعل ذلك؟"

"لأننا لم نعد نملك وقتًا." شبكت كاترين أصابعها في حجرها وحدقت بهما. "طالبنا الشياطين بتسليم جميع أرواح الخليد. هذا الصباح، في اجتماع الملكة ومجلس المرشدين، أخبرنا ريس بذلك. قال إنه رفض. وأنه أخبر الراي-كيرا أنه لا يمكننا فعل ذلك، لأننا تعهدنا بعدم تسليم أي روح دون قتال. يزعم الشياطين أن الخليد مضيفون راغبون، ولكن كتنازل لعاداتنا، اقترحوا صفقة جديدة."

"وما هذا؟"

"سنخوض معركة واحدة - قتالًا فرديًا - من أجل عرق الخليد بأكمله."

قفزتُ واقفةً على قدميّ. "جنون! يساني لن تفعلها أبدًا. لا يمكننا فعل ذلك..." بالكاد استطعتُ التعبير عن فزعي. خيانتي شيء - حماية ريس، الرغبة، الغضب، أيًا كان. لكن أن تخون كل شيء... قرونًا من الكفاح والتضحية والبطولة... عرقًا بأكمله. "لا يمكننا فعلها."

"لقد تم الأمر بالفعل. تقول إن الشياطين ستطاردنا وتدمرنا إذا لم نوافق."

عدتُ إلى المكان الذي يرقد فيه غالادون، وكأن الرابط الذي يجمعنا ما زال قائماً، وكأنني قد أجد بعض الراحة أو الطمأنينة في سكونه. لكن الصوت الذي شكّل حياتي كان صامتاً. حدّقت كاترين بي، تراقب إن كنتُ أفهم.

فهمتُ الأمرَ بقسوةٍ وحزنٍ شديدين. "إنّ الشياطين تُخطّط لأن يُقاتل ريس. وريس، الأحمق الأعمى، يظنّ أنّه يستطيع أن يُدخل يده في النار و..."

لا يريد أن يُحرق... يعتقد أنه قادر على الفوز. لكنه لن يفوز. لقد سمحوا له بالفوز. بالتظاهر. لكن ليس هذه المرة.

"لم يكن جدي يعلم ما الذي أدى إلى تهديد الشياطين. لقد خمن أن ريس كان خائفًا منك لدرجة أنه كشف شيئًا ما... مما جعل الشياطين حذرين..."

"إنه ألكسندر. يشعرون بفشله، لذا فقد حان وقت خطتهم الكبرى. يريدوننا خارج الخليد حتى لا نكتشف ما يفعلونه. لقد انتهى وقت ريس... ويجب أن تعلم يسان بذلك." كانت ستخون زوجًا آخر. هل استطاعت إقناع نفسها بأن هذا في مصلحة الإزاريين... أم أنها حقًا أسيرة الشياطين بسبب فسادها؟ في كلتا الحالتين، ستكون النتيجة واحدة. الاستسلام.

دفعتني كاترين مرة أخرى قائلة: "علينا أن نتأكد من كسب هذه المعركة".

حينها، ثقل الليل كله عليّ. "إذن، لا أستطيع المغادرة من هنا. ولا أنت. إذا استطعتَ فتح بوابة ثانية كما فعلتَ الليلة، فأدخلني..."

نهضت كاترين وسارت نحو الدرج، وذراعاها مطويتان، ونظرت إلى المطر. "لن تُخاض المعركة هنا. تدّعي الملكة أنها يجب أن تكون أقرب إلى الشخص المسكون، وأنها لا تستطيع الاعتماد على الباحثين والمعزّين في مثل هذا الصراع المهم، وهي ترفض إحضار ضحية مختارة من قبل شيطان إلى وسطنا. لذا ستذهب إلى الضحية بدلاً من ذلك وتأخذ بطلها معها. وتقول إنها يجب أن تأخذ الأمير أيضاً، لأنه بمجرد أن نحرر الخليد من شياطينهم، قد تتعلم ما هو ضروري لشفائه. قصة رائعة، أليس كذلك؟"

قلت: "بارنيفور"، فبدأت كل أجزاء اللغز تتجمع معاً.

استدارت كاترين فجأة. "كيف عرفت؟"

"إنها ستسقط الإمبراطورية."

"على الأقل هذا يمنحنا المزيد من الوقت."

لم أستطع الشعور بالامتنان لذلك. ليس مع ما أعرفه. "وهل قالت الشياطين من هو الشخص الذي تلبسه الشيطان؟"

"خليد. اسمه كاستافان."

انطلقنا شرقًا من دايل إزار نحو القمر المتقلص الذي كان يشرق للتو. كانت كاترين قد ألقت تعويذة على جدها، ليظل على حاله حتى يحين وقت توديعه وداعًا لائقًا. ثم قادتني إلى حصانين مختبئين في الغابة خلف المعبد، وانطلقنا في غضون عشر دقائق. وما هي إلا لحظات حتى كنا نسير على طريق شديد الانحدار - لم أكن لأجرؤ على سلوكه في الظلام والمطر، لولا كاترين.

قال إن الخيول تعرف الطريق ولا أحد سواها. أخفاه غالادون بتعاويذ لسنوات عديدة. وكان من المقرر أن يقابلنا هوفيد على طول الطريق، حاملاً معه ألكسندر.

أضاء وميض برق الطريق والصخور المظلمة المحيطة بنا. اختفى القمر سريعًا في ظلام الليل الدامس. جلست كاترين منتصبة على السرج، ثابتة لا تتزعزع. كان فيها الكثير مما لم أتخيله قط. أخيرًا أدركتُ أنها لم تعد تلك الطفلة التي عرفتها، بل شابة جميلة موهوبة، تتمتع بقوة داخلية لا تُدرك. أردتُ أن أعرف المزيد عنها، لكن لم يكن من الممكن التحدث أثناء سيرنا على الطريق الضيق.

لذا بدلاً من ذلك، مارست التركيز والانضباط، وقضيت ساعاتٍ أراجع الاستراتيجيات والتكتيكات وتنوعات المعارك، كل حركة أعرفها، كل تجربة مررت بها، كل تعويذة نسجتها. كان من المدهش مدى دقة ذاكرتي، كما لو كانت كنوز طفولة محفوظة في صندوق خشبي لمدة ستة عشر عامًا، أخرجها الزمن دون أن يمسها. كنت سأحتاج إليها، وكل ما أستطيع جمعه، وقدر كبير من الحظ أيضًا.

بعد ثلاث ساعاتٍ من المطر الغزير، انعطفنا إلى شقٍّ ضيقٍ في الصخور، بالكاد يتسع لحصان. أضاءت كاترين المكان حتى دخلنا كهفًا جافًا مضاءً بنار. كان رجلٌ يقف أمام النار، سيفه مسلول، ولكن ما إن أضاءت النار كاترين حتى أسقط سلاحه ونادى مُرحِّبًا: "كاترين! سررتُ برؤيتكِ. كيف سارت الأمور؟" كان هوفيد.

"تماماً كما توقع الجد."

"آه، فيردون الحبيب... مع أنني أستطيع أن أتخيل مدى المتعة التي شعر بها لكونه على حق..."

قالت كاترين: "لدينا ما يكفي من الفرح أكثر مما يكفي من الحزن،" "ولدينا عمل أكثر من كليهما."

ترجّلتُ من على ظهر حصاني، وبقيتُ في الظل بينما تبادلت كاترين مصافحة صامتة طويلة مع هوفيد. وبينما كان يأخذ عباءتها المبللة ويحثّها على الاقتراب من النار، نظرت حولها باحثةً عني. قالت: "حسنًا، هيا بنا. لا داعي للوقوف هناك وأنت تقطر ماءً."

خطوتُ نحو النور، متجهاً نحو النار، مثبتاً عيني على اللهب، وألعن نفسي على جبني المتذلل الذي جعلني أخجل من التجاهل بعد كل ما حدث. لذا لم أكن مستعداً لليد الحازمة على كتفي أو الابتسامة الساخرة من تحت رقعة العين. "بيتر، أليس كذلك؟"

"ألا تثقين حتى بصهركِ؟" ضمّني بين ذراعيه الطويلتين، وأغلق الباب أمام أي فرصة للرد. "ألا تتوقعين أن روح إيلين ستعود لتعذبني عذابًا أبديًا لو سببتُ لأخيها الصغير ولو لحظة ألم؟" ضمّني إليه مجددًا، وربّت على شعري، وثرثر بلا انقطاع رغم هدوئه المعهود، وذرف دموعًا غزيرة من عينه الوحيدة قبل أن يهمس في أذني: "أنا سعيدٌ جدًا بوجودكِ هنا. هل من الممكن إرضاء هذا ديرزي الملعون؟"

قلتُ مبتسمًا له دون أن أُهمس: "نادرًا. مع ذلك، من المؤكد أن طبعه قد تحسن كثيرًا منذ أن التقيت به لأول مرة. إنه الآن مجرد شخص عادي."

"أذناي ليستا ميتتين." جاءت هذه التمتمة المتلعثمة من لفة طويلة من البطانيات على الجانب الآخر من النار. وتناثر شعر أحمر من أحد طرفي اللفة.

قلتُ: "يسرني سماع ذلك يا سيدي. ولديه سمعٌ خارقٌ حقاً. لا تصدقه أبداً إن بدا نائماً." ثم سحبتُ هوفيد نحو مدخل الكهف وسألته بجدية أكبر عن حال ألكسندر.

لم يكن يعلم شيئًا عن الرحلة. استيقظ في الساعة الأخيرة فقط، مطالبًا بمعرفة أخبارك. عندما لم أستطع إخباره بشيء، حاول الاعتداء عليّ. لم يستطع حتى الوقوف بسبب جرعة النوم - وهو ما أراحني كثيرًا - لكنه شتم نفسه وشتمني بوابل من الشتائم لم أقرأ مثله في أي مكان. وعندما لم يُجدِ الشتم نفعًا، بدأ يهدد بأنواع مختلفة من القتل والتخريب إن مسّ شعرة من رأسك. في ذلك الوقت تقريبًا، مرّ بنوبة

مروعة، وتوسّل إليّ أن أتناول المزيد من جرعة النوم. لم أكن أعرف ماذا أفعل، فأعطيته إياها.

"لا يوجد الكثير مما يمكن فعله لتخفيف الأمر. فقط تحدث إليه. شتت انتباهه. أبقِ عقله يعمل في قنوات بشرية. واجعل سيفك جاهزًا لحماية نفسك."

قالت كاترين، وهي تعود من مؤخرة الكهف حيث وضعت الخيول: "ليس لدينا وقت للتعارف من جديد الآن. جميعنا بحاجة إلى النوم. أمامنا رحلة طويلة."

بينما كنت ألتف في بطانية على بعد خطوات قليلة من ألكسندر، تساءلت عما إذا كانت الرحلة المقبلة ستكون نصف طول الطريق الذي أتيت منه للتو.

الفصل 30

سافرنا بجدٍّ طوال الأيام العشرة التالية، مع أن طائرًا حاملًا كان بإمكانه قطع المسافة نفسها في ثلاثة أيام. شققنا طريقنا عبر الجبال عبر دروب قطاع الطرق ومسارات الرعاة. وبوجود ثلاثة سحرة ومحارب ديرزي في مجموعتنا، لم نكن نخشى قطاع الطرق كثيرًا. كان الأهم هو تجنب كافارنا وطرق التجارة المتفرعة منها كشبكة عنكبوت. فمن المؤكد أن جواسيس ديرزي ومتربصين من خليد سيتواجدون على تلك الطرق، فضلًا عن صائدي عبيد من نقابة السحرة يبحثون عن هارب من إزاريا.

كانت رحلتنا في براري شمال أزهاكستان الغامضة والبدائية. في إحدى القرى، كان السكان يرتدون فراء الحيوانات فقط؛ وفي أخرى، كانوا يطليون وجوههم بالطين. وفي إحدى المستوطنات، كانوا يُخمّرون مشروبات كحولية قوية من التوت المحلي، لدرجة أننا فكرنا ألا نغادر المكان أبدًا... أو لم نُبالِ إن غادرناه أم لا. لحسن حظنا - أو لسوء حظنا - لم تكن كاترين تشرب الكحول أبدًا. دفعتنا وأهانتنا وصرخت في وجوهنا حتى امتطينا خيولنا، ثم قادتنا نحن الثلاثة على الطريق حتى أعادتنا ساعات من المطر الغزير إلى رشدنا.

في إحدى الليالي، قبلنا كرم ضيافة متواضعة من قرية صغيرة، حيث لم يبقَ في رؤوسهم سنٌّ واحد، لا رجل ولا امرأة ولا طفل. بعد عامين من الصيد الهزيل، قرروا أن آلهتهم - التي ظنوا أننا قد نكون ممثلين لها - لا ترغب في أن يأكلوا اللحم بعد الآن. لذا، خلعوا جميع أسنانهم كطريقة لتجنب الخطيئة في حال ظهور أرنب أو ثعلب ضال في واديهم الصغير. كانوا يعانون من سوء تغذية حاد، وقضى هوفيد المساء

محاولًا تعليمهم النباتات المحلية الصالحة للأكل. أخيرًا، وفي لحظة يأس، اقترح أنهم استنزفوا واديهم الصغير بالصيد. لعل آلهتهم تسمح لهم بالانتقال. أخبرهم ألكسندر عن وادٍ شمال كافارنا حيث اصطاد خمسة غزلان في ساعة واحدة. في صباح اليوم التالي، عندما استيقظنا، كان جميع الغزلان قد اختفوا. احمرّ وجه هوفيد بشدة عندما مازحناه.

أخبره عن "تعاليمه المقدسة"، فأقسم ألكسندر أن يبني له معبداً في كفرنا.

قضينا في الغالب أياماً وليالي تحت أمطار غزيرة لا تنتهي، نسير ونركب ونتسلق وننزل باتجاه بارنيفور والمعركة الثانية لنبوءة إيدا.

استعاد ألكسندر عافيته الجسدية، واختفى الضعف المزمن الذي كان يعاني منه في ديل إزار. بدا أن ركوب الخيل يُعيد إليه عافيته أفضل بكثير من أي علاج، سواءً هطل المطر أم لا. لكن سحره استمر في التفاقم. لم يكد يمرّ ساعة دون أن يتعرض لتغيير جسدي أو حسي، أو لإحدى الرؤى المرعبة التي تصاحب تعاويذ الشياطين. كنتُ قلقةً من أن نؤذيه بإعطائه جرعةً زائدةً من جرعة نيفيا المنومة. كان يستغرق وقتًا طويلاً ليستيقظ تمامًا في الصباح، مما جعل ذلك الوقت الأكثر خطورةً عليه للتعرض لأي تغيير. كان من الصعب عليه جدًا الحفاظ على سيطرته وهو في حالة نعاس شديد.

لم يمر بتحول كامل إلا مرة واحدة في تلك الأيام. حدث ذلك في منطقة وعرة من الجبال، وهو أمرٌ كان من حسن الحظ، إذ لم يكن هناك من يؤذيه. لكننا استغرقنا ثماني ساعات للعثور عليه، منهارًا في كومة ثلج بجانب بقايا أيل ملطخة بالدماء. لففناه بالبطانيات وأشعلنا نارًا هائلة، لكنه ظل جالسًا هناك بعيون خاوية وصامتًا حتى سمحنا له بالنوم ليلًا.

رغم أنه استعاد هيئته بعد تلك الحادثة وأصبح قادراً على الكلام، إلا أنه لم يستعد معنوياته. كان يمتطي جواده في صمتٍ كئيب، يلف أصابعه حول عرف موسى أو يداعب رقبته. وعندما كنا نتوقف للمبيت، كان يتناول جرعة النوم قبل الأكل، فيغفو في منتصف اللقمة. الأمر الأكثر إثارة للقلق هو أننا لم نجد أي سببٍ واضح. فكما هو الحال مع الحوادث الأقل خطورة، لم يكن هناك أي نشاط أو فكرة محددة أدت إلى ذلك.

قلتُ ذات يوم بعد توقف دام ساعة للسماح لذراعه بالعودة إلى حجمها الطبيعي: "هل أنت متأكد من عدم وجود شيء؟"

هزّ ألكسندر رأسه وركب موسى. "أحلم أحلاماً غريبة. أحياناً أعتقد أن هناك ما هو أكثر مني الآن."

كنت أخشى أن يكون محقًا. منذ بداية رحلتنا، لم يأكل سوى اللحم، رافضًا الجبن والخبز، وحتى التمر والتين المجففين اللذين اعتبرهما ديرزي أساس أي نظام غذائي. ومع مرور الأيام بعد التحول، لم يعد يستطيع تناول أي شيء مطبوخ، ولكن

قطع حصته من صيدنا قبل أن نضعه على النار، وأكله دون أن ينظر إلينا. أبقى غطاء رأسه يغطي وجهه في ضوء النهار، قائلاً إن الشمس تؤلم عينيه، وبدأ يترك رعاية موسى لهوفيد، إذ لم يعد بإمكانه تهدئة الوحش بلمسته، بل زاد من هياجه العصبي. أعتقد أن ذلك أزعج ألكسندر بشدة، لكنه لم يُفصح عن ذلك. لم ينطق إلا بكلمات قليلة.

"لا يجب أن تستسلم يا سيدي. سنجد حلاً."

لم أكن قادرةً بعد على شفائه. مع أنني قطعتُ شوطًا كبيرًا لاستعادة قوتي - ما زلتُ أُعاني من كوابيس مُزعجة عن قفزتي من الهاوية - إلا أنني كنتُ بحاجةٍ إلى الوقت والتدريب لأُعيدها إلى ما كانت عليه. كل يومٍ أثناء ركوبنا، كانت كاترين تُدرّبني على تعاويذ أكثر تعقيدًا وأنماط التفكير اللازمة لإنشائها أو تدميرها، بالإضافة إلى المهارات الأخرى التي أحتاجها لأُقاتل مُجددًا كحارسة. كل مساءٍ بعد أن نتناول الطعام ونُساعد ألكسندر على النوم، كانت تُدرّبني على الجري والتسلق والقفز والتمدد والتدرب على السيف والخنجر. كانت مُصممةً للغاية... ومُتقنةً لعملها.

سرعان ما استبعدتُ أي فكرةٍ مفادها أنها ستكون أسهل أو ألطف أو أكثر تفهمًا من جدها. بل كانت صارمةً ومتطلبة، ولم تُبدِ أي رغبةٍ في أي نوعٍ من الحميمية. في أيامنا الأولى على الدرب، أقسم ألكسندر أنها وهوفيد كانا عاشقين. أخبرته أنها قادرةٌ على تحمل ليكاي لفيلقٍ كاملٍ من ديرزي، وأنها ليست أكثر احتمالًا لأن تكون حبيبةً لأحدٍ من ذلك الفيلق. لقد بتُّ أعتقد أن الاهتمام الذي شعرتُ به منها وراء البوابة لم يكن سوى صداقةٍ قديمةٍ وحرصها على نجاحنا في المعركة القادمة. لقد بذلت قصارى جهدها بالتأكيد للتأكد من أنني لا أملك وقتًا للتفكير في أي شيءٍ خارج نطاق عملنا.

في إحدى الظهيرات، خيّمْنا أبكر من المعتاد. كان بإمكاننا قطع مسافة أطول إلى السهول المتموجة المحيطة بالجبال، الممتدة من أفينخار إلى بارنيفور، لكننا فضلنا قضاء ليلة أخرى في ملاذ آمن عند سفوح التلال. تولى هوفيد كعادته مهمة الطبخ البسيطة، بينما انكمش ألكسندر صامتًا في عباءته بجوار النار. كان عصرًا جميلًا، وسيصبح مساءً رائعًا، إذ استمر ضوء النهار لفترة أطول بشكل ملحوظ مما كان عليه قبل أيام قليلة - ربما لأن المطر توقف أخيرًا. نحتت ظلال الظهيرة

التلال، وتلألأت الخضرة المخملية الجديدة بلمسة ذهبية. كان الهواء المنعش باردًا ونقيًا، تاركًا كل صخرة وشجرة وشفرة عشب حادة الحواف حتى الأفق.

لم تكن كاترين في مزاج يسمح لها بالاهتمام بالطقس الجميل، ولم تكن تنوي السماح لي بإضاعة الساعات الإضافية. لقد مرّت عشرة أيام على معركة ريس الأخيرة، وما زال أمامنا أكثر من أسبوعين للوصول إلى بارنيفور. ودون أن تنتظر نوم ألكسندر، أمرتني بالركض عشر مرات صعودًا وهبوطًا على تلة قصيرة شديدة الانحدار، حاملًا حقيبتين من حقائب السرج بذراعين ممدودتين بالكامل. عندما نزلت للمرة العاشرة، فخورًا بنفسي لأنني لم أكن ألهث ولم تكن ذراعي على وشك الانهيار، حدّق بي ألكسندر في حيرة كافية لكسر صمته طوال اليوم. "ماذا تفعل؟ هل جننت وأنت غافل؟"

لم أخبر ألكسندر شيئًا عن تجربتي خارج البوابة. كل ما كان يعرفه هو أن غالادون قد مات، وأن يسان وريس مصممان على التخلص منا، وأننا نبحث عن علاج لسحره في بارنيفور. قلت: "لا نعلم ما الذي سيواجهنا في المستقبل. رأيت أنه من الأفضل أن نكون مستعدين، على الأقل".

"إذا كانت الشياطين تتسابق مع رعاة الماعز، فستكون بخير." ثم لف بطانيته حول كتفيه.

قلتُ بنبرة أكثر انفعالاً مما ينبغي: "هل سبق لك أن خضت سباقاً لم يسمح لك فيه المتسابقون الآخرون بالفوز؟"

"بالفعل! لسانك جريء جداً هذه الليلة." كانت هذه أول علامة على الحيوية رأيتها منذ خمسة أيام.

"لقد صعدتُ هذا المكان عشر مراتٍ بالفعل بينما كنتَ مسترخياً هنا بجانب النار بكل فخامة. أتظن أنك تستطيع التغلب عليّ؟ آه، لا." رفعتُ يديّ في إنكارٍ ساخر. "من المحتمل أنك ما زلتَ ضعيفاً بسبب جرحك."

"تباً لوقاحتك!" خلع الأمير بطانيته وعباءته، ونزع حذاءه وجواربه، وخلع قميصه. "سأعود إلى هنا بحذائي قبل أن تصل إلى القمة."

لو كان التل أعلى أو الطريق أكثر سلاسة، لربما استطاع فعلها. كانت خطواته طويلة ورشيقة، ومع كل خطوة كان يتقدم عليّ بنصف خطوة. لكن الصخور والجذور في الجزء العلوي من التل أربكت إيقاعه، بينما كنت أقفز بسهولة من صخرة إلى أخرى. كان متقدمًا عليّ بخطوتين عند القمة، لكنني تفوقت عليه بأربع خطوات. وقد أنهكه التعب.

"بائس... ملعون..." انحنى واضعًا يديه على ركبتيه، يلهث بشدة. "كل هذا التمرغ في الفراش... عار... راعي ماعز." في تلك اللحظة، سيطر عليه السحر مرة أخرى، وتأرجح نصف جسده بين الإنسان والوحش. قبض على يديه وصرخ من الألم والغضب: "لا، لن أفعل!" في تلك اللحظة، انتصرت عزيمته. الوهم

تلاشى وعيه، وارتشف جرعته المنومة بيدين مرتعشتين. "لن أفعل"، تمتم وهو يغرق في نوم عميق كالموت.

منذ ذلك المساء، رافقني في كل تمرين بدني. حتى أنني علمته الكينار، وهي فنون قتالية بطيئة ومتكررة عرّفني عليها غالادون في صغري. صُممت هذه الفنون لتوحيد كيان المرء في مركز الجسد، لخلق تناغم يسمح للعقل والجسد بالعمل كوحدة متكاملة. فقط عندما كنت أُخرج سكينًا أو سيفًا، كان الأمير يجلس ويشاهد. مع أن تدريبي كان مختلفًا عن تدريبه، إلا أنه كان قادرًا على رؤية عيوب أسلوبي ونقاط ضعفه، وكان يستمتع كثيرًا بتوضيحها.

سواءً كان السبب النشاط البدني أو وصولنا السريع إلى السهول، حيث أصبح بإمكاننا قطع عشرة فراسخ في اليوم بدلًا من اثنين، فقد ازداد الأمير بهجةً ويقظةً. مع ذلك، استمرت نوبات التحول دون انقطاع. لم نعد نجرؤ على إيقاظه بلمسة. كانت كاترين تحمل خدشًا طويلًا على ذراعها من مخلبٍ حاد. وكنا نراقبه عن كثب ليلًا. أصبح تأثير جرعة النوم أقل فأقل، تاركًا إياه تحت رحمة أحلامٍ من صنع الشياطين. كانت أناته مرعبة، وبدأنا نفكر في تقييده ليلًا لمنعه من إيذاء نفسه أو إيذائنا.

لكنني شاهدت الأمير وهو يسخر كل عناده لمواجهة تدهور حالته، رافضًا الاستسلام للرعب أو الصمت أو اليأس كما فعل في بداية الرحلة. لو كان بالإمكان فك اللعنة بالإرادة وحدها، لكان فعلها. على الأقل شعر وكأنه يقاتل من جديد. عاد إلى طبيعته، وبدأ يلح عليّ بشأن خططنا. ربما كان من الأسلم إبقاؤه جاهلًا. كان هوفيد وكاترين على هذا الرأي. لكنني ما زلت مقتنعًا بأن للأمير دورًا مهمًا في المعركة الثانية، لكنني لم أكن أعرف ماهيته. ما زال شغفه متقدًا، كما لو كان كأس نبيذ كريستالي سليمًا في قرية دمرتها الحرب، في خضم دمار روحه.

طُرح الموضوع في تلك الليلة المرصعة بالنجوم التي خيّمْنا فيها في وادٍ خالٍ من الأشجار على بُعد فرسخين من أفينخار. كنا قد ركضنا تقريبًا إلى أبواب المدينة وعدنا، وجلسنا نلتهم زوجًا من الأرانب التي اصطادتها كاترين أثناء ركضنا.

قال: "إذن لقد وجدت أجنحتك مرة أخرى، أليس كذلك؟"

رفعتُ رأسي فجأةً، وقلتُ: "ماذا تقصد بذلك؟" لم أكن متأكدةً قط مما إذا كان يُصدّق ما قاله عن النسيج... أم ما كنتُ أُصدّقه أنا.

تمت الإجابة.

ضحك. "ما زلتَ لا تُفصح عمّا يدور في ذهنك، لكنك تُظهره بوضوح هذه الأيام. أنت قلق، لكنك تتمتع بثقةٍ مدعومةٍ بشجاعةٍ فائقة. لم يغب عن بالي أنك قادرٌ على أن تكون محاربًا قويًا... حتى بدون هذه القدرة على الحركة أو السحر الذي تنطوي عليه. فهل ستُثبت لي ذلك يومًا ما؟"

"لا أستطيع... أقصد..." لم أكن أنوي إخباره بهذه الطريقة... كنت مرتبكة من شدة الإحراج. "... يحدث هذا فقط في مكان عملي..."

أخبرته بكل شيء. عن البوابات ومعارك الشياطين. عن الليلة التي كنت فيها في الثامنة عشرة من عمري، أخوض أشرس معركة في حياتي، الليلة التي اكتشفت فيها أنني أستطيع التحول إلى كاير غويلين، مدافع مجنح، أسطورة قديمة لدرجة أنها لم تعد سوى رسم على لفافة بالية. أخبرته عن ادعاءات غالادون بأن ميليدا خاصتي لا تزال على قيد الحياة حتى بعد طقوس بالثار، وعن ليالينا الطويلة من العمل بينما هو - ألكسندر - نائم. وأخبرته عن درسي الأخير، حيث أدركت مدى خيانة ريس ويسان. كادت كاترين أن تُصاب بنوبة غضب من حديثي. ظلت تقاطعني، وتأمرني بالصمت، وتصفني بالغباء. لكن ما إن بدأت، حتى لم أستطع التوقف.

لخص ألكسندر الأمر ببراعة: "إذن، سيخلق حبيبك الخائن هذه... ساحة المعركة... في رأس كاستافان، وسيقابل صديقك الخائن سيد الشياطين هذا، الذي يُرجح أنه الأقوى بينهم. ستنتصر الشياطين وتفعل ما تشاء بالخليد، ما يعني أنها تستطيع استخدام تعاويذ خبيثة كهذه تُجنّنني لأفعل ما يحلو لي بإمبراطوريتي. وأنت ستحاول التسلل من باب خلفي، وتنمو لك أجنحة، وتتجنب المذبحة، وتمنع كل هذا."

«يبدو هذا مستبعداً إلى حد ما، على ما أظن». ارتشفْتُ ما تبقى من النبيذ في قربة النبيذ الأخيرة، وتمنيتُ لو كانت لديّ قربة ممتلئة. ربما لو شربتُ قربة أخرى لكانت خطتنا تبدو أكثر منطقية.

«غير محتمل ليس الكلمة التي أختارها». كان مستلقيًا على العشب، متكئًا على مرفقه. «لكن حتى لو فزتَ، بمحض الصدفة، فلن يموت الخليديون. ومما أخبرتني به، لم يكونوا مثالًا للفضيلة حتى يتورطوا مع الشياطين. أليس كذلك؟»

"نعم."

"لذا سيكون لدينا محاربون خليديون في كل مدينة رئيسية من مدن الإمبراطورية، معتقدين أن عليهم القتال للحصول على ما خططوا للحصول عليه من خلال

"المكر".

لم أكن قد فكرت فيما سيحدث بعد المعركة. لطالما كان هزيمة الشيطان كافياً في الماضي.

"أحتاج إلى تحذير..." لم يستطع ألكسندر إكمال كلامه. ارتجف وانقلب على أربع، بينما تلاشت ملامح كتفيه وذراعيه ورأسه، وتحولت إلى مزيج بشع من الإنسان والوحش. جفّ الهواء المحيط به، بينما انبعثت حرارة حارقة من جسده. ولكن بعد خمس دقائق من الصراع، وزئير لم يكن زئير غضب وحشي، بل زئير تحدٍّ وعزيمة، اختفت كل آثار الشنغار، وعاد إلى طبيعته. لقد أوقفه. جلس على ركبتيه، والعرق يتصبب من وجهه، وفرك عينيه بتعب، مستأنفًا الحديث من حيث توقف. "يجب أن أحذرهم، ولكن لا أدري كيف. لن يستمع إليّ أحد الآن بعد رحيل ديمتري. كان فيلدار صديقه. جعله زاراكات يقف بجانب ابنه. يحمل جنرالات ميزران ضغينة. لن يصغي إليّ أيٌّ من قادة الشمال."

كتمت دهشتي من إرادته الجريئة وحاولت فهم ما يدور في ذهنه. "أليس هناك من يدافع عنك؟ أليس هناك من يملك النفوذ ويضع مصلحة المملكة فوق خلافاته معك؟"

"سيفعل كيريل ما بوسعه... لو استطعت إقناعه بالاستماع قبل أن يطعنني انتقامًا لديمتري. لكن ليس لديه أي نفوذ خارج حامية بارنيفور. لقد قاتلت إلى جانب اثنين أو ثلاثة من المارشالات الجنوبيين في فيغارد وفريث الشرقية، لكنهم بعيدون جدًا من هنا."

"نحن على أعتاب أفينخار. يمكن للسيدة ليديا أن توصل رسالة إذا استطعت أن تفكر في شخص ما لإرسالها إليه."

"ليديا." أبعد ألكسندر يده عن وجهه الشاحب. "والدها هو أكثر المخططين احترامًا في العشرين. له نفوذ في كل مكان. في زاغاد. مع والدي. ويمكن القول إنه يراهن عليّ كثيرًا، فقد خطط لتزويج ليديا منذ ولادتها." ضيّق عينيه. "هل ستوافق؟ لا توجد بيننا أي مودة، كما رأيت."

"أقول لك إنك لن تترك قضيتك في أيدٍ أمينة أكثر من هذه."

كنتُ بحاجة إلى أدوات للكتابة. كان هوفيد يحمل دفترًا يدون فيه ملاحظاته عن العالم الطبيعي: الطيور والحيوانات، وعاداتها،

والطقس، وتضاريس الأرض، وأنماط النجوم. ومن خلال دراساته، استخلص فهمًا عميقًا لآليات العالم التي استخدمها أصحاب ميليدا لبناء التعاويذ.

توسلت إليه أن يمنحني بضع صفحات فارغة من مذكراته وقلمه وحبره، وطلبت منه أن يملي تعليماته العاجلة لبعض قادة ديرزي حول كيفية الاستعداد بهدوء لحرب ستبدأ بعد اثني عشر يومًا تقريبًا. قلت إنني سأذهب إلى أفينخار وأسلمها للسيدة.

احتجّت كاترين وهوفيد بشدة بينما كنت أجلس بجانب النار وأقصّ شعري. قالت كاترين، وهي تنظر إلى ألكسندر الجالس تحت شجرة على بُعد عشرين خطوة، ورأسه بين ذراعيه: "دعه يأخذ رسائله بنفسه. عملك أهم بكثير".

"لا يمكنه الذهاب. قد يتحول في أي لحظة، ويُقتل أو يُفقد. إنه محق بشأن الخليد. حربنا مع الشياطين، لكن هناك شرور أخرى في العالم، وهي مسؤوليتنا بنفس القدر."

"إذن سأذهب أنا أو هوفيد. لا يمكننا المخاطرة بفقدانك."

بدّلتُ قميصي بسترة العبيد التي ما زلتُ أحملها، وخلعتُ حذائي وسروالي. مع أن الليلة كانت أدفأ ليالي الموسم، شعرتُ بالبرد والعُري. "ليس لديكما أي خبرة بالمدن أو الديرزي. لا يمكن لأي منكما التعرّف على عضو في نقابة السحرة. إذا رُئيتما، فقد يتم أسركما. سأدخل وأخرج في غضون ساعات قليلة."

"إذن، على الأقل ارتدِ شيئًا يغطي—"

"يجب أن أذهب كعبد. أنا إزاري معروف. إذا قرر أي شخص التحقق، فسيجد العلامات والخواتم. إذا كنت متنكرًا... فقد انتهى أمري."

قال هوفيد بهدوء، محاولاً منع نفسه من التحديق في الأربطة الفولاذية حول معصمي وكاحلي: "لا أعرف لماذا لم تطلب مني إزالة تلك الأشياء الحقيرة عنك".

كنتُ أتساءل عن الأمر بنفسي. لم يكن بإمكان ألكسندر منعي، ولم أكن متأكدة من أنه سيحاول. لكن في تلك الليلة، مع بزوغ أولى النجوم من زرقة السماء العميقة، فهمتُ أخيرًا ترددي. لقد حدث شيء استثنائي بيني وبين ألكسندر. شيء يتجاوز العهود، ويتجاوز الواجب، ويتجاوز الضرورة واليأس. لو فكّ الأمير قيودي، لما هربت. لكن إلى أن يصدّق ألكسندر ذلك، لم يكن لي اسمٌ له سوى السيد، ولم يكن لي اسمٌ لنفسي سوى العبد. قلتُ: "سأفكّها حين يأذن لي"، ثم انطلقتُ راكضةً

نحو أفينخار. ستُغلق البوابات مع بداية المناوبة السادسة. كان لديّ ثلاث ساعات.

الفصل 31

لم يمضِ على هروبنا من كافارنا سوى أقل من أربعة أسابيع. لم تكن هذه المدة كافية لأنسى الخوف الدائم الذي يلازم حياة العبودية. فمنذ اللحظة التي انزلقت فيها وسط حشد الرعاة والعربات والعبيد والعمال في قافلة تاجر فراء خارج أسوار أفينخار، شعرت وكأن جدران نعش بالتهار تُطبق عليّ من جديد.

أطأطئ رأسك. ارتسم التعب على خطواتك. أمسك بزمام البغل لتوهمه أنك جزء من المجموعة. لا يستطيع الراعي رؤيتك في الظلام والفوضى. ابقَ على يسار البغل لإخفاء العلامة على وجهك.

كان الصوت في رأسي هادئًا ومركزًا. وكانت اليد التي تمسك بحزام البغل ثابتة. لكن معدتي كانت متوترة للغاية، لدرجة أن الحائكة نفسها لم تكن لتستطيع تهدئة هذا التوتر.

عبر البوابات. تجاهلتُ أصوات الجلد المؤلمة خلفي في القافلة. لم يلتفت أي عبد. بل انتظرتُ حتى انعطفنا إلى

ثم انحرفتُ إلى زقاق ضيق في منطقة المستودعات قرب نهر فودينا، ذلك المجرى المائي العريض البطيء الذي منح أفينخار ازدهارها، ثم

انزلقتُ إلى زقاق مظلم تفوح منه رائحة المدابغ وأسواق السمك والمسالخ. حاولتُ ألا أفكر في القذارة التي تصل إلى الكاحل والتي كنتُ أخوض فيها حافي القدمين، بل ركزتُ على تعليمات ألكسندر حول كيفية الوصول إلى منزل اللورد الأول لماراغ، حيث تعيش ابنته، السيدة ليديا.

كان المنزل يقع على الحافة الجنوبية الغربية للمدينة، حيث كان الهواء منعشًا قادمًا من الجبال، وكان النهر لا يزال يتدفق صافيًا قبل أن يجرف مياهه أحياء المدينة. أسرعتُ ناظرًا إلى الأسفل عبر شوارع مزدحمة تعجّ بالمتاجر والحانات المزدهرة. لم يلتفت إليّ أحد وسط الزحام. لم يتم إيقافي واستجوابي إلا بعد أن وصلت إلى الشوارع الأوسع التي تصطف على جانبيها منازل أنيقة ذات أروقة حجرية وساحات للعربات.

قلت للحارس الراكب الذي ضرب رمحه على حلقي ليوقفني: "أسلم سيفاً إلى ديميون صانع السيوف لسيدي، يا صاحب الجلالة".

"ومن هو سيدك أيها العبد؟"

«سيدي روديا من فونتيزي، الذي قدم من كافارنا ليقيم عند ابن عمه اللورد بوليت.» كان ألكسندر قد اقترح الأسماء. «أخبر اللورد بوليت سيدي أن ديميون هو أمهر صانع سيوف في الإمبراطورية، وأن سيدي يستطيع ضبط توازن سيفه بشكل صحيح وتركيب واقي جديد له...»

"حسنًا. كفى ثرثرة. عد إلى سيدك. لا نحب العبيد الطليقين في الشوارع."

"بالطبع، يا صاحب السمو."

ركلني في ظهري وهو يمرّ بدراجته. أمرت قلبي أن يهدأ، وبعد ربع ساعة كنت أقف عند باب مطبخ منزل ماراغ.

قلت للخادمة ذات الخدين الورديين: "قيل لي أن أطلب هازير".

"هازير؟"

"من الضروري للغاية أن أتحدث معه."

"الأمر الأكثر إلحاحاً؟" بدا صوتها كصدى في مغارة غالادون.

قلتُ محاولاً التحلي بالصبر: "الأمر عاجل للغاية. يجب أن أوصل هذه الرسالة وأعود إلى سيدي قبل أن يستاء من تأخري. أرجو أن تتفهموا الأمر."

"أوه، أظن أن الأمر على ما يرام إذن." حكت رأسها. "سأحضره. لا أريد أمثالك في المنزل." شمّتني ونظرت إلى قدميّ قبل أن تغلق الباب في وجهي. لا أمل في أن تكون سريعة.

جلستُ عند المدخل وبدأتُ أستعرض الخطوات الست والعشرين التي يستخدمها الباحث للتحقق من مسّ الشياطين، وتاريخ كل خطوة، وأسبابها، والاختبارات اللازمة لها. النفور من الماء... وجود دم في سوائل الجسم... الرغبة الشديدة في الملح...

اتساع حدقة العين... كنت في الحادي والعشرين من الشهر عندما فتح رجل نحيل ذو لحية داكنة مجعدة الباب وكاد أن يدوس علي.

"أوه!" تراجع خطوة إلى الوراء وسمح لي بالنهوض والانحناء. "أنا هازير. من يسأل عني؟"

"أحمل رسالة عاجلة من شخص يُعرف باسم "صديق السيدة الأجنبي". قيل لي إنك ستقبلها."

حدّق بي الرجل بعينيه الداكنتين الذكيتين. "بالتأكيد. أستطيع أن أرى كيف ستصل هذه الرسالة إلى وجهتها."

أعطيته الرسالة. "لا يسعني إلا أن أؤكد على أهمية هذه الرسالة وسريتها، سيدي، لمن أرسلها إليّ."

لا داعي للقلق. هل هناك أي شيء يمكنني فعله من أجلك؟ لقد تلقيت تعليمات بأنه إذا جاء مثل هذا الرسول...

"شكراً لك، لكن لا. كل ما أحتاجه هو مخرج آمن من المدينة قبل إغلاق البوابات ليلاً."

قال: "للأسف، لا أستطيع مساعدتك في ذلك. من المعروف أن آل ماراج لا يملكون عبيدًا. أعتقد أن توفير ممر آمن لك سيجذب انتباهًا أكثر مما ترغب."

كنت أتوقع ذلك. "إذن، سأذهب في طريقي."

"إذن الرسالة هي كل شيء؟"

"قل للمتلقي: 'إنه يتقدم في السن بشكل جيد.'"

ابتسم بلطف. "سأوصل التقرير. فلتحفظك يد آثوس أيها الرسول الصالح."

انحنيتُ وهرعتُ عائدًا من حيث أتيت، متواريًا في الظلال دون أن أبدو مختبئًا، متذكرًا الطريق إلى البوابات. كدتُ أتعرض لحادث عندما اندلع

شجارٌ عنيفٌ في حانةٍ خلفيةٍ لحظة مروري. خمسة رجالٍ ضخامٍ كثيفي الشعر، تفوح منهم رائحة الجعة، اقتحموا بابًا مكسورًا وسقطوا فوقي وفوق اثنين آخرين من المارة. كان عدد اللكمات المتطايرة وشفرات السكاكين المتطايرة يفوق طاقتي، وتجمع حشدٌ من المتفرجين كالنمل حول النبيذ المسكوب. تمنيتُ أن يكون المتشاجرون في حالة سُكرٍ شديدٍ لدرجة أنهم لم يلاحظوا أن اليد التي نزعت سلاح ثلاثةٍ منهم وكسرت عددًا من أصابعهم تعود لعبد. وخزتُ أصابعي في عينيّ المحمرتين، وتسللتُ من تحت كومة الضجيج، ودخلتُ زقاقًا.

ظننتُ أنني نجوتُ من الموقف بسلام وأنا أعود أدراجي عبر منطقة المستودعات، ثم تسللتُ خلف الإسطبلات إلى ظلال أبراج البوابة. لكن كان عليّ الانتظار. لم يكن أحدٌ يخرج من البوابات، بل يدخل فقط. وصل ستة حراس لتولي الحراسة التالية. سيغلقون البوابات عند تغيير الحرس.

في اللحظة الأخيرة، تدفق حشد كبير من قبيلة شاستوان عبر البوابة المقوسة. كان الشاستوان رعاة رحلًا من القبائل، يشترون ويبيعون حيوانات الصحراء - التي يدّعون النسب المباشر إليها - لأصحاب القوافل. أينما حلّوا، كان الشاستوان يصطحبون معهم زوجاتهم (ثلاث أو أربع لكل منهم) وأطفالهم، وأجدادهم وأبناء عمومتهم، وخيامهم وعرباتهم، وبالطبع قطعانهم. كانوا يعتبرون الأسقف الصلبة نجسة، ولذلك كانوا ينصبون خيامهم في أسواق المدن عندما يأتون لحضور معرض أو بيع.

بدا لي الارتباك الذي صاحب وصولهم أفضل فرصة سانحة. انطلقتُ من مخبئي مباشرةً إلى وسط حشدٍ غفير من رعاة الشاستو الثاغين، والرعاة الذين يحملون السياط، وعدد لا يُحصى من النساء والأطفال الذين يحملون سلالًا ثقيلة من أمتعتهم المنزلية على ظهورهم. كان الشاستويون يرون أنه من غير اللائق إثقال كاهل حيواناتهم بممتلكاتهم، فهم في النهاية أقاربهم. كانوا يبيعون الحيوانات لرجال آخرين ربما ليسوا أقاربهم، ويفعلون بها ما يشاؤون. شققتُ طريقي عكس التيار، وبذلتُ قصارى جهدي لتجنب أن يلاحظني أحد، أو أن أُدهس، أو أن تُجرفني قوة حركتهم إلى المدينة.

كنتُ تحت القوس الجرانيتي الضخم للبوابات، على وشك أن أتنفس الصعداء، حين انتهى حظي السعيد. أُلقي حبلٌ فوق رأسي وشُدّ بقوةٍ كافيةٍ لسحبي للخلف عبر الحشد. كافحتُ للحفاظ على توازني وإرخاء الحبل، حتى وأنا أصطدم بنساءٍ قاسيات الوجوه يلعنّني، وأبصق مشروب الشاستو، وأُصاب بكدمةٍ في كتفي على زاوية عربة. لكن

سرعان ما فقدتُ توازني، وسُحبتُ، وأنا أختنق، بين أقدام قطيع الشاستو وعجلات عربات الشاستو. رفعتُ ذراعيّ فوق رأسي وانكمشتُ على نفسي.

لم ينفك حبل المشنقة إلا عندما توقفتُ فجأةً على حافة الحشد تحت ضوء المصباح الأصفر الخافت. قال صوتٌ خافتٌ من فوق رأسي: "أعتقد أنني وجدتُ هاربًا. راقبته يتسلل عبر الأزقة لساعةٍ كاملة، ينتظر فرصته. هناك مكافآتٌ جديدةٌ بانتظار العبيد الهاربين."

كنت ألهث لالتقاط أنفاسي. لم يكن هناك وقت للتفكير في عواقب المقاومة. لم يكن بالإمكان أخذي. قطعًا لا يمكن. عندما ارتطم الحذاء الأول بجانبي، فأخرج أنفاسي التي استعدتها للتو، همست بتعويذة لفك الحبل الملتف حول عنقي. ارتطم حذاء ثانٍ بأسفل ظهري. مسحت حفنة من الوحل اللزج على الجانب الأيمن من وجهي لأخفي العلامة. وقبل أن يرتطم الحذاء الذي كان ينوي قلبني على ظهري بضلوعي، انقطع الحبل، فأصاب عنقي بلسعة. قفزت واقفًا، وأخذت الحذاء معي وقلبت صاحبه رأسًا على عقب.

كان هناك ثلاثة حراس ما زالوا واقفين، ورجلٌ مبتسمٌ غير حليق، ليس جنديًا، يراقبهم. جميعهم كانوا مدججين بالسلاح. اثنان منهم أستطيع التغلب عليهما بسهولة. ثلاثة على الأرجح. أما الرابع فسيكون أصعب، وإذا...

نهض الخامس مجدداً... حركت قدمي ونزعت سلاح الرجل غير الحليق، الذي كان منحنياً ويلوح بسكين نحوي. من صوته، يبدو أنني كسرت يده. كنت سعيداً، لأنه هو من أمسك بي بالحبل.

كان التفكير خطأً. كان عليّ التحرك، استخدام غرائزي التي كانت أسرع بكثير من التفكير. وهكذا فعلت. وبينما كنت أتفادى السيوف والخناجر، وألحق بهم ما استطعت من ضرر بيديّ وقدميّ، حاولت استحضار التعاويذ. التعاويذ الوحيدة التي خرجت مني من دون تفكير كانت أبسطها التي رددتها لكاترين، لكنني تمكنت من جعل رجل يتقيأ، وأقنعت آخر بأن ثعبانًا يتقاسم سرواله. لو لم يهرعُ ثلاثة جنود آخرين لمساعدة رفاقهم، أو لو تمكنت من الحصول على أحد الأسلحة التي كانت تطير بعيدًا عن متناول يدي، لكانت الأمور سارت بشكل مختلف. لكن في النهاية، انتهى بي المطاف ملقىً على وجهي في الوحل، والسلاسل مربوطة بمعصميّ وكاحليّ، وأقدام وأيدي اثني عشر حارسًا غاضبًا تقنعني بأن شيطانًا أهون بكثير من جنديٍّ جُعل يبدو أحمق أمام رفاقه.

كان هناك دائمًا سجنٌ مُقامٌ بجوار أبواب المدينة. يُحبس فيه المهربون، واللصوص الذين يستغلون المسافرين، والمجرمون الهاربون، أو الأجانب الأثرياء الذين يبدو أنهم مستعدون لدفع رشى سخية، ريثما يتم استدعاء السلطات المختصة. كان العبيد الهاربون نادرين لدرجة أن الحراس لم يكونوا متأكدين مما سيفعلونه بي، لكنهم كانوا يعلمون أن الأمر لن يكون سارًا. لذا ربطوا سلاسل بأساور معصمي وعلقوني من عوارض سقف كوخهم الحجري الصغير، حتى كادت أصابع قدمي تلامس الأرض، وقضوا بقية الليل يُعبرون عن استيائهم من جرأتي في مقاومتهم. حاولتُ أن أغفو، لكن دقات الساعة التي يدقها حارس البوابة بدت وكأنها تُذكرهم بوجودي. لقد استمتعوا كثيراً بالتكهن بأي من قدمي سيتم قطعها عندما يأتي القاضي في الصباح، وحرصوا على وضع الكتلة الخشبية الداكنة والفأس العريض في مكان يمكنني رؤيتهما فيه - كما يمكنني أن أرى أي شيء من خلال الدم والطين الذي يغطي وجهي المتورم.

في إحدى الأمسيات، حين كان الحراس جميعًا خارجًا، ثنيت قدميّ وحاولت ركل السقف لإحداث ثقب، لكن ألواح البلوط القديمة كانت سميكة وصلبة. بعد عودة الجنود وتذكيري باستيائهم من العظام المكسورة التي تركتها لهم، لم أعد قادرًا على بذل أي جهد. كان عليّ الرحيل من هناك. لم أستطع إذابة السلاسل، ولا

دون أن أستنزف الكثير من قوتي حتى لا يتبقى لديّ ما أقاتل به للخروج من المدينة. كانت ميليدا امتدادًا لقوانين الطبيعة، لا بديلًا عنها. أستطيع تغيير طريقة احتراق النار، إشعالها أو إخمادها، لكن لا يمكنني بسهولة إشعال نار حيث لا توجد، خاصةً لشيء كالحديد، الذي لا يحترق بطبيعته. وأي سحر واضح سيستدعي نقابة السحرة، وحينها سأكون في عداد الموتى. حتى فقدان قدمي أهون عليّ من فقدان عقلي في نعش بالثار. لقد كانت ليلة لا تنتهي.

مع نهاية نوبة الحراسة الثانية، دخل حراسي من باب السجن ضباب كثيف رمادي اللون. سيصل القاضي خلال ساعة. ربما كان لديّ نصف دقيقة فقط من لحظة فكّ قيودي حتى تثبيتي على الطاولة، حيث سينفذ العقوبة الإلزامية للعبيد الهاربين. نصف دقيقة كانت كافية لمفاجأتهم. ولكن عندما نطق القاضي ذو الفكّين الغليظين، وقد انزعج من إيقاظه مبكراً، بالحكم، وجّه إليّ حارس أخرق ذو كدمات على وجهه لكمة قوية في بطني، لدرجة أنني لم أعي متى فكّوا قيودي وربطوني بالطاولة.

قال الحارس مفتول العضلات مبتسمًا وهو يجرّ نصل الفأس على باطن قدميّ: "لن تهرب مرة أخرى أيها العبد، ولن تستخدم هذه لإهانة من هم أعلى منك مرتبة. فأيهم ستختار؟"

قال القاضي: "أنجز الأمر. لم أتناول فطوري بعد."

لم تُجدِ محاولاتي اليائسة للتحرر نفعًا سوى تلقي لكمة أخرى. لم أستطع استجماع ذكائي لقطع الحبال، أو لخلق وهم، أو لتشتيت الانتباه، أو لفعل أي شيء سوى الاستلقاء هناك كخنزير في المسلخ. كنتُ أعي بالكاد رفع الفأس... وأعي بالكاد إنزالها... لكن دون أن أدرك العواقب الوخيمة التي كان مركزٌ بعيدٌ في عقلي يُحاول تحذيري منها. كان الناس يصرخون، لكنني لم أستطع تحريك رأسي لأرى، أو أن أُحرك ساكنًا لأهتم.

"أين الحشرات؟ لا أحد يعاقب عبيدي إلا أنا."

في مكان ما في رأسي النابض، تشبثت بشدة بالصوت المتعجرف.

"يا قرون درويا، إن كنت قد دمرت ممتلكاتي، فسآخذ خصيتيك ثمناً لذلك. سآخذ قدمه... قدميه الاثنتين... ولسانه جزاءً للأكاذيب التي أوصلته إلى هذا الحد. لكنني سأفعل ذلك متى شئت."

ما الذي كان مطمئناً للغاية في غضب الشتائم الذي أطلقه الوافد الجديد الذي اقتحم باب السجن كضوء الشمس الذي يخترق سحابة عاصفة؟

"أوقفوه على قدميه ما دام قادراً على ذلك. أريده مربوطاً بحصاني في غضون خمس دقائق، وإلا سأجعلكم جميعاً تلاحقونه."

سأل القاضي: "ما اسمك مرة أخرى يا سيدي؟ أحتاجه لتقريري."

"فاني من بيت مزراح. ويمكنك أن تكتب أنني أغضب بشدة عندما يتجرأ البيروقراطيون عديمو العقل على التدخل في شؤوني."

"نعتذر بصدق يا سيدي. بكل صدق."

فاني. لم يكن ذلك صحيحًا. بينما كنتُ أُسحب من على الطاولة، وأُدفع خارج الباب، وحبلٌ يمتد من معصميّ المربوطين إلى سرج حصانٍ ضخم... في مكانٍ ما وسط وهج شمس الصباح المؤلم، لمحتُ شعرًا أحمر. لم يكن من اللائق أن أبتسم أمام أحد. لم أكن متأكدًا من قدرتي على فعل ذلك على أي حال. ظلّ لعابي يسيل من فمي.

"ابتعدوا عن طريقي." تَعَثَّرَ عددٌ من الحراس جانباً، واصطدموا بي بسبب الرجل الطويل الذي كان يمتطي الحصان.

"إلى أين تأخذه يا سيدي... فاني؟" اقترب القاضي والصياد غير الحليق مني مباشرة، وعلى الرغم من أن الدم كان يدق بصوت عالٍ جدًا في أذني، إلا أنني تمكنت من سماع شيء جديد في صوته.

"انطلق، انطلق، انطلق"، تمتمتُ بصوتٍ خافت.

"ليس من شأنك. فقط أبعد أتباعك عن طريقي."

أطلقتُ أنّةً عندما أمسك القاضي ما استطاع من شعري القصير ولوى رقبتي، ثمّ خدش بظفره الطين والدم المتجمّع على خدي. "ما هذه العلامة على وجهه يا سيدي؟ علامتك أنت؟ لقد وردتنا تقارير عن عبدٍ هارب..."

لا، لا. هذا غير مقبول بتاتاً. لم يكن بوسعنا تحمل التأخير. ترك القاضي رأسي، وبذلت جهداً كبيراً لأستعيد توازني. سمعتُ دويًا أمامي أخبرني أن الرجل على الحصان كان غاضباً للغاية.

"ما الذي يحدث هنا يا ليفان؟" اخترق صوت امرأة حالة الذعر والارتباك التي كنت أعاني منها. "لماذا هذا الرجل مربوط بحصان؟"

"سيدتي! لا ينبغي أن تكوني في مكان شرير كهذا. هذا ليس إلا مكاناً للعبيد الهاربين."

اقترب منا حصانٌ يحمل امرأةً ترتدي ثوبًا أخضر داكنًا، تمتطيه برشاقةٍ كما تفعل بعض نساء ديرزي الجريئات. رفعتُ بصري، فإذا بوجه السيدة ليديا يسبح في ضبابية بصري. كانت نظرتها كنضارة صباح شتوي منعش بعد طول جلوسٍ بجوار نارٍ دخانية. للحظة، استطعتُ التفكير من جديد.

كنا سنعاقبه وفقًا للقانون، لكن اللورد فاني جاء ليطالب به كملكية خاصة به ويقول إنه سينفذ عقابه بنفسه. لكنني الآن أرى هذه العلامة على العبد، وقد وردتنا تقارير...

"فاني؟!" دهشت السيدة.

قال ألكسندر -بالطبع كان هو- وهو ينحني من على حصانه: "أتتذكرينني يا سيدتي؟ أعتقد أننا التقينا في زاجاد".

حدّقت ليديا في ألكسندر، وظلّت الشمس معلّقة في مسارها حتى تكلمت. "بالطبع، أتذكرك يا سيد فاني. كان عليّ أن أعرف أنني سأجد شخصًا مثلك متورطًا في هذه الأعمال الدنيئة. سمعتُ أن عبدًا قد أُخذ الليلة الماضية، وفكّرتُ ربما في شرائه قبل أن يُؤذى."

"لكنكِ لا تملكين عبيداً يا سيدتي."

قالت: "بالضبط".

"حسنًا، هذا سيكون أكثر فائدة لي منك إذن، لذا سأودعك وأمضي في طريقي."

دفعت ليديا دابتها برفق لتمر بجانبي، حتى وقفت جنبًا إلى جنب مع موسى دابة ألكسندر. وبحركة مفاجئة أسكتت جميع من في الفناء، رفعت يدها وصفعت ألكسندر قائلة: "بالتأكيد يا سيدي. لدينا جميعًا واجبات مهمة نؤديها هذا الصباح. يجب أن أبدأ واجبي. لا تُدخل ممارساتك الدنيئة إلى أفينخار مرة أخرى."

سيدتي، أتطلع... إلى لقائنا القادم. ربما في ظروف أسعد.

أدارت ليديا حصانها وعادت إلى القاضي. قالت: "أريدهم أن يخرجوا من هنا فوراً. والدي يكره اللورد فاني ولن يتسامح معه في مدينتنا".

"بالتأكيد يا سيدتي. كما تقولين."

لمس ألكسندر جانب موسى، ثم عبر البوابات وسار على الطريق. تعثرتُ خلفه، متمنيًا لو أنه يُبطئ قليلًا أو يُسرع لأستسلم وأُجرّ معه. ضحك عليّ المارة، وبصقوا عليّ، ورشقوني بأشياء - بعضها بذيء للغاية. انصرف قليلون خجلًا أو اشمئزازًا. لسوء الحظ، لم تكن هناك أشجار لمسافة نصف فرسخ على طول الطريق المستوي، ولا منعطفات أو تلال تُبعدنا عن أسوار المدينة. عندما توقف موسى أخيرًا بجانب نبع ماء في بستان من الصفصاف، صدمتُ مؤخرته وسقطتُ أرضًا على الفور.

"سيون، انهضي." كنت أتمنى بشدة أن أتمكن من الزحف بعيدًا عن حوافر الحصان ومؤخرته، لذا شعرت براحة كبيرة عندما انفصلت السلاسل والحبال عن أساور معصمي، وشعرت بذراع قوية ترفعني واقفة. "هيا، هناك ماء هنا."

ساعدني على الاستلقاء، وكدتُ أُفرغ البركة الصغيرة. كان الأمر محزنًا عندما فقدتُ نصفها مرة أخرى على الفور. على الأقل تمكنتُ من الزحف بعيدًا حتى لا أُلوث النبع.

"شربتَها بسرعة كبيرة. عليك أن تشرب رشفات أصغر." نزعَ ما تبقى من رداء العبودية الممزق والملطخ بالدماء، وغمس يده في ماء النبع، وبلله. طريقة إزارية مناسبة لمعالجة النبع. ثم مسح الدم والأوساخ عن وجهي. "لقد أتقنوا عملك عليك كما فعلتُ أنا."

همست بنعاس: "اثنا عشر. اثنا عشر منهم."

"حسنًا، هذا جيد. لا أريد أن أتعرض للضرب المبرح من قبل ستة أو ثمانية أشخاص فقط." جذب ذقني المتدلي. "لا. لن يُسمح لك بالنوم الآن. نريد التأكد من أن رأسك لا يزال سليمًا بعد كل هذا." أحضر ملابسي وكوبًا من حقيبة سرجه، وشرع في إعطائي رشفات من الماء بينما كان يفحص إصاباتي ويلبسني بعض الملابس.

قال وهو يضغط على بطني المتورم بشدة حتى كدت أتقيأ ما تبقى من الماء الذي شربته: "لقد كنتِ حمقاءً بالذهاب. كنتُ أنا الأحمق بالسماح لكِ بذلك. عندما لم تعودي، عرفتُ... عرفتُ... تمامًا ما حدث وما كانوا سيفعلونه بكِ. يا إلهي، ما أشدّ بؤس هذا العالم!"

توقف للحظة ثم استدار، وكان تنفسه متقطعًا ومؤلمًا. لم أستطع رؤية كيف تتجلى لعنته. بعد دقائق، عاد والتفت إليّ، وأصابعه الباردة المرتعشة تحاول عبثًا إلباسي سروالي، محاولًا ارتدائه فوق قدميّ. "لا أريد أن أُسيء إلى سيدتك الإزارية الكريمة أو صديقها." شغل تفكيره بالشابات ذهنه عني لدقيقة، وهو ما كانت كدماتي ممتنة له. "هل فهمتُ صحيحًا أنك أوصلتَ الرسالة إلى ليديا؟ هل كان هذا ما كانت تقوله لي؟"

أومأت برأسي. "فعلت."

"لقد كانت رائعة، أليس كذلك؟"

أومأت برأسي مرة أخرى.

لم يخطر ببالي قط أنها ستلعب دور المؤامرة. أعتقد أن هذا يناسبها. كان وجهها... يا إلهي، يا لها من روح! لا بد أنك تركت انطباعًا كبيرًا لديها حتى تفعل كل هذا. ابتسمت له، فظن أنني أتألم، فعاد إلى اهتمامه المفرط بي بشكل مزعج.

"شكرًا لك يا سيدي. سأكون بخير." تمكنت من نطق الكلمات دون تلعثم، لعله يتركني وشأني. "وماذا عنك؟"

قال وهو يتكئ على شجرة ويرتشف من قارورة نبيذ: "لا يزال الوحش يحتفظ بجزء مني. أحاول - بنجاح متقطع - لكنه سينتصر عليّ في النهاية. لم يعلمني ليكاي كيف أقاتل مثل هذا الشيء."

"سنتولى الأمر—"

"لا. كفى من ذلك. أخبرتني كاترين كم هو من غير المرجح أن تتمكن من فعل أي شيء من أجلي، وأنه إذا سمحت لنفسك بالتشتت ومحاولة القيام ببعض الأعمال السحرية، فقد لا تكون مستعدًا لمواجهة هذا الشيطان."

"لم يكن لها الحق في قول ذلك لك."

"كان لها كل الحق. وكان لي كل الحق في سماع ذلك."

"يا سيدي—"

"اسمعي إليّ يا سيون، ولا تقاطعيني." انحنى إلى الأمام، وبدا عليه من شدة الحماس ما يكفي لإجبار أي رجل على الإصغاء إليه. "أريد كلمتكِ... كلمتكِ بصفتكِ حارسة إزاريا... بأنكِ لن تسمحي لي بتدمير الإمبراطورية. فمقابل كل بؤس فيها، هناك خيرٌ أيضًا. أعلم أنكِ لم تُسمحي برؤيته، ولكن هناك آلاف يعيشون في سلام بفضل ما بنيناه. وآلافٌ آخرون كانوا سيموتون جوعًا في موسم قاسٍ لولا أننا جعلنا التجارة والسفر آمنين. إنها تشمل شرفًا وتقاليد نبيلة وجديرة بالثناء، وكان من الممكن أن تكون أكثر من ذلك بكثير. لو كان ديمتري حيًا، لأخبركِ بذلك، كما حاول أن يخبرني طوال خمسة عشر عامًا. لا أستطيع، ولن أدمرها. إذا استولت عليّ هذه الشياطين، أو إذا جاء اليوم الذي لا أستطيع فيه السيطرة على الوحش، فأريدكِ أن تقتليني. وعندما تخوضين معاركَكِ وتطردين الشياطين من مملكتي، أريدكِ أن تخبري والدي بالقصة."

"يا سيدي—"

"أقسمي يا سيون. أقسم أنني سأموت على يد محارب، ولن أُحاصر داخل وحش... أو أصبح واحدًا منه." وبينما كان يقول ذلك، شاهدته يقاتل الشنغار المتوحش مرة أخرى. لم أستطع تخيل القوة التي تطلبتها هذه القوة.

"كما تشاء يا سيدي."

ربما كان نبعًا مقدسًا شربنا منه. ربما كانت ضربةٌ على رأسي هي التي أيقظت الكلمات في مكانها. ربما كان الأمر أنني وألكسندر قد انتشلنا بعضنا من هاوية الألم واليأس، فأصبحت أرى بوضوح ما كنت أعرفه منذ زمن. ولأول مرة، نطقت بما كان يدور في ذهني: "لو استطعنا فقط أن نجمع قوتك وقوتي، لما استطاع أي شيطان أن يقف في طريقنا". انحنيت ببطء على العشب الطويل بينما خفت آلامي، وأثقل الليل الطويل جفوني وجعل لساني ثقيلاً. "السوء الحظ، السبيل الوحيد لوجودك هناك هو أن يسكن شيطان كاستافان فيك بدلًا منه".

أخذتني موجة من النوم الهانئ بعيدًا عن هدوء الصباح. ولكن في لحظة ما، بينما كنت أغفو في غفلة بلا أحلام، وضع ألكسندر عباءته عليّ وهمس في أذني: "يشرفني أن أقاتل إلى جانبك يا سيون". بعد يوم،

عندما استيقظت، وجدت أربعة أشرطة فولاذية مكسورة ملقاة بجانبي على العشب.

الفصل 32

"كيف سمحتم له بالرحيل؟" صرختُ في وجه كاترين وهوفيد عندما استيقظتُ من غيبوبة الشفاء. "هل تفهمون ما يخطط لفعله؟ هذا الأحمق الغبي المتغطرس سيسلم نفسه للخليد." كنتُ في حالة من الغضب والعجز والحزن الشديد.

قالت كاترين، دون أي بادرة دفاعية كنتُ أتوقعها منها: "كان محقًا. لم تكوني في حالة تسمح لكِ بالركوب". لقد تركتني أنام ليوم كامل، مُقررةً أنني بحاجة إلى وقت لشفاء إصاباتي. "ولو سمحنا لكِ بالركوب خلفه، لما كنتِ في حالة تسمح لكِ بالقتال. حياتكِ أهم من حياته. لن أجادل في ذلك."

قلت: "إن قيمة ألكسندر تفوق قيمة كل قيمتنا مجتمعة. سيفعل

تغيير العالم. هل أنا الوحيد الذي يستطيع رؤية ذلك؟

التقى ألكسندر بكاترين وهوفيد عند مفترق الطرق حيث انتظرا بينما ذهب هو للبحث عني. عاد وحيدًا، لكنه أخبرهما أنني ما زلت على قيد الحياة، وإن كنت مصابًا، ومكان وجودي عند النبع. ثم طلب من هوفيد أن يزيل حلقات العبودية عني.

قال لي هوفيد، بعد أن هدأت نوبة غضبي الأولية ووقفتُ أُسند رأسي على حصاني محاولًا تهدئة نفسي: "قال إن الوقت قد فات منذ زمن طويل. قال إن كبرياءه اللعين هو ما حال دون ذلك. لكنه أرادك أن تعلم أنك حر في فعل ما تراه مناسبًا، ولم يُرد لأي شيء أن يقف بينك وبين القسم الذي أقسمته له." عبس هوفيد وضم يديه بانزعاج. "وهناك أمر آخر أرادني أن أخبرك به. قال إن فاني -أظن أن هذا كان اسمه- كان يأخذ عبيده إلى مكان في الصحراء، حيث كان هو وأصدقاؤه يصطادونهم للتسلية." وضع هوفيد يده على كتفي. "لم يكن يُهددك، أليس كذلك؟ لن يفعل ذلك؟"

"لا، لم يكن تهديداً." بل كان هدية.

كان ألكسندر متقدمًا علينا بفارق كبير لدرجة أنه لم يكن هناك أي احتمال للحاق به. كان موسى أفضل حصان في الإمبراطورية. ومع ذلك، بمجرد أن انطلقنا على الطريق، لم أستطع كبح جماحي. ركبتُ كالمجنون، وتوقفت.

لفترة كافية فقط لإراحة الخيول. استسلام ألكسندر قد يغير كل شيء. وهناك حقيقة مروعة لم يفهمها الأمير، وهي أنه بمجرد أن يستولي عليه الشيطان، لن يتمكن من القتال إلى جانبي. ستكون روحه ساحة معركتي، وستُدمج كل قوته وعزيمته وعناده مع سحر الشيطان لخلق خصمي. سيعرف الشيطان كل ما أخبرت به ألكسندر، بما في ذلك اسمي.

لعنتُ لساني الأحمق الذي استغلّ لحظة ضعفي تلك ليُطلق العنان لكلامه، مُلمّحًا لألكسندر بما يكفي ليُصدّق أن لفتة بطولية عظيمة ستُحدث الفرق. كنتُ أخشى بشدة أن يقتلنا نحن الاثنين... وآلافًا غيرنا ممن سيموتون حين يستولي الخليد والشياطين على ما يُريدون.

بارنيفور. لم يكن من المتوقع أن يُحسم مصير العالم في مكان كهذا. فقد كانت تقع على أطراف الإمبراطورية، ونشأت على مرّ آلاف السنين من تعاقب القبائل والغزاة. فإلى جانب شارعٍ تصطفّ فيه بيوت طينية من طراز فيشتار بلا نوافذ، يمتدّ شارعٌ آخر تصطفّ فيه بيوتٌ خشبيةٌ

طويلةٌ وضيقةٌ ومتاجرٌ ذات عتباتٍ منحوتةٍ ونوافذَ مطليةٍ، كما كان يفضّل الكوفاي. وعلى أنقاضٍ حجريةٍ خلّفها بناةٌ قدماءٌ جهلنا أسماءهم، شيّد الدرزي قصورًا ذات ساحاتٍ مفتوحةٍ وأقواسٍ متصلةٍ مصممةٍ لتوجيه هواء الصحراء الخفيف لتبريد الحجر. وكان الناس مختلطين بنفس القدر. فقد تجد امرأةً من طراز ثريد، طويلة القامة وذات بشرةٍ داكنة، بعيونٍ زرقاءَ مستديرةٍ وشعرٍ مجعّدٍ كعيون المانجانار، أو طفلةً بيضاءَ البشرة من أصولٍ بصريةٍ ترتدي الخرز الملون والأردية المخططة للسوزيني. كانت مدينةً متوسطة الحجم، شديدة التحصين. وتحتها كانت الأرض مليئة بالينابيع والكهوف، مما جعلها بقعة خضراء خصبة بين بحار العشب الذهبي التي لا حدود لها في الجنوب والمنحدرات الجرانيتية السوداء القاسية لجبال خيب راش - جبال الأسنان - في الشمال.

انحنيتُ خلف بقايا سور حجري نصف مدفون في قمة تل صغير على مرأى من بوابات بارنيفور الخارجية. انتظرنا الساعات القليلة المتبقية حتى غروب الشمس، ولم نجرؤ على الدخول علنًا خلال النهار. قد يكون هناك مراقبون... ينتظروننا. ربما يكون كاستافان قد علم بكل شيء الآن. اللعنة عليك يا ألكسندر! لماذا لم تثق بي؟ كنتُ سأجد لك علاجًا. لقد وعدتك بذلك.

كان ذلك اليوم الثاني والعشرين.

كانت شمس الظهيرة تُسخّن قمة التل. كان كاترين وهوفيد نائمين في بقعة ظلّ ضئيلة. جلستُ متكئًا على الجدار الحجري، عاجزًا عن فعل الشيء نفسه، رغم أننا ركبنا طوال الليلة الماضية نشعر بقرب المدينة يجذبنا. حلّقت النسور بكسل فوق بعض الفراغ في الأفق؛ وانقضّت طائرة ورقية صارخة في العشب، ثمّ حلّقت عاليًا بعد ذلك بقليل، حاملةً فأرًا تعيس الحظ. حرّكت نسمة باردة العشب الطويل، مُخفّفةً من لهيب الظهيرة المكشوف.

تمنيتُ لو أستطيع النوم. لكنني بدلاً من ذلك حدّقتُ في يديّ ومعصميّ العاريين المُندبين. كنتُ حراً، وحبيبتي على قيد الحياة، وكل ذلك أصبح رماداً في فمي. من بين الأشخاص الأربعة الذين أهتم لأمرهم أكثر من أي شيء في العالم، فارق أحدهم الحياة، وإذا نجحنا أنا وكاترين، فقد تُدمر هذه الأيدي الثلاثة الآخرين. سنوات طويلة من الألم والغضب فاضت من روحي في تلك اللحظة، وانفجرت من شفتيّ صرخةً جعلت الطيور على التلال القريبة ترتفع في غيوم داكنة متوترة. استيقظ رفيقيّ وسألاني بنعاس إن كان هناك خطب ما. قلتُ: "مجرد كابوس".

سرعان ما لفت انتباهي شكلٌ داكن يتحرك نحوي من خلف التلة التالية. حصان. داكن، رشيق، سريع. حصانٌ أصيل... بلا فارس. نهضتُ ونزلتُ التلة ببطء. توقف الحصان. نقرتُ بلساني كما يفعل ألكسندر، فاقترب الوحش المتوتر. قلتُ بهدوء، وأنا أمد يدي لأمسك بلجامه المتدلي: "أين سيدك؟". ارتبك موسى، لكنني واصلتُ الحديث وألقيتُ تعويذة مهدئة في الهواء، حتى أنه عندما هدأتُ الحصان البني المرتجف، لم يبتعد. "الآن أرني أين تركته." لم أصدق أن ألكسندر سيتخلى عن جائزته طواعيةً.

استخدمتُ ما أعرفه من تعاويذ بسيطة تُجدي نفعًا مع الخيول، ثم امتطيتُ صهوة جوادي، وتركتُ الحصان يقودني حيثما شاء. على بُعد ميلين غربًا عبر العشب المتموج، عثرنا على بقايا راداه ممزقة - خنزير بري ضخم وشرس موطنه الأصلي المراعي. إذن، تحوّل ألكسندر مرة أخرى في طريقه إلى هنا. ولم يمضِ وقت طويل. كانت النسور والذباب لا تزال تنهش العظام، ولم يتبقَّ منها إلا القليل من وحش كان يزن تقريبًا وزن بقرة. على مسافة قصيرة، وجدتُ أكوامًا من العشب ممزقة من التربة وملطخة بالدماء وقطع من اللحم الجاف. لقد استيقظ ألكسندر هنا وحاول تنظيف نفسه... ولم يكن موسى ليقترب من سنجار وروداه. كان على الأمير أن يكمل طريقه سيرًا على الأقدام إلى بارنيفور. ربما... ربما فقط...

ضغطتُ بكعبيّ على جانب موسى وتشبثتُ به بينما انطلق الحصان شرقًا. كانت كاترين وهوفيد مستيقظتين بالفعل، وقد استنفدتا آخر ما تبقى لدينا من الماء. قلتُ: "عليّ الذهاب الآن. إنه ليس بعيدًا عنا. سأقابلكم عند البوابة الشمالية عند بدء نوبة الحراسة الخامسة. قد يكون هناك وقت لإنقاذه."

"ولكن أين ستنظر؟" قال هوفيد.

"سأجري استفسارات مع عميد ديرزي الأصغر."

"سيون! أنت لا تعرف ماذا—" نادتني كاترين، لكنني تجاهلتها وانطلقت بعيدًا.

بالطبع سيذهب إلى كيريل أولًا. لكن مسألة ديمتري هي ما ستؤخر خطته العنيدة. وجدت لي كاترين وشاحًا أحمر طويلًا في إحدى القرى التي توقفنا فيها لشراء الطعام. لففته حول رأسي على طريقة المانغنار لأغطي شعري القصير، وسحبته جانبًا لأخفي الندبة على خدي.

قلتُ عند البوابة: "أقوم بنقل حصانٍ لديرزي دنسيسار. لقد اشتراه من درافا، وسأقوم بتسليمه قبل موسم سباقات الصيف". أعجب الحراس

بالحصان، مدركين أنه بالفعل أجمل بكثير من أن يناسب رجلاً يبدو وجهه وكأنه قد استُخدم لحراثة حقل.

سألني أحدهم وهو يحدق في كدماتي التي بدأت تتلاشى: "هل واجهتَ مشاكل في الطريق؟ أم أن الوحش عصبي المزاج؟"

قلتُ: "لصوص. لم يكن من المفترض أن أركب هذا الحصان. لكنهم استولوا على حصاني العجوز ومعداتي. ربطوني بشجيرة شوك، ثم شربوا أكثر من اللازم احتفالاً بذكائهم. عندما فقدوا وعيهم، هربت. ظننتُ أن أفضل فرصة لي للبقاء متقدماً عليهم هي أن أركب هذا الحصان وأبذل قصارى جهدي."

"والآن ستسلمه إلى صاحبه؟" كان الحارس الثاني متشككاً.

قلتُ: "لقد خدمتُ عائلة اللورد كيريل لفترةٍ كافية لأعرف أنهم يُفضّلون خيولهم على زوجاتهم. لا يجوز مُخالفة سيدٍ كهذا. سأتقاضى أجري وسأكون سعيداً بذلك."

ضحك الحراس وأرسلوني، وأخبروني بمكان منزل الدانسار الصغير. كان منزلًا متواضعًا مُحاطًا بسور، يقع بالقرب من مركز بارنيفور. ربما كان هذا المنزل يُرهق ميزانية دانسار صغير، مع أنه ينتمي إلى فرع من العائلة المالكة، إلا أنه ينحدر من سلالة الإناث، وقد توفي والده.

كانت البوابة مفتوحة، وأقنعت الرجل العجوز في بيت البوابة أن يوصل رسالة إلى اللورد كيريل مفادها أن رجلاً قد أحضر له حصانًا مناسبًا لـ

سباق رهان من زاجاد إلى درافا. أشار إليّ الرجل العجوز ذو النظرة الثاقبة إلى الفناء الخلفي لأنتظر الرد. كان الفناء المظلل بالأشجار يضم إسطبلًا في أحد أطرافه، وحظيرة عامل بجانبه، وحديقة صغيرة قرب بئر ماء. أثار المكان المغلق قلقي. كنت على وشك الفرار عندما اندفع رجل من الباب الخلفي للمنزل. كان شابًا قصير القامة، مربع الوجه، من قبيلة ديرزي، بشعر أشقر مضفر. أضفت النمشات الخفيفة على أنفه الطويل المستقيم مظهرًا أصغر بكثير مما أتذكره.

"زاندر، لقد..." قاطع تحيته الهادئة حين رآني، ثم أدار عينيه الفاتحتين في أرجاء الفناء. ولما استقرت نظراته عليّ مجدداً، تفحصني بدقةٍ جعلتني أخشى أن يرى ما أفضّل إخفاءه. عضّ الشاب ديرزي شفته وهمّ بالكلام، فأومأ موسى برأسه، ومدّ الشاب يده ليسكته. وبحركةٍ خفيفةٍ من رأسه، تراجع الشاب إلى الوراء ورفع يده. انطلق خمسة جنود مدججين بالسلاح من الإسطبلات وزوايا الفناء.

مددت ذراعيّ وثبتت مكاني، مقاومًا رغبتي في كسر ذراع الجندي الذي كان يوجه رمحًا نحو بطني. تراجعت عن المقاومة عندما لاحظت أن ثلاثة من الخمسة ذوي شعر شاحب وبشرة شاحبة وعيون غائرة. خليد.

ربّت الشاب على رقبة الحصان وهمس له لبرهة كما فعل ألكسندر، ثم عاد ينظر إليّ. اختفى تردده اللحظي. "من أين أتيت بهذا الحصان؟" كان صوته كذكرى باردة لصباح شتوي في كفرنا.

يا سيدي، لقد أعطاني رجلٌ هذا الحيوان صباح اليوم على طريق أفينخار. قال لي أن أحضره إليك وأوصل لك الرسالة، وستدفع لي ثمنه. أرجوك يا سيدي، لم أكن أنوي أي أذى.

"وكيف كان الرجل؟"

"لقد كان عبدًا يا سيدي." دعوا الخليد يقلقون. من المحتمل أن يخبرهم ألكسندر أنني على قيد الحياة. وإن لم يفعل، فليتساءلوا.

"عبد... هل رأيت السيد، صاحب الحصان؟"

لا يا سيدي. قال العبد إن سيده لم يعد بحاجة إلى الحصان. لم أسأل أكثر. لم أرغب في معرفة المزيد. ربما قتل سيده. أنا بحاجة إلى المال، لذلك لم أسأل. كنت سأحضر العبد أيضًا لأبيعه.

إما أن أقبض عليه أو آخذ المكافأة على الهارب، لكن لم يكن لديّ أسلحة ولا قيود... لم يكن لديّ أي وسيلة للسيطرة عليه. سامحني يا سيدي، إن كان السيد صديقك...

"ليس صديقي. إنه وغدٌ قاسٍ شرير كنتُ أعتبره يومًا من أهلي. لقد قتل والدي الوحيد، وسأنتقم منه شر انتقام. سماعي أنه لا يحتاج إلى حصان يُريحني، لكن الشائعات لا تكفي. إن كان لا يزال على قيد الحياة، فسأنتقم منه. لن ينتقم منه أحد سواي. لذا أشعر بالسرور والغضب في آنٍ واحد."

"أتفهم ذلك يا سيدي." لكنني كنتُ فضوليًا. لماذا إذًا خرج يبحث بشغف عن "زاندر"؟ "هل لي أن أغادر يا سيدي؟ لا أعرف شيئًا آخر."

سلّم كيريل لجام موسى إلى أحد السائسين. "سأرى جثته قبل أن أطمئن، لذا أعتقد أنك ستبقى هنا الليلة. غدًا ستُريني المكان الذي التقيت فيه بهذا العبد، وسنبحث عن دليل على وجود السيد." أومأ برأسه لأحد حراس الخليد. "أخبر اللوردين كوريلي وكيدون أنني لن أتمكن من حضور احتفالهما غدًا. ما زلت أبحث عن ابن عمي المتعطش للدماء. قد يكون هذا كله خدعة لتشتيت انتباهي. ألكسندر ليس غبيًا."

أومأ الجندي ذو العينين الشاحبتين وانصرف، بينما تحدث كيريل إلى الآخرين. "قيّدوا زائرنا واحبسوه في الحظيرة. سأعتني به في الصباح."

"من فضلك يا سيدي، لديّ أمر عاجل في المدينة. زوجتي مريضة..."

أمسك كيريل بقميصي من الأمام بقبضته وتحدث من بين أسنانه: "ستنجو لفترة وجيزة بدونك. بمجرد أن تفعل ما أريده، ستكون حراً في الذهاب. هذا ضروري. هل تفهمني؟"

كنتُ أعتقد أنني فعلتُ ذلك. كنتُ آمل أن أكون قد فعلتُ ذلك. لكن بينما كانوا يوثقونني كالإوزة ويغلقون مزلاج الكوخ ذي الأرضية الترابية المكتظ بالصناديق وصناديق الرماد والأثاث المكسور والأواني المخدوشة ولفائف القماش التي مضغتها الفئران، تخيلتُ تمامًا ما يمكن أن تقوله كاترين عن الرجال الأغبياء الذين لا يمكن الوثوق بهم في التفكير السليم في الاستراتيجية. كطفل ساذج، كنتُ متأكدًا تمامًا من أن ألكسندر سيذهب إلى كيريل ويقنعه ببراءته.

بعد خمس عشرة دقيقة، وفي الوقت الذي كنت قد استوعبت فيه بعض التعاويذ، بما في ذلك التعويذة التي سأحتاجها لكسر مزلاج الكوخ، انفتح الباب وتسلل رجل من ضوء النهار الخافت إلى الكوخ المظلم. وعندما أُغلق الباب، كشف عن فانوس وبدا عليه الذهول لرؤيتي غير مقيد تمامًا، متكئًا على كومة من السجاد المتعفن.

قلتُ: "هل أخبرك لماذا يرسل لك ابن عمك رسائلك دائماً مختومة بالشمع الأحمر؟" بدا وكأنه لا يعرف من أين يبدأ.

انتزع الوشاح الأحمر من رأسي وحدق في الندبة، ثم أشار إلى يديّ. رفعتُ أكمامي وأريته آثار حلقات العبودية. قال أخيرًا: "إذن أنتِ من أخبرني عنها. ظننتُ أنها مجرد جانب آخر من جنونه... أن يعتقد أن عبدة ستأتي للبحث عنه."

"أنا رجل حر يا سيدي. ويجب أن أجد ابن عمك. إنه في خطر لا أستطيع وصفه."

"أردتُ قتله."

"لكنك لم تفعل."

لا. ما الرضا الذي يُجنى من قتل رجلٍ يختبئ في الظلال، رافضًا الظهور في مدينته؟ بالكاد كان ينطق، والدماء تغطي يديه ووجهه، رغم ادعائه أنه لم يُصب بأذى. لولا تذكيره لي بأمورٍ لا يعلمها سوانا، لما صدّقتُ أنه ألكسندر. حاول إقناعي بأنه لم يقتل عمّنا، وفي الوقت نفسه يتحدث عن مؤامرات الشياطين، وعن عبيدٍ سحرة، وعن حشد القوات

لحماية المدينة. ثم يأتي هؤلاء الخالديون باحثين عنه، قائلين إن الإمبراطور قد أعلن جنونه. يزعمون أنهم هنا لحمايتي، لأن ابن عمي أقسم على قتلي كما قتل عمّي. كل ما رأيته يؤكد مزاعمهم. ماذا عساي أن أصدق؟

صدق كل ما قاله لك ابن عمك يا سيدي. لم يقتل اللورد ديمتري، بل شعر فقط بذنب حماقته. ارتكب الخليد الفعلة. تحذيرك، وشكوكك، وشكوك اللورد ديمتري بشأن هؤلاء الخليد، هي التي ساعدت في إقناعه بما كان يحدث. التهديد حقيقي. الخطر يفوق تصورك. ومن المرجح ألا ينجو الأمير ألكسندر إذا وقع في قبضة الخليد. إن الخليد متحالفون مع الشياطين، وهم يخططون لجعله واحدًا منهم. إذا نجحوا، وتُوِّج ابن عمك إمبراطورًا، فسيسود هذه الأرض حكمٌ من الرعب لم يشهد العالم مثله في كل شرور الماضي.

"لا أصدق أيًا من هذا."

حاولتُ التحلي بالصبر. قد نحتاج إلى كيريل. "أرجوك يا سيدي، هل تعلم أين ذهب؟ يجب أن نذهب إليه الآن. ربما فات الأوان."

قال إنه لديه أمرٌ مع اللورد كاستافان. أخبرته أن كاستافان ليس في المدينة، لكنه سيصل الليلة. إنهم يبنون معبدًا على جبل المراقبة. كيدون وكوريلي وكهنتهم ذاهبون.

سيتم وضع حجر الأساس الليلة عند شروق القمر، وسيحضر كاستافان.

قلتُ محاولًا كبح جماح حماسي: "لا بد لي من الذهاب إذًا". كان القمر يشرق باكرًا، بعد غروب الشمس بقليل، لكن هذا يعني أن أمامنا ساعةً أخرى. "وعليك أن تفعل ما طلبه منك. لا أعرف ما أخبرك به، لكن قد يحاول الخليديون الاستيلاء على المدينة بالقوة. إذا حدث ذلك، فمن المرجح أن يكون بعد ستة أيام من الآن. لن يكون هناك أي إنذار، لذا يجب أن تكون مستعدًا لذلك."

"وماذا لو لم يفعلوا؟"

"ثم كنت آخذ أي شخص أهتم لأمره، وأركض إلى أعماق الجبال قدر استطاعتي، ولا أخرج منها أبداً."

"آثوس اللعينة".

"والآن، هل يمكنك أن تخبرني كيف أجد هذا المعبد؟"

كان ابن عم ألكسندر شابًا متواضعًا، يختلف سلوكه تمامًا عن سلوك الأمير، رغم نشأتهما في بيت واحد على يد الكثير من الأشخاص

أنفسهم. لم يكن مرتاحًا لتلقي النصائح من "عبد همجي"، وراقبته وهو يصارع متطلبات النسب والواجب، والوفاء والشك. لكن كان عليه إما أن يتقبل جنون ألكسندر أو أن يطيع أمر أميره. ولأنه كان يحب ألكسندر، تشبث بالتفسير الذي يبرئه، ومنذ لحظة تقبله الأولى، لم يشكك أبدًا في سلطتي.

قال كيريل بحزم: "سآخذك إلى هناك. كما رأيت، هناك الكثير من العيون تراقب منزلي. تحسباً لأي سؤال. سآخذك لزيارة زوجتك المريضة، لكنني لا أنوي السماح لك بالذهاب حتى الغد."

أومأت برأسي، وسمحت له بربط يديّ برفق بالحبل، ثم قادني بحزم خارج الحظيرة، عبر الفناء، إلى الشارع. لم نكن قد قطعنا أكثر من خمسين خطوة في الزقاق عندما اقتربت منه وقلت: "هناك رجل يتبعنا وله أسنان كالغرير. هل هو من رجالك؟"

"لا."

كان الضوء يخفت. أضاءت بعض الحانات مشاعلها من الخارج، وتصاعدت من داخلها أصوات الضحك والموسيقى، كأزيز المزامير وعزف الأوتار. دارت في ذهني خمسون فكرة، ولكن عندما رأيت امرأة أحدبة تتعثر خارجة من زقاق أمامنا مباشرة، أومأت برأسي نحو الممر المظلم وقلت: "هل نأخذه جانبًا ونرى ما يريد؟"

"هل تخطط لممارسة بعض السحر؟"

"لا حاجة."

لكن ما إن دخلنا الزقاق والتفتنا لنمسك بالرجل ذي الوجه الشبيه بوجه الغرير حتى انضمت إليه المرأة الأحدبة، التي واجهتنا وهي على وشك إلقاء سكين طويلة جدًا. قالت لكيريل: "سلّمه لي، وإلا ستستقر هذه السكين في حلقك. أنا دقيقة جدًا". لم يتناسب صوتها مع وجهها المترهل المتورم.

دفعني كيريل خلفه. "أنا قاضي الإمبراطور. من أنت وماذا تريد من أسيرتي؟"

استخدم الرجل ذو الوجه الشبيه بوجه الغرير سيفًا قصيرًا ليُشير إلى كيريل بالركوع، وتظاهر بأنه سيقطع حلقه. في اللحظة التي يطير فيها طائر الطنان بعيدًا عن متناول يدي، سحبت يديّ من الحبل، ودفعت الشاب ديرزي أرضًا، وانتزعت السيف من يد مهاجمنا. ثم انقضضت، وركلت يد المرأة، ورفعت يدي، على وشك كسر رقبة الرجل وذراع المرأة، عندما صرخا معًا: "سيون! انتظر!" تراجعت عن الحركة في

اللحظة الأخيرة، وتعثرت في الحائط، وأنا أهز رأسي بينما أشاهد الوجهين يتحولان إلى خطوط مألوفة. كاترين وهوفيد.

فتح كيريل فاهه من الدهشة، واتكأت على الحائط. قلت: "كان يجب أن تنبهني قبل ذلك بقليل".

قالت كاترين: "رأيناه يخرجك ويداك مقيدتان. ظننا..."

حسنًا، كان واضحًا ما يدور في أذهانهم. شرحتُ لهم الأمر سريعًا، وقدّمتهم إلى كيريل، الذي لم يفعل سوى أن نظر إلينا مرارًا وتكرارًا، وهو يُضيّق عينيه ويُوسّعها. لقد كان وهم كاترين مُتقنًا بشكلٍ مُذهل. من الصعب للغاية الحفاظ على تغيير المظهر لأكثر من خمس دقائق. وبالنسبة لاثنين منهم... فلا عجب أنها بدت مُرهقة عندما أقلعنا مُجددًا.

كان موقع المعبد على مرتفع صخري في قلب المدينة. وظلت أبراج المراقبة، التي بناها نفس عمال البناء القدماء الذين شيدوا أساس المدينة، شامخةً على تلك المرتفعات منذ أمد بعيد. وقد ترك هؤلاء البناة آثارهم متناثرة، ليس فقط في بارنيفور، بل في جميع الأراضي التي أصبحت فيما بعد الإمبراطورية. وكان هناك من بين قومي من يدّعي أننا ننتمي بطريقة ما إلى هؤلاء القدماء، لأن آثارهم كانت غنية بالآثار المقدسة. ولا شك أن أسلافنا قد بنوا معابدنا على غرار أعمالهم.

قال كيريل إن الخليديين استولوا على الأرض وهدموا الأبراج القديمة، وهناك خططوا لبناء المعبد، لتعريف شعب إمبراطورية ديرزي بآلهتهم. وامتد مسار ضيق متعرج إلى قمة الصخور.

كان الصعود عبر الطريق مستحيلاً. انتشر حراس الخليد، يمنعون أي شخص من المرور دون التعرف عليه. وكما كتب كيريل في كتابه لألكسندر، كان هناك المئات من الخليد في بارنيفور. كدتُ أتقيأ من هالة الشيطان. قلتُ بينما كنا نختلط بأهل البلدة الذين يقفون على أطراف حشد الخليد يراقبون ما يجري: "علينا أن نجد طريقًا آخر للصعود".

قال كيريل وهو يقودنا عبر الأزقة المزدحمة إلى متجر مهجور لصانع سروج على الجانب الآخر من المنحدرات: "تعالوا من هنا. هناك طريق آخر للصعود، لكنه شديد الانحدار. كنت أحاول مراقبة الخليد منذ فترة، وقد أراني جينار، صاحب هذا المتجر، هذا الطريق."

قال هوفيد عندما وصلنا إلى المتجر المهجور: "سأنتظر هنا. لا أطيق المرتفعات في الظلام منذ أن فقدت عيني".

قال الدرزي: "سأنتظر هنا أيضاً. من الأفضل حماية مؤخرتك. لا يوجد طريق آخر للنزول إلا عبر وسط الخليد، وإذا أحضرت ألكسندر..."

قلتُ وأنا أشعر بالضيق من التأخير: "يجب أن أذهب". كانت الشمس تغيب في الأفق، وكانت أنغام موسيقى شيطانية خفيفة تملأ الهواء الدافئ الساكن تُثير أعصابي.

قالت كاترين: "سأختار سيون. يجب على أحدهم أن يمنعه من الذهاب والقيام بشيء أحمق."

قال كيريل: "انتبه لنفسك، فالطريق وعر".

انطلقنا أنا وكاترين على درب الماعز المتداعي. تدحرجت الحصى والصخور من تحت أحذيتنا وسقطت على سفح التل. في بعض الأماكن، كان الدرب بالكاد يتسع لقدم واحدة، وفي أماكن أخرى كان معدومًا تمامًا، فاضطررنا إلى التمدد فوق منحدر حاد لنصل إلى موطئ قدم آخر. تشبثنا بالأغصان والأشجار الصغيرة التي نمت من بين الصخور، وأكثر من مرة وجدت نفسي ملتصقة بالصخرة وفمي مليء بالتراب، أتشبث بحياتي بأطراف أصابعي وحذائي. كان السير بطيئًا للغاية. كدت أصرخ من شدة التأخير. ماذا كان يفعل ألكسندر؟

استغرقنا أكثر من ساعة للوصول إلى قمة الطريق. كان القمر قد طلع عندما زحفنا فوق الحافة إلى نتوء صخري يطل على قمة مسطحة من

خدعة. استلقينا على الأرض وانزلقنا إلى الحافة لننظر إلى الأسفل. لا بد أن خمسمائة من الخليديين كانوا على النتوء الصخري، يقفون في حلقة حول حجر رمادي مسطح مغروس في الأرض. بالكاد استطعت التنفس من ثقل سحر الشياطين في الهواء الساكن. كل نبضة قلب كانت صراعًا؛ كل لحظة تمر ببطء وبجهد، كما لو كنت أركض في ماء يصل إلى صدري. ضغطت كاترين يديها على أذنيها، لكنني كنت أعرف مدى عبثية محاولة كتم صوت الطحن. نبض الرعب في عروقي حتى بدا وكأن الطريقة الوحيدة للتخلص منه هي قطع الوريد وتركه ينزف حتى الموت.

لقد فات الأوان. وقف ألكسندر في وسط الحلبة، والهلال الشاحب يتدلى منخفضًا في الشرق خلفه. جثا رجل أمامه، يضحك بصوت عالٍ - ضحكة غريبة ممزوجة بأنفاس حادة. لكن لم يكن جثا الرجل تكريمًا للأمير، بل كانت مجرد وقفة عابرة قبل أن يسقط على الحجر الرمادي، وجهه أرجواني مشوه، ومقبض سكين بارز من صدره. كاستافان. لقد خمن ألكسندر الطريقة الأضمن لتحقيق النتيجة التي يريدها.

لو كان بإمكاني قول كلمة تُغيّر ما سيحدث، لقلتها. لو كان لها أي تأثير، لقفزتُ من صخرتي لأجل ألكسندر كما قفزتُ من الهاوية لأجل غالادون، بجناحيه أو بدونهما. لكن جيش الخليد قد مات، ولذلك كان شيطانه يتلذذ بآخر أهواله النجسة، يلعق شفتيه ويتجشأ في فيض من الكراهية والشهوة، وهو يبدأ البحث عن مسكن جديد. لن يحتاج للبحث بعيدًا. فقد كان أمامه وعاء: ينتظر، مُهيأ، مُغذّى بسحر الشيطان.

اسمعني يا ألكسندر، قلتُ وأنا أحاول جاهدًا أن أشق طريقي وسط الضجيج المروع. تمسّك بنفسك. لستَ وحدك. لن أُهملَك عندما تسقط في الهاوية. سآتي إليك. لا تشكّ في ذلك أبدًا. أبدًا.

كنتُ لأقسم أن الأمير نظر إليّ وابتسم في تلك اللحظة، قبل أن يتصلب ويسقط على ركبتيه، ضاغطًا قبضتيه على صدغيه. ثم انطلقت منه صرخةٌ كفيلةٌ بأن تُذبل أقسى القلوب. كانت جوهر الألم وأقصى درجات اليأس، مُستخلصةً من كوابيس العالم. كل فزعٍ في الطفولة، كل اضطرابٍ في منتصف الليل، كل ألمٍ لأمٍ وهي تشاهد طفلها يُعذّب، كل يأسٍ لأبٍ وهو يدفن ابنه الأخير، زوجةٌ شابةٌ عاقر، زوجٌ شابٌ عاجز، عالمٌ أعمى، موسيقيٌ أصم،

بستاني محكوم عليه بالصحراء الأبدية... هكذا كان العذاب الذي انبعث من قلب ألكسندر المشرق وهو يغرق في الظلام.

انتظر يا أميري، سآتي إليك.

هذه المرة، حين نظر إلى قمة الصخور حيث كنتُ مستلقيًا، لمع شعاعان من الزرقة الباردة من عينيه اللتين كان من المفترض أن تكونا بلون الكهرمان الساطع. ما هذا الصوت؟ هيا... وسنرى من يملكه في النهاية.

تجمّد جلدي وارتجف حلقي. حاول قلبي أن ينتزع نفسه من جسدي هربًا من الصوت الهادر الذي تسلّل إلى أفكاري، متلهفًا لمعرفة هويتي. كل علامة كراهية على جسدي كانت تصرخ بنار. وبينما كانت موسيقى الشياطين تعلو في سيمفونية جهنمية، انتزع ألكسندر خنجره من جثة خليد وبدأ يقطع قلب ضحيته.

"ابتعدوا." كان صوت كاترين لاذعاً كالثلج على اللحم المحروق. "لن تفيدوه بشيء هنا. المعركة هي التي ستُحرره أو لا، وقد حان وقت الاستعداد."

الفصل 33

دبليو

عندما انضممنا إلى كيريل وهوفيد في متجر صانع السروج، كان ثلاثة رجال ملقين على الأرض الترابية، وقد شلّهم سيف كيريل وسحر هوفيد. كانوا من سكان البلدة، ومخبرين معروفين.

كانوا معتادين على مراقبة منزل كيريل. لقد شاهدوا الحادثة في الزقاق وكانوا يلاحقوننا، آملين في الاستفادة من هذا الحدث الغريب. قام كيريل بنقلهم خارج بارنيفور في تلك الليلة في عربة خصصها كعائدات ضرائب متجهة إلى زاجاد. وبحلول الوقت الذي استيقظوا فيه، كان الجواسيس الثلاثة قد تُركوا في قلب سهول أزهاكي على بُعد خمسين فرسخًا من أي مكان.

كان البقاء مع كيريل أمراً بالغ الخطورة علينا، لذا لجأنا إلى أحد أصدقائه في إسطبل يقع خارج أسوار المدينة مباشرةً من جهة الشمال.

كان مكانًا واسعًا مُعتنى به جيدًا، يقع في وسط مرعى صخري يرتفع تدريجيًا نحو الجبال. ولكن تم نقل جميع عمال الإسطبل للعمل في معبد الخليد أو قلعة ديرزي القديمة، حيث كان كيدون المندوب الملكي يقيم، لذلك أُعيدت معظم الخيول إلى أصحابها.

كان صاحب الإسطبل يخرج لبضع ساعات كل يوم ليعتني بالخيول المتبقية. وكان يحضر لنا الطعام واللوازم ولا يطلب منا شيئًا.

أسئلة.

راقبتُ الجواسيس وهم يُقتادون، واستمعتُ إلى الترتيبات التي تُجرى، ثم خرجتُ من البوابات، وسرتُ على الطريق الوعر، وصعدتُ الدرج الخشبي إلى المهجع فوق الإسطبلات المهجورة، حاملاً ما وُضع في يدي. رتبتُ فراشي حيث أُمرتُ، واستلقيتُ عليه دون أن أنام. لكن كل ما كنتُ أسمعه في تلك الساعات هو صرخة ألكسندر، وكل ما كنتُ أراه هو وجهه في اللحظة التي أخذه فيها الشيطان، اللحظة التي أدرك فيها ما فعله وما سيحدث له. مهما كانت أحلامي مروعة عندما أنام مجدداً، فلن تُضاهي أحلامه.

قالت كاترين وهي تُناولني كوباً من النبيذ الساخن وتجلس على فراش القش بجانبي، وتعبث بقماش القماش المتسخ: "أنا آسفة لتأخرنا".

كان من المفترض أن أحميه. لقد ظن أن هذا ما أريده.

"كان جدي محقاً، أليس كذلك؟ لم يعد الأمر يتعلق بقسمك فحسب، ولا يتعلق بإنقاذ العالم من فوضى الشياطين. الأمر يتعلق بألكسندر."

"سأضحي بحياتي من أجله - ديرزي العنيد والمتغطرس والقاتل. أعتقد أنني فقدت عقلي."

"صوتكِ يشبه صوته تمامًا، يلعنكِ باعتبارهِ همجيًا وقحًا... قبل أن ينطلق مسرعًا إلى أفينخار ليجدكِ. استغرقني الأمر بعض الوقت لأفهم كيف يمكنكِ أن تهتمي كثيرًا بشخص يختلف عنكِ تمامًا في الخلفية والمشاعر والمعتقدات. كنتُ أراه وسيمًا وجذابًا، ولكن ليس أكثر من ذلك. فقط في تلك الأيام الأخيرة بدأتُ أرى ذلك."

"الوقت ضيق للغاية."

"إذن، كم من الوقت سيستغرقك الأمر لتتجاوز هذا الأمر وتمضي قدماً؟"

رفعتُ نظري إلى وجهها الصغير، الذي بدا من غير المعقول أن يكون مجرد قناع لإرادة حديدية. قلتُ: "لو كان بإمكاني عبور البوابة الآن، لفعلتُ ذلك".

أومأت برأسها. "وستخسر. عليك أن تقضي عليه قبل أن ترحل. صفِّ ذهنك. أنت تعلم مدى خطورة الأمر إذا فكرتَ كثيرًا في الضحية أو اهتممتَ بها أكثر من اللازم." سحبت خيطًا متدليًا من قماش غطاء السرير البالي. "لم تُقاتل يومًا في روح شخص تعرفه."

"لا."

"لقد فعلها جدي. لم تكن تلك المعركة الوحيدة التي خسرها، لكنها كانت الأخيرة. لم يسامح نفسه أبدًا، لأنه كان يعلم أنه كان يجب أن يترك شخصًا آخر يخوضها."

رفعتُ نفسي على مرفقي لأستمع. لم أكن أعرف قط ما الذي جعل غالادون يتوقف عن القتال. لم يكن هذا شيئًا يناقشه مع طلابه. "من كان؟"

"كانت أمي."

"آه، كاترين..."

كانت آيف، بل آيف لامعة. كان والدي حارسها. كان ضعيف الموهبة، وكان يكافح في مهامه، لكنها لم تتراجع عن الارتباط. في النهاية، وبشكل حتمي، خسر معركة... وأسره الشيطان. كانت روحًا شريرة خاض معها المعركة، ولم تتركه هناك.

"لذا حاولت إخراجه." كان من الصعب بما فيه الكفاية على أيفي أن تترك حارسًا ميتًا وراءها. لكن كان من الأصعب بكثير أن تضطر إلى التخلي عنه.

حارسة حية حين أُسرت. إذا أبقت البوابة مفتوحة لفترة طويلة على أمل هروب شريكها، محاولةً تغيير النسيج لمنحه فرصة للتحرر، فإنها تُعرّض نفسها للخطر، لأن الشيطان سيجبر الأسير على نطق اسمها. وإذا سقطت، فقد يجد الشيطان طريقه عائدًا إلى المُعزّي والباحث، وفي النهاية إلى إزاريا، مُعرّضًا الجميع للخطر. ومع ذلك، أن تُغلق البوابة على من تُحب، وتتركه هناك محاصرًا مع الشيطان في الهاوية... كان الأيفس أقوى من خاضوا حرب الشياطين.

طوت كاترين يديها الصغيرتين وأسندت ذقنها عليهما. "أغلقت أمي البوابة أخيرًا قبل أن يتمكن الشيطان من الدخول، لكنها هي نفسها أُخذت. عندما دخل جدي، لم يستطع إنقاذها. كاد الأمر أن يقتله يا سيون، لأنه لم يستطع التركيز، ولم يستطع التوقف عن التفكير بها. حاول أن يرى ابنته الحبيبة في المشهد الذي خلقته له حياته، ولذلك لم يبحث عن الشيطان. كتم غضبه حين كان عليه أن يضرب، لأنه لم يستطع فصل الوحش الذي يواجهه عنها. يجب ألا ترتكبوا نفس الأخطاء."

"إذن أخبرني ماذا أفعل."

فعلت ذلك. على مدى الأيام الخمسة التالية، عملنا على كل أنواع الانضباط الذهني. كل ما تعلمته وأنا أعيش في ظل العبودية - من التركيز والحواجز، إلى الهدف الواحد - طبقته عملياً.

كانت تخلق رؤىً مرعبة، فظيعة، جميلة، مشتتة، وتجبرني على حل المشاكل وأنا أعيشها. رسمت صورًا دقيقة لألكسندر وسط منسوجاتها، حتى أنني كنت متأكدة من أنه يقف أمامي، يضحك، يجادل، ويشتم. وبعد فترة، لم يكن ألكسندر وحده في الرؤى، بل كان ريس أيضًا... ثم إيسان... انتُزعت من ذاكرتي الحية ووُضعت أمامي كصديقة وحبيبة، كوحش، كخصم مسكون بالشياطين. قتلتهم جميعًا خمسين مرة، وأنقذتهم جميعًا خمسين مرة أخرى. عملنا من الفجر حتى عجزت كاترين عن تخيل سيناريو آخر، ولم أستطع رفع يدي.

لم يُشغلني سوى أمر واحد طوال فترة تحضيرنا. لم يسبق لي أنا وكاترين أن خضنا اختبارًا معًا. عندما يتدرب الحارس مع أيفي، يقوم شخص ثالث باستحضار الرؤية، فتقوم الأيف بإنشاء بوابة إليها، ناسجةً سحرها الخاص لكي تعتاد هي والحارس على بعضهما. كان هوفيد قويًا بما يكفي لخلق الرؤية، لو أخبرته كاترين بالمشكلة التي تريدها.

قالت بينما كنتُ مستلقيةً على الأرض، ألهث من إرهاق جلسةٍ انتهت للتو في عصرنا الأخير: "لسنا بحاجةٍ إلى التدرب بهذه الطريقة. إن إنشاء واستخدام بوابةٍ ثانيةٍ ليس هو نفسه الاقتران الحقيقي. ستكون

الملكة هي آيف الحقيقية، كما تعلمين. كل ما أفعله هو السماح لكِ بالدخول."

"لكنني قد أحتاج إلى توجيهك. هناك ألف شيء، تمامًا مثل —"

"لا أستطيع التحدث إليكِ بأسلوب الآيف. لا أستطيع سماعكِ أو معرفة ما يجري. هذا هو الواقع. أنا آسفة. لا داعي لأن نتدرب معًا." أدارت عينيها وهي تتحدث، وتساءلتُ إن كانت تشعر بالحرج من الكلمات التي نطقت بها من وراء البوابة. أو ربما لم تفهم حقًّا أنني سمعتها. كان من الغريب أنها لا تحاول التدرب معي وهي مُصرّة على تدريبي الخاص.

في تلك الليلة عندما أوقفت التمرين، خوفاً من ألا يتبقى لدي شيء للمعركة الحقيقية إذا حاولت القيام بتدريب آخر، سألت كاترين عما إذا كانت ستسير معي في الخارج لبعض الوقت.

قالت وهي تنظر إلى هوفيد الذي كان قد نام على مذكراته بينما كنا نعمل حتى وقت متأخر: "يجب أن أنام قليلاً".

"كما تشاء. أردتُ فقط أن أستنشق بعض الهواء النقي." وأن أنظر إلى النجوم والقمر والعالم النائم بسلام، ذلك العالم الذي قد لا أراه مجدداً بعد اليوم التالي. وأن أشعر بدفء شخص يمشي بجانبي. لقد أثقلني هذا العبء في تلك الليلة.

ترددت قليلاً، ثم التقطت عباءتها. "أنت محق. لقد بقينا محبوسين في الداخل لفترة طويلة جدًا."

كان الليل باردًا لطيفًا على وجهي. تجولنا عبر المرعى باتجاه امتداد من الأشجار التي ترويها الينابيع في وادٍ خلف السياج. كان القمر الأصفر يتدلى منخفضًا في الغرب. أربعة خيول نكزت أذرعنا وشمّت جيوبنا بحثًا عن طعام. ضحكت كاترين وأبعدتها.

لم يكن هناك ما يُقال. لقد اكتملت استعداداتنا. كنتُ على أتمّ الاستعداد خلال ستة أسابيع فقط. لم يكن بوسعها أن تُذكّرني أكثر، أو تُجري لي المزيد من الاختبارات، أو تُقدّم لي كلماتٍ تُساعدني على تجاوز المستوى الذي وصلتُ إليه. للأسف، لم تستطع تبديد الشكّ المُلازم الذي كنا نعلم كلانا أنه سيُشكّل أكبر خطرٍ يُهددني.

في لحظة ما، وجدت يدها طريقها إلى يدي، شعورٌ لطيفٌ بالراحة الإنسانية لا علاقة له بالرغبة أو الحب أو أي شيء سوى الرفقة.

كان ذلك كافيًا. تجولنا في الوادي المشجر، وأوراق أشجار الدردار العريضة تُلقي بضوء القمر المتخلل على الطريق، ونبع قريب يهمس

في طريقه بجانبنا. عندما وصلنا إلى حافة الأشجار، وقفنا للحظة نحدق في سواد قلعة الخليد الشاهقة فوقنا على الصخور. ثم عدنا أدراجنا، وفي وقت قصير جدًا كنا قد عدنا إلى الإسطبلات.

قلتُ وأنا أتوقف عند الباب قبل أن نعود إلى الأدوار التي اخترناها: "شكراً لك. على كل شيء. لقد أعدتَ لي حياتي."

"لم تكن مفقودة أبداً. بل وُضعت في غير مكانها فقط."

"أنت الوريث الجدير لجدك. سيصفك طلابك بالنسر العجوز الشرير، وسيحاولون جاهدين جاهدين كسب كلمة ثناء واحدة منك."

ضحكت ورفعت نفسها على أطراف أصابعها لتقبلني على خدي. "وأنتِ يا عزيزتي المشرقة، يا تلميذتي الأولى والأكثر قيمة، لن تخبريهم أبدًا أنني صنعت لكِ كعكات اللوز ذات مرة."

دخلنا إلى الإسطبل ونمنا نوماً عميقاً حتى الفجر.

لم تُخبرني كاترين بعد كيف ستعرف مكان وكيفية فتح باب سحر يسان. على حد علمي، لا يوجد معبد في بارنيفور، ولا مكان تتجمع فيه تعاويذ إزاريان كمركز شبكة عنكبوت ضخمة. لهذا السبب اضطررنا للمجيء بأنفسنا عندما وافقت يسان على مقابلة شريكتها في الخيانة وجهاً لوجه. لكن لم يكن من شأني معرفة كيف تُخطط آيفي لأعمالها. لقد أعطتني كاترين كل ما في وسعها.

وصل كيريل ذلك الصباح. كان هوفيد قد نظف إحدى الغرف الكبيرة فوق الإسطبل، فكنسَ ومسحَ ونظفَ حتى أصبح المكان خشبًا خاليًا من أي شيء، مع نافذة صغيرة نظيفة مفتوحة على السماء. هناك تدربنا لخمسة أيام، وهناك كنتُ أؤدي التمارين التي أحتاجها لأحافظ على مرونتي وأهيئ نفسي ذهنيًا. حاولت كاترين إبعاد ديرزي، لكنني سمعتُ الضجة على الدرج فنظرتُ إلى الأسفل.

"إنه مشغول"، قالت وهي تضع يدها الصغيرة بثبات على صدر كيريل العريض. "إنه بحاجة إلى أن يكون بمفرده".

"لا بأس،" ناديتُ من أعلى الدرج. "دقيقة واحدة أكثر أو أقل لن تُغيّر الوضع، وإذا لم أستطع التخلص من مُشتّت آخر عندما يحين الوقت، فسنكون قد أضعنا الكثير من الوقت هذا الأسبوع. إضافةً إلى ذلك، أنا بحاجة إلى تناول الطعام."

قال كيريل بعد بضع دقائق وهو يحتسي كوباً من النبيذ: "لقد قلت إن هذا هو اليوم"، بينما كنت أشرب الشاي القوي وألتهم كومة من الخبز والدجاج البارد تكفي لإشباع شخص بالغ.

"إنها."

"إذن، ما الذي سيحدث؟ ومتى؟"

"ليس لدي أدنى فكرة متى. لكن في وقت ما ستخبرني كاترين أن الوقت قد حان وإلى أين يجب أن نذهب... وبعد ذلك، سنرى."

"عندها ستحارب هذا الشيطان."

"نعم."

"يا إلهي. الأمر برمته غريب للغاية. حسناً، لا داعي للقلق بشأن دوري. الحامية مستعدة للتحرك بمجرد إشارتي."

"جيد."

تردد للحظة، ثم أخرج شيئاً من جيبه. "لقد تلقيت رسالة من ألكسندر."

هززت رأسي. "لا تخبرني. يجب ألا أفكر فيه. سأبذل قصارى جهدي، وهذا سيكون كافياً."

"لكنني أعتقد أنك بحاجة إلى رؤيتها." ناولني ورقة مطوية. "لقد أُرسلت أمس."

كيريل،

وصلتُ للتو إلى بارنيفور لأتعرف أكثر على الخليديين وأتفقد تحصيناتنا هنا على الحدود. سمعتُ تقارير تفيد بأنك تُخطط للانتقام لديمتري بقطع حلقي أو انتزاع قلبي أو شرب دمي أو أي عمل شنيع آخر. لن يحدث هذا. أنا محميٌّ جيدًا، وحتى مهارتك لن تُصيبني. إذا كنت ترغب في تجنب تهمة الخيانة، فعليك أن تتخلى عن هذه الأفكار السخيفة وتأتي لتحيتي بنهاية الأسبوع باحترام وتواضع، مُعلنًا إنهاء جميع الضغائن ضدي. إذا فعلت ذلك، فقد أُفكر في السماح لك بالاحتفاظ بمنصبك وحياتك، لأنك قدمت خدمة جليلة خلال الأشهر الماضية في استضافة أصدقائي الخليديين. سنُحاسبك على سلوكك السابق. لكن إذا رفضتَ واستمررتَ في ترديد هذه الاتهامات الباطلة، فسأُشاهدك تُشنق - سواء كنتَ قريبًا لي أم لا. لا يُمكنك أن تتخيل أن والدي سيُقرّ مثل هذا السلوك.

ألكسندر

كان ختم الشمع المكسور أحمر اللون.

قلت بهدوء: "إنه ليس ملكهم".

"هذا ما كنت أفكر فيه. عندما تركني قبل ستة أيام، كان يعلم أنني لن أقتله. لقد أتيحت لي الفرصة ولم أستطع فعل ذلك. أما بالنسبة لـ'مهارتي'... فلم أهزمه قط في قتال. ليس منذ أن كنا في الحضانة."

قلتُ وأنا أُعيد الرسالة إليه: "لا يجب أن تثق به. قد يكون هذا مجرد سر صغير يُخفيه عنك، وقد يتغير في أي لحظة. هل تفهم ذلك؟ هذا الشيطان يسكن داخله، وفي كل لحظة يُقاوم فيها إرادته، سيدفع ثمنًا باهظًا."

ابتسم كيريل. "لقد عرفت ألكسندر لفترة أطول بكثير مما عرفتيه أنتِ يا سيون. حتى من خلال تجربتك القاسية، لا يمكنكِ أن تتخيلي مدى عناده."

كانت كاترين تحوم حول الباب كفراشة تحاول الدخول إلى النور. قلتُ: "يجب أن تذهبي الآن. ستنفجر كاترين غضبًا إن لم أعد إلى العمل. شكرًا لكِ على حضوركِ."

قال: "ليكن آثوس عن يمينك يا صديقي".

"معنا جميعاً."

ما إن رحل، حتى أمضيت دقيقةً أتذوق فيها نشوة انتصار ألكسندر الضئيل. كل لحظةٍ استطاع فيها الصمود منحتني فرصةً للانقضاض. إن استطاع تجنب كشف اسمي، فلن يتمكن الشيطان من التسلل إلى عقلي بسهولة. إن استطاع رفض السماح باستغلال معرفته بي، فسيمنحني ذلك ميزة المهارة والمباغتة. تمنيت لو أستطيع تصديق أن إصراره العنيد سيحميه من المخلوق الذي يلتهم روحه، لكن بعد تلك اللحظة العابرة، نبذت الفكرة. لم يكن بوسعي تحمل هذا النوع من الإيمان. كان عليّ خوض هذه المعركة وحدي.

وبعد نصف ساعة فقط، دخلت كاترين وقالت: "علينا أن نذهب. سيكون هناك مكان خاص لتحضيرك".

أومأتُ برأسي وتبعتها إلى أسفل الدرج في صباح غائم. لم يكن هوفيد في الأفق، لكن الخيول كانت مُسرّجة تنتظر. كان شعر كاترين مضفورًا بضفيرة ثقيلة ملفوفة حول رأسها. وبينما كنا نعبر بوابة خشبية ونسلك دربًا ضيقًا عبر المروج، داعبت الرياح المنعشة ضفيرتها، فجذبت خصلات داكنة من ضفائرها لتلامس وجنتيها المتوردتين. كانت ترتدي زيها المعتاد، تنورة ركوب بنية اللون وسترة خضراء داكنة، تتدرج ألوانها بين الفاتح والداكن بفعل تغيرات ضوء الشمس والغيوم المتسارعة. محاربةٌ شجاعة.

انطلقنا إلى المعركة. لم نقل شيئاً. لم يكن الأمر ممنوعاً، بل غير ضروري.

قادنا مسارنا مسافة قصيرة إلى سفوح جبال خيب راش شرق بارنيفور، وعبرنا ممرًا واسعًا بين تكوينين صخريين ضخمين. فوجئتُ برؤية أن مسارنا الضيق المخصص للخيول يتبع ما كان يومًا طريقًا معبدًا بعرض الوادي المتصدع. كانت شظايا الحجارة المكسورة، الملساء والمتجانسة لدرجة يصعب تصديق أنها من صنع الطبيعة، متناثرة بين الأعشاب التي يصل ارتفاعها إلى مستوى الركاب، وكنا نمر بين الحين والآخر بنصب تذكاري لم تدمره قرون من عوامل التعرية وتساقط الصخور. بعد ما لا يزيد عن ألفي خطوة، انفتح المضيق الضيق على وادٍ صغير وارف، تغطيه أزهار يصل ارتفاعها إلى الركبة وأشجار الدردار والشوكران ذات السيقان السميكة، ويتوسطه أطلال مبنى طويل مفتوح. كان نصف الأطلال بلا سقف، وسقطت ألواح ضخمة من الجرانيت وسط أعمدة المبنى المتهالكة. أما الجزء الأبعد من المبنى فكان لا يزال سليمًا. كان مكانًا عريقًا. وقف حصان هوفيد عند أحد طرفيه.

كان عليّ أن أعرف أننا سنصل إلى أحد أطلال البناة. فكثيراً ما كان المُعزّون يأخذون ضحاياهم المُستحوذ عليهم إلى المعابد والمنازل والأروقة المنهارة. وكانت مادة "ميليدا" الموجودة في تلك الأماكن تُسهّل إعداد التعاويذ التي تربط الضحية بـ"آيف" التي تنتظر في إزاريا.

بينما ترجلنا وربطنا خيولنا بجانب فرس هوفيد، تساقطت قطرات المطر الغزيرة بغزارة على الأوراق الخضراء الداكنة. خرج هوفيد لاستقبالنا، ممسكًا بيدي كاترين، ونظر إلى وجهها نظرةً طويلةً آسرةً لم تترك مجالًا لأحدٍ سواه. عندما لامست يدها خده، اتضحت لي أمورٌ كثيرة. ابتسمتُ في سري، وفكرتُ أن إيلين ستوافق، متجاهلًا وخزة الندم الخفيفة التي تسللت إلى زوايا ذهني البعيدة. وسيكون ألكسندر مسرورًا. لقد كان محقًا مرةً أخرى.

قال هوفيد بهدوء، وكأنه يتردد في إزعاج أي أشباح قد تكون تحوم في المكان مع خيوط الضباب: "من هنا". صعد بنا درجًا عريضًا إلى الطابق الرئيسي من المبنى - الذي بدا وكأنه حمام عام. كانت هناك سلسلة من خمسة أحواض مستطيلة، كل واحد منها أصغر من سابقه، بينما كنا نتقدم إلى الجزء الأقل تضررًا من المكان. كانت جوانب الأحواض الأكبر متصدعة ومنهارة، والماء الوحيد فيها هو بقايا الثلوج الشتوية وأمطار الربيع الموحلة واللزجة. حولها، على الأعمدة والجدران المنهارة، كانت هناك منحوتات لرجال ونساء منشغلين بأنشطة يستحيل تخمينها من الآثار الباهتة.

أعطت بعض البقع الحمراء والزرقاء تلميحات إلى أن المكان ربما كان في يوم من الأيام مشرقًا بألوان أخرى غير الرمادي القاتم لحجر خييب رش.

صعدنا مجموعة أخرى من الدرجات إلى الجزء الأقل تضررًا من الأطلال، وكان صوت المطر يتردد على الحجارة القديمة. في إحدى القاعات، لا يزال معظم جدارين قائمًا خارج صفوف الأعمدة المخددة. في زاوية بركتها الصغيرة، تسرب الماء من صنبور على شكل طائر، رأسه مكسور منذ زمن. خلف تلك البركة، كانت هناك بركة أخرى، أصغرها، ربما لا يتجاوز محيطها خمسًا وعشرين خطوة. كانت مبطنة ببلاط أزرق داكن مرصع بزخارف حمراء. يتدفق الماء الساخن من قاعها، ويملأها حتى ينسكب في قناة مكسورة كان من المفترض أن تنقله إلى البركة التالية، لكنها الآن تصب في شق في الأرضية. كانت البركة الصغيرة عجيبة، مياهها صافية، وجمال بلاطها لم يخفت بفعل الطحالب أو الحجارة المتراكمة.

كانت مقاعد حجرية عريضة تُحيط بالبركة. لم يبقَ منها سوى مقعد واحد سليمًا. أُزيلت الأنقاض المحيطة، ووُضعت وسائد ليست قديمة على الإطلاق عليه وبجانبه. وُضعت الشموع في خمس نقاط حول المقعد، وانبعثت من موقد صغير رائحة خفيفة حلوة من الياسمين. كان هذا هو المكان التقليدي لمعركة الشياطين حيث يكون الضحية حاضرًا. إذن، هذا هو المكان الذي ستكون فيه يسان وريس وألكسندر. لم أستطع تخمين أين سأكون أنا وكاترين أو كيف سنتسلل إلى هذا السحر.

بدلاً من ذلك، تبعتُ هوفيد عبر ممر طويل وواسع إلى مدخل غرفة ظلت مغلقة تمامًا. على الأرجح كانت غرفة ملابس، أو ربما غرفة طعام للمستحمين الذين كانوا يصطحبون معهم خدمهم وعشائهم في نزهتهم الممتعة. كانت الغرفة تحتوي على سلسلة من النوافذ الطويلة الضيقة على طول الجدار الخارجي، تسمح بدخول ما يكفي من الضوء الرمادي للرؤية، وقد نُظفت مؤخرًا، إذ لم يكن هناك أي أوساخ، ولا عشب أو أعشاب ضارة ظاهرة من خلال الحجر المتشقق، ولا أي أثر لسكن الحيوانات. على الأرض بجانب النوافذ، كان هناك حوض نحاسي مملوء بماء من البركة، لا يزال يتصاعد منه البخار في الهواء الرطب، وإبريق أحمر، يحتوي أيضًا على ماء، على الأرجح من برميل مياه الأمطار في الإسطبل، ومنشفة بيضاء، وعباءة زرقاء مطوية، وصندوق خشبي رفيع مصقول بلمعان شديد.

عند عتبة الغرفة، التفتُّ إلى هوفيد وعانقته، ثم إلى كاترين وابتسمتُ لوجهها الجاد، حيث عبّرت عيناها الداكنتان عن كل ما عجزت عن

البوح به. قلتُ: "سنرفع نخبًا لجدكِ عند شروق القمر غدًا"، وقبّلتُ جبينها. "سأكون

"سأكون جاهزاً لك خلال ساعة ونصف." ثم أغلقت باب البلوط الداكن بفعل الزمن وتركت حياتي خلفي.

لمدة ساعة، مارستُ تمارين الكيانار، أُزيل آخر آثار التمزق التي أيقظتها مشاهد وأصوات الرحلة القصيرة. ثم خلعتُ ملابسي واستخدمتُ الماء من الجرة لأغتسل، مرددًا كلمات التطهير التي لم أكن بحاجة لممارستها لأنها كانت جزءًا لا يتجزأ مني كقلبي ويديّ. لم تكن لديّ ملابس نظيفة، لكنني سوّيتُ ما كنتُ أرتديه وارتديته. من الصندوق الخشبي، أخرجتُ السكين الفضية وحقيبة صغيرة تحوي قطعة زجاجية بيضاوية ناعمة باردة، واستبدلتُ السكين بالفضية وربطتُ الحقيبة بحزامي. بعد أن ارتويتُ من الماء النظيف من الإبريق الأحمر، ربطتُ عباءة الحارس الزرقاء حول كتفيّ، وسحبتُ غطاء الرأس العميق فوق رأسي، وجلستُ متربعًا في وسط الغرفة.

وضعتُ يديّ مفتوحتين ومسترخيتين على ركبتيّ، وبدأتُ أردد في ذهني ترنيمة إيوريث، الحارس الأول. نيفيد زي. غيروش زي. سيليفي زي. أنا كامل. أنا الحياة. أنا أدافع عن النور... صغتُ الكلمات بعناية ووضوح، وأنا أستجمع قواي، وأشدّ خيوط المليدا الممتدة من روحي إلى الأشجار والأعشاب، إلى المدينة وسكانها الغافلين، إلى الشمس والقمر والنجوم وكل ما وراءها، حتى ارتجف جسدي بالقوة، وجلستُ مسترخياً، بلا تفكير، أنتظر.

لم يكن هناك أي إحساس بمرور الوقت. كان بإمكاني البقاء على هذه الحال لأيام، إن لزم الأمر، معلقًا في الزمن، كالسهم المُجهز، ينتظر فقط إطلاق القوس. لكن لم تكن أيامًا. ربما بضع ساعات فقط حتى فتح شخص ملثم يرتدي رداءً أبيض الباب وأشار لي باللحاق به. لم يكن بوسعي التساؤل، ولا القلق بشأن مدى قربنا ممن قد يؤذوننا. كنتُ قد انفصلتُ بالفعل، ولو جزئيًا، عن عالم الوجود العادي.

لكن حواسي الداخلية تحركت مع اتجاه سيرنا. كان الضوء الذي يرقص على الأرضية الحجرية ضوء مصباح يدوي تتخلله ظلال متحركة. وحيث توقعت الصمت، لأن كاترين لن تتحدث معي حتى نكون مستعدين للبدء، كانت هناك أصوات.

"ألا يُعرّفنا أحدٌ بهذا الطبيب الاستثنائي؟" قطع الصوت البارد راحتي كشفرة سكين على راحة يدي، لكن

دفعته على الفور إلى مسافة بعيدة للغاية لدرجة أنها لم تؤثر على هدوئي.

هزّت المرأة رأسها المغطى بغطاء الرأس وأشارت نحو الطاولة الحجرية. تمايل رداؤها الأبيض برفق مع النسيم الخفيف، فنحت جسدها، وامتدت تموجات النسيم عبر نسيج العالم إلى كياني. غريب.

قال الرجل: "أحضروه إلى الداخل".

كان هناك صوت صراع، أنين يائس خافت، وزمجرة كراهية. الضحية. تداعت الأسئلة في ذهني كبقايا أشجار الخطمي المتساقطة في أزهار الربيع. كيف لنا أن نكون مع الضحية؟ هل تمكنت كاترين من الحلول محل يسان؟ أبقيت عينيّ منخفضتين وركزت انتباهي، رافضةً أن تستقر الكلمات في ذهني. فقط عندما ركعت على الحجر البارد بجانب البركة الصغيرة ورأيت الوجه المشوه - وميض كراهية زرقاء جليدية في وجه منهك بالألم والرعب، لم أستطع تحمل النظر إليه - عندها فقط كدتُ أنهار. كان مقيدًا إلى اللوح الحجري، ومعصماه ينزفان بالفعل من صراعه من أجل التحرر. كان فمه يتحرك كما لو كان يريد الكلام، لكن لم تخرج منه كلمة مفهومة، فقط لعاب رغوي. عندما رفعت المرأة ذات الرداء الأبيض كوباً إلى شفتيه، وأجبرته على شرب الجرعة التي من شأنها أن تبقيه هادئاً وساكناً أثناء قيامنا بعملنا، بصقها، مما أدى إلى تلطيخ رداءها الأبيض.

سآتي إليك. وبينما كنت أقول ذلك في سكون انتظاري، انقضت عليّ تلك العيون الزرقاء المجنونة، لكنني أدرت رأسي حتى لا يراها، وأبعدته عن أفكاري.

"ألا تقصد أن نتركه مع هذين الاثنين يا سيد كوريلي؟ مع موت السيد كاستافان بالفعل..." كان الصوت القادم من خلفي مليئًا بالشك.

سنكون قريبين.

"لكن لا يمكنك الوثوق بهم؟"

«لدينا كل الأسباب لنثق بهم. لقد أبرمنا اتفاقًا وسنحرص على الوفاء به. لا داعي للقلق يا زيات. صديقنا الجديد سيحظى برعاية فائقة. إرث اللورد كاستافان باقٍ في هذا الأمير. حالما يُشفى من هذا الجنون المُزمن، سيعود كل شيء إلى نصابه.» دوّت خطواتهم على الرصيف الحجري ثم خفتت.

ساد صمت طويل. أصبح الجو من حولي كثيفاً بالسحر. انتظرت.

وأخيراً حانت اللحظة. قالت المرأة التي ركعت أمامي فوق الجسد المعذب: "حان الوقت يا حارس. تعال معي إن اخترت مجدداً هذا الدرب المحفوف بالمخاطر، والشفاء، والأمل".

شعرتُ بقشعريرة تسري في جسدي مع حديثها... ليس بالكلمات القديمة التي نُقشت في روحي بنارٍ حين كنتُ في السابعة عشرة، بل بصوتها الرقيق، القريب جدًا لدرجة أنني استطعتُ سماع موسيقاه والشعور بملامحه. لم يكن صوت كاترين. ولم تكن تلك الأيدي الشاحبة النحيلة التي امتدت عبر جسد صديقتي أصابع كاترين القصيرة الماهرة.

وخطر ببالي تلك الكلمات: اسلكي الدرب الذي رسمته لكِ، واعلمي أنني سأثبته بثباتٍ لا يتزعزع حتى عودتكِ. وفي هذا العالم البعيد الذي تغامرين فيه، يا حبيبتي الغالية، لن تكوني وحيدة أبدًا.

بينما كنت ألمس يديها ويختفي العالم من حولي، لمحتُ لمحةً خاطفةً من شعرٍ داكنٍ مُخَطَّطٍ بخصلاتٍ ذهبية، وعينين بنفسجيتين عميقتين فاتنتين لدرجة أن الشاعر يعجز عن وصفهما. يساني.

الفصل 34

كانت البوابة مفتوحة، مستطيلاً رمادياً متلألئاً في العدم الذي كنتُ فيه. أمامي كان مصير العالم المحتوم. خلفي، تتأرجح كصورة مرسومة على قطعة من الحرير الشفاف، أطلال حمام قديم متضخمة، وحياة أصبحت فجأة ثمينة للغاية لدرجة أن كل ثانية أتشبث بها كانت بمثابة وخزة مؤلمة.

حلاوة.

كان الطريق ثابتًا تحت قدميّ. طريق يسان. اتضحت لي الكثير في تلك اللحظة التي لمحت فيها عينيها البنفسجيتين. لم تصنع كاترين بوابة ثانية قط. كانت يسان هي من جذبتني إلى نسيجها في دايل إزار، قادرة على أن تأخذني عبر حدود الواقع وأنا غير مستعدة لأنها تعرفني كما أعرف نفسي. أغلقت البوابة الأولى بعد ريس ليظن أنني تُركت وحيدة... ميتة... وأبقت الثانية مفتوحة لفترة كافية لأتمكن من الخروج. لقد غامرت بالابتعاد عن موطنها، إلى خطر لم تواجهه أي ملكة من ملكة إزاريا من قبل، حتى يكون لديّ الوقت لأكون مستعدة. "حلّقي عاليًا يا حبيبتي." لا عجب أنني لم أستطع ربط هذه الكلمات بكاترين أو الشعور برابطة الروح التي كان من المفترض أن تأتي مع مثل هذه الألفة. يسان...

لاحقًا يا حبيبتي، حين يُحسم الأمر. لامست أناملها شفتيّ قبل أن أنطق اسمها بصوت عالٍ وأُنهي السحر الذي نسجناه معًا. لاحقًا. لن أخيب ظنكِ. ليس مع هذا الوعد. ركزتُ أفكاري على غايتي، وخطوتُ نحو العتبة.

كان العالم الذي أمامي على وشك الانهيار. سماءٌ رماديةٌ قاتمةٌ تُخيّم على محيطٍ شاسعٍ رماديّ، والبقايا الوحيدة للحياة هي خيوط الزبد الأبيض حيثُ تتكسّر الأمواج البطيئة على شريطٍ قاحلٍ من الحصى. لم يُحلّق طائرٌ في تلك السماء الكئيبة؛ ولم تكن هناك عظامٌ ولا بقايا أعشابٍ على الشاطئ الكئيب تُشير إلى وجود حياةٍ هناك. ربما كان الحصى آخر ما تبقى من العالم بينما كان ضغط البحر الهائل يُفتّت العالم. هبّت ريحٌ كثيفةٌ رطبةٌ تُحرّك عباءتي وأنا أخطو عبر المدخل.

وقفتُ على الشاطئ الصخري بين صفوف الأمواج المتلاطمة وسلسلة من المنحدرات المنخفضة على بُعد خمسين خطوة من الماء. كان همس الأمواج المُلحّ يكاد لا يُفرّق عن هدير الرياح الخفيف. كان من الصعب جدًا الرؤية، فالضوء الوحيد كان ينبعث من بريق الأمواج المتكسرة. حوّلتُ نظري وانحنيتُ، ثم استدرتُ بسرعة لأمسح المنطقة بحثًا عن أي أثر للشيطان. لم يتحرك شيء سوى الماء. تحركتُ

ببطء على طول الشاطئ الوعر، أُحدّق في أعمق زوايا الظلام الصخري، وأتذوق ملوحة الرياح، وأُصغي باهتمام لأسمع أولى نغمات موسيقى الشياطين. في مكان ما، كان غاي كياليت - سيد الشياطين - يرقد مُنتظرًا.

«أنا الحارس، مُرسَلٌ من قِبَل الآيف، مُعذِّب الشياطين، لأتحداك على هذا الوعاء. هيسادا! ارحل! إنه ليس لك». تلاشت الكلمات في الفراغ الشاسع، واهيةً في صمته. ومع ذلك، كان ينبغي لها أن تُجبر الشيطان على التجسد والإجابة.

قوبل إعلاني بضحكاتٍ خالية من البهجة. "لقد فات الأوان على مثل هذه الخطابات المتكلفة، أليس كذلك؟ هذا هو مكاني بالضبط، ولا يمكن لأي حثالة بشرية أن تُزحزحني من مكاني. وبالتأكيد ليس خادمي، الذي جاء ليؤدي آخر خدمةٍ أحتاجها. هل نسيتَ تذللكَ البائس، حين توسلتَ من أجل حياتكَ وساومتَ على السلطة بروحكَ؟"

كان صوت الشرّ الذي همس في ذلك الصمت المشؤوم، تنهيدة مكتومة التصقت بالروح كرائحة كريهة، وسقطت على الأذن كأنينٍ هامس، وعلقت على اللسان كرماد. ومع ذلك ابتسمتُ حين سمعته. لم يعرف الشيطان من أنا. لم ينكسر ألكسندر.

لم أكن لأجادل الشيطان في الكلام. فمع كل كلمة، كان سيتعرف عليّ أكثر ويضيع ميزتي الضئيلة. بدلاً من ذلك، دققت النظر في الظلام، أبحث عن أي وميض من نار الشيطان، وأصغيت لأي صوت غير صوت الريح أو الموج. لم أرَ قط مثل هذا الفراغ الشاسع. هل هذا كل ما تبقى من ألكسندر؟ لفت انتباهي لطخة باهتة من الضوء نحو اليمين، حتى مع وميض تحذير كاترين في ذهني. لم يكن بوسعي البحث عن ألكسندر. ابتلع الظلام الضوء قبل أن أتمكن من رؤيته.

ضاق شريط الحصى، وسرعان ما لم يبقَ لي مفرٌّ سوى البحر. لم أكن أنوي النزول إلى الماء - ذلك المكان سيئ السمعة الذي يكمن فيه المفاجآت المُرعبة - لذا خلعت عباءتي وقميصي، ووضعتهما تحت صخرة تحسبًا لاحتياجي إليهما لاحقًا، ثم فعّلت التعويذة التي ستُحوّلني. وبينما كان ظهري وكتفاي

بدأت النيران تشتعل في جسدي، فعدتُ أدراجي، وتوقفتُ في ظل صخرة ضخمة للحظاتٍ كافية لأُسيطر على جناحيّ وهما يتجسدان. كانت اللحظة الأخيرة من التحول لحظةً حرجةً للغاية. لكن سرعان ما تمكنتُ من قراءة اتجاه الريح وتوجيهها لترفعني عن الشاطئ الصخري وتأخذني مسافةً قصيرةً فوق الماء لأتمكن من رؤيةٍ أفضل. أين كان الشيطان؟

"تعال أيها الخادم. أين ذهبت؟" همس خصمي من داخل رأسي وخارجه. "أشعر بك وأنت تصطاد. هل هذا ضروري؟ لقد انتهى تظاهرك، كما كنت تعلم، وعليك أن تدفع الثمن. ساعدني في هذا الغزو واركع أمامي، وربما تنجو لتشارك في تغيير العالم."

واجهتُ في حياتي مئة شيطان، ارتبط العديد منهم ارتباطًا وثيقًا بمضيفيهم الأشرار حتى أنهم اتخذوا أسماءهم وشخصياتهم. أما هذا الشيطان... فقد امتص فساد ألف مضيف طوال وجوده. كل خسة يمكن أن يتخيلها إنسان تجسدت في كلماته. لقد اتخذ لنفسه حياة خاصة به - منحرفة، فاسدة، نجسة - تتدفق من فمه في قيء كريه من الكراهية. أخيرًا أدركتُ الحلقة المفقودة من لغز الخليد. تساءلتُ كيف يُمكن لكاستافان أن يُضحي بحياته بهذه السهولة ويسمح للشيطان بالانتقال إلى ألكسندر. لكن الأمر لم يكن خيار كاستافان على الإطلاق. لم يُخضع الخليد الشياطين لخدمته؛ بل كان العكس هو الصحيح. لم يكن الخليد سوى فرصة سانحة لشيطان نما ليحقق غايته الخاصة، وكان مصممًا على أن يتبوأ مكانه في العالم.

انزلقتُ فوق حافة الماء، ناظراً إلى الشاطئ بحثاً عن الشيطان، وهناك أمامي، عبر سكون البحر المتموج عند نهاية الحصى، برز سوادٌ رهيب. أخبرتني الرائحة المنبعثة منه أنه هو ما كنتُ أبحث عنه.

في اليوم الذي زحفتُ فيه خارج نعش بالثار، غارقًا في القذارة والعار والرعب المُطبق، أُجبرتُ على تجريد جثث الإزاريين الذين رقدوا موتى تحت حرارة الصيف طوال الأيام الثلاثة التي دُفنتُ فيها. كنتُ أعتقد أنه لا شيء يُمكنه أن يُزيل تلك الرائحة الكريهة من أنفي. لقد فعل الزمن المُستحيل، ولكن الآن، وأنا أطير نحو الظلام المُبهم، كانت الرائحة الكريهة نفسها تطفو في الهواء.

حلّقتُ مرةً واحدةً لأستنشق الهواء النقي فوق الماء، ثم حوّلتُ السكين الفضي إلى سيف طويل، ثم مددتُ جناحيّ مباشرةً إلى الخلف.

وانقضضتُ نحو الوحش. بدا بحجم قصر ديرزي الصيفي، لكنه ربما لم يكن أكبر من أحد أبراجِه. لم أستطع تقدير مدى ضعفه في الظلام، لكنني بالتأكيد لم أكن لأعتمد على شروق الشمس ليمنحني رؤية أفضل، لذا اعتمدت على عنصر المفاجأة والقوة، فغرستُ السيف في الوحش بكل قوة انقضاضي. انتزعتُ السلاح بسرعة، وصعدتُ مسرعًا، ثم هبطتُ من جانب آخر. كان الوحش مصنوعًا من لحم، لا من درع أو حراشف، جلد خارجي رقيق ومتين يمتد فوق انتفاخات متموجة من نسيج هلامي. عندما سحبتُ السيف، تساقطت كتل كبيرة من تلك

المادة النتنة في يدي، بينما نما الجلد الخارجي فوق الجرح على الفور، مثل دهن يبرد على قدر من الحساء.

ارتجف الوحش عندما سحبت السيف للمرة الأولى، وعندما طعنته ثانيةً، انطلق هدير خافت بالكاد أسمعه، كان مرعبًا لدرجة أن العرق تجمّع على جبيني وبين كتفيّ. كان الهواء الخانق يلفّ الرائحة الكريهة.

طعن. انسحاب. طيران للأعلى. الدوران والطعن مرة أخرى. ومرة أخرى.

دوى هديرٌ هائلٌ من جانبي لحظةَ ضربتي، فحطم إحدى أذنيّ. شعرتُ وكأن سكينًا قد غُرست في رأسي، وسال سائلٌ ساخنٌ على خدي الأيسر.

مرة أخرى. طعنة. انسحاب. هذه المرة، عندما طرتُ للأعلى، امتدّ ذراعٌ كثيفٌ من الظلام خلفي، مزّق سروالي فوق حذائي، وخدش فخذي بخيوطٍ حمضية. لا شكّ أنني آذيته. ضربتُ مجدداً.

«من يأتي إلى هنا؟ سأعرفك!» لم يكن لعجز إحدى أذنيّ أي تأثير. اهتزت الكلمات في عظامي، وبدأ العالم نفسه يتلوى من الألم. انطوى الظلام على نفسه. وتضخمت السماء كالعسل المغلي. وانفجر المحيط الهائج خلفي في دوامات مائية سوداء تتشبث بالغيوم المتنامية. وخلف هذا الصخب، سمعت صرخة مكتومة من عذاب يائس كدتُ أسقط سيفي من السماء.

ألكسندر. هدد عذابه بتمزيق نسيج العالم. جعل هذا الجنون العنيف من المستحيل تقريبًا على أيفي الحفاظ على سحرها. كان عليها أن تستوعب كل شيء في ذهنها. من كل تعبير عن كيان ألكسندر، استخلصت خيطًا نسجته في نسيج جوهر العالم غير المزخرف، مانحةً إياه شكلًا ومضمونًا. مشيت على خيوط إبداعها، وتنفست الهواء الذي شكلته منها. قد يغرقني ماء هذا المحيط؛ وقد تسحقني الحجارة أو تدعمني. وإذا

إذا انقطعت خيوطها بسرعة كبيرة، فسنضيع كلانا... وسيصاب ألكسندر بالجنون.

إلى يميني، لمع ضوء خافت، لكنني لم أعرْه أي اهتمام. كان خيط سميك يلتف حول كاحلي ويسحبني نحو فم مفتوح يغمره لعاب أخضر متوهج. ضربت الذراع المتلوية، وأنا ألعن نفسي على هذا التشتيت.

انسَ أمر يسان. انسَ أمر ألكسندر. ركّز وإلا ستكون ميتاً.

"العبد! إنه عبدي الذي يتسلل إلى هنا مدعياً أنه محارب."

لقد تغيرت نبرة الصوت. ازدراء ساخر.

نعومة تقشعر لها الأبدان. ألفة مؤلمة. رفضتُ الإصغاء إلى الصوت أو دلالته. طفتُ حول الوحش الهائج وهبطتُ على الصخور. وقفتُ وسط بقايا لحم الوحش النتنة، وضربتُها من الأسفل إلى الأعلى. لكن قبل أن تصل إليها نصل سيفي، اختفت.

"هل نلعب لعبةً أيها العبد؟" تسلل الصوت من أذني العاجزة. "النجعلها مطاردةً ممتعة. تعالَ وابحث عني. أرني مهاراتك القتالية." ضحكةٌ من خلفي جعلتني أدور في مكاني. كان رجلٌ يقف على بُعد مئة خطوة، واضعًا يديه على وركيه. لم يكن وجهه سوى ضبابيةٍ في الظلام، لكنني لم أستطع أن أخطئ في تمييز هيئته الطويلة النحيلة. تراجع وهو يركض ويضحك، فاستغللتُ الريح وانطلقتُ خلفه. قطعتُ طول الشاطئ، لكنني لم أجده، فاستغللتُ تيارًا هوائيًا صاعدًا وحلّقتُ فوق المنحدرات.

كان وجه الأرض كما رأيته من قبل، أرض قاحلة متصدعة ومشوّهة. ألواح صخرية ضخمة مائلة بشكل جنوني فوق بعضها البعض. شقوق وفجوات تشوّه الأراضي القاحلة الشاسعة، عميقة لدرجة أنها تتوهج باللون الأحمر في الظلام كما لو كانت الأرض تنزف من جلد عنيف. ارتفعت الحرارة من الأعماق المنصهرة، تضربني وأنا أطير. إلى أين سيذهب؟ لماذا يقودني في هذه المطاردة؟

انقسمت الأرض إلى سلاسل جبلية. استقرت على قمة نتوء صخري ضيق أتاح لي رؤية ما وراء الأراضي القاحلة نحو المنحدرات والبحر، وما أمامي نحو الجبال. كنت بحاجة للتفكير.

هبت ريح باردة من الجبال، تنهال عليّ بالحصى من قمة التل بينما كنت أحاول وضع خطة. قد أستكشف لأيام دون أن أجده إن اختار الاختباء. قد يصمد شيطان من نوع "آيف" ليوم كامل، وشيطان من نوع "يساني" لبضع ساعات إضافية. لكن لم يكن هناك سابقة لشيطان لا يكشف عن نفسه عند مواجهته.

"اسمعني..." كان الهمس يكاد لا يُسمع وسط صوت الريح. تألقت بقعة الضوء الباهتة التي رأيتها سابقًا على بُعد خطوات قليلة أمامي. "...خطر... الحصون... بارنيفور..." حدقتُ في صورة ألكسندر المتذبذبة وهي تتشكل أمامي، وبذلتُ جهدًا كبيرًا لفهم الكلمات بسمعي المُختلّ... حين شعرتُ بحركة هواء خلفي. استدرتُ بسرعة، في اللحظة المناسبة تمامًا لتجنب قطع أحد جناحيّ. لم يُخلّف السيف سوى تمزق طويل في الجناح، لكنه أحدث جرحًا عميقًا ملتهبًا في جانبي الأيسر.

عبّرت الشخصية التي خلفي عن شكوكي. "هل تستطيع الطيران بواحدة فقط من تلك الزوائد المشوهة؟" ألكسندر - صورة مكتملة بدلًا من ذلك البريق الشبح. كان سيفه الملطخ بالدماء مضغوطًا بقوة على سيفِي. "عبدٌ يطمح للمجد. لا يمكنني السماح بذلك." لوّح بسيفه وانقضّ. صدّيت هجومه، وتقاتلنا صعودًا وهبوطًا على ذلك التل، نتحرك بسرعة فائقة لدرجة أن العين البشرية لم تكن لترى سوى وميض.

لم أدع وجهه يخدعني. لم يكن ألكسندر أكثر من ذلك المخلوق الهلامي على الشاطئ. وللأسف، لم يكن أقل منه. كان يمتلك مهارات ألكسندر وردود فعله، بالإضافة إلى سرعة الشيطان وثباته. وكان يعرف تحركاتي. لقد راقبني ألكسندر أتدرب، وانتقد أدائي لمدة أسبوعين. لم أستطع القيام بأي حركة يعجز عن صدها. تقاتلنا لساعة أو أكثر على ذلك الشريط الصخري الضيق. تركتُ جرحًا داميًا على ذراعه، لكنه أجبرني على الركوع. ورغم أنني نجوت، فقد تلقيت جرحًا آخر في فخذي الأيمن وتمزقًا مؤلمًا آخر في جناحي الأيسر. كنت أفكر في القفز من حافة الجرف لألتقط أنفاسي، لكن الشيطان كان عنيدًا، ولم أكن متأكدًا من قدرة الجناح المصاب على الصمود. انكسرت شظية صخرية تحت قدمي، فانزلقت إلى الخلف، وتدلت ساقي اليسرى فوق الحافة. كنتُ أخشى أن أفقد طرفًا أو عيني أو حتى حياتي في لحظة ضعفي تلك. لكن في اللحظة نفسها، تراجع الشيطان ألكسندر ضاحكًا، ومدّ ذراعيه جانبًا داعيًا إياي. "ابحث عني أيها العبد. أنت تعرفني جيدًا... كما أعرفك. أنت لا تفصح عما يدور في ذهنك، ولكن الآن وقد اتحدتُ مع هذا الكائن ذي القوة، أستطيع أن أقرأه بنفسي. لن تستطيع الاختباء مني بعد الآن. أعرف اسمك، وسأستخدمه لأقيّدك بسلاسل أثقل مما كانت عليه من قبل. ستخشاني في النهاية، ولن يكون لذلك نهاية. ولكن ليس الآن. أريد أن أستمتع بهذه المبارزة القصيرة قليلًا. يسعدني أن أراك تسعى وراء هلاكك. أما الآن، فعليك أن...

استخدم كل ما تعرفه عني للبحث عني. قسمك يأمر بذلك." ضحك بصوت عالٍ. "أترى؟ لقد كنتَ دائمًا عبدًا ولن تكون غير ذلك أبدًا." ثم اختفى.

زحفتُ عائدًا إلى قمة الجبل، واستلقيتُ ألهثُ لالتقاط أنفاسي، والصخور الحادة تغرز في وجهي وصدري. كانت الرياح تعوي من الجبال، فتقشعر بدني مع جفاف عرقي. اضطررتُ إلى إجبار نفسي على التنفس رغم الجرح في جنبي، الذي كان يحرقني مع أدنى حركة. كان الجرح في فخذي أقل ألمًا، لكنه كان ينزف بغزارة، فمزقتُ شريطًا من سروالي الممزق لأربطه.

لم أفهم مكيدة الشيطان. كان بإمكانه أن يمسك بي. لكنني لم أجرؤ على البقاء ساكنًا، خشية أن يغير رأيه. لذا استدعيت الريح وحركت جناحي المصاب بحذر. نفس الحساسية التي مكنتني من الشعور بأدنى تغير في الهواء ضمنت عدم وجود ما يُسمى بتمزق "طفيف". لكنني تركت الريح تقوم بمعظم العمل، وتأكدت من أنني لا أبتعد عن الأرض أكثر من شبر ذراع حتى تأكدت من ثباته. كان مساري متذبذبًا، مع ميل مقلق للانحناء إلى اليسار والأسفل لأنني كنت أميل إلى جانبي الأيسر. لكن بعد فترة تعلمت التعويض وتجاهلت الأمر تمامًا. كانت هناك أمور أهم.

أين سيختبئ الشيطان؟ لا جدوى من التساؤل عن السبب. كان عليّ أن أجده. لم يكن بإمكان يسان الصمود إلى الأبد. لن تتحسن إصاباتي. بحثتُ في الوديان جيئةً وذهابًا، مستخدمةً كل ما أملك من فطنة. لمحتُ بريقًا شبحيًا عدة مرات، لكنني تجاهلته. لم أستطع السماح لنفسي باستحضار مثل هذه التصورات عن ألكسندر. كاد ذلك أن يودي بحياتي، ولن أستطيع مساعدته إن متُّ. مع ذلك، ظلّ الشبح مُلحًّا. وبينما كنتُ أدخل واديًا يُشبه كافارنا بشكلٍ مُرعب، سمعتُ الهمس مجددًا: "... خطر... قلاع الحدود... بوابة... تحذير..." كلماتٌ مُصممةٌ لجذب انتباهي. لجعلني عُرضةً للخطر. كنتُ عُرضةً للخطر بما فيه الكفاية.

أين سيختبئ ألكسندر؟ لسعتني قطرات المطر المتجمد، وغطى الصقيع رموشي وأنا أحلق في أعماق الجبال، حيث وجدت جثة كفرنا مدفونة في وادٍ مغطى بالثلوج. سقطت الأخشاب المتفحمة على أحجار الأبراج المتهدمة، وقد غطى الصقيع كل شيء ليمنحها بياضًا غريبًا في ظلام الليل الدامس. استكشفت بعناية أطلال القصر الصيفي، المطابخ حيث كانت المواقد الحديدية تصدأ، والمعارض الأنيقة المنهارة الآن، وكنوزها المتناثرة، والمنسوجات الممزقة والمتعفنة تحت...

غطاءٌ من الثلج القذر. قفزتُ من كومة أنقاض إلى أخرى، حتى وصلتُ إلى قاعة العرش العظيمة حيثُ انهارت حياة ألكسندر. كان الجدار في الطرف الداخلي، حيثُ اختبأتُ خلفَ المشغولات النحاسية، لا يزال قائمًا، لكن السقف المقبب قد انهار، وتناثرت فسيفساءه ذات الألوان الزاهية كحبات ثلج ملونة وسط الدمار. كان عرش الأسد مُحطّمًا تحت عمود ساقط، والوحش نفسه يحدّق إلى الأعلى، عاجزًا تحت كتلة الحجارة. مناسبٌ تمامًا.

"...يجب أن أستمع... خطتهم... مفتوحة لخيلدار... أرجوك استمع..." يأسٌ مُرعبٌ من الشبح الذي كان يتلألأ في العتمة. لكن كل درسٍ في حياتي كان يُلزمني بالبقاء بعيدًا، خاصةً في ذلك المكان حيث كان شبح

أسري يسير مع الأشباح الأخرى. كانت الرؤية واقعيةً لدرجة أنني شعرتُ بأربطةٍ حديديةٍ حول معصميّ وعجزٍ مُنهكٍ في أحشائي.

تجاهلت الأمر. لقد كانت حيلة لتشتيت انتباهي. لإضعافي.

"...أقسم بالآلهة، اسمعوني... خطرٌ تحت الجبال. بارنيفور، كارن هيغيث، جميعهم..."

احتقرت نفسي، فأدرت ظهري للشبح.

صرختُ: "أين أنت؟ اخرج وانتهى هذا الهراء!"

تسلقت فوق الأحجار، والثلج يتطاير على وجهي.

"هل عدت إلى مكانك الصحيح أيها العبد؟" امتدت نار حارقة عبر كتفي، وضربة سوط وحشية أسقطتني على ركبتي.

لكن هذه المرة لن أستسلم. جمعتُ كل قوتي ومزجتها بغضبي، ثم حركتُ جناحي الأيمن بقوة الإعصار. بدا الشيطان ألكسندر مذهولًا وهو يصطدم بالجدار. حوّلتُ السكين الفضي إلى رمح وأطلقته على الجسد المنهار، لكنه اختفى في اللحظة التي سبقت اصطدامه.

صرختُ: "واجهني أيها الجبان! من ذا الذي نسي مكانته؟ لستَ أميرًا، بل كابوسٌ طال به العمر. هيساد! روحه ليست لك. جسده ليس لك. حياته ليست لك. لن أسمح بذلك." انتزعتُ الرمح من التراب واستدعيتُ الريح.

"كلامك فارغ ما لم تجدني." لا ضحك هذه المرة. "إن لم تفعل ذلك قريبًا، فلن تستيقظ حياتك من سحرها أبدًا، وستعيش هنا معي إلى الأبد. ستكون عبوديتك السابقة كما لو..."

"عسلٌ لمرارة سوطي. ابحث عني أيها العبد." ارتجف العالم مرة أخرى من الرعب الصامت لتعذيب ألكسندر.

انطلقتُ صاعدًا من المدينة المدمرة، محاولًا تحديد وجهتي التالية. كان الشيطان محقًا في كل شيء. لم يكن لانتصاري في تلك المناوشة أي قيمة تُذكر. مزّقت الرياح جناحي الأيسر الممزق، وكل محاولة لتعديل مساري كانت تُزيد من تدفق الدم من جرح جنبي. الضربة التي وجهتها مزّقت الجرح بشدة. كان الجرح في فخذي ينبض، وحروق الحمض على فخذي وركبتي قد تقشرت بشدة لدرجة أنني اضطررت إلى قصّ أجزاء سروالي الممزقة حتى لا ترفرف على فخذي وركبتي.

أين سيختبئ ألكسندر؟ أين سيشعر بالأمان؟ في الصحراء. بحار الكثبان الرملية حيث وُلد... حيث كان يُسابق خيوله، والرمال كغيمة

خلفه... حيث كان يرى أعداءه من على بُعد أميال... حيث كانت جماليات الشمس والرمال الصارخة بألف لونٍ دقيق تُغذي روحه. لكنني لم أجد صحراء في العالم المظلم الذي نسجته يسان. لا شمس. أرض قاحلة جرداء، لكن ليس اتساع موطن ألكسندر الهادئ. لساعاتٍ لا تُحصى، تجولتُ في أرجاء المكان، أشعر بقوتي ووقتي الثمين يتسربان مع دمي. وأخيرًا، وقفتُ على قمم الجرف المُطلة على حدود البحر الموحش، حيث عبرتُ البوابة.

آه، أيها الأحمق. انظر ماذا أمامك. لم تكن السماء خالية من الحياة، تمامًا كما لم تكن صحراء ألكسندر كذلك. كان طائر يحلق بين الغيوم المنخفضة، بقعة بيضاء وحيدة في مواجهة الظلام الدامس. ابتسمتُ وانطلقتُ من أعلى الجرف، متجاهلًا الدفء اللزج على ذراعي التي أبقيتها ملتصقة بجانبي أثناء استراحتي، متجاهلًا البلل المنعش الذي يتساقط أسفل أضلاعي. عبر الأمواج المضطربة، تبعتُ الطائر، موقنًا أنني سأجد ما أبحث عنه في قلب الصحراء المائية. همستُ قائلًا: "شكرًا لكِ يا حبيبتي"، ولامست نسمة هواء لطيفة خدي.

كانت قلعة جزيرة، تبرز من الماء الرمادي كقبضة. طفتُ حولها باحثًا عن نقطة ضعف، واعتقدتُ أنني وجدتها على الأسوار، حيث يؤدي باب خشبي صغير إلى أحد الأبراج. هبطتُ على سور حجري وحوّلتُ السكين الفضي إلى فأس.

قلتُ: "اخرج، ليس هناك مكان آخر للاختباء". رفعتُ الفأس. ظهر الشبح أمامي، مادًا يديه كما لو كان يحاول صدّ ضرباتي. لم أُعِرْه اهتمامًا، بل ضربتُ الباب. مرتين. ثلاث مرات. بدأ الخشب يتشقق. غضبي، نفاد صبري، كل شيء مكبوت طوال ستة عشر عامًا كان

تجمّعت قواي لمواجهة ضربات ذلك الفأس. كان بإمكاني تدمير السور الحجري نفسه بغضبي.

لكن الشبح اتخذ شكلاً أكثر صلابة... شكل ألكسندر. لم يتكلم، لكنه لوّح بسيف فتاك، مهدداً إياي بالابتعاد عن الباب.

قلتُ: "إذن، لقد أعلنتَ عن نفسك. أشكرك على عدم إجباري على تفكيك ملاذك. هل نُنهي هذا الأمر؟"

لم يتكلم الشبح ولم يهاجم، بل ثبت في مكانه. لذا استبدلت فأسي بسيف وانطلقت نحوه. لم يكن لدي وقت للمزاح. وابل من المناورات والضربات. عادةً ما تمنحني الأجنحة قوة ومرونة وحركة تفوق ما تعيقه من وزن، لكن ليس في ذلك اليوم. كان الجناح الممزق ضعيفًا ولم يستطع الانطواء بإحكام عندما احتجت إليه. ومع ذلك، لم أسقط، لأن

الشبح لم يهاجم أبدًا. عندما تراجعت، هاجم هو أيضًا. لم أستطع فهمه. ما الذي كان يدافع عنه، وقد استدعاني إلى هناك؟

"ألا تجدني؟" جاء الصوت، ليس من ألكسندر الذي كنت أقاتله، بل من شبح ثانٍ ظهر خلفي مباشرةً. على أمل ألا أضطر لمقاتلة الاثنين معًا، لم أمنحه فرصةً للاستفزاز. استدرت، وتفاديت ضربةً قوية، وخدشت كتفه بضربةٍ صاعدة. زمجر وانقضّ عليّ. أفضلية. عيب. تقدم. تراجع. معركة لا تنتهي... لا هوادة فيها... بلا تفكير... لا فرق بين النصل والذراع التي تحمله. تحولت إلى إعصار، عاصفة من الفولاذ الحاد والغضب... وفي كل مرة أحقق فيها تقدمًا، يختفي ويغير موقعه. كنت أعرف كيف أدير مثل هذه المعركة. في كل مرة يبدأ من جديد، كنت أراقب وأتعلم كيف سيكون ظهوره مختلفًا، وأعدل أسلوبي. في النهاية سننهيها. في النهاية سيرتكب خطأً. لن أتردد. لن أتردد.

عبر الأسوار، صاعدًا إلى الشرفات، متأرجحًا على حافة الهاوية السحيقة المؤدية إلى الصخور والبحر، وجناحي الأيسر ضعيفٌ يجرّني، ورئتاي تحترقان، ونصف جسدي مغطى بدماءٍ خشيت أن يكون معظمها دمي. ضحك الشيطان وهبط عائدًا إلى السور. قفزت من شرفتي إلى أخرى أقرب، مستعدًا للانقضاض عليه... حين اختفى.

في نوبة غضبٍ عارمةٍ منهكة، بدّلتُ السيف بالفأس مجدداً وهاجمتُ الباب. كان على وشك الخلع. "اخرج. اخرج و

قاتل. لا مزيد من اللعب. أنهِ الأمر.

"اخترق هذه الجدران، وستخوض المعركة التي ترغب بها." تردد الصوت في رأسي.

لوّحتُ بسيفي مجدداً، لكنّ الشبح الصامت تقدّم وأصرّ على منعي. لماذا كان هناك اثنان؟ كيف يُعقل هذا؟ ربما لم يكن هذا موجوداً أصلاً. تدفّق الدم بغزارة من جنبي وساقي. بدأت أشعر بالدوار، أرى كل شيء مرتين أو ثلاث. لم أعد أثق ببصري. تعالت الضحكات والأصوات من كلّ جانب. "...ساعدني... أيها العبد... اخرج وحذّرهم... أيها الحثالة الحقيرة المتذلّلة..." حركتُ رأسي بسرعة من جانب إلى آخر، محاولاً استخدام أذني الوحيدة السليمة لأُقدّر أين قد يظهر الشيطان تالياً.

كانت اختبارات غالادون وتحذيرات كاترين تتردد في دقات قلبي المنهكة. "حواسك هي خط دفاعك الأخير. اعرف متى تخذلك. إذا خسرت، انسحب. الموت لمجرد إثبات عجزك عن الفوز لا يُجدي نفعًا. الشرف والكبرياء والموت المتهور ترف لا يستطيع الحارس تحمله." كانت ركبتاي كالقش. ارتجفت ذراعي التي تحمل السيف من

شدة الإرهاق، بالكاد أستطيع رفع طرف النصل عن الأرض. لم أستطع أخذ نفس عميق دون خطر الإغماء من شدة الحرارة في جنبي.

لن ينجح الأمر. حتى لو تمكنت من فتح الباب والعثور على الشيطان، فلن يتبقى لديّ ما أقاتل به. تراجعتُ للخلف، منحنياً من شدة الألم في جنبي، ألهث لالتقاط أنفاسي، وأتمنى أن أتمكن من الصمود لفترة كافية لأعود متعرجاً إلى البوابة. يوم آخر. إن استطعت النجاة... إن استطاع ألكسندر الصمود... سأحاول مجدداً.

ظلّ الشبح الصامت متراجعاً، يحمي الباب، وجهه شاحب ومتصلب، يشبه إلى حد كبير الوجه المنقوش على طاولة حجرية بعيدة. لا يلين.

قلتُ، والهزيمة تملأ لساني: "سأحرره". أومأ الشبح برأسه ومدّ يده إلى سيفي، واضعًا طرفه في منتصف صدره. حدّقتُ به في ذهول. "اخترق هذه الجدران... هذه هي الخدمة التي أطلبها منك... ساعدني في هذا الغزو..." كصوت بوقٍ مدوٍّ، دوّت أصداء سخرية الشيطان في رأسي المشوّش. حدّقتُ في سيفي الملطخ بالدماء وفي صورة الأمير الواقف أمامي. ألكسندر. ليس سخريةً، ولا مزيجًا وحشيًا من شيطانٍ متغيّر الشكل، بل الصورة الحقيقية التي تحمل حاجته ويأسه، والتي ما زالت تُقاتل لتُوصل لي رسالته، رغم أن الشيطان قد عذّبه حتى أسكته.

وهذا المكان؟ يا فالديس الرحيم، ماذا كنت أفعل؟ لقد وثق بي لأفهم. لقد أرسل كيريل الرسالة لأعلم أنه سيكون بخير.

معي. جاهز. لكنني لم أستمع إليه. بل قادتُ الشيطان مباشرةً إلى مخبئه، وقمتُ بنصف العمل لتدميره. "يا سيدي، أنا آسف جدًا. سامحني."

والآن فات الأوان. كان ألكسندر يناديني لأفي بوعدي بقتله بدلًا من تركه يتحول إلى وحش، ولم أستطع حتى فعل ذلك. انزلق سيفي من يدي التي لم تعد قادرة على الإمساك به، وسقط على الحجر. حاولتُ التحكم بالريح، لكن موجة من الدوار غمرتني، فسقطتُ على ركبتي. تسللت برودة الموت إلى جسدي وروحي، بينما بدأت موسيقى شيطانية تلتف حول أطرافي، وتتسلل إلى كياني، فراغٌ باردٌ مريض، وعدٌ بشقاء لا ينتهي ويأس أبدي. وبينما كانت حياتي تتلاشى، استدعيتُ تعاويذ لكبح جماح الموسيقى الشيطانية. تمتمتُ بكلمات حماية وضغطتُ ذراعي على جانبي لأمنع الدم من النزف.

لكنني لم أستطع فعل ذلك. لم أكن كافياً.

وقف الشبح يراقب... ينتظر... يده ممدودة كما لو أنني ما زلت أملك شيئًا لأقدمه له.

لست وحدك. جاء الهمس من داخلي وحولي، مصاحباً خافتاً لضجيج الشيطان.

أردتُ أن أضحك، لكنّ ضحكتي خرجت أنّة بشعة. بالطبع كنتُ وحيدًا. لم أكن أعرف سبيلًا آخر. لو كنتُ محارب الروحين، لربما كان لديّ روح أخرى أهديها له. هززتُ رأسي قائلًا: "أنا آسف".

لكنه لم يسحب يده. لقد انتشل كلٌّ منا الآخر من غياهب الألم واليأس... في كافارنا، في أفينخار، في وحل فناء مطبخه، في برج القصر الصيفي. ربما عاد الأمر من جديد. ربما كان لديه ما يودُّ أن يمنحني إياه. لقد أتى ألكسندر إلى هذا المكان لأنني أخبرته أنه إذا جمعنا قوتي وقوته، فلن يقف أحد في وجهنا. لكنني لم أستمع إلى نفسي. حاولت أن أفعل كما كنت أفعل دائمًا... أخوض المعركة وحدي. ماذا لو كان محارب الروحين هو ذلك بالضبط؟ روحان... معًا.

وبآخر ما تبقى لدي من إرادة، مددت يدي.

امتدت يد قوية ولطيفة من تحت مرفقي، ورفعتني، وقادتني عبر الباب إلى داخل الحصن.

لا معنى يُذكر للزمن في النفس البشرية. فنحن كما كنا منذ ولادتنا، وكما سنكون حتى الموت وما بعده، والمشهد المتغير ليس إلا وجهًا لروح ثابتة. لم أمكث طويلًا في ذلك المكان النوراني الذي كان ملاذ ألكسندر، ذلك الجزء من ذاته الذي كان يملكه

تمكنتُ من الحفاظ على سلامتي. اختفى الشبح حالما دخلتُ. لم يتبادل أحدٌ كلمة، ولم أرَ أي أثرٍ آخر لجثة ألكسندر. كانت لحظاتٌ قليلة من الراحة والسكينة وحدي في النور. كان هناك ينبوعٌ من الماء البارد العذب، فابتلعتُه وأنا أُلاحظ بسخريةٍ أنني قد أرى الماء يتدفق من كل الثقوب في جسدي. قد يظنّ الناظر أنني جزءٌ من الينبوع. غسلتُ وجهي ومسحتُ الدم عن جنبي وساقي. اعتقدتُ أن ألكسندر هو من أضحكني وأنا أُضمّد جروحي بقطع ملابسي الممزقة. تخيّلتُه يقول: "ألا تستطيعين تغطية نفسك؟ أُعطيكِ ملابس، وماذا تفعلين سوى أن تُضيّعيها؟ ظننتُ أن الإزاريين شعبٌ مُحتشم."

كانت عاصفة غضب الشيطان تنهال على الأسوار بينما يتلاشى ضعفي. قلتُ وأنا أنهض من جديد، وقد استعدتُ نشاطي وروحي، واثقًا من أن الأمير سيسمعني: "لن يتمكن من اختراقها. سنُخرجه من هنا معًا". وبالفعل، عندما صعدتُ إلى الأسوار والتقطتُ سيفي، كان ألكسندر معي، فقد أشرق جسدي وجناحي ببريق فضي، مُنيرًا حطام روحه المظلمة.

ثمّ انقضّ عليّ سيد الشياطين، متغيّرًا هيئته بسرعةٍ فائقةٍ كحركة رمال الصحراء مع الريح. كانت قوّته هائلة، لكنّها لم تكن تُضاهي قوّتي أنا وألكسندر مجتمعين. رجلٌ بأربعة عيون وستّة أذرع. حاصرناه بصاعقة برق. تنينٌ بلسانٍ ناريّ. ظنناه سيولًا من المطر، وغرزنا رمحًا في حلقه. شنجار هائج. ضحكتُ، ضحكنا، وقطعنا رأسه بضربةٍ واحدة. وحشٌ من حجرٍ حيّ. صورٌ لألكسندر، ويسان، وريس، وديمتري، وأبي. لكنّها جميعًا كانت ناقصة. الآن وقد أشرق النور، بدت العيوب واضحة. لم يكن الشيطان يعرفها أكثر ممّا يعرفني، أكثر ممّا يعرف المحارب الذي أصبحنا عليه. لم يكشف ألكسندر عن اسمي.

في النهاية، طعنتُ قلب أفعى ثلاثية الرؤوس بالسكين الفضية، بينما كنتُ أخنق عنقها السمين بساقي وأحجب أنيابها الستة بجناحي المصاب. شعرتُ بتوقف نبض القلب تحت قبضتي، لكن الجسد لم يتحول إلى وحش جديد أكثر شراسة كما كان يحدث في كل مرة حتى الآن. قبضت يدي اليسرى على الشيء البيضاوي البارد في الجراب المعلق بحزام سيفي. مع كل نفس من الميليدا المتبقية لدي، ركزتُ نظري وميزتُ شكل...

شيطانٌ كان يزحف من جسد الأفعى. "ديليراي إنغاور. هيساد!" انظر إلى العدم وانصرف. كادت صرخة الشيطان المروعة، وهو ينظر إلى نفسه في مرآة لوتين، أن تُدمر أذني السليمة. سكن الشكل الزاحف، وقد شُلّت حركته لرؤية صورته. قلتُ بصوتٍ أجشّ بعد ساعات القتال الطويلة: "حان الوقت لأُقدّم لك خيارك. لقد أبرمتَ صفقةً مع الآيف على جميع السفن المعروفة باسم خليد، بناءً على هذه المعركة. صفقتك الآن لاغية. هل تستسلم وتأمر رفاقك بالاستسلام؟"

همس صوتٌ شيطانيٌّ مُزعجٌ في رأسي: "ستدفع ثمن هذا أيها العبد. لا تظن أن معركتنا قد انتهت، فما زالت هناك معركة أخرى قادمة". لكن كلماته كانت جوفاء. وبكثير من التلوّي والاحتجاج، صدر الأمر.

عندما تأكدتُ من إتمام الأمر، تابعتُ: "أما أنتَ يا غاي كيالت، فلا خيار أمامك. لم تعد روحًا عنصرية، عاصفةً تُعيد مياهها إلى البحر حين تجف. لقد اتخذتَ هيئة ضحاياك البشرية، وانتهكتَ قوانين البشرية. لذلك، باسم ملكة إزاريا وإمبراطور ديرزي، أُعلن نهاية وجودك." وبسكيني الفضي، قتلتُه.

همستُ وأنا أركع على جثة الأفعى: "لقد تمّ الأمر يا أميري". ومع بزوغ الفجر من الأفق البعيد، استدعيتُ الريح لتحملني عائدًا إلى البوابة وإيساني.

الفصل 35

أدركتُ أن شيئًا ما ليس على ما يرام حين سمعتُ النحل يُشكّل كلماتٍ من طنينه المتواصل. عرفتُ أنه نحل، لأنني رأيتُ خلف جفوني نمطًا متلألئًا من الضوء والظل، والدفء اللطيف على وجهي لم يكن إلا شمس الصباح. مكانٌ مناسبٌ تمامًا للنحل. داعبتْني نسمةٌ من الهواء، ورائحتها الخضراء الرطبة تُنبئ بآخر نسمات الصباح الباردة قبل يومٍ حار. عرفتُ أنه يجب عليّ التحرك قبل أن أتعرض للدغ، لكن الدفء أبقاني في مكاني كما لو أن أشعة الشمس تحمل ثقل الرصاص. قررتُ المخاطرة بالنحل لمجرد الاستمتاع بالبقاء حيث أنا. وكان كذلك.

من المثير للاهتمام حقًا سماع خطابهم. "... أن يرحلوا... عنيدين..."

«...أسابيع، إن حدث ذلك أصلاً... لا أدري...» كان عليّ أن أصغي بانتباه أكبر. صديقي هوفيد سيرغب بمعرفة المزيد عن النحل الذي يتكلم. لكن يبدو أن أحدهم حشو أذني اليسرى بالحرير، إذ لم يُجدِ ذلك نفعاً على الإطلاق، ولأتمكن من استخدام الأخرى للاستماع بانتباه أكبر، كان عليّ أن أتقلب. ترددت في تجربة ذلك، لأن جسدي أرسل إشارة تحذيرية من أسفل قفصي الصدري الأيسر مباشرةً بأنني لن أحب الحركة. لذا تمتمتُ قائلًا: «تكلموا»، على أمل أن يسمعني النحل.

توقفت الكلمات على الفور، وشعرت بالأسف لإخافة المخلوقات وتفويت فرصة معرفة ما قالته عندما ظنت أنه لا أحد يستمع.

"سيون؟" صوت امرأة، بعيد وقلق للغاية. كان ذلك يستحق أن أفتح عينيّ من أجله.

كان ضوء الشمس ساطعًا للغاية، ولم تكن أنماط الظلال ناتجة عن النحل، بل عن أوراق شجرة الدردار المتراقصة خارج نافذة عالية بجانبي. في مكان ما بيني وبين النافذة المفتوحة، كان هناك وجه جميل، ذو بشرة ناعمة بلون الذهب الأحمر. كانت المرأة ذات شعر أسود طويل، ولم أستطع نطق اسمها، لكن رؤيتها أثارت في نفسي شعورًا غريبًا.

انتابني قلق هائل، حتى أنني ظننت أن قلبي قد ينتزع نفسه من صدري.

وضعت المرأة ذات الشعر الداكن إصبعها على شفتي. "إنها بخير. لقد عادت إلى دايل عزر حفاظاً على سلامتها وسلامتنا."

هدأت مخاوفي، فأغمضت عينيّ مجدداً وتخيّلت عيوناً بنفسجية وشعراً ذهبياً بنياً تفوح منه رائحة العشب المبلل بالمطر، وانغمست في الصورة التي لم تفارقني طوال السنوات التي رفضت فيها النطق باسمها. يسان. وبالطبع، تبع ذكر اسمها تدفقت موجة من الذكريات اليقظة... ذكريات المعركة... والشيطان...

قلتُ: "لقد عدت"، وذلك بعد أن انحسر الفيضان قليلاً وفتحت عيني على الحاضر.

"فعلتِ. وكنتِ في حالة فوضى عارمة." وبالطبع سمعت كاترين السؤال الحقيقي، إذ تنحّت جانبًا لتتيح لي رؤية الغرفة خلفها. غرفة واسعة، متجددة الهواء، ومريحة. أسقف عالية. جدار كامل من النوافذ، مثل الجدار المجاور للسرير الفاخر الذي كنتُ مستلقية عليه. من كرسي عميق قريب، برز زوج من الأحذية الجلدية التي تصل إلى الركبة. صاحبتها، التي كان رأسها مستندًا على ذراع طويلة، والتي ظننتُ شخيرها كصوت نحل، كانت ترتدي ضفيرة حمراء طويلة. عندما لمحتُ سيفًا يتدلى بجانب ساقيها الطويلتين، ابتسمت.

قالت كاترين وهي ترفع كوب الماء إلى شفتي: "لقد كان معك في كل لحظة ممكنة. لو كان هناك من يستطيع أن يعيد إنساناً من الموت، لكنت أؤمن بقدرته على ذلك".

قلت بصوت أجش: "لا تشك في ذلك أبداً. لقد فعل ذلك بالضبط."

"هل من المستحيل على إزاري أن يترك رجلاً ينام؟" تحرك الجسد الجالس على الكرسي. "بعضنا لديه ما يفعله غير الاستلقاء في الفراش لأسبوع كامل والتهديد بالموت باستمرار، وبالتالي إخافة اثنتين من أجمل النساء اللاتي قابلتهن منذ أن عرفت ما أفعله بأعضائي غير التبول."

"أسبوع..." نظرت إلى كاترين، فأومأت برأسها، ورفعت حاجبيها بروح دعابة متعاطفة.

قالت: "لقد فقدت الكثير من الدم. هل لديك أي فكرة عن المدة التي قضيتها في الداخل؟"

"طويل. يوم كامل على ما أعتقد." على الرغم من أنني كنت أتحدث مع كاترين، إلا أن عيني لم تبتعد عن الوجه النحيل المبتسم الذي ظهر من فوق كتفها.

"ثلاثة."

ثلاثة أيام خلف البوابة. كان الأمر لا يُصدق. لا عجب أنني لم أستطع الحركة. ويسان... كل المخاوف التي خفت حدتها عادت للظهور من جديد. "الملكة..."

"كانت الملكة متعبة للغاية، لكنها لم تُصب بأي أذى. الآن وقد أصبحت أثق بكِ للحظة بأنكِ لن تموتي" - انحنت كاترين وقبلتني على جبيني، ثم أومأت برأسها إلى ألكسندر - "لديّ أشياء لأفعلها".

ثلاثة أيام. حاولتُ جاهدًا النهوض، وهي مناورة بالغة الصعوبة، إذ كنتُ ملفوفًا بضماداتٍ تُحيط بخصري وكتفي ومعظم ساقي. كل حركةٍ كانت تُطلق وابلًا من الألعاب النارية داخل أذني اليسرى، وألمًا في جنبي كأن أحد تجليات سيد الشياطين الوحشية قد ترك مخلبه هناك.

وضع ألكسندر ذراعه حول كتفي، ودون أن أطلب منه ذلك، ساعدني على النهوض من السرير، وكأنه يعلم أنني لا أستطيع التفكير بوضوح وأنا غارقة في الوسائد. ما إن أجلسني على كرسي، حتى وقف بجانب الموقد، وأسند مرفقه على رف المدفأة. عندما اختفت ابتسامته، كانت آثار الألم والرعب واضحة على وجهه.

ثلاثة أيام. قلت: "أنا آسف. أنا آسف لأنني جعلت الأمر يطول كل هذا الوقت."

هزّ رأسه. "لستِ مدينةً لي بأي اعتذار، بل على العكس تمامًا." مدّ يديه نحوي، محدقًا بهما في دهشة. "هاتان يديّ عادت إليّ. يا لها من نعمة..." ثمّ حوّل نظره إليّ. "لا بدّ لي أنكِ تُدركين النعمة التي أنعمتِ بها عليّ."

حاولتُ الإجابة، لكنه لوّح بيديه متجاهلاً كلامي وتابع: "يُطلق عليّ لقب كاهن آثوس، ومع ذلك، قبل سبعة أيام، لم أكن أستطيع أن أخبر أحدًا عن لحظة واحدة في حياتي تغيّرت بفعل إله. لكن في ذلك اليوم، رأيتُ يد إله... أنتِ، بجناحيكِ المفرودين، وسيفكِ في يدكِ، تُنيرين الظلام في داخلي كالقمر والشمس معًا. آثوس، درويا، فيردون أو فالديس خاصتكِ - أيًا كان الاسم، ذكرًا كان أم أنثى - أرسلكِ أحدهم لإنقاذي. لم أفهم قط حقيقة الخير والشر، النور والظلام، الأشكال التي يتخذونها في العالم، أعماق الرعب... أو المجد الكامن في الكائنات التي تمشي وتتنفس مثلي. يا بنات الليل، سيون، لماذا لم أكن أعرف؟ لماذا لا يعرف أيٌّ منا؟"

كان الأمر أشبه بسؤال أطفال إزاريا عندما أدركوا أخيرًا مدى اختلاف حياتهم عن حياة أي شخص آخر في العالم. أعطيت الأمير الجواب

الذي أُعطي لي: "لأنه لا بد من وجود من يقوم بالحياة - الأكل والشرب، والزراعة والولادة،

الرقص والجدال والتسامح، كل تلك الأمور التي تُعدّ جوهر الحياة. إنها تجعل العالم قويًا وآمنًا ومبهجًا بما يكفي ليكون حصنًا منيعًا ضد الظلام. يكفي العالم ما فيه من أهوال تتغذى عليها الشياطين دون إضافة المزيد. وإن تذكرت... كان النور لك.

تسللت ابتسامة خفيفة عبر مزاجه الكئيب. "لقد أحسنا الأداء، أليس كذلك؟"

رفعتُ كوب الماء الذي تركته لي كاترين. "جيد جداً."

سكب النبيذ ورفع نخبًا مماثلًا لنخبي، ولكن ما إن التقت أعيننا فوق أكوابنا، حتى اختفت الابتسامات. لقد كنا روحًا واحدة خلال تلك الساعات العصيبة، حميمية عميقة لدرجة أن أروع الكلمات التي صاغها شاعر أو عالم لوصف ذلك الحدث بدت مجرد ثرثرة تافهة أمامها. لقد سمعت صرخات ألمه وجنونه الشديدين، وارتويت من معين فرحه. لقد شهد أهوال وحدتي وهزيمتي، وشاركني نشوة تحولي. انصرفت أعيننا سريعًا. كنا نعلم. لم يكن هناك ما يُقال أكثر من ذلك.

استقر الأمير على السجادة السميكة المنسوجة، واتكأ على كرسي، وأطلق تنهيدة، محاولًا البدء في استعراض أكثر اعتيادية للأحداث. "يومًا ما ستشرح لي بالتفصيل ما جرى في الأيام الماضية. أتذكر ذهابي إلى موقع المعبد، وسيريّ على الطريق، ورؤية كوريلي وكاستافان ينتظرانني. سألاني إن كنت مستعدًا للشفاء من علتي. قلت لهما نعم... ومنذ ذلك الحين، رأيت أشياءً، وفكرت بأشياء، وشعرت بأشياء... لكنني لم أكن متأكدًا أبدًا مما كان يحدث بالفعل، وما كان مجرد... خيال أو أحلام أو رؤى. لقد أحدثت هذه الأشياء فوضى عارمة في عقلي، فلم أعد أستطيع التمييز بين الواقع والخيال." كانت هناك رجفة خفيفة من الرعب الذي تذكره في نهاية كلماته.

قلتُ: "يوماً ما، إن شئت. دع بعض الوقت يمر، وسيُحلّ الأمر على الأرجح من تلقاء نفسه. الآن، عليك أن تخبرني كيف حالك وماذا حدث منذ ذلك الحين. أين الخليد؟ وريس... لم أعرف قط ما حلّ به."

ضحك ألكسندر، متجاهلاً آلامه بسلاحه الأكثر فعالية. "افترضتُ أنك سمعت كل ما قلناه أثناء نومك."

"أستطيع فعل عدد من الأشياء التي قد تفاجئك، لكنني لا أستطيع قراءة الأفكار أو الرؤية من خلال الجدران أو الجفون، سواء كنت عاقلاً

أم لا. وحاسة سمعي ضعيفة للغاية في الوقت الحالي، تماماً كسمع جذع شجرة."

"صديقك هوفيد - وهو رجل شرس للغاية، كما اكتشفت - تولى أمر ريس. قال إنه وضع شيئًا في إبريق الماء الخاص به، مما أسقط الشرير أرضًا قبل أن يبدأوا. رتبت الملكة كل شيء وأحضرتك إليّ بدلًا منه... كما تقول السيدة كاترين أنهم خططوا لذلك منذ البداية. هل كنت متفاجئًا مثلي؟"

أومأت برأسي. "ليس لديك أدنى فكرة."

همهم. انتظرني لأقول المزيد، لكن لم يكن هناك ما يُقال. ليس قبل أن تتاح لي فرصة التحدث إلى يسان. عندما رأى ألكسندر أنني لن أسهب في الحديث، تابع حديثه. استغرق الأمر وقتًا طويلاً لإنهاء هذه المهمة، حتى استعاد ذلك الوغد الخائن وعيه واختفى. لا أحد يعلم أين ذهب، لكن أحد رجال كيريل أفاد أنه شوهد يمتطي جواده جنوبًا مع كوريلي، الذي تمكن هو الآخر من الإفلات من مداهمتنا. لم أعلم شيئًا إلا عندما استيقظت في ذلك الخراب، ووجدتك ملقىً على الأرض ممزقًا كخنزير مشوي، وملكتك منهارة بجانبك. كانت السيدة كاترين تُعنى بكما، بينما كان عشيقها ذو العين الواحدة يسألني إن كنت مجنونًا أم لا، ويُقرر ما إذا كان يجرؤ على فك وثاقي. كنت أعاني من صداع رهيب لم يسبق له مثيل، وكان يُحاول إسكاتي. لولا شعوري وكأن أحشائي قد مُسحت للتو، لكنت خنقته. لكنه في النهاية أوصل إليّ أن هناك خليدًا في الجوار، وأنه إذا كنت قد انتصرت في معركتك، وهو ما كان يأمله بصدق، فسوف يغضبون ويثورون غضبًا شديدًا. قلتُ إنني سأتولى الأمر.

"وهل فعلت ذلك؟"

«فعلتُ. أمرتهم بحراسة موقع المعبد وإلا سأنتزع قلوبهم من أجسادهم». عبس. «كنتُ أعرف الكلمات المناسبة لهم. لقد استخدمتُ مثل هذه التهديدات مرارًا وتكرارًا على مر السنين. كانوا خائفين ومترددين، ولم يدركوا أنني لم أعد كما كنتُ. لذا، أحضرنا أنا وهوفيد وكاترين أنتما الاثنين إلى هنا - منزل كيريل - ثم ذهبتُ ووجدتُ ابن عمي في المكان الذي أخبرتُه به. قال إنك أخبرته أنه إذا لم يسمع شيئًا خلال يوم، فعليه المغادرة، لكنه، كونه ديرزي عنيدًا، انتظر وراقب. ثم انطلقنا لاستئصال الخليد من وكرهم...»

أخبرني بما تعلمه من سيد الشياطين، المعلومات التي سعى جاهداً لنقلها إليّ، على أمل أن أتمكن من استخدامها حتى لو لم يستطع هو ذلك. لقد تحصن الشياطين الخالديون في عشرين مدينة حول حدود الإمبراطورية، وفي كل واحدة منها أنشأوا

بوابة سحرية إلى خيليدار. عبر هذه البوابات، كان بإمكانهم ضخّ القوات حالما يُعطي كاستافان - أو ألكسندر - الإشارة. كانت البوابات لا تزال تُشكّل خطرًا، إذ كان الخيليديون عازمين على الاستيلاء على الإمبراطورية، وكان على الحاميات التسع عشرة الأخرى أن تتعافى من صدمة فقدان حلفائها من الشياطين. لكن ألكسندر كان قد تعلّم أيضًا ما يلزم لإغلاق البوابات - تعويذة بسيطة تمكّن هوفيد من تنفيذها بعد أن هزم الدرزيون الخيليديين من الحصن الحدودي. لم يكن الخيليديون سحرة ذوي موهبة استثنائية.

"...والآن عليّ أن أبلغ والد ليديا... ووالدي... وإلا سيواصل الخليد إرسال قواته عبر البوابات الأخرى. يقول هوفيد إن سحرة ديرزي قادرون على تنفيذ هذه التعاويذ الختامية إذا تم تدريبهم." فقد الأمير حيويته وابتسم لي ابتسامة باهتة. "إذن أنا في طريقي لأضع رأسي في فم الأسد العجوز. أنا سعيد لأنك اخترت أن تستيقظ اليوم. كيريل جاهز للانطلاق—"

"ابن عمك؟" كان رأسي لا يزال مشوشاً، لأنني لم أستطع أن أرى إلى أين كان يقودني.

"إنه يأخذني إلى والدي. هناك استدعاء إمبراطوري لي، وأوامر باعتقال أي شخص يمنعني من الاستجابة له - وهذا يعني أي شخص يساعدني. لذا، ولضمان سلامة كيريل... وللتأكد من الاستماع إليه حتى لو لم يتم الاستماع إليّ... طلبت منه أن يرافقني إلى زاغاد تحت الحراسة."

"لكن إذا كان والدك لا يزال يعتقد أنك مجنون..."

«سيحبسني لبقية حياتي، ويتزوج امرأة شابة جديدة، ويضمن له وريثًا آخر. ستكون والدتي غاضبة، ألا تظن ذلك؟ وإذا اقتنع بأنني لست مجنونًا، ولكنه لا يزال يعتقد أنني قتلت ديمتري، فسيقطع رأسي ويفعل الشيء نفسه. لذا يجب أن أقنعه بأنني لست مجنونًا وأنني لم أقتل ديمتري». لم يبدُ واثقًا. «سأُبقي الإزاريين بعيدًا عن الأمر. لديّ عدد من الشهود بين رجال كيريل حول ما وُجد في القلعة هنا. والدي يعلم أن الخليديين قادرون على ممارسة سحر يتجاوز ما نمارسه، لذا ربما سيعتقد أنهم قادرون على السيطرة عليّ بطريقة ما. أما بالنسبة لديمتري... فسأضطر فقط إلى إخباره بما كنت أظن أنني أفعله بحق الآلهة». هزّ رأسه. «هل كان هناك رجل غبي مثلي؟»

قلتُ: "أستطيع أن أذكر عدة أمثلة"، ثم شرعتُ في توضيح وجهة نظري. "هل توجد بعض الملابس هنا؟" كنتُ أرتدي قميصاً داخلياً رقيقاً فقط.

عبس ألكسندر. "بماذا تفكر؟"

"أفكر أنني لم أرَ زهاغاد من قبل، وسيكون من الأفضل زيارتها قبل أن يقترب فصل الصيف كثيراً. ولست في حالة تسمح لي بمواجهة قطاع الطرق على طول الطريق، لذا من الأفضل أن أذهب مع أكثر وسائل الحماية أماناً التي يمكنني إيجادها."

"مستحيل. أمنعك منعًا باتًا." كان واقفًا، فظننتُ أنه سيحملني ويلقي بي على السرير. "هل نسيت؟" ضغط بأصابعه على ذراعي اليسرى وسحب كتفي للأمام قليلًا. "ماذا ستقول عندما يرى أحدهم هذه العلامة ويعيدك إلى القيود؟ لا أستطيع حمايتك. ليس قبل أن أنتهي من أمري... وأنت تعلم مثلي تمامًا كم هو مستبعد أن ينتهي الأمر على خير. وكيريل لا يملك نفوذًا كافيًا لمساعدتك. إنه يخاطر بكل شيء ليقبض عليّ." ترك ذراعي واتجه نحو الباب. "لقد فعلت ما يكفي. أنت حر. اذهب إلى بيتك ومارس الحب مع زوجتك."

لكنني لم أفعل ما يكفي، ليس قبل أن تُكشف مؤامرة الشيطان بالكامل. "إذا كنتُ رجلاً حراً يا سيدي، فلن تستطيع منعي من الرحيل. وإن كنت قد نسيت، فإن بيتي لا يزال تحت سيطرة الديرزي. وليس لي زوجة... ما دام ريس على قيد الحياة."

"إذن، اذهب واطارد ذلك الوغد واقطع حلقه. دعني أحلّ مشكلتي بنفسي. لقد حان الوقت لأتعلم كيف أفعل ذلك." ثم انصرف دون أن يودعني.

لكن بعد ساعتين، عندما خرج ألكسندر من بوابات بارنيفور برفقة ابن عمه واثني عشر محاربًا من الدرزي، لحقت به، مختبئًا في عربة بجانب أكوام من الأسلحة المصادرة وغيرها من الأدلة على مؤامرة الخليديين التي جمعها كيريل في غارته على القلعة الحدودية. لم يكن ألكسندر يعلم بوجودي حتى ابتعدنا كثيرًا عن الطريق بحيث لا يمكننا إعادتي. كان كيريل، الذي لم يكن قلقًا على سلامتي بقدر قلقه على سلامة ألكسندر، مستعدًا للمخاطرة بغضب ابن عمه ليطلب مساعدتي.

كان إقناع كاترين أصعب قليلاً. قالت لي عندما وجدتني أُكافح لارتداء حذائي: "نحن بحاجة إليكِ في دايل إزار يا سيون. كل هذه الشياطين التي طردتِها للتو... ما رأيكِ بما سيحدث؟ عامٌ كاملٌ حتى تتجدد، وسنشهد هجومًا شيطانيًا لم يشهده العالم من قبل. إذا تحولوا جميعًا إلى هذا الشر البشري..."

ثم عد ودرب طلابك. سأكون هناك للمساعدة خلال بضعة أسابيع. أعدك بذلك. لكن إذا أعدم والد ألكسندر ابنه، فسوف

لقد خسرنا في النهاية. العالم سيتغير يا كاترين، أنا أعلم ذلك. علينا أن نضمن أن يتغير نحو الأفضل.

حدّقت بعينيها الداكنتين. "وماذا عن الملكة؟ لم تتح لك الفرصة للتحدث معها."

"عندما أعود، سأخدمها بأي طريقة تأمرني بها."

"أخدمها؟" ظننتُ أن غضب كابين سيُشعل شعري. "أأنتِ عمياء؟ لم تخونكِ أبدًا يا سيون. أبدًا. ألن تُصغي إليها؟ كيف يمكنكِ أن..."

وضعتُ يدي على وجنتيها المتوردتين. "لقد عبرتُ بوابتها يا كاترين، لذا أفهم أكثر مما تظنين. لكنها تعلم، وأنتِ تعلمين، أنه لا حيلة لنا. لم نكن متزوجين حين أُخذتُ. كانت حرة في الزواج، وقد فعلت. زوجها حيّ. لا يمكن إبطال عهد الزواج لمجرد أن أحد الطرفين غير جدير. لذلك، لا يمكنني أن أكون شيئًا لها، ليس دون المخاطرة بالشر الذي جلبه ريس على نفسه. وفوق ذلك... هي تعرف ما في قلبي."

بعد ثلاثة أسابيع، وقفتُ مع الأمير على قمة صخرية، ونظرتُ عبر بحر من الرمال الحمراء الذهبية إلى مدينة زغاد. ارتفعت الأبراج الوردية والقباب الذهبية للعاصمة من الصحراء كما لو كانت منحوتة بأصابع نزوية، بينما في الأفق الغربي، ظلت الشمس الحمراء مترددة، كما لو كانت مترددة في التخلي عن سيطرتها على العالم عندما كان هذا المنظر الجميل أمامها.

قال الأمير وهو يُداعب عرف موسى: "آه، يا آلهة الليل والنهار، إنها جميلة، أليس كذلك؟ لا توجد مدينة في العالم بمثل هذه الروعة. انتظروا حتى تروا الزهور. ستظنون أن سحرتكم أنفسهم يعيشون هناك ليجعلوها تزهر بهذا الشكل."

وقفتُ بجانبه، مستمتعًا بشعوري بأنني أستعيد عافيتي، ومنتعشًا بنسيم المساء العليل بعد حرارة الظهيرة اللاهبة. قضيتُ أسبوعين طويلين من رحلتي التي استغرقت ثلاثة أسابيع في العربة. في الأسبوع الأول، استيقظتُ من نومٍ مضطربٍ لفترةٍ وجيزةٍ فقط لأتناول الطعام والشراب، وليساعدني أحد رجال كيريل في تغيير ضماداتي. أما الأسبوع الثاني، فقد أمضيته في إزاحة أكوام السيوف والرماح والحراب المصادرة التي كانت تُكدسني في زاوية العربة، بينما كنتُ أقرأ الأدلة التي كانت معي فيها. كانت هناك خرائطُ مُطويةٌ للإمبراطورية بأكملها، ورسوماتٌ تخطيطيةٌ للتحصينات، وتقاريرٌ عن مواقع قوات ديرزي من كل مركزٍ في الإمبراطورية، ورسائلٌ من كاستافان تُفصّل كل شيء، بدءًا

من جداول الحراسة في المقر الإمبراطوري، وصولًا إلى الطرق التي قد تُعرّض إمدادات المياه في زاغاد للخطر. درستُ كل شيء.

أثناء سفرنا، كنتُ أخشى بشدة ألا تكون الأدلة كافية. لم يرد في أيٍّ من المراسلات أو الملاحظات أو التقارير أيّ ذكرٍ لديمتري أو ألكسندر. ربما يستطيع الأمير إقناع والده بسلامة عقله وأنّ الخليديين خونة، لكن لا يوجد ما يثبت براءته من جريمة القتل.

كانت هناك حقيبة سفر جلدية طويلة مختومة بسحر. قال رجال كيريل إنها كانت تخص اللورد كاستافان، لكن الأقفال أحرقت أصابعهم عندما حاولوا فتحها. بعد نصف يوم من المحاولات الفاشلة، تمكنتُ من فك السحر، لكنني لم أجد سوى ملابس الخليد وصندوقًا مليئًا بالجواهر والمجوهرات: قلائد، ودلايات، وأساور، وخواتم من كل الأنواع. ألقيتُ بكل شيء في الحقيبة وأغلقتُ الغطاء بقوة في اشمئزاز. كان ألكسندر سيموت إن لم يستطع إيجاد تفسير آخر غير شعوره بالذنب لتبرير اعترافه بالجريمة. من غير المرجح أن يفهم إيفان الشعور بالذنب.

بحلول الأسبوع الثالث من الرحلة، كنتُ على استعداد لفعل أي شيء للخروج من العربة، حتى ركوب عربة مع جندي لم يستحم على الأرجح منذ طقوس غسله عند ولادته. تفاقمت المعاناة بسبب دخولنا قلب صحراء أزهاكي. كنا نتوقف وننطلق باستمرار - وهي طريقة الديرزي للحفاظ على قدرة خيولهم على التحمل في رحلات الصحراء الطويلة؛ لذا كان من المستحيل عليّ النوم. بعد بضعة أيام، رحمني كيريل وسمح لي بركوب أحد خيوله المحملة.

كان ألكسندر هادئًا. كان يركب وحيدًا أو برفقة كيريل، ونادرًا ما يتحدث. كان يسأل عن صحتي وراحتي كل يوم، لكنه لم يكلمني على انفراد قط. كان رجال كيريل فضوليين بشأن وضعي، فأنا أجنبي لست عبدًا ولا خادمًا ولا رفيقًا، لكنهم كانوا منضبطين جيدًا وعاملوني باحترام، كما يقتضي قائدهم.

لكن في تلك الأمسية الأخيرة، أشار إليّ الأمير أن أركب معه صعودًا إلى التل الصخري، بينما ينتظر باقي الموكب في الخلف. ولدهشتي، أزال ألكسندر سرج موسى حالما ترجلنا. ثم سار إلى حافة الصخور، وبينما كنا ننظر عبر الصحراء إلى لؤلؤة أزهاكستان، طوى ذراعيه أمامه وأخذ نفسًا عميقًا، ضاحكًا في نصف ضحكة. "من الغباء أن أخاف من هذا أكثر من أن أسلم نفسي لشيطان."

قلت: "لم تؤمن أبدًا بالشياطين".

"ليس الموت هو ما يزعجني كثيراً. لن أسمح له بحجب العدالة من أجل روابط الدم. لكنني أكره أن يعتقد أنني أستطيع أن أزهق روح ديمتري من أجل مظالمي التافهة."

لم أجد كلمات مواساة. قلت: "سأكون قريباً. ما عليك سوى أن تطلب مني أي شيء تحتاجه".

وضع ألكسندر يده على كتفي. "سأضطر لمواجهة هذا وحدي يا حارسي. ولا فائدة من التأخير. ابقَ قريبًا من كيريل."

مع غروب الشمس، ألقى بنفسه على ظهر موسى العاري، ولفّ وشاحه حول فمه وأنفه. وبصيحة مدوية ولمسة من كعبه، انطلق هو والحصان مسرعين على الطريق وعبر أمواج الرمال المتموجة. لم أرَ قطّ مثل هذه البهجة في كائن حيّ كما رأيتها في ألكسندر في تلك الأمسية، وهو يركض عبر الصحراء مُثيرًا عاصفة من اللونين الأرجواني والذهبي خلفه.

الفصل 36

تبعنا بقيةُنا ألكسندر عبر الصحراء ببطء، وكان كيريل يكبح جماح رجاله بحزمٍ حين حاولوا إطلاق العنان لحماسهم. لم نلحق بالأمير إلا حين وصلنا إلى أول أسود حجرية ضخمة تحرس مداخل زغاد. كان يقف منتظرًا بجانب موسى، يداعب عنق الحصان الرشيق. ترجّل كيريل عابسًا وأخرج شيئًا من حقيبة سرجه قبل أن يمشي إلى حيث ينتظره ابن عمه. دفعتُ جوادي برفقٍ لأسمع.

"آه، زاندر، هل أنت متأكد من هذا؟"

لم ينطق ألكسندر بكلمة. فتح ذراعيه، وتعانق الاثنان بشدة حتى دفع الأمير ابن عمه بعيدًا وسحب سيفه. تجمد رجال كيريل في سروجهم، لكن ألكسندر قلب السيف وقدمه، مقبضه أولًا، لابن عمه.

قال كيريل وهو يربط السلاح بحزامه: "إلى أن تستعيده".

أومأ ألكسندر برأسه ومدّ يديه. دون أن ينظر إلى ابن عمه بثبات، ربط كيريل معصمي ألكسندر بحبل حريري. امتطى الدرزيان جواديهما مجددًا، وأصدر كيريل أمرًا مقتضبًا لرجاله. أمسك أحدهم بزمام موسى، واحتضن الباقون ألكسندر. لم يكن هناك إهانة أشدّ على الدرزي من إجباره على التخلي عن زمام جواده.

حلّ الليل على الصحراء، وأشعل الجنود المشاعل ليرشدونا في طريقنا على طريق الإمبراطور. وعلى جانبينا، برز تمثالان حجريان لأسدين، صُمما ليثيرا الرهبة والرعب في قلوبنا، مجسدين صورة الدرزي وإمبراطوريتهم. كان هذا الطريق الذي كان ينبغي أن يسلكه ألكسندر منتصرًا، بصفته الإمبراطور المنتظر. كان ينبغي أن يسمع هتافات رعاياه بدلًا من صمت الصحراء. كان ينبغي أن يرتدي الذهب والماس، لا قيود الأسرى - حتى لو كانت من الحرير. كان ينبغي أن يمتطي جواده في مجد إلهه المتألق، لكنه رحل في...

في الليل، كان ضوء الشعلة يتذبذب من النور إلى الظل على العيون الفارغة للأسود الضخمة، كما لو أن الوحوش كانت تغلق أعينها خجلاً.

لم يُبدِ ألكسندر أي خجل. كان ظهره مستقيماً ورأسه مرفوعاً. كان سلوكه متغطرسًا وباردًا، حتى عندما عبرنا البوابات الشاهقة التي تُحيط بالمدينة، وبدأ الناس بالتوافد لرؤية أميرهم المطرود يعود إلى دياره. تردد اسمه في أرجاء المدينة كريح الليل، مُوقظًا الناس من ساحاتهم المُضاءة بالمصابيح، حيث كانوا يجلسون يحتسون أكوابًا صغيرة من النزرهيل الساخن. تردد اسمه بين البيوت الأنيقة ومن المقاعد الحجرية حول الآبار العامة المُزينة بالزهور، حيث كان الناس يجلسون يتسامرون مع أصدقائهم في المساء البارد.

رغم ارتدائي رداء الصحراء، واستبعاد أن يلاحظ أحد العلامة على وجهي، لم أستطع كبح شعوري بالقلق مع تجمع الحشد. شعرت بنظراتهم تخترق ظهري، فضولية، وبحثت بين الوجوه عن عيونٍ تمتلك بصيرةٍ تفوق الحواس العادية. كان هناك الكثير من الدرزي. وقليل من المانغنار، الذين يبدو أنهم يستمتعون بأعمال الإمبراطورية الشاقة التي تحتقرها الأجناس المحاربة الأخرى. وتجار سوزيني. وكوفاي النحيلون الذين يتجمعون حول مصانع الصهر واستوديوهات الفنون في المدن الكبرى. وقليل من الثريد، لأن المرتزقة ذوي البشرة الداكنة لم يكونوا مرتاحين في المراكز التجارية، وكانوا يميلون إلى البقاء في أراضيهم.

كان الشعور بالرهبة يخيم علينا كسهامٍ موجهةٍ إلى ظهورنا. حوّلتُ حواسي، باحثًا عن خليد المنتقم، لكن لم يكن خليد هو ما أثار ذعري. يا للعجب! للحظةٍ وجيزة، لمحتُ زوجًا من العيون الداكنة المائلة، تشبه عيون السمكة، على سطح وجهٍ عريض. ريس! كان يحدق بي مباشرةً كما لو كان يستطيع الرؤية من خلال الوشاح الملفوف حول وجهي. لماذا يأتي ريس إلى زاجاد؟ لقد اختفى فورًا وسط حشد الجثث بينما كنا نعبر الحلقة الثانية من الحجر إلى قلب المدينة.

لم يُسمح إلا للديرزي بالعيش داخل أسوار زهاغاد الداخلية. وكلما اقتربنا من القصر الإمبراطوري، ازداد الحشد جرأة. ضغطوا على جنود كيريل وهم يهتفون: "قاتل... قريبه... عار... مجنون... آثوس، ارحمنا من هذا الوحش... قاتل الأقارب... مجنون."

قام كيريل ورجاله بإبعاد الحشد المتدفق عن ألكسندر، وفي إحدى المرات، عندما أغلق الناس الطريق تمامًا، قام الشاب دنيساري

صرخ غاضباً: "إنه يخضع للإمبراطور. الإمبراطور هو من سيحكم، وليس أنت."

دون أن يحرك رأسه أو يحوّل نظره عن موضعه أمامه مباشرة، همس ألكسندر بكلمة هادئة لكيريل. لم ينطق الشاب ديرزي بكلمة أخرى، بل شقّ طريقه عبر الحشد المتدافع إلى درجات القصر. ما إن وصلنا، حتى ترجّلنا، ونظّم كيريل رجاله حول ألكسندر، مشيرًا إليّ بالبقاء بجانبه. صعدتُ الدرجات العريضة وعبرتُ البهو الفسيح للقصر الإمبراطوري مع البقية. لم يكن هناك وقت للتأمل في عظمة المكان؛ لم أحصل إلا على لمحة خاطفة عن ارتفاع الأسقف الشاهقة، وألوان الجداريات الزاهية، والأقواس الرشيقة التي تسمح بنسائم عليلة تتسلل عبر الحجر البارد. باركتُ الوشاح الأبيض الطويل الذي أُعطي لي لألفّه حول وجهي ليحميني من الرمال المتطايرة والعيون المتطفلة.

تشاور كيريل مع رجل شبه عارٍ يتمتع ببنية جسدية مثالية، يرتدي ثلاثة أقراط في أذن واحدة وجديلة شعر تصل إلى أسفل خصره. لا بد أنه الباديش، حارس الإمبراطور من الليدوني. كنت قد سمعت أن الليدوني قادر على كسر عمود فقري رجل دون أن يتنفس. ولما رأيته، صدقت ذلك. أومأ الباديش برأسه وقادنا عبر بهو دائري محاط بأعمدة، ثم فتح بابين خشبيين يبلغ طولهما خمسة أضعاف طول الرجل.

جلس إيفان على منصة مرتفعة في أحد طرفي غرفة بسيطة خالية من الزينة، بدت كقاعة مجلس، إذ كانت تضم عدة طاولات طويلة مصفوفة على جانبيها، وخلفها وسائد داكنة اللون. لم يكن أحد مستلقيًا على الوسائد في ذلك الوقت. اتخذ البادش موقعًا على يسار الملك ذي الملامح الجامدة. وعلى يمين الإمبراطور وقف كوريلي.

انقبضت معدتي. مع أنه لا بدّ أنه أدرك الخطر، لم يتردد ألكسندر، بل دخل الغرفة وجثا على ركبتيه، ملامسًا رأسه الحجر الأبيض. وبقي على هذه الوضعية الخاضعة، منتظرًا أمر والده بالنهوض. وقف كيريل بجانبه وانحنى كما يليق بجندي في نوبة حراسة. وقبل أن ينطق أحد بكلمة، بإشارة من الإمبراطور، أُغلق الباب أمامنا جميعًا.

قام مساعد كيريل، رجل يُدعى فيدور، بتجميع فرقة الجنود خارج الأبواب مباشرةً. لم يكن متأكدًا مما سيفعله بي، فأشرتُ إليه أنني سأنتظر في ركن صغير بين صف من الأعمدة المخددة والجدار. كان موقعًا يُتيح لي مراقبة الأبواب دون أن يراني أحد.

أخبرتُ ألكسندر الحقيقة. لم أستطع سماع أي شيء عبر الجدران مهما حاولت. لذا اضطررتُ للانتظار مع الجميع حتى اقتحم كيريل الباب. لم يمرّ أكثر من نصف ساعة.

"فيدور!" كان صوت الشاب حادًا وعاجلًا. "أجل يا سيدي؟"

"هل أخذتَ بقية الأدلة من العربة إلى... الآلهة، أين؟" ضغط كيريل بقبضته على جبهته للحظة. "هناك غرفة كهنة قديمة خلف ضريح دروبا، خارج الجناح الغربي. أسرع، ولا تدع أحدًا يرى ما تنوي فعله."

خرجتُ من ركني، مستعدًا لمواجهة الشاب ديرزي ذي الوجه المربع قبل أن يعود، لكنه أشار إليّ بالبقاء مكاني. سار بخطى واسعة عبر البهو وتحدث إلى أحد رجال الحاشية الذين يقضون حياتهم يحومون خارج باب الإمبراطور، منتظرين فرصةً لتقديم خدمة. عندما عاد إلى ركني بعد لحظات، كان كيريل يرتجف من غضب مكبوت.

"سيموت عند الفجر، وحتى ذلك الحين لا يُسمح له برؤية أحد. لا أمه، ولا ابن عمه، ولا خادم، ولا صديق."

قلتُ: "يا للهول!"، غير مستعدٍّ لمثل هذه النهاية بهذه السرعة. "ألم يُستمع إليه؟"

قبل أن يسمح لنا بالكلام، طالب الإمبراطور بدليل على أن زاندر لم يقتل ديمتري. حاول زاندر تبرير حماقته وتصرفات الخليد، لكن عمي لم يستمع. قال فقط: "أولًا الدليل". اعترف زاندر بأنه لا يملك سوى كلمته. لكن الإمبراطور ادعى أن زاندر قد أقسم بالفعل أنه ارتكب الجريمة، وأنه إن لم يكن لديه حياة أخرى ليضحي بها مقابل حياة شقيق الإمبراطور، فلا بد أن تكون حياته. أسند كيريل رأسه إلى العمود وتحدث من بين أسنانه: "على الأقل، بدا أن عمي قد حزن وهو ينطق بالحكم. ظننت أنه سيثني ذراعي الكرسي. وكما هو متوقع، رفض زاندر الجدال، واكتفى بطلب الإذن بالحديث عن الخيانة داخل المملكة."

وماذا عن ذلك؟

«لم يكن ذلك مسموحًا به. لن يستمع الإمبراطور إلى "افتراءات تُلفّق لإخفاء جريمة رجل ضعيف". آلهة الليل... رجل ضعيف». قبض كيريل على قبضتيه وضغط بهما على الحجر خلف رأسه. «كان عليّ أن أخرج وأرسل إشعارًا إلى الجلاد... ارحمني يا آثوس. ثم أمرني بتسليم كل ما تم الاستيلاء عليه من قلعة خيليد إلى كوريلي الملعونين المبتسمين بسخرية. لكنني لن أفعل ذلك. سيتعين عليهم قطع...»

سأضع يدي قبل أن أعطيه إياها. سآخذ الرسائل إلى كل نبيل في المملكة وأجعلهم يستمعون. على الأقل سيحصل زاندر على ذلك. سأجعل هذه الإمبراطورية على وشك الانهيار.

"بهدوء يا سيدي." خشيتُ أن يفشي سر الخيانة الذي كان على وشك أن ينطق به. "أين أخذوه؟"

لن ينجح الأمر هذه المرة. لن تتمكن من إخراجه من هذا المأزق. لقد أرسلوه إلى أعمق زنزانة في هذه الكتلة الصخرية، وهي عميقة للغاية بالفعل. ما لم يكن سحرك قادراً على إذابة الفولاذ والحجر، فلن تتمكن من لمسه أبداً.

"لن أدعه يموت."

"اسمعي يا سيون." أمسك كيريل بذراعي وسحبني إلى أعماق الظلال. "أعلم هذا جيدًا. لن يرحب بموتكِ بجانبه. لديكِ عملكِ الخاص. ولا تظني أنكِ مررتِ مرور الكرام. ثلاث مرات، سأل كوريلي عن "العبد الإزاري" ودوره في هروب ابن عمي من كافارنا. قال زاندر فقط إنكِ فعلتِ ما أمركِ به، وأنه سيطلق سراحكِ عندما لا يعود بحاجة إليكِ. قال إنه لا يعلم ولا يهتم إلى أين ذهبتِ، لكنني لا أعتقد أن الخليد صدّقه."

"علينا أن نساعده يا سيدي."

فرك كيريل وجهه بتعب، وقد هدأت ثورته. "لديّ بعض الأشخاص لأتحدث معهم. أرسلتُ بعض الرسائل قبل مغادرة بارنيفور. ربما تلقيتُ ردًا. وسأتأكد من مكان زاندر. الآن، عليك الذهاب مع فيدور. يجب أن تبقى بعيدًا عن الأنظار."

أومأت برأسي وسارعت خلف رجال كيريل، تاركاً الشاب الدنيسار متكئاً على العمود.

قضيت الساعتين التاليتين في غرفة حجرية صغيرة، جدرانها مزينة برسومات جدارية متقشرة تصور إله الثور الشرس ديرزي. وضعنا الرسائل ولفائف الرق في صناديق حجرية متصدعة كانت تُستخدم سابقًا لحفظ الملابس الكهنوتية وأدوات الطقوس. أُخذت جميع الأشياء الثمينة عندما أُزيح درويا البسيط من حظوة آثوس الأكثر فخامة، تاركًا غرفة الكهنة ملطخة بدماء حيوانات قديمة، ومُغطاة بقطع قماش متعفنة، وبقايا شموع محترقة، وكمية كبيرة من العناكب والذباب الميت.

بينما كان رجال كيريل ينقلون مئات الأسلحة من العربة، كنتُ أُمعن النظر في الرسائل والملاحظات مرة أخرى تحت ضوء فانوس نحاسي مُعوج. كنتُ أبحث عن أي شيء، أي تلميح للمؤامرة التي أدت إلى ذلك.

أُجبر ألكسندر على الركوع. لم يكن الأمر يتطلب الكثير. كان إيفان يُدلل ألكسندر، ولم يكن سوى عناده الدرجي هو ما أجبره على إصدار هذا الحكم القاسي. ولكن كما في السابق، لم أجد شيئًا.

استسلمتُ للقتال، وبدأتُ أفتش بين الأسلحة بحثًا عن نصل. كنتُ بحاجة إلى شيء جديد نسبيًا، شيء لم يحمل الكثير من آثار الدماء والكراهية التي تُصعّب ربطه بتعاويذي. كان هناك كل أنواع النصال، منحنية ومستقيمة، وسيوف جيراو مزدوجة الأطراف مصممة للإمساك بها من المنتصف، وسيوف رابير، وسيوف طويلة، وخناجر، وسيوف قصيرة، وخناجر ديرك. العديد منها كان مُلصقًا بتعاويذ شيطانية. كنتُ قد حذرتُ رجال كيريل من جرح أنفسهم بأي من الأسلحة. في منتصف الكومة، عثرتُ على حزمة طويلة ملفوفة بقطعة قماش ومربوطة بحبل. بدافع الفضول، قطعتُ الحبل وفككتُ نصلًا جديدًا رائعًا، لا يزال مغطى بالزيت من صنعه. كان حافته قادرة على شطر جناح فراشة. مسحتُه بقطعة القماش لأتمكن من رؤية النقش. صُمم واقي اليد على شكل جناح صقر، أملس وبسيط، ينحني بانسيابية حول اليد، أما المقبض... ارتجفت يدي وأنا أُقرب المصباح لأتفحصه. وسط النقوش الدقيقة والأنيقة لأوراق العنب، وُضعت رموز أسد رابض وصقر. سيف ألكسندر الذكره. حمله ديمتري وهو يُسرع إلى الجبال، مُغامرًا بعبور ممر جبار المُكتظ باللصوص ليُحضر لابن أخيه الحبيب سيفًا يليق بإمبراطور. إذا كان سيف ألكسندر هناك، فماذا عن سيف ديمتري؟

وهكذا دخل كيريل عند إعلان الساعة الأولى من يوم إعدام ألكسندر ليجدني أفحص سيفاً واحداً في كل مرة، ثم ألقي به على كومة كئيبة في الزاوية المقابلة.

قال وهو يقف عند المدخل واضعاً يديه على خصره: "ماذا تفعل بحق أثوس؟"

قلتُ بهدوء: "تعال إلى هنا"، عازماً على ألا يصل خبر اكتشافي إلى كوريلي. أريته السيف، ففهم المغزى على الفور. شرع في العمل، ووصف لي سيف ديمتري وصفاً سرّع من وتيرة بحثنا. بعد دقائق، توقف قليلاً وقال: "إذا كان سيفه معهم، فربما يكون خاتمه أيضاً. لقد أخذه اللصوص القتلة اللعينون أيضاً".

تبادر إلى ذهني فوراً صندوق الجواهر في حقيبة سفر كاستافان، فبدأت أفتش فيه بينما واصل كيريل البحث عن السيف. وفي اللحظة نفسها تقريباً، صرخنا: "ها هو!" والتفتنا إلى بعضنا، كيريل يحمل سيفاً عريضاً مستعملاً، وأنا أحمل خاتماً عليه شعار صقر.

قال كيريل بحزم: "لقد أمسكنا به! سأذهب إلى الإمبراطور فوراً."

"لا. انتظر." كرهتُ أن أُعيقه. شعرنا كلانا ببزوغ الفجر يتسلل إلى ظهورنا. "علينا أن نفكر. سيقول كوريلي إننا كنا نمتلكها طوال الوقت. وأننا وضعناها بين سيوف خيليد."

بدا كيريل مصدوماً. "أقسم بذلك على قبر أبي. وعلى شرف أمي."

"لا، علينا أن نتأكد." جلستُ أحدق في الخاتم، أُجهد ذهني بحثًا عن طريقة لإقناع إيفان بالحقيقة. وبالطبع، استنتجتُ أننا لا نستطيع. كان على كوريلي أن يفعل ذلك. وإذا أجبرناه على ذلك، فسيتعين علينا المخاطرة بكل شيء. السؤال هو: هل يعلم كوريلي أن أغراض ديمتري موجودة في كنز كيريل؟

قال الشاب ديرزي: "أنا متأكد من ذلك. لقد طاردني رسل الإمبراطور طوال الليل. إنه في حالة ذعر للحصول على هذه الأشياء. ظننتُ أن ذلك لمنع تسريب الرسائل، لكن هذا يبدو منطقياً أكثر."

أراد الخليد موت ألكسندر. لم يكن لديهم شياطين ليضعوها فيه، وقد أظهر أنه أقوى من أن يخضع لسحرهم العادي. سيكون خصمًا خطيرًا. أخذت السيفين والخاتم ووضعتهم جميعًا في علبة كاستافان، وأعدت ختم تعويذة الخليد وتأكدت من عدم وجود أي أثر لعملي على العلبة.

"ماذا تفعل؟"

قلت: "سنعيد كل شيء كما يريد كوريلي".

"بالتأكيد لن نفعل." أغلق كيريل المدخل كما لو كنت أخطط لإخراج كنزه الموجود في جيوبي.

"إذا كنتم ترغبون في أن يرى ألكسندر شروق شمس آخر، فعليكم أن تفعلوا بالضبط ما أقوله."

قبل الفجر بساعة، وقف دنيسار ديرزي الصغير، تفوح منه رائحة الكحول، في الفناء المركزي للجناح السكني الملكي بالقصر الإمبراطوري، يرشق نوافذ الطابق الثاني بالحجارة. كان يلعن ويبكي بأعلى صوته. "اخرج أيها الخنزير الخليدي. خذ ممتلكاتك اللعينة، ومعها شرف ديرزي. ما شأني بإمبراطوريتنا الحبيبة، إذا مات أنبل أمرائها؟ خذ خزائنك النتنة واختنق بها. هل تحتاج إلى أسلحة لتطعن بها القلب؟ يمكنك أن تختار ما تشاء هنا في هذا العرض البشع، مع أنك لن تحتاج إلى سلاح عندما تشرق الشمس البائسة في هذا الصباح المشؤوم." بعد حفنة أخرى من الحجارة، بدأت الرؤوس تطل

من النوافذ المفتوحة التي تُطل على الفناء. "اخرج أيها الشرير، واحصل على ثمن دمك!"

كانت جميع الرسائل والسيوف والكتب والجواهر التي نُهبت من قلعة الخليد مبعثرة على الأحجار المنحوتة، وفوق حدائق الزهور، وفي النوافير المتدفقة... باستثناء حقيبة كاستافان وسيفين إضافيين كانت تحملهما. عرفت ذلك لأني كنت أجلس على سطح القصر خلف تمثال حجري لملائكة صغيرة تخنق أفعى بقبضتها. وكانت حقيبة كاستافان الجلدية في حجري.

اندفع ثلاثة حراس إلى الفناء، لكن كيريل صدّهم بسيفه وخنجره. "كلا، لن أغادر من هنا بالتأكيد. ليس قبل أن يأتي اللورد كوريلي ليأخذ ممتلكاته ويقسم لإمبراطوري أن كل قطعة موجودة. لن أسمح بالتشكيك في شرفي باتهامات السرقة. ألا يكفي أنه يدّعي أن أميرنا قاتل؟"

لم يكن من المرجح أن ينام أحد في القصر، لا سيما مع اقتراب موعد الإعدام الملكي بعد أقل من ساعة. ومن خلال تصريحات ألكسندر على مدار الأشهر الماضية، علمتُ أن كيريل كان محبوبًا من الجميع، بمن فيهم إيفان وجينيا. لذا لم أستغرب رؤية الإمبراطور بنفسه يخرج ليطمئن على ابن أخيه المكلوم.

"هيا يا فتى. هذا لا يُجدي نفعاً."

قال كيريل وهو يجثو على ركبته، بينما يُبقي سيفه وخنجره في وضعية الدفاع عن النفس ضد الحراس - وهو أمرٌ بالغ الصعوبة لرجلٍ بدا ثملاً إلى هذا الحد -: "أيها السيد الجليل، ألن تبكي معي؟ ألن تحفظ شرفي حتى يخرج من هذا اليوم الأسود شيءٌ من الخير؟"

قال الإمبراطور بنبرة حادة: "لا يوجد هنا ما يستحق الشرف يا كيريل. لقد أمرتك بإعادة ممتلكات الخليد التي أُخذت بطريقة غير شرعية من مسكنهم. أنت تفعل ما يجب عليك فعله، كما يفعل كل محارب من محاربي ديرزي، مهما كان الأمر مؤلمًا."

"ثم، دعه يأتي ليفحص هذه الأمور ويقول إني لم أخفِ شيئاً. أرجوك يا سيدي، يا عمي. أنقذ حياة واحدة اليوم، لأني أقسم أنني لن أرى نهايتها إذا اتُهمتُ بالسرقة في نفس اليوم الذي يُعلن فيه وفاة ابن عمي."

وكما كنت آمل، خرج كوريلي ذو الرداء الأرجواني من رواق مُغطى بالكروم أسفل مني. "إذن قرر ابن أخيك أن الطاعة يجب أن تكون

هل غرق في الخمر يا جلالة الملك؟ ليس درساً جيداً لمن يعمل في السلك الدبلوماسي لإمبراطوره.

"ليس لدي وقت للحماقات يا كوريلي،" قال إيفان بنبرة غاضبة. "اجمعي أغراضك وانتهى الأمر."

لم أبقَ لأسمع بقية القصة، كيف سيصر كيريل على أن يجرد كوريلي كل شيء قبل أخذه، وكيف سيتذمر إيفان، ومع ذلك سيغتنم كل لحظة راحة ممكنة من واجباته المروعة في الصباح. وبينما كنت أهرع عائدًا عبر نافذة العلية وأنزل الدرج الضيق المؤدي إلى الممر العلوي وشقق الخليد، لم أسمح لنفسي بالتفكير في أي شيء سوى ما كنت أفعله. لقد فكرت مليًا في ألكسندر في زنزانته، وقد استُبدلت ملابسه الأنيقة بسترة سجناء رمادية خشنة، وشعره مفكوك، ينتظر الرجل ذو الرداء الأسود الذي سيقوده إلى ساحة السجن والمبنى الملطخ بالدماء هناك.

هناك! وقف اثنان من الخليديين خارج الباب المجاور. استدعيتُ التعويذة التي صنعتها خلال الساعات الماضية، واستحضرتُ شبحًا بدا، في الضوء الخافت، شبيهًا جدًا بكوريلي. أشار الشبح للحارسين واختفى أسفل الدرج. ركض الحارسان خلفه، وأسرعتُ إلى الباب. وبسرعة، قبل أن ينهار رأسي من إجهاد العملين المتزامنين، اكتشفتُ تعويذة القفل وأبطلتها. وضعتُ الصندوق بشكل غير ملحوظ بجانب خزانة ملابس كوريلي. ثم خرجتُ من الباب، وأعدتُ إغلاق الختم، وتراجعتُ إلى موقعي على السطح.

كان كوريلي يصرخ في وجه كيريل: "...أُفصل رأسك اليوم أيضًا، لتواطئك مع قاتلٍ غادر. لقد أزهق ابن عمك روح سيدي كاستافان دون استفزاز، عملٌ شنيع، والآن سرقت ممتلكاته، تلك الأشياء التي تُمثل إرث أبنائه، جواهرٌ توارثتها عائلته لأجيال. هذا البكاء ليس إلا ستارًا لخبثك."

قال إيفان: "كفى. ألا يوجد احترام فيكما؟ أي سخرية تفعلانها بهذا اليوم البائس؟ فليشنق كلاكما إن شئتما." ثم استدار إيفان ليغادر الحديقة.

لا. لا. لا. لم يكن من المفترض أن تسير الأمور على هذا النحو.

رفع كيريل، الذي كان لا يزال يلوّح بأسلحته، نظره وفهم إشارتي. أسند ظهره إلى مسلة حجرية وأغمد سيفه، مستخدمًا يديه وصوته الرزين فجأة لإيقاف الحراس. "أكثركم حرصًا"

يا صاحب الجلالة، إنما أسعى للدفاع عن شرف اسمنا - اسمك. أرجو أن تمنحني هذه الفرصة لأستمع إليك، حباً في سيدي ديمتري. لقد كان والدي الوحيد، ولن أسمح بتشويه ذكراه بأكاذيب هذا الأجنبي.

عليك أن تحكم بنفسك لماذا يرى هذا الرجل ضرورة لتشويه سمعة عائلتنا.

توقف إيفان للحظة... وتوقفت دقات قلبي أيضاً.

انتهز كيريل الفرصة وقال: "يا سيدي، يدّعي كوريلي أنني أخفيت قضية تخص اللورد كاستافان، ولكن لماذا أطمع في شيء ممن أعتقد أنهم قتلوا زعيمي؟ أفضل أن أتعفن في صفوف العبيد على أن أمتلك جوهرة واحدة، أو قطعة زينة واحدة، أو عملة ذهبية واحدة لامست كف قاتل اللورد ديمتري. أراهن بحياتي أن هذه "الكنوز" في حوزة سيدي كوريلي بالفعل. أعتقد أنه يسعى إلى إذلال جميع ذكور آل دينيشكار أو قتلهم."

انزلق ضوء الفجر من الرمادي إلى الأحمر مع بزوغ الشمس، فأرسلت كل العيون في تلك الساحة نحو السماء. ضحك كوريلي قائلًا: "هل يظن هذا الصبي، مرتزق هذا القاتل، أنه سيُعرقل حكم إمبراطوره بمثل هذا العرض البائس؟ إذا كانت هذه الاتهامات الواهية هي أفضل ما لديه من مكائد، فأنا أخشى على مستقبل الدرزي." ربما لم يكن الوقت مناسبًا لضحك الخليد.

قال الإمبراطور: "سنحسم هذا الأمر الآن. خذني إلى شقق الخليد". دخل إيفان القصر عبر الباب الموجود أسفل مكاني.

تذكر يا كيريل. ذكّر الإمبراطور بأن رجالك قد أحرقوا أصابعهم في هذه القضية. لا أحد يستطيع فتحها سوى ساحر. تذكر أن ترشد لا أن تقود. دع الشعور بالذنب يتكشف. دع غرور كوريلي يُدمره. حافظ على سير الأمور بسرعة، حتى لا يجد الخليد وقتًا للتكهن بكيفية حدوث ذلك.

انتظرتُ في صمتٍ خانق، ثم انطلق من الغرفة التي تحتي هديرٌ من الألم هزّ البلاط الأحمر الذي كنتُ أجلس عليه. إيفان. هل كان مجرد رؤية أغراض أخيه الميت هو ما أثار فيه هذا الحزن المُبرح؟ أم كان انكشاف الخطأ الفادح الذي كان على وشك ارتكابه؟ أم أنه... يا إلهي... هل أصدر أمر الإعدام النهائي قبل خروجه، خشية أن يلين في لحظة ضعف أمام حزن كيريل؟

انعكس شعاع من الضوء الأحمر على واجهة معدنية لمدخنة عبر الفناء. وبدون أي حذر، قفزتُ وركضتُ عبر السقف المائل المغطى بالقرميد.

أسرع، صعودًا وهبوطًا، أقفز من حافة سطح إلى أخرى. أتعثر، فأتشبث بأي شيء. أقف على قدمي مجددًا. أستدعي الريح. لم تكن لديّ أجنحة، لكنني كنت بحاجة إلى أي شيء يُسرّع خطواتي، أي شيء يحملني. كنت قد حفظت الطريق عبر السطح من فناء السكن

إلى ساحة السجناء. لماذا انتظرت؟ لأنني لم أتوقع أبدًا أن إيفان سيتخلف عن مشاهدة إعدام ابنه. ظننته قاسيًا لا يُرجى منه خير، لكنه كان مجرد أب يحاول النجاة من ظروف قاسية. قفزت من سطح الجناح الشرقي، عبر الفجوة إلى الثكنات، صاعدًا المنحدر الحاد، ثم نزلت إلى جدار فناء السجناء. صرخت: "توقف! باسم الإمبراطور!"

حجب الرجل الضخم ذو الرداء الأسود رؤيتي لألكسندر. لم أستطع رؤية سوى يديه المقيدتين خلف ظهره وساقيه الطويلتين العاريتين تبرزان من تحت سترته الرمادية وهو راكع، منحنيًا إلى الأمام، على الدرجات. هل كان ميتًا أم حيًا؟ هل سيسقط ذلك الجسد الرمادي؟ ارتفع الفأس العريض ببطء في الهواء. دون أن ينزف.

صرختُ مجدداً، هذه المرة بصوت إيفان: "توقف! إمبراطورك يأمر بذلك!"

توقف الجلاد ونظر حوله، متسائلاً أين يقف سيده حتى يتمكن من سماعه بوضوح شديد.

قلت: "لا تدع هذه الفأس تسقط أيها الجلاد، وإلا ستكون أنت التالي تحت نصلها. لقد عفوت عن هذا السجين. لن يموت اليوم."

الفصل 37

انتشرت شائعة في أرجاء الإمبراطورية مفادها أن إيفان زها دينيشكار قد لمس يد آثوس ذات مرة، ولذلك انزوى كثيرًا في السنوات الأخيرة من حكمه - ليتأمل في الأمر. وقيل إنه في اليوم الذي أنقذ فيه ابنه من مؤامرة الخليديين، استطاع أن يبث صوته في أرجاء القصر الإمبراطوري، ولأن ذلك كان عند الفجر، فلا بد أن آثوس هو من منحه هذه القوة.

كنت راضياً تماماً بهذه الشائعات. فكما علم ألكسندر، فإن أهل إزاريا، بحكم الضرورة، يتجنبون الشهرة، ولا يحتاجون إلى تقارير عن المعجزات لتعقيد حياتهم.

جلستُ على السطح وشاهدتُ إيفان يركض إلى ساحة السجناء، ليجد ابنه المذهول لا يزال جاثيًا عند منصة الإعدام، وجلاد ابنه يحدق بذهول باحثًا عن الجثة التي تُنسب إلى صوت سيده. بعد لحظات، بينما كان الإمبراطور يحتضن الأمير بحرارة، استمتعتُ بالابتسامة

المشرقة التي ارتسمت على وجهه حين استقرت عيناه العنبريتان على تمثال غريب بجانب نافورة مياه ثكنات الحراس. كان كيريل هو من فكّ قيود ألكسندر، وبعد عناقٍ دافئ، رفع هو الآخر وجهه المبتسم نحو السطح... أو نحو السماء، كما يُشاع.

لو كان ذلك في أي مكان آخر غير أزهاكستان في أوائل الصيف، لربما بقيت على السطح، راضيًا بإيجاد مكان ظليل بعيدًا عن أنظار الجميع، ونمتُ حتى حلول ضوء النهار. لكنني لم أكن أرغب في حرارة الشمس الحارقة، فتسللتُ عائدًا عبر المساحة الشاسعة ذات القرميد الأحمر، ثم تفاديتُ العبيد الراكضين والخدم المتحمسين وفرقة من الحراس لأشق طريقي عائدًا إلى غرفة الكهنة القدامى خلف ضريح درويا المهجور. هناك، فرغتُ جرة ماء متبقية من ليلتنا الطويلة من التحضير، والتفتُ في الظلام البارد، ونمتُ.

لا مفر من أن يأتي أحدهم ليوقظني قبل أن أكون مستعدة. "سيون، هيا. حان وقت الرحيل."

كان كيريل، نظيفًا ومُهذّبًا ومُلمّعًا كسيف جديد. أضاء ضوء الشموع الوجه الشاب المتلهف وسلسلة الذهب التي

كانت عيناه تلمعان فوق سترته الحمراء الداكنة. "أخبرني أنك ستكون مختبئًا في مكان ما نائمًا." مع أنني كنت سأقسم أنني نمت أقل من ساعة، إلا أنه بدا أن الظلام قد حلّ بالفعل.

نهضتُ، وقد جفّت ملابسي لدرجة أنني كدتُ أبصق كرات الغبار. "لم أرَ شيئًا آخر أفعله". لم أكن لأغامر بالخروج عبر معقل ديرزي في ضوء النهار الحارق بعد ليلةٍ بلا نوم. ما زالت آثار الجروح باديةً على جسدي، وقد تُوقعني في مشكلةٍ كبيرة.

"حسنًا، يجب أن تأتي معي الآن. تفضلي، ارتدي هذا." كان رداءً أبيض طويلًا فضفاضًا، مثل الذي كان يرتديه بعض النبلاء ذوي الدروع التقليدية. "علينا أن ننطلق. هناك موعد لي في مكان آخر." ارتديت الرداء فوق ملابسي وتركته يجرني عبر ساحات متتالية، عبر أروقة مضاءة بالمصابيح وأروقة مفتوحة.

"هل كل شيء على ما يرام؟" تمكنت من إبقائه ساكناً بينما كنا ننتظر في مدخل الباب حتى يخلو الدرج الواسع من الناس.

"حسنًا. وصل اللورد ماراج بعد ساعة من الفجر. كنت قد أرسلت في طلبه ليشهد على ما رآه في كارن هيغيث. وصل متأخرًا ساعة تقريبًا، لكنه قام بما هو مطلوب، وأحضر تقارير من الحاميات الأخرى. كان زاندر والإمبراطور في مجالس حرب طوال اليوم."

أمسكتُ بذراع كيريل قبل أن يتمكن من الانطلاق مجدداً. "وماذا عن كوريلي؟"

"حسنًا، لم نتمكن من القبض عليه بعد. كان الإمبراطور قلقًا للغاية بشأن زاندر... ولم يفهم الحراس ما يجري. رأوا الخليد يتجه في ثلاثة اتجاهات مختلفة في آن واحد... لكن لدينا باحثين في الخارج، والبوابات مغلقة. لن يفلت منا. لقد تخلصنا من جميع الخليد الآخرين في زاجاد. هيا بنا الآن. ليس لدي وقت للكلام."

قادني إلى أعلى درج حلزوني إلى رواق واسع، مارًا بحارسين جامدَي الملامح، ربما كانا غافلين عنا لشدة انتباههما إلينا. على أحد جانبي الرواق، كانت النوافذ المفتوحة على مصراعيها ترحب بليلٍ تفوح منه رائحة الزهور، وعلى الجانب الآخر، كانت ستائر منسوجة بخيوط ذهبية تتدلى من خمسة أو ستة مداخل مقوسة. دفعني كيريل عبر إحدى الستائر إلى غرفة خافتة الإضاءة. "ستكونين بأمان هنا. ابقي هنا حتى آتي لأخذك. واستمتعي بوقتك. سترغبين بإلقاء نظرة من خلف الستارة بعد قليل."

كان هناك طعامٌ في غرفة الجلوس الصغيرة ذات الأثاث الفاخر، وكانت الروائح تُثير شهيتي بشدة. تضمنت الوجبة دجاجًا باردًا، وفاكهة، ومعجنات، وخبزًا، وسمكًا مملحًا، وشرائح من لحم الخنزير المتبل.

لحم الضأن، ولفائف من الخضار الورقية المحشوة بالمحار الرقيق والخضراوات المقطعة، وصلصات حارة مع المكسرات، وتوت لاذع، وأصناف أخرى لا حصر لها من المأكولات الشهية - كان هذا أشهى ما تذوقته في حياتي. وفي وسط كل ذلك، كان هناك إبريق كبير من الماء البارد وآخر من النبيذ الأحمر. كدت أغرق في لذة هذا الطعام.

في الوقت الذي ملأت فيه طبقي للمرة الثالثة، سمعتُ نفخة بوقٍ تلتها موسيقى مزمارٍ خلف الستارة الثقيلة ذات الألوان الزاهية على الجدار البعيد. كانت موسيقى المزمار آسرةً وجميلة، تتردد أصداؤها في أرجاء القصر الحجري العتيق، تدعوني للانتباه، لكنني تجاهلتها لفترة طويلة، مفضلاً الطعام على التسلية. فقط عندما جلستُ أتساءل عن سبب اصطحاب كيريل لي إلى هذا المكان الغريب، اخترق تعليق الشاب ديرزي الغامض جنوني الشره. قفزتُ ونظرتُ من خلف الستارة، خائفاً من أنني فوّتُ شيئاً مهماً للغاية.

في الأسفل، في قاعةٍ شاسعةٍ أضاءتها ألف شمعة، جثا ألكسندر أمام الإمبراطور. كان إبهام إيفان على جبين الأمير، وكلمات التتويج تتلاشى تدريجياً في الموسيقى.

"انهض يا ألكسندر، خليفتنا وابننا. استمعوا إليه جميعاً، وخافوه، فهو صوت إمبراطوره والضمانة الحية بأن مجدنا لن ينتهي أبداً."

كان ألكسندر يرتدي الأخضر الداكن. لم يكن يرتدي طوقًا مرصعًا بالألماس هذه المرة، لكن وجهه النحيل كان يحمل وقارًا هادئًا وجلالًا يليق به أكثر. نهض وقبّل الرجل الذي حكم عليه بالإعدام قبل ساعات قليلة. ثم التفت ليحيي انحناءات الحشد الصغير - ما بين ستمائة وسبعمائة شخص. أشار الإمبراطور المبتسم إلى مرافقيه ونزل من المنصة. عندما نهض ألكسندر من انحناءته عند وفاة والده وتبعه إلى أسفل الدرجات، تقدم كيريل وهمس في أذنه. استدار ألكسندر باتجاه نقطة مراقبتي وانحنى من خصره، مما أثار دهشة الحضور وهمسات عامة ستغذي بلا شك الشائعات لسنوات قادمة. سيزداد الفضول بسبب تحيته الفورية للسيدة ليديا - فائقة الجمال بثوبها الأزرق الداكن والفضي - بطريقة تمنع أي تساؤل عن علاقة غرامية أخرى.

لم أكن قلقاً من أن يتم اكتشاف أمري. لا شك أن الإمبراطور المنتظر وابن عمه كانا قادرين على إبقائي بعيداً عن الأنظار في قلب...

القصر. بعد أن غادروا القاعة، عدتُ لتناول الطعام. ستكون رحلة العودة إلى دايل عزار طويلة.

لأول مرة منذ ما يقارب سبعة عشر عامًا، سمحت لنفسي بالتفكير في المستقبل. خمس سنوات. ينص قانوننا على أنه إذا فُقد أحد الزوجين، يحق للآخر الزواج مرة أخرى بعد خمس سنوات. خمس سنوات ليست مدة طويلة. يسان... عندما دخل أحدهم من الباب، استدرت بسرعة وقلت: "عليّ الذهاب الآن، يا سيد كيريل. سأكون ممتنة جدًا—"

"لا تتخيل أنك ستذهب إلى أي مكان بمحض إرادتك هذه الليلة يا عزاريان، أو في أي وقت آخر." من خلف الستار الذهبي خرج رجل ذو شعر شاحب وعيون زرقاء، ليست زرقاء جليدية مرعبة كعيون الشياطين، بل زرقاء طبيعية كعيون البشر، تغلي بالغضب والكراهية والرغبة في الانتقام.

حاولتُ رفع يدي أو قدمي، أي شيء للدفاع عن نفسي، لكن كوريلي كان يحمل ميدالية صغيرة بيضاوية الشكل تلمع بلون ذهبي محمر في ضوء الشموع، وتصرخ بنشاز موسيقى شيطانية. قال الخليد: "هذه قطعة صغيرة من إرث رفيقي السابق. كنا قد أعددناها للإمبراطور نفسه، لكنني أعتقد أنني أفضل استخدامها ضد عدوي الحقيقي". دار حولي ببطء، ولم أستطع حتى أن أدير رأسي لأتبعه. "المحفز. العبد. دائمًا على هامش الأحداث. من كان ليصدق أن سحرة إزاريا البائسين هم أعداء الراي-كيرا - الباندي-غياش، كما يسمونهم، "المحاربون

الخفيون"؟ ألن يسرهم الأمر عندما أخبرهم كيف يجدونكم؟ الراي-كيرا أكثر وعيًا بأحوال عالم البشر الآن. سأحرص على أن أكون هناك لأراقبهم عندما يأتون."

اقترب أكثر. شممتُ رائحة انتقامٍ دمويٍّ تفوح منه. "لكن عليكِ... أن تتخيلي الأمر." كانت الميدالية النحاسية معلقةً بسلسلةٍ فولاذيةٍ، وضعها حول عنقي. كأنها جبلٌ، من ثقلها على صدري. كان التنفس صعبًا، والكلام مستحيلاً. تمنيتُ بشدةٍ أن يظهر كيريل قريبًا... ومعه فيلقٌ من ديرزي.

"تعال معي. الآن وقد وجدتك، حان وقت الخروج من هذا المكان."

رغماً عني، بدأت قدماي تتحركان. رفعت كوريلي وشاحها الأبيض لتخفي وجهي، وأمسكت بذراعي برفق، دون أن تكسر مرفقي. مشينا في الممر والدرج، وعبرنا الأروقة والساحات والممرات. كان القصر يعج بالحركة والنشاط.

كان هناك حماس، ولكن رغم كثرة الحضور، لم يعترض أحد على الخليد. أومأ الكثيرون برؤوسهم وحيوه باحترام. لم أفهم ذلك.

قال أحد الشباب من ديرزي بينما كنا نمر: "ليلة مجيدة يا سيد كيريل".

"بالتأكيد. لمسة من المبارزة على الحواف ستجعلها مثالية."

كيريل... استغرق الأمر مني لحظة لأدرك أنهم ينادون كوريلي باسم كيريل. لم أستطع تحريك رأسي، لكنه مدّ يده ليفتح بوابة، فرأيت لمحة من هيئته. لقد صنع لنفسه قناعًا يُشبه كيريل، مُظهِرًا إياه ببراعة. ورغم أنه لم يكن مثاليًا، ويفتقر إلى براءة ديرزي الشاب، إلا أنه كان كافيًا لعيونٍ لا تتوقع إلا الحقيقة في رؤيتها.

تعمقتُ في نفسي، محاولًا ابتكار أي حيلة قد تُربك الشيطان، لكن مفاجأته كانت كاملة. لم أجد سوى أن أصف نفسي بالغباء، وخمسة آلاف صفة أسوأ. كيف تهاونتُ إلى هذا الحد؟

خرجتُ من بوابات القصر، عبر السور الداخلي، ثم عبر الأسوار الخارجية، إلى مخيمات الخيام المكتظة بالفقراء والمرضى والمجرمين الذين لا يُسمح لهم بدخول زهاغاد. دفعني كوريلي عبر أزقة مظلمة تُضيئها مشاعل صفراء متوهجة، وسط حشود الباعة المتجولين واللصوص، والبغايا والمصابين بالجذام، والماعز والخنازير، إلى زاوية مظلمة كريهة الرائحة من مخيم الخيام. كان المكان هادئًا بشكل غريب مقارنةً بصخب الأزقة. تبع أنينٌ من الظلال صوتُ سوطٍ على الفور.

دُفعتُ إلى قفص خشبي قذر، وركل كوريلي شابًا يبدو عليه المرض كان يرقد نائمًا على كومة من الجلود في إحدى الزوايا. قال: "انزع هذا واربطه بالعمود ليرى سيدك أي فرصة سانحة أحضرتها له. لكن أقسم بحياتك، لا تنزع هذه." نقر على الميدالية النحاسية وانحنى نحو وجه الصبي. "سيتحول إلى وحش إذا نزعتها عنه. سيأكل الجيف مثلك."

نفّذ الفتى ما أُمر به، فربط يديّ إلى عمود طويل، وتفاخر بملابسي المحتشمة وهو ينزعها. عبر كوريلي الحظيرة ليتحدث مع رجل شاحب كالجثة يرتدي سروالًا مخططًا وقلادة من العظام - حارس عبيد من قبيلة فيشتار. تجمد الدم في عروقي. كان الفيشتار يُبقون عبيدهم مقيدين بالسلاسل أو في أقفاص باستمرار؛ يُجوّعونهم ويُشوّهونهم، ولا يسمحون لهم بالكلام أو التفكير أو الحركة إلا إذا كانت عذابًا جهنميًا. زعم الفيشتار أن آلهتهم أمرتهم بمعاملة البرابرة هكذا، بإرهاقهم حتى الموت في الصحراء لتطهيرهم. تطهيرهم. لو كان بإمكاني

لو أصدر صوتاً، لضحكتُ من سخرية الموقف. حتى أسوأ أفراد قبيلة ديرزي رفضوا التعامل مع قبيلة فيشتار، معتبرين إياهم قساة للغاية.

انضم رجل ثالث إلى كوريلي وفيشتار، وسرعان ما أقبلوا عليّ. كان الأمر سيئًا بما يكفي أن أرى خليلد المتفاخر يتفحص ندوبي. كان الأمر سيئًا بما يكفي أن أرى فيشتار يمص أسنانه البنية المكسورة ويمرر أصابعه المتسخة على ذراعيّ وظهري كما لو كان يقرر أين يترك بصماته. لكن الرجل الثالث... كان الرجل الثالث هو من جعل قلبي يموت. كان الرجل الثالث هو ريس. يا صديقي، كيف يمكنك أن تكره إلى هذا الحد؟ في توسلات صامتة، توسلت إلى ريس أن يسمعني، أن ينتظر، أن ينقذ نفسه من جريمة قتل كانت أكثر تعمدًا من قتل غالادون. لكنه لم يسمعني، لذلك حاربت سحر الشيطان بكل ما أملك من قوة، مستحضرًا ذكرياتي، وحبي، وفهمي المتأخر لصديقي. شعرت وكأن وجهي سيتشقق من شدة الجهد أو أن قلبي سينفجر. وماذا تقول عندما تكون كلماتك الأخيرة إلى الأبد؟ بصوتٍ أجشٍّ متقطع، ولساني يحترق من سحر الخليد، وعقلي عاجز عن اتخاذ أي قرار عقلاني سوى ضرورة الكلام، انطلقت من روحي تلك الكلمات القليلة من تلقاء نفسها: "ذات مرة... منذ زمن بعيد... أقسمتَ أن تقطع خصيتيّ. هل حان الوقت؟"

لم يتغير تعبير وجه ريس. لم يتحرك حين زمجر كوريلي ولمس بإصبعه الميدالية، وصرختُ من موجات الألم الحارقة التي اجتاحت عقلي وجسدي. كدتُ أموت وأنا معلقة بلا حراك على العمود. راقبني بوجهه العريض الجامد، بينما كان الخليد والفيشتار يتفاوضان على ثمني. استمع مكتوف الأيدي حين أقسم الفيشتار على إبعادي عن المدينة في غضون ساعة، وأخذي إلى أعماق الصحراء حيث لا يُعثر عليّ أبدًا.

لم ينبس ببنت شفة حين أرشد الخليد حارس العبيد إلى كيفية غرس الميدالية الصغيرة في طوق الفيشتار دون نزعها عني، حتى لا أتمكن من الحركة دون إذن، ولا من استحضار أي قوة. لم يلتقِ ريس بنظري لا في مراقبته ولا في استماعه، فغرقت روحي في ظلام اليأس الدامس.

قال الخليد، وهو يغمز صديقي القديم بينما ذهب الفيشتار ليجلب ذهبه: "سنحصل على ما نريد، أليس كذلك؟ لقد رتبت كل شيء كما اتفقنا. وسادة ناعمة نضع عليها رؤوسنا هذه الليلة. ولا داعي لأن تنتقم انتقامًا فظًا كهذا."

الشتائم. أعتقد أن شعب فيشتار يعرفون كيف يتعاملون مع هذه الأمور بشكل أفضل بكثير من شعب إزار.

مرّر ريس أصابعه بخفة على مقبض السكين عند خصره. قال أخيرًا بهدوء وثبات: "لم تذكر شيئًا عن فيشتار". شعرتُ بحكة في جلدي أكثر من مجرد برودة ليل الصحراء المفاجئة.

"أردتَه أسيراً لا ميتاً. أما أنا فأردتُه عذاباً أبدياً. بدا هذا حلاً مناسباً. وسيكون لدينا كلانا حفنة من النقود لتخفيف معاناتنا."

ابتعد ريس عن الخليد، واتجه نحوي، وكأنه يتفحصني عن كثب. عندها فقط التقت عيناه بعيني مباشرةً... وكانت عيناه السوداوان الباردتان تفيضان استسلامًا. استسلامًا للموت. قال: "سيكون الذهب رائعًا، لكن في المجمل، لا يعجبني هذا الاتفاق". وبحركة أسرع من لسعة نحلة، استلّ خنجره بيد وسيفه باليد الأخرى. وبطرف الخنجر، وبكلمة ربط، انتزع الميدالية من عنقي وألقى بها في النار، وبحركة سريعة غاضبة قطع الحبال التي كانت تقيد يديّ.

انحنيتُ، فقد كان كوريلي سريعًا أيضًا، وكاد سيفه أن يمزق شعري أقصر مما فعل دورغان قط. وبقدمه وضربة مزدوجة قوية بمرفقه ومعصمه، جرد ريس حارس العبيد من سلاحه. دار نصل فيشتار في الهواء وهبط، بمقبضه أولًا، في يدي.

لم يستغرق الأمر منا وقتًا طويلًا. هؤلاء كانوا بشرًا، لا شياطين. كان الخليد ميتًا عند قدمي، إلى جانب حارس عبيد الفيشتار. وخمسة آخرون من الفيشتار، من بينهم الشاب الذي قيّد يديّ، كانوا متكدسين أمام ريس. كان صديقي القديم منحنيًا فوقهم كما لو كان يتأكد من موتهم. قال: "وهكذا انتصرت". نهض ببطء وواجهني. كان الدم يسيل من زاوية فمه، وحتى في ضوء شعلة حظيرة العبيد الخافت، كان وجهه شاحبًا. كان اللون كله على مقدمة قميصه، وكان لونًا غريبًا. أمسكته قبل أن يسقط على الأرض.

قلتُ وأنا أضم كتفيه العريضتين إلى صدري: "لقد انتصرنا. لقد أنقذت حياتي كما وعدت".

هز رأسه. "لم يكن هذا من أجلك. أنت لا تحتاج مني شيئاً. لم تكن تحتاج أبداً. كنت ستنجو من فيشتار. لكن هناك أشياء لا أستطيع حتى أنا تحملها."

"انتهى الماضي. لقد تعلمت—"

لم يدعني أتكلم، بل أمسك ذراعي بيده الضخمة. "لا تُلقي بكل هذا على إيسان. لم تخنكِ أبدًا. لقد أخبرتها" - وارتجف جسده الضخم - "أخبرتها أنكِ أمرتِنا بمغادرتكِ. لأنكِ كنتِ تحتضرين. نجسة. لم أكن أعني أبدًا... قسمي، ظننت أنني ما زلت قادرة على القتال."

أعلم. لا بأس. لقد قادتني دروب القدر إلى حيث لم أتخيل يومًا أن أذهب، يا ريس. كنت محقًا. لقد حاولت إخباري بذلك. لطالما اعتقدت أنني أستطيع فعل كل شيء بمفردي. لكنني تعلمت أكثر من ذلك. حتى هذا، الليلة، أثبتَّ لي ذلك مجددًا. لقد غيّرنا العالم كما قلنا دائمًا.

"ليس كما أردت." أدار وجهه بعيداً، وأفلتت يده وسقطت على التراب.

جلستُ بجانبه لساعةٍ بعد وفاته، أُهدهدُه برفقٍ بينما تغمرني موجاتُ الحزن. "Nevaro wydd, Rhys-na-varain". ارقد بسلام.

استخدمتُ ذهب الفيشتار لاستئجار رجالٍ لنقل ريس وكوريلي إلى القصر، ولحثّ بعض السكان المحليين على تحرير الضحايا المذعورين المحتجزين في أقفاص الفيشتار. كان كيريل قد نبّه الحراس ليحذروا مني، وعندما وصلتُ بجثتين، اكتفوا بإدخالي أنا وأمتعتي عبر البوابة دون طرح أسئلة كثيرة. لم يمضِ سوى دقائق معدودة في ساحة الإسطبل حتى جاء كيريل مسرعًا. بعد أن أرسل جثة كوريلي إلى مكان احتجاز الخليد للتعرف عليها وحرقها، وأمر بلفّ جثة ريس بقطعة قماش نظيفة كما طلبت، صرف الحراس الذين كانوا يحدقون به. "هل أنت بخير؟ أين ذهبتَ بحقّ آثوس؟"

"لقد استرخيت أكثر من اللازم."

"يسعدني أن أراكِ بخير." عبس بوجهه المربع في حيرة، وكأنه لو استطاع أن يضبط عبوسه ليفهم كل ما لم أرغب في الحديث عنه. "سيشعر الأمير بالارتياح. ظننت أنني سأواجه نهاية غير سارة لأمسية رائعة."

قلتُ: "عليّ الذهاب. القمر بدر، والمسافة طويلة. أردتُ فقط أن يعلم الأمير أنه ليس عليه إضاعة وقته في القلق بشأن هذا الخليد تحديدًا.

تذكّر أن تفعل ما طلبتُه منك. أحرق كل ما لمسه الخليد، كل الأسلحة، والجواهر، كل شيء. حتى أغراض اللورد ديمتري وسيف الأمير ألكسندر. بعد ساعة في النار، ستكون في أمان."

"سيبقيك معه، كما تعلم. ليس كعبد، ولا حتى كخادم. بل كرفيقه ومستشاره القيّم."

"هو يعلم أنني لا أستطيع البقاء."

أقر كيريل بذلك. "لكن هل ستسمح له على الأقل بتوفير وسيلة نقل وحماية لك في طريقك؟"

"أفضّل—"

"سيُصرّ. أرجوكِ لا تُعكّري صفو حياتي بالتشاجر حول هذا الأمر." ابتسم لي. "ألا يُمكنني إقناعكِ بالشفقة عليّ كما يفعل الجميع، وأن تفعلي ما أطلبه؟"

بادلته الدعابة. "إزاري يشعر بالشفقة على ديرزي؟ أمرٌ مستبعد. لستُ بحاجةٍ لحماية، لكنني سأكون ممتنًا لحصان. لا شيء فاخر. لستُ فارسًا ماهرًا بما يكفي للسيطرة على أحد ثوارك. وحيوانين لحمل الأمتعة. واحدٌ للمؤن والآخر لحمل صديقي."

"عبر الصحراء؟" عبس كيريل في رعب.

لدينا طرق. أحتاج إلى إعادته إلى المنزل.

"سيتم ذلك. أعطني ساعة. انتظر في ساحة النافورة خلف ضريح درويا. سأحضر لك كل شيء هناك."

"شكراً لك يا سيدي." انحنيت له... كما ينحني الرجل، لا كما ينحني العبد.

مدّ كيريل يده قائلاً: "لقد قدمتم للإمبراطورية - وللعالم - خدمةً لا يمكن وصفها بالكلمات، حتى لو فهمناها تماماً". تصافحنا، ثم انصرف مسرعاً، وأعاد الحراس إلى مواقعهم.

كانت الموسيقى - أصوات مزمار الصحراء البرية تتناغم مع هدير آلة الميلانغار - تتسلل من القصر المضاء ببراعة. كانوا يحتسون الأنخاب ويشاهدون راقصي الدزريلا وهم ينسجون أساطير تاريخ ديرزي. جلستُ في الحديقة الصغيرة خارج غرفة الكهنة وفكرتُ في ريس، وقصص الماضي، عندما كنا صغارًا لا نقهر، وكنا نخرج من الخطر متحمسين ومتألقين، كما كان كيريل، بدلًا من أن نكون متعبين ووحيدين ومشتاقين إلى ديارنا.

انتابني فجأةً شوقٌ جارفٌ للعودة إلى دياري بين أهلي، حتى بات البقاء في الحديقة الصغيرة جهدًا بدنيًا شاقًا. لن يكون الرجوع سهلًا. لم يكن بإمكان يساني أن تُبطل موتي من تلقاء نفسها. مع أنني كنتُ أؤمن بأنها ستُقاتل من أجلي - ولا شك أن كاترين حليفٌ قوي - إلا أن عددًا كبيرًا من أهلي سيُقاومون بشدة انتهاك أقدم تقاليدنا، حتى لو كان ذلك لمجرد استعادة خدمات الحارس الوحيد الباقي على قيد الحياة. ولن يكون هذا التغيير الأخير الذي سيُواجهونه.

وجهنا. العالم... الشياطين وحربنا... ستتغير. كان علينا أن نكون مستعدين.

أما إيسان... فقد كنت أعلم أنها تنتظرني. رافقني حبها إلى أهوال الحرب، وظلّ قويًا لا يلين حتى عدتُ. لطالما كانت موسيقاها لي. ومع ذلك، سنحتاج إلى إيجاد طريقنا للعودة إلى بعضنا، أنا وإيسان. لقد سقطت الكثير من الحجارة في مجرى شغف الشباب، وسيتطلب الأمر بعض الجهد لاكتشاف كيف يجري الماء. قريبًا يا حبيبتي. قريبًا.

لولا ذرة عقل متبقية، لكنتُ انطلقتُ فورًا وركضتُ عبر الصحراء دون توقف حتى أرى وادي ديل إزار العالي. مع ذلك، كنتُ سأقطع الرحلة أسرع وأكثر أمانًا لو توفرت لي وسيلة نقل، ولن أترك ريس خلفي. كان هذا كل ما أستطيع تقديمه له. سيبقى ذنب ريس يثقل كاهلنا أنا ويسان: ذنب يان بسبب مغازلتها الطفولية لصديقي، وذنبي بسبب كبريائي وأنانيتي اللذين أعماني عن حاجته. كنتُ واثقًا منه جدًا. واثقًا من نفسي جدًا. واثقًا من يان. لقد تمردت وتلاعبت بريس، دون أن تظن أنه سيصدقها أو يربط مشاعره تجاهها بمشاكله الأخرى معي. لم يستمع إليه أيٌّ منا، وهكذا نسجنا معًا بيئةً ازدهر فيها ضعفه. لن يغير ندمنا ما حدث، بل سيزيد من مرارة حزننا على ذلك الشاب المرح.

الكثير مما يجب التفكير فيه. الكثير مما يجب تذكره. أسابيع السفر التي تنتظرني لن تكون مضيعة للوقت.

استغرق الأمر ساعتين تقريبًا حتى وصلت خيولي. كنتُ متيقظًا هذه المرة، فسمعتُ وقع الخطوات على الطريق، ووقفتُ على أهبة الاستعداد قبل وقتٍ طويل من دخول الخادم الشاب من بوابة الحديقة، يقود حصانين وعربة. كانت العربة محملة ببراميل الماء وأكياس الطعام الجلدية، وكان أحد الحصانين يحمل حزمة طويلة ملفوفة، مربوطة بإحكام واحترام على ظهره ومغطاة بقطعة قماش مخملية بيضاء. وعلى سرج الحصان الآخر، كان هناك رداء صحراوي أبيض ووشاح. قال الفتى: "اذكر اسم اللورد كيريل لحراس البوابة، وأخبرهم أنك الشخص الذي تحدث عنه، وسيسمحون لك بالمرور".

شكرته، وتأكدت من ربط الأربطة، واستعددت للصعود. ولكن عندما رحل الفتى، كان لا يزال هناك أنفاس قادمة من زاوية الحديقة المظللة.

"هل فكرت في المغادرة دون أن تراني؟"

ابتسمتُ والتفتُّ، لأجد ذلك الجسد النحيل جالساً على نافورة مكسورة، ذراعاه ملتفتان حول ركبتيه، يكاد يكون غير مرئي في الظلام. قلتُ: "لديك الكثير مما يشغلك".

«أكثر بكثير مما توقعته في الصباح». مدّ ساقيه، لكنه بقي في مكانه. «سنذهب غدًا لإنهاء الخليد. سأذهب شرقًا، وكيريل شمالًا، وماراغ جنوبًا، ووالدي غربًا. حتى أنني عدتُ إلى حظوة نقابة السحرة».

"احذر منهم يا سيدي. ليس لديهم سوى القليل من الميليدا، ولا يفهمون كيفية استخدامها بحكمة." صمتُّ. "أنا آسف... دائمًا هناك درسٌ آخر."

"لا تعتذر أبدًا عن قول ما أحتاج إلى سماعه. أنا لست كما كنت قبل أن أعرفك. لقد سقطت إلى أدنى مستوى يمكن أن يصل إليه الإنسان، وأنت رفعتني من جديد. لن أنسى ذلك أبدًا."

"كل ما وجدته فيك كان موجوداً طوال الوقت."

زمجر بسخرية ووحشية. "بالطبع، لقد سببت لي الكثير من المتاعب. لقد اضطررت إلى البحث عن كاتب جديد."

ضحكتُ وعدّلتُ ركاب الحصان. "وليس لديّ وقتٌ لأعطيه دروساً... أو لأحذّره من عاداتك."

"أعارته ليديا. أعتقد أنه سيبلي بلاءً حسناً. هو أيضاً لا يفصح عما يدور في ذهنه، ولكنني لا أعتقد أنه يفكر كثيراً. ستجد بعضاً من أعماله في المجموعة الصغيرة الموجودة على حصانك. راجعها عندما يتوفر لديك الوقت وأخبرني برأيك."

قلتُ وأنا أصعد على ظهر الحصان: "سأفعل. إذا احتجتم إليّ يوماً ما..."

"كن بأمان يا حارسي."

"كن حكيماً يا أميري."

كان يضحك بينما كنت أغادر، عبر شوارع مدينته وإلى الصحراء.

في صباح اليوم التالي، توقفتُ عند نتوء صخري صغير لأنتظر انحسار حرارة النهار الشديدة، ففتحتُ رزمة جلدية ملفوفة لأجد ورقتين

مكتوبتين بخط جميل. كانت الأولى وثيقة مختومة من الوريث المُنصّب حديثًا. نصّت الوثيقة على أنه، رغم وجود علامات ظاهرة قد تُشير إلى خلاف ذلك، فإن الإزاري الذي يحملها رجل حر، لا يجوز احتجازه أو أسره أو إساءة معاملته أو إيذائه بأي شكل من الأشكال تحت طائلة النفي من الإمبراطورية أو الموت. وثيقة ثمينة حقًا. حتى المحارب الأمي لا يُمكنه تجاهل ختم ألكسندر.

لكن الورقة الثانية هي التي أسرت أنفاسي.

استمرار لتاريخ داكراه المجيدة لألكسندر، ولي عهد إمبراطورية ديرزي، كما بدأ في كفرنا واستمر في هذا اليوم الخامس من شهر الثور على يد إيليوس من أفينخار.

بعد هذا التكريس المقدس، وفقًا للطريقة التي حددها السيد الأعلى تايروس عندما بلغ ابنه آثوس سن الرشد في بلاط السماء، أعلن الإمبراطور إيفان زها دينيشكار ألكسندر للشعب ابنه الحبيب وولي عهده، صوت إمبراطورهم ويديه. وبعد أن انصرفوا من مكان التكريس، سأل الإمبراطور الأمير ألكسندر عن الهدية التي يرغب في الاحتفاظ بها لتخليد ذكرى هذا اليوم: خيول أم أراضٍ، جواهر أم ذهب، عبيد أم خمر، نساء أم ألقاب، أو ربما أغاني تُروى عن محنه وانتصاره على خونة الخليد الأشرار.

تأمل الأمير في الثروات المعروضة عليه، لكنه لم يتردد في التعبير عن رأيه قائلًا: "يا أبي الكريم، لدي طلب واحد. في أقصى الجنوب تقع أرض دافئة خضراء كانت تُعرف سابقًا باسم إزاريا. سكنها بعض نبلائكم في السنوات الماضية، لكني أبحث عن موقع مناسب لأبني لنفسي قصرًا، ملاذًا أصطحب إليه عروسي يوم مباركة زواجنا. أرجو منك أن تمنحني جميع ألقاب إزاريا، وأن تعوّض من أُجبروا على النزوح بضعف مساحة أراضي خيليدار أو غيرها من الأراضي الخاضعة لحكمي. سأستلم هذه الأرض في الانقلاب الصيفي، وسأجوب بيوتها لأرى إن كان أي منها يُناسبني. أرغب أن تكون هذه الأرض ملكية خاصة، لا طرق تجارية تمر عبرها، ولا استخدام لأخشابها أو صيدها إلا بإذني، وأن يُنص على ذلك في قانون الإمبراطورية بحيث يسري بعد وفاتي ما دام حكم الدرزي قائمًا."

أبدى الإمبراطور دهشته من طلب الأمير المتواضع، وسروره باهتمام سيدي بتلك العائلات النبيلة التي نزحت بسبب رغبته. وبتوقيعه وختمه، أمر الإمبراطور بتنفيذ كل ما قاله الأمير.

في أسفل هذه الصفحة المكتوبة بخط جميل، كانت هناك بضع كلمات مكتوبة بأحرف بدائية تشبه أحرف الأطفال.

إنه لك. أ.

—«»—«»—«»—

[تم مسحه ضوئياً بشكل مجهول - تم العثور عليه يطفو في الفضاء الإلكتروني كملف نصي] [تم تحويله إلى HTML، وإعادة تدقيقه، واستعادة أكبر قدر ممكن من التنسيق دون وجود كتاب مطبوع كمرجع]

[22 أكتوبر 2005 - الإصدار 1، html]